

2020

1.1.2019

سانتياغو رونكاغليولو

أشدُّ ألم

ترجمة: محمد الفولي

رواية

Alip

سانتياغو رونكاغليولو

أشدُّ ألم

ترجمة: محمد الفولي

MIP

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

2019

SANTIAGO RONCAGLIOLO
LA PENA MÁXIMA

TRANSLATED BY: MOHAMMED EL FOULY

أَشَدُّ أَلَمٍ

أشد ألم / رواية
سانتياغو رونكاغليولو
ترجمة: محمد الفولي
العنوان الأصلي للكتاب:

LA PENA MÁXIMA

Santiago Roncagliolo

Translated by: Mohammed El Fouly

الطبعة الأولى - 2019

ISBN 978-1-988483-85-6

جميع الحقوق محفوظة

MSP

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

Ottawa, ON, Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

Copyrights © Santiago Roncagliolo, 2018

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية
بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما
فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

صورة الغلاف: عبدالله الحميدي

تصميم الغلاف: محمد النبهان

بيرو-إسكتلندا

درس هذا الطريق عشرات المرات: الزقاق، أكشاك بيع مشروب الـ«إيموليتي» رائحة المقلبات، ضجيج الناس. سيمرُّ دون أن يلاحظه أحد وسط متاهة الأكواخ القديمة والأنفاق والعشش في حي بازبوس ألتوس، بل إن حولته الخطيرة -وهي هناك في حقبة الظهر الحمراء التي حملها فوق صدره- ستصبح غير مرئية. ما من مبرر ليلفت الطرد الذي معه الانتباه بين أبواق السيارات وصراخ الباعة الجائلين أو التسارع الرمادي لظهيرة أي يوم سبت، لكن في ظهيرة السبت هذه اختلفت الأمور. تصدرت أعلام بيرو هذه المرة المشهد وهي تتدلى من النوافذ والأبواب، مُعلّقة على النواصي، بلا ضجيج كأنها أكفان بالأحمر والأبيض لمدينة ميتة.

انعطف عند ناصية وصعد عدة درجات. عبّر الباحة الداخلية لسكن مشترك قديم حتى المخرج الآخر. تلقفه صمت جنائزي. حسب أن أحدهم يلاحظه، لكن كل ما سُمع في الباحة كان صوت خطاه وحده. افترض أنه سيعثر في الأمام بلا شك على بعض الأهالي؛ سيصل بعد ناصيتين أو ثلاث -إذا لم تخنه الذاكرة- عند صنوبر المياه. كان الصنوبر الوحيد في الحي بأكمله. ستكتظ منطقته غالبًا بعائلات تملأ الأوعية لغسل الملابس أو لتحميم الأطفال. أمهات صاخبات وأطفال مكفهبون. كان في حاجة لكل نشاط الشارع هذا. الضوضاء هي الملاذ المثالي لمسعاه: مبادلة سريعة وآمنة. عملية

تسليم سرية ومحترفة، بدون كلمات أو حركات مصطنعة: يلتقي رجلان بين الحشود، يتبادلان التحية ويتنقل الطرد من هاتين اليدين إلى تِلْكَمَا ووداعًا. لم تكن المسألة لتستغرق أكثر من خمس ثوان.

قطع هذا الطريق أكثر من مرة وعليه الآن أن يقطعه مجددًا. تنقصه ناصيتان أو ثلاث؛ عند الإسكافي على يساره، عند بائع السجائر في الجهة المقابلة وعند الحبازة السمينة على اليمين. افترض أنه اقترب. سيُسلم حمولته ويختفي خرفيًا. باريوس ألتوس على الأقل مكان جيد لعملية التسليم، فمن المستحيل أن يتعرض للملاحقة في لبلاب الأزقة والمنازل المترابكة الشيطاني هذا. المشكلة أن العثور على هذه الناصية -على الرغم من كل المرات التي درس فيها الطريق- قد استعصى عليه. خاليًا من الحياة وبين أسواره المتلاصقة، بدا باريوس ألتوس، كحي آخر في مدينة أخرى. وحدها السماء بلونها كبطن حمار ذكرته أنه مازال في ليما التي عرفها منذ الأزل.

هل الطريق من هنا؟ أم هناك؟

هناك أمر ما يحدث. أمر غير طبيعي؟ لماذا لا يوجد أحد هنا في الخارج؟ أمّنَ بنعومة على حمولته بين صدره وكتفه وتشمم الهواء. حتى الرائحة كانت مختلفة عن بقية الأيام، لكن أسوأ شيء هو الصمت. وصلت ضوضاء مكتومة لمسامعه من داخل المنازل: قرع لزجاجات، ضحكات ومحادثات. أحيانًا يمر فجأة طفل بزيه المدرسي، راكضًا دون أن يلتفت له. رقدت صناديق جعة خاوية عند الأبواب، لكن في الخارج ليس هناك أي ضجيج، كأنه قبر عملاق مفتوح على الهواء الطلق.

في أي مكان ملعون كان هذا الصنبور؟ ما هو الشارع الذي أخطأ فيه؟ لا وجود للافتات الاتجاهات في هذا المكان. تحركت الحمولة بين ذراعيه.

ألصقها بصدرة بحسم، لكنه حسم ممزوج بالعدوية. سمع صوتًا مألوفًا. جلبة مكتومة تخرج من وراء كل الأبواب المغلقة. كانت في البداية مجرد همهمة بلا هيئة. زئير بعيد، إلا أنها لاحقًا تحولت إلى لحن مزعج وحماسي، غالبًا نشيد الأهمية أو نشيد شيوعي ما. لم يُميزه ولم يرغب في التحقق منه. رغب فقط في الرحيل عن هنا. العثور على صنوبر المياه أو المخرج بحقيقته الحمراء أو بدونها. راهن على تقاطع للطرق وطقطق أذنيه. تعرف على كلمات الأغنية وإيقاعها الجليل والمتباهي. كان النشيد الوطني. لا يُنشده الذين في المنازل، بل يصدر من أجهزة التلفاز.

قال لنفسه: «كرة القدم. لقد نسيت».

بدأ المذيع يعلن عن التالي بعد انتهاء الشيد. هذا أول صوت يُسمع بوضوح وتلقاه بصدر منشرح:

- هذه المرة نعم يا بيرو! يدخل أفضل منتخب في تاريخنا أرض ملعب كوردوبا، مع تشومبيثا في الدفاع، و«الشاعر الأعسر» كويتو في وسط الملعب، و«نيني» كوبيياس في الهجوم. يصل رجالنا إلى مونديال الأرجنتين 1978 وهم في قمة النضج والاستعداد لتحقيق مفاجأة. إسكتلندا خصم عويص للغاية. فازوا مؤخرًا على فرنسا وإنجلترا، لكن منتخب بيرو بكل تأكيد لديه شيء ليقوله لهم.

انطلقت صافرة البداية وبدأ اللاعبون في الركض ومن داخل المنازل حياهم الناس بالتصفيق والتهليل. تنهد مستندًا على حائط عفن بينما يحتضن الحقيبة في صدره: هذا بلا شك أسوأ يوم في التاريخ لتسليم هذه الطليية. استأنف بحثه عن صنوبر المياه. يجب أن يكون في هذه الأنحاء، فالصنابير لا تتحرك من مكانها. من بين النوافذ المواربة وصلت له صور المباراة كأنها ومضات بالأبيض والأسود. ارتدى الإسكتلنديون قمصانًا قائمة والبيروفيون قمصانهم البيضاء المقطوعة بخط أحمر مائل كأنها ضربة سوط على الصدر، بينما جلس سكان باريوس ألتوس أمامهم، داخل بيوتهم، وهم يحتسون الجعة ويعضون على أظفارهم. ينصتون جميعًا لنفس المعلق على أحداث المباراة:

- ها هي إسكتلندا تهاجم مجددًا من اليسار، أي في الجزء السفلي من

شاشاتكم أعزائي المشاهدين. الكرة مع جونستون. يرسلها لميسون. تصدّ غير مكتمل من الحارس كيروغا.. احذروا من جوردان القادم في قلب المنطقة.. هدف. جووول لإسكتلندا! هدف لجوردان صاحب القميص رقم تسعة وصاحب حاسة الفوز المميزة.

علت دمدمة إحباط من المنازل. سبّت بعدها مئات من الأصوات الحكم ومهاجم إسكتلندا وأمه وبيرو أيضا. بدا الأمر كأن غيمة سوداء قد خيمت على باريوس ألتوس، لكنه عثر على صنبور المياه. كان هو بلا أدنى شك، حتى وإن بدا مختلفًا، مخرج للمياه عند ناصية واسعة نسيبًا بمفترق الطرق. في الأوضاع العادية يجتشد الأهالي في ظهيرة السبت حول الصنبور، لكن في ساعة المباراة كانت هذه الناصية تبدو كصحراء مقفرة.

ظن أنه سمع صوت خطوات خلف ظهره، إلا أنه حينها التفت وجد نفسه وحيدًا كما هو الحال دومًا. لم يكن هناك أحد لتسلم الطرد. بدأ التوتر يتسلل إليه، فهذا النوع من الأعمال لا وجود للأخطاء في قاموسه، إلا أنه ارتكب واحدًا، فبين حيرته وغياب وسائل النقل العام كان قد تأخر بساعة. ربما انتظرته جهة الاتصال ثم رحلت لاحقًا، أو ربما قررت الذهاب لمشاهدة المباراة.

اختار أن يترقب وصولها -على الأقل حتى نهاية المباراة- فربما فضّلت جهة الاتصال الانتظار حتى يبدأ صخب الشوارع التقليدي. إذا فازت بيرو سيخرج الحي بأكمله للاحتفال وإذا خسرت فسيخرج الحي بأكمله أيضًا ليندب حظه في الحانات، بمعنى آخر ستستعيد الأجواء وتيرتها المعتادة بعد المباراة على أي حال.

رغب في التحرر من ثقل الطرد في أقرب وقت ممكن، خاصة وأنه شيء لا يمكنه الإبقاء عليه في منزله لحين تحديد موعد آخر. المشكلة فيما سيفعله

حتى نهاية المباراة. شعر بالملل، لذا تسلل خفية بالقرب من نافذة مفتوحة حيث تجمدت عائلة من ثلاثة أطفال أمام التلفاز. يرتدون جميعًا القميص الأبيض المقطوع بخط أحمر وفوق ظهر أحد القمصان طُبِع اسم «كوبياس» بحروف سوداء. ترك إيقاع صوت المعلق يُهدده:

- كوبياس يمررها لبيلاسكيث. رقابة لصيقة لبيلاسكيث الذي يسقط على الأرض. لم يحتسب الحكم شيئًا وينهض ببيلاسكيث. ينطلق نحو الأمام ويعيدها لكوبياس المتواجد على حدود المنطقة. لعبة خطيرة.. كويتو يتسلل بين اثنين من المدافعين ويتسلم الكرة ويواجه الحارس ويسددها ناحية القائم الأيسر و...هدف! جوووووووول لبيرو! كويتو النجم صاحب القميص رقم 8 يصنع سحرًا بقدمه اليسرى والنتيجة الآن التعادل بهدف لمثله!

استيقظت منازل باربوس ألتوس بصياح يصمم الأذان. سُمعت أصوات تصفيق وقطع أثاث ترتطم بالأرض، إلا أن هتاف «هدف» علا فوق أي شيء آخر، صوت واحد تردد في كل الأنحاء كأن السماء قد رعدت به.

اهتزت الحقيبة الحمراء قليلًا من فرط الجلبة وأفلتت بعض النحيب. همهم الرجل قبل أن يعدل من وضعها مرة أخرى فوق جسده:

- لا تقلق. لا تقلق. فلتهدأ.

من بين كل الطرود المحتملة في الكون، اضطر اليوم أن يحمل هذا الطرد تحديدًا؛ طرد بلا اسم أو تعليمات مسبقة أو حتى رقابة. ربما وجب عليه أن يسأل أو أن يحدده أحد مما سينقله، لكن الأوان كان قد فات بالفعل. سيتأكد مستقبلًا من ألا يكررها. هذه هي المرة الأخيرة. لم يعرف إلى أين سيذهب، لكن كل ما يعنيه هو أنه لن يعود لممارسة هذا النوع من الأعمال مجددًا تحت أي ظرف فالآن بات لديه من يجب أن يقف بجانبه. ستتغير كل الأمور في النهاية

وعليه فقط أن ينزع من فوق كاهله حمل هذا الطرد ليتركه بين أيدٍ أخرى.
الخروج من هنا ونسيان الأمر برمته.. إن كان هذا ممكناً.

علت موجة جديدة من الاحتجاجات في المنازل. ترددت كأنها ثورة.
عاد لينظر مجدداً نحو التلفاز. «ركلة جزاء». قالها المذيع عبر أثر ذلك التلفاز
وكل الأجهزة المماثلة الأخرى في بيرو:

- ركلة جزاء لصالح إسكتلندا! إكتور تشومبيثات أوقف هجمة
لريوتش والحكم يشير عند نقطة الجزاء. أوبليتاس وتوريبيو ديات يحتجان
لكن لا أحد سيثنيه عن قراره. يستعد ماسون لركل الكرة.. يسدها ويبعدها
الحارس! كيروغا البطل يتصدى لركلة الجزاء!

هز زئير جديد حي باربوس ألتوس و-رغم ضيقه- ارتسمت ابتسامة
خفيفة على وجهه. فكر مع نفسه: هذا البلد عاجز عن تنظيم نفسه لتحقيق
شيء نافع، لكنه أمام مباراة لكرة القدم يتصرف بانضباط جيش، ربما لهذا بدا
صوت الهواء حيثئذ كأنفجار. قفز كل الذين يشاهدون المباراة في المنزل عبر
التلفاز. ظلوا يصيحون في اللاعبين عبره كأنهم سيسمعونهم، فيما لم يتوقف
الطفل الذي يرتدي قميص كوبياس عن التلويح بعلم بيرو ثنائي الألوان
بصورة جنونية.

رغم حالة الغبطة التي انفكت قيودها، انتبه بصورة كافية لسماح
الخطوات التي تقترب هذه المرة بالفعل في أحد الأزقة. كان على وشك
الالتفات حينما تسارعت الأمور.

- ها هو مونيانتي عبر الرواق الأيمن ويمررها لـ«تشيكييو» دوارتي.
كويتو يطلب الكرة. يتركها «الشاعر الأعسر» لكوبيياس. يسدد كوبيياس
فجأة من خارج المنطقة و.. هدف!! جوووووووووول لبيرو! كوبيياس
وتسديدة مستحيلة على الحارس لترشق الكرة في الزاوية التي يسكن فيها

الشیطان. بیرو تتقدم فی نتیجة یا سادة!

وصل الأمر هذه المرة لدرجة أن الأرض اهتزت، لكن ليس فقط نتیجة للهذيان الجماعي الناجم عن الهدف، بل أيضا بسبب العيار الناري الذي أُطلق، تلك الطلقة التي عبرت بجوار وجهه واستقرت فی الجدار الواقع أسفل الصنبور، بعدما اخترقت الطلاء وحفرت طريقها بین الطوب. ركض فی مسار متعرج كرد فعل. أحكم ذراعيه على الحقيبة قدر استطاعته وفر بین الأنفاق، إلا أنه شعر بطلقة أخرى تدوي وتمر بالقرب من ذراعه قبل انتهاء الاحتفالات بالهدف.

عاد الصمت ليسود خلال الدقائق التالية، لولا صوت تردد تلك الخطوات القادمة من خلف ظهره؛ خطوات متعجلة ومُنذرة. صعد عدة درجات نحو الجانب الآخر من الشارع. انعطف فی عدة أزقة خاوية. أطلق لساقه الريح فی كل الأنفاق التي عثر عليها. ظن أن توغله أكثر فی تلك الأحراش الحضرية، سيجعله أكثر أمناً، إلا أن من طارده -أيا كانت هويته- ليس فی حاجة للركض. فهو على دراية جيدة بالمكان، ويظهر عند نواصي لا يُمكن الاشتباه بها فی ظل سعيه لاصطياده. وبينما يحاول التواري، طفا الصوت من كل المنازل:

- كويتو.. كوبياس يطلب الكرة لكن طالت التميرية جداً. يظهر أوبليتاس من العدم ويتخلص من الرقابة. ينطلق ويركض نحو منطقة الخصم، يصل عند حدودها ويظهر مدافع خلفه.. مخالفة! مخالفة خطيرة جداً على حدود المنطقة. أوبليتاس يحتج ويقول إنهم أسقطوه داخل المنطقة، لكن الحكم قرر احتساب ركلة حرة..

استند على سور صغير ليلتقط أنفاسه. كان يتعرق. شعر بخواء فی معدته. لم يتوقف الطرد الموجود فی حقيقته عن التحرك وخرخر مرة وتعمل

أخرى. قال له:

- من فضلك. اصمت. لا تفعل هذا بي.

خرجت من الحقيبة ضوضاء حزينة. ربما بدت في البداية كمواء قطة في موسم التزاوج، لكن اتضح سريعًا بصورة لا تقبل الشك أنها بكاء رضيع؛ صراخ طفل مرعوب أو جائع يصنع نفس الجلبة التي تصنعها سرينة سيارة الإسعاف.

- من فضلك..

ترجاه بينما يهدد الحقيبة وهو يهمس بتهويدة لم يكن يعرف حتى كلماتها، إلا أن من رد عليه كان المعلق على المباراة:

- ركلة حرة على حدود المنطقة. سوتيل ومونيانتى وكوبياس حول الكرة. يتبادلون الحديث. لا نعرف من سيسدها وها هم خمسة رجال يشكلون الحائط الإسكتلندي.

تزايد بكاء الطفل بمرور الوقت. كان على وشك مواصلة الهرب، إلا أنه تفهم أن الوقت قد تأخر بالفعل؛ فأحدهم قد جذب نواح الطفل وتسلسل نحو السور. أول ما شاهده هو ظل المسدس فوق السطح المتهالك للطوب اللبني. ودلو تفوه بشيء، لكنه حينما أدار رأسه كان كل ما نطقه هو كلمة بالكاد. كان يعرف هذا الشخص؛ أو على الأقل اعتقد أنه يعرفه حتى عثر عليه هنا.

- أنت.. أنت.. لا.

- انزع الحقيبة.

رفع أحدهم صوت التلفاز ومعلق المباراة يقول:

- مونيانتى يركض نحو الكرة ويمررها..

حاول أن يتحاور؛ فربما لم يضع كل شيء، كما حدث في المباراة، حينما كانت إسكتلندا تتقدم:

- اهدأ من فضلك. كل الأمور قابلة للحل.

- قلت لك انزع الحقيبة. اللعنة.

بكفين مفتوحين رجاء أن يهدأ. أدرك أنه يبكي بعدما شعر بالدموع تناسب فوق وجنتيه. خلع الحقيبة الحمراء ببطء ووضعها فوق الأرض وبدون أي تفسير هدأ الرضيع، كما لو أنه ينتظر نتيجة هذه اللعبة.

- أرجوك.. لا..

- اخرس يا أحمق.

- وفي النهاية يسدها كوبيياس على يسار الحارس في الأعلى و..

- لا..

- وهدف! جوووووووول لبيرو! ياله من هدف! الـ«نيني» كوبيياس يصنع التاريخ في أولى مشاركاته بكأس العالم. بيرو 3 وإسكتلندا 1!

خسف هزيم الانتصار في تلك اللحظة بكل أصوات حي بارّيوس ألتوس. لم يسمع أحد - في الوقت الذي استغرقت صرخة النصر بين عناق وقبلات وقهقهة بعلو الصوت - ذلك البكاء المرّ والبائس لرضيع في حقيبة حمراء وبالمثل دوي آخر طلقة في سلاح ناري.

بيرو - هولندا

ورقة وليست بلاغًا.

طالع مساعد الأرشيف فيليكس تشاكالانا مجددًا هذه الورقة وتنهذ بحزن. البلاغ يجب أن يُملأ ببيانات: اسم صاحبه، رقم بطاقة هويته، تاريخ وساعة ومكان وقوع الأحداث المُبلغ عنها. وصف تفصيلي لهذه الأحداث وتوقيع وختم موظف الوردية الذي تلقى البلاغ، في غياب أي من العناصر المذكورة سلفًا تتحول استهارة البلاغ إلى مجرد ورقة.

لا يصطنع تشاكالانا أوهايًا في رأسه. فهو يعرف أن مكتبه هو مكب نفايات كل الوثائق المُربكة والضبابية وغير المفيدة عند السلطة القضائية، فحينها لا يعرف وكلاء النيابة والقضاة ومحاميو الدفاع وكتاب العدل والسعاة والبوابون كيف تملأ استهارة ما، أو حتى إذا تكاسلوا بكل بساطة عن هذه المهمة، كانت تُحال مباشرة إلى الأرشيف أملًا في التخلص منها، لكن حتى في هذه الحالات توجد رسميات يجب احترامها.

اعتاد فيليكس تشاكالانا سالدديار أن يتأكد بتوجس في كل مساء من أنه حفظ كل وثيقة مُستلمة: ملفات المشاحنات العامة في سجل المحفوظات (5ZCB3)، المخالفات المرتكبة ضد الرموز الوطنية في مجلد (6NOF45) والاعتداءات المسلحة في عمر (3BN45). أرشيف السلطة القضائية هو موجز لكل الجنح والجرائم والمخالفات المرتكبة في أي دولة؛ سجل حي

لكل ما يُمكن للمجتمع أن يفعله بصورة أفضل، لهذا كان يستحق الاحترام. على الرغم من هذا، كانت هناك ورقة بلا أي معلومات سوى أنها بلاغ عن «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط بـ.. حدث» وأن اسم المُبلغ عنه هو نيو مومسينو بالديبيا، مكتوبًا بالمناسبة بخط يصعب فهمه. لو أن من أرسلها أحد وكلاء النيابة الموجودين في الأدوار العلوية، فهو لم يشغل باله حتى بتوضيح اسمه أو الإجراءات الواجب اتخاذها. هي كارثة: مخالفة مرتبكة دون رقم وثيقة ولا إحدائيات معينة ولا حتى شرح لفحواها كمخالفة، لذا لم يُمكن حفظها، وما لا يُمكن حفظه لم يحدث عمليًا.

غاضبًا، قرر تشاكاكتانا أن يرفع شكوى ضد من حرر هذه الوثيقة. نهض من مقعده وتقدم بحسم بين رُزم وأبراج الأوراق. خلال أيامه الأولى كمتدرب في الأرشيف افتقد وجود نافذة، لكنه تفهم بعد عام أن رفوف وحزم الملفات ستسد أي نافذة في كل الأحوال. بات الهواء المترب الآن يسعده كأنه عطر منزل دافئ. أيضًا لم يحق له أن يشكو؛ ففي الجانب الآخر من القبو كانت تقع الزنازين حيث يُحتجز المجرمين انتظارًا لجلساتهم. على الأقل فإن نصيبه هو الجانب اللطيف في البدرن، ذلك الذي تحبس الأوراق وليس الأشخاص.

وصل إلى مكتب المدير، في نهاية الطرقة، وعلى الرغم من أن الباب كان مفتوحًا طرق عليه بعقل أصابعه. كان المدير، وهو رجل عمره ستون عامًا وبضع سنوات ولديه صلعة توحى بأنه في السبعين ونظارة تقول إنه في الثمانين، يتحدث عبر الهاتف.

قال ضاحكًا:

- هذا هو الفريق. انتظرته طيلة حياتي. إذا كان معك مالا، فلتراهن به فنحن سنصبح أبطالًا أو على الأقل سنحتل الوصافة. راهن بمنزلك بل وحتى بزوجتك.

أشار لتشاكاالتانا بالدخول.

ككل شيء محيط به، كان مكتب المدير مليئًا برُزم من الأوراق ووثائق مُبعثرة: فوق المكتب وعلى الجدران والأرض. طفحت المساحة الفارغة الصغيرة بدخان تبغ (إينكا) الأسود ومعه رائحة خفيفة غير ملحوظة تقريبًا للكحول. جلس تشاكاالتانا على المقعد الوحيد وانتظر. وجه له المدير واحدة من ضحكاته التليفونية، إلا أنه تجنبها، فقد كان سرًا يعارض استخدام المصادر الحكومية المتوفرة لإجراء مكالمات هاتفية ذات طابع خاص، مثل تلك المرتبطة بدون أدنى شك بكرة القدم. افترض أن المدير ربما يتحدث مع مدرب الفريق الوطني لكرة القدم وأنه على سبيل المثال في تلك اللحظة احتاج لاستشارة بخصوص سجل ما في الأرشيف. لا يُمكن استبعاد أي احتمال.

واصل المدير حديثه:

- وأهداف كوبياس! أستاذ! يا لمهارته!

أغلق المدير الخط بعد عدة دقائق من الضحك، لكن الابتسامة لم تنمح من على وجهه. كانت أسنانه مُبقعة بالتبغ:

- يا بني! ما الذي لديك لتقوله لي؟ كيف بدا لك الأمر؟

تساءل مساعد الأرشيف فيليكس تشاكاالتانا إن كان المدير يتحدث عن التقصير الجلي في ذلك البلاغ منقوص البيانات، لكن هذا كان صباح يوم الاثنين والمدير لم يكن معتادًا على الحديث بخصوص العمل، بل إنه لم يعتد أساسًا على الحضور قبل ساعة الغداء.

- سيدي؟

- أتحدث عن المباراة يا بني! هل قلت مباراة؟ أقصد بالطبع عمل يوم

السبت الفني. الملحمة!

لم يعرف تشاكالانا كيف يرد، لذا تتم قائلًا: «جيدة. جيدة للغاية»، لأنه اعتقد أن المدير ينتظر هذه الإجابة.

- عليك أن تخبرني أي هدف أعجبك أكثر. أنا أجري استطلاعًا للرأي.

- أي هدف؟ ال... الأول..

تغيرت نظرة المدير ليكسو الاندهاش وجهه:

- كيف لك أن تقول الأول؟ الأول كان لإسكتلندا!

- أقصد الأول ل... ألياننا ليا؟

تحول تعبير اندهاش المدير حينها إلى حالة من الذهول ثم تلا عبارته التالية ببطء:

- يا فتى.. بيرو تلعب مونديال 1978 في الأرجنتين. هل تعرف هذا الأمر أم لا؟

لم تشغل كرة القدم أي حيز في العالم الذهني لفيليكس تشاكالانا، أو أنه لو كان لها أن تشغل مكانًا لأصبحت بجوار المكان المخصص لحيوانات خُلد الماء والحيوانات الشقباتية، أي بعيدًا للغاية عن كل ما يهمه وغاية في البعد عن بلاغه المُحرر بصورة سيئة. حينما تذكر أنه ما يزال في يده أشهره في الهواء، كأنه سلاح لجريمة ثم بدأ يشرح:

- عثرت على هذا البلاغ فوق مكتبي وتظهر به عيوب شكلية وإشكالية خطيرة يا سيدي.

افترض القلق الآن مُحميا المدير قبل أن يجيبه:

- نعم يا بطل، لكنك تعرف أن بيرو تلعب في المونديال. صحيح؟

- بالفعل يا سيدي. الآن بت أعرف. شكرا جزيلاً. بخصوص البلاغ.

ضد السيد نيوموسينو بالديبيا، فقد أحيل لي دون توافر الخصائص التي تنص عليها اللوائح، بصورة يستحيل معها التقدم في الإجراء الإداري المتبع للتسجيل والأرشفة، لهذا يجب أن أبدي..

- كم عمرك يا نمر؟

لم يتمكن مساعد الأرشيف فيليكس تشاكالانا من الرد. كان سؤالاً يحمل طابعاً شخصياً بشدة وغير مناسب بالمرّة، حتى وإن كان مصدره رئيسه، لكن المدير لم يكن في حاجة إلى إجابة. هز رأسه يميناً ويساراً وتابع:

- فيليكسيو.. أنت في حاجة إلى حياة؟ أليس كذلك؟

- سي.. سيدي؟

- وناديني بأرتورو. نحن في مجمع المحاكم ولسنا في سلاح المشاة.

- حسناً يا سيدي.

- أرتورو.

- حسناً يا سيدي.

- أنهيت الجامعة للتو يا بني ووقعنا بالفعل أول عقد لك. الآن عليك أن تعيش حياتك نوعاً ما. شاهد كرة القدم. تناول الجعة. فز لنفسك بعشيقه. ستحظى بوقت كافٍ في المستقبل لتكون مملاً بهذه الصورة.

- لكن الإهمال في ملء بيانات الوثائق يؤدي إلى تبعات مؤسفة في..

كانت عينا المدير مغلفتين. تساءل تشاكالانا إن كان قد نام، وكأنه يكذب ظنونه، خلع المدير نظارته وبدأ ينظفها بربطة عنقه متململاً.

- حسناً. هيا. قل لي. ما هو موضوع بلاغك هذا.

ابتهج تشاكالانا بعدما استشعر أنه أخيراً سيجري التعامل مع المسألة

- «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط بـ.. حدث».

صمت المدير بعدها لفترة طويلة قبل أن يتابع:

- ترتبط بحدث؟

- بالفعل.

- لكنها مخالفة في الجوازات؟

- صحيح.

نفخ المدير بإرهاق:

- أووف! يجب أن نسأل الجيش.

- تحرياً للدقة يا سيدي، يجب أن نسأل أفراد شرطة الجمارك..

- الجيش. الأمر سيان يا بني. في هذا البلد حتى وزراء الزراعة من

العسكريين.

تفهم تشاكالثانا الحمل المهني الإضافي الذي قد تشكله المسألة:

- إذا سمحت لي، يمكنني أن أسألكم بنفسي يا سيدي. قد أنهي

الإخطارات التي تتطلب توقيعك عصر اليوم، وأبدأ عملية إرسالها في الغد.

كان يرغب في أن يصبح نافعاً، إلا أنه قبل أي شيء آخر يرغب في كتابة

الإخطارات. ما من أمر يُسعد فيليكس تشاكالثانا سالدديار أكثر من صياغة

أنيقة لإخطار قانوني.

لم يبد المدير أي حماس بخصوص مقترحه. أنهى تنظيف نظارته والتي

ظلت -كمعجزة- على نفس القدر من القذارة ثم قال:

- يا بني.. أتعرف كم يكسب كل موظف من الموجودين هناك في الأعلى؟ أتعرف كم ستكسب أنت نفسك حينما تنتصر في حياتك وتحصل على مركز مهم في القطاع العام؟

- لم ترتبط دوافعي قط بالجوانب المادية يا سيدي. أكبر مكافأة بالنسبة لي هي خدمة وطني..

قاطعته المدير بهدوء:

- خراء. ما ستكسبه هو مجرد خراء، مثلي ومثل كل الموجودين هنا، لهذا من الطبيعي أن يمل موظف ما أمام حالة مثل.. ما الاسم الذي قلته؟

- «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب.. حدث».

- من الطبيعي في حالة مثل هذه -تتطلب مجهودًا كبيرًا ولا تهم كثيرًا- أن يسعى مهممل ما للتخلص من هذه الورقة، لهذا تخلص منها أنت الآخر. ألا تقول إنها مليئة بالأخطاء؟ الأمر محلول: أنت لم تتسلمها. إن لم يضع أحد اسمه فوقها، فلن يأتي أحد ليسألك عنها. هذا هو درس الحياة الذي تعلمته اليوم.

بدأت كلمات المدير لمساعد الأرشيف تشاكالانا كأنها تجديف في حق الرب:

- لكن يا سيدي. أنا أوصي بفتح تحقيق للتوصل دون أدنى شك للشخص الذي كتب ال...

بدأ صبر المدير ينفد:

- أليس لديك عمل لتقوم به؟

سارع مساعد الأرشيف بالرد:

لا يا سيدي. حفظت كل الملفات المتأخرة منذ سبتمبر 1976، وأنشأت نظامًا جديدًا لترتيب الوثائق، ووسعت سجل الحوادث الجانبية، وطلبت أدوات مكتبية جديدة من أمانة العاملين.

- جيد.

قالها المدير دون إخفاء دهشته:

- جيد جدًا. إذًا لدي مهمة جديدة لك.

- سيدي؟

- ابحث لنفسك عن تلفاز.

- أعتقد أنه ليس من الـ...

- ابحث لنفسك عن تلفاز واجلس أمامه ولا تتحرك من مكانك هذا حتى مواجهة هولندا يوم الأربعاء.

- سي...دي؟

- وابحث لنفسك عن حبيبة يا نمر أو شيء من هذا القبيل.

- لكن..

- وهذا أمر. يمكنك أن ترحل.

هنا نهض تشاكالтана دون اعتراض.

أخطأ المدير في شيء ما، فتشاكالтана بالفعل لديه حبيبة أو شيء من هذا القبيل، لكنها لم تكن حلًا لمشكلاته في تلك اللحظة، بل أسوأها.

قضى فترة العصر وهو يكتب إخطارًا لطلب تلفاز من الإدارة. كانت السادسة حينما فرغ من المسألة والمدير قد رحل عن مكتبه بالفعل. ترك تشاكالثانا الوثائق لتوقيعها فوق منفضة سجائر كبيرة يبدو أنها تستخدم كدرج للملفات قيد الدراسة والبحث. أخذ بعدها وشاحه. دخل الحمام ليصفف شعره ثم وضع منديله في جيبه. بمجرد أن فرغ من هندمة نفسه قطع القبو ثم صعد الدرج ليعبر الطرقات الطويلة لـ«قصر العدل» قبل أن ينزل على درجات مدخله الضخمة المحمية عند الجناحين بأعمدة مهيبة وأسدين منحوتين. حينها فقط وصل للعالم الحقيقي. استقبلته جادة «منتزه الجمهورية» بضوضاء أبواق السيارات وروائح الطعام وهتافات السائقين المتوترين. تصادم المارة حوله فيما بينهم؛ وكل منهم يسير في اتجاه عكس الآخر. اختلط الدخان المنبعث من مواسير العادم مع لون سماء ليما والواجهات القديمة لبنايات قلب المدينة التاريخي.

كان تشاكالثانا يجب عمله لهذا السبب تحديداً: التباين؛ فهناك في الأسفل، في قبوه، محميًا بالورق، كان إرساء نظام ما أمرًا ممكنًا، وكذا تنظيم الحياة في صورة أفعال وفاعلين وتبعات، لكن في الخارج ووسط ربكة المدينة فإن الفوضى المطلقة هي ما يحكم، ولهذا كان يشعر بنفسه خارج المكان. وسيلته لتسلية نفسه فور الخروج من العمل هي صياغة بلاغات داخل ضد مواطنين يراهم في طريقه، إذ كانوا جميعًا تقريبًا ينتهكون واحدة من اللوائح الأساسية للتعايش. سلك تقاطع كارابايا ومر بجوار ساحة سان مارتين. كست أوراق الدعاية الانتخابية واجهات المباني التي تساقط طلاؤها باختصارات عجيبة: «PAP» و«FOCEP» و«FRENATRACA» و«PPC». لم يسبق وأن شهد تشاكالثانا قط أي انتخابات منذ بدأت ذاكرته في التشكل. بدا له انتشار اللافتات الدعائية ومظاهرات الشوارع كمثل آخر على الفوضى الحضرية، تمامًا مثل القمامة المتراكمة على النواصي. وصل الأمر لدرجة أن

أحد المرشحين في اللافتات كان يحمل بندقية في يده. فكر تشاكالтана في أنه ربما يجب عليه تقديم بلاغ ضد السياسيين بوجه عام بتهمة التشويه وضد هذا المرشح بصفة خاصة بتهمة إعلاء رموز معادية للوطن.

عبر ميدان «لاس أرماس» ثم تفادى دبابة. سار بمحاذاة «قصر الحكومة» حتى محطة «ديسامبارادوس» للقطارات ثم دخل إلى حانة «كوردانو» وجلس فوق طاولة. طلب عصير البابايا قبل أن يخرج نسخة من جريدة «البيروانو» الرسمية. حاول القراءة بينما ينتظر صديقه، لكنه عجز عن التركيز؛ كان يقفز من فوق مقعده تقريباً في كل مرة يدخل فيها أحدهم إلى الحانة. شعر بالتوتر من تلك المحادثة التي تقترب لدرجة أنه عجز عن تمييز أي نوع من المحادثات قد تكون. ما فكر حتى في كيف سيبدأها ولا ماهية ما سيسأل عنه. كل ما عرفه هو أن خواكين هو الشخص الوحيد الذي يُمكن أن يجربها معه، ففي نهاية المطاف هذه أمور تخص الرجال.

كان خواكين كالبو هو أفضل أصدقاء فيليكس تشاكالтана سالدبيار إن لم يكن صديقه الوحيد، فمنذ بدأ الأخير عمله كمتدرب في الأرشيف تميز خواكين بكونه مستخدماً مثاليًا، فهو يصل في تمام الساعة التاسعة والرابع بدقة بريطانية، يطلب الملفات بتتابع أبجدي ويسجل المعلومات بعناية في دفاتر بحواشٍ مجهزة بحروف صنعها بنفسه. يملأ بطاقات الفهرسة ثم يلزقها لاحقاً بالدفاتر قبل أن يترك كل وثيقة في مكانها عقب كل زيارة للأرشيف. كان تشاكالтана يفكر: لو أن كل مستخدمي الأرشيف مثله، لو أن كل البيروفيين مثله، لأصبح حال هذا البلد أفضل.

ولما كانت هذه أول مرة لا يصل فيها خواكين في مواعده، قرر تشاكالтана أن يلهي نفسه بالاستماع للمحادثات الدائرة في حانة «كوردانو». كرة القدم. كرة القدم. افترض أن صداقته مع خواكين سببها أنها المواطنان

الوحيدان في بيرو اللذان لا تستهويهما كرة القدم. كانا يتناولان الغداء معًا مرة أو اثنتين في الشهر - حينها يزور خواكين الأرشيف - لتدور محادثاتها داخله حول مشاغل الحياة اليومية وبالمثل يلتقيان في عطلة كل أسبوع في عمر «الشهيد أولايا» للعب الشطرنج. لم يتحدثا قط عن شؤون شخصية لأن فيليكس تشاكالثانا يفتقر عادة لأي شؤون شخصية. المشكلة الآن أن أحدهما قد طرأ له الآن وخواكين هو الشخص الوحيد الذي يقدر على تشاركتها معه دون أدنى شك.

في الأساس، كان تشاكالثانا يرغب في الزواج. فهو مغرم بفتاة تعمل بالقرب من قصر العدل: سيسيليا. يخرج معها منذ عدة أشهر، ويرى أن اللحظة قد حانت لإكساب علاقتها طابعًا رسميًا، ما يعني وجود مشكلتين: كيف يطرح المسألة عليها؟ والأصعب من هذا: كيف يطرحها على أمه؟ خواكين - بسنواته الأربعين - كان رجلًا أكثر خبرة من صديقه الشاب وبسبب عمله كأستاذ جامعي اعتاد على التعامل من طلاب في نفس عمره. افترض تشاكالثانا أنه سيساعده لحل الشكوك التي تأكله من الدخل.. هذا إن وصل. نظر إلى ساعته. تأخر خواكين عشرين دقيقة. ربما تعرض لمشكلة، فقد لاحظ يوم الجمعة أنه كان متوترًا في الأرشيف، بل وربما شاحبًا، إلا أنه على الرغم من هذا أكد لتشاكالثانا أنه سيحضر يوم الاثنين لحانة (كوردانو) في السادسة والرابع؛ الأمر الذي يعني دومًا أنه سيصل في السادسة وعشر دقائق.

تفهم تشاكالثانا في السابعة والنصف - وبعد كوبين من عصير البابايا وآخر من الأناناس - أن صديقه لن يصل أبدًا. سدد الحساب ورحل. لم يتمكن من قراءة ولو خبر واحد من جريدته الرسمية. في الخارج، في ساحة قصر الحكومة، كان يجري تغيير خدمة الحراسة، كما يحدث يوميًا.

- فيليكس تشاكالانا سالديبار. لقد وصلت متأخرًا.

اعتادت أمه على مناداته بهذه الطريقة: باسمه واسم أبيه ولقبه، كلما رغبت في توبيخه.

- آسف يا أمي. الخروج من وسط المدينة صعب. أنت تعرفين هذا بالفعل.

لو ذهب مترجلًا، لوصل حقًا بصورة أسرع لمنزله في سانتا بياتريث، لكنه قرر ركوب الميكروباص لتأخير هذه اللحظة. كانت الحركة المرورية في تلك الساعة أشبه بطواف ديني بطيء لمحركات مصابة بالسبل تسعل وتجدف في حق خالقها وهي تتحرك. على الرغم من جهوده لتأخير عودته، كان لا بد وأن يصل، لكنه ليس الوحيد الذي وصل. قالت له أمه:

- صديقتك في الداخل.

كانت سيسيليا تجلس على أريكة الصالة القديمة وأمامها كوب من الشاي، ولكي يزداد رعبه اكتشف تشاكالانا أنها ترتدي تنورة شديدة القصر، وهذا أكثر بكثير مما تقدر أمه على تحمله. حاول ألا ينظر باتجاه ساقها وهو يحببها وأن ينهي قبلته عند مقرن شفيتها بأكبر برود ممكن وهذا لأنه طيلة ستة شهور قضياها معًا لم يقدم على أدنى محاولة لتخطي الحدود، لكنه ليس مصنوعًا من الفولاذ، ففي كل مرة تنخر الرغبة روحه من الداخل، حينما يستقلان سويًا حافلة مزدحمة للغاية، كان يصعب عليه إخفاء ذلك البروز في سرواله، وفي الوداع يقمع ذاته لكيلا يقبل شفيتها بعمق.

تمت أمه بصوت جاف:

- وأنا ليس لي تحية أنا الأخرى؟

- اعذريني يا أمي.

قبل تشاكالтана جبهة أمه وجلس أمامها على الأريكة بجانب سيسيليا دون أن يلمسها. صبّ لنفسه كوبًا من الشاي واحتسى رشفة أحرقت لسانه. أعاد الكوب للمائدة. غرقت الصلاة في صمت مطلق باستثناء الضوضاء التي أصدرها هو بإبريق الشاي والطبق الصغير. حاول كسر الجليد، إلا أن الحديث عن بلاغ ذلك الصباح بدا له خارج الإطار. حينها تذكر محادثته مع المدير والحوارات التي جرت في حانة «كوردانو». تنحنح لتسليك حنجرتة ثم قال:

- كانت هناك مباراة لكرة القدم.

أخذت الفتاة خيط الحديث:

- نعم. احتفل الجميع في منزلي كالمجانين بفوز بيرو.

احتجت أمه:

- كرة القدم! لم يحضر القداس بالأمس ولو رجل واحد. كانوا جميعًا

يشاهدون مباراة ما. يا للفظاعة!

أجابتها سيسيليا مبتهجة:

- لكنهم جميعًا أكثر سعادة وهذا يروق لي.

- ما يبعد الإنسان عن ربه لا يجعله سعيدًا بحق.

أصدرت الأم حكمها وعاد الصمت بعد كلماتها ليسقط مجددًا فوق

الصلاة كعباءة سوداء.

تفحصت عينا سيسيليا زينة المنزل. بخلاف تماثيل المسيح مصلوباً وصور القديسين، امتلأ المنزل بتماثيل من البورسلين الرخيص ولوحات زيتية لمناظر طبيعية لغابات أوروبية ومذابح خشبية على طراز مدينة أياتشوكان. توقفت نظرات الشابة عند صورة عائلية بإطار من الفضة كانت تحتل بمفردها مائدة صغيرة. كانت صورة لضابط بحري بزى الاحتفالات الرسمية. تأبط الضابط ذراع فتاة لها مظهر ساذج تحمل طفلاً. عرفت سيسيليا كيف كان مستضيفها يبدوان من ربع قرن، حينما كانت تلك العائلة تتألف من ثلاثة أشخاص. سألت سيسيليا:

- الرجل صاحب الزي العسكري هو السيد تشاكالانا؟

أجابها فيليكس: «لا»، لكن أمه قالت في نفس الوقت «نعم».

ارتسمت نظرة تأنيب خفيفة في عيني الشاب قبل أن يغمغم:

- هذا لأنني لا يروق لي امتلاكنا لهذه الصورة.

- يستحق مكانا مُشرقاً في هذا المنزل كأبي وأب والأخص بعد حادثته

الفضيحة..

انكسر صوت الأم بينما تتحدث ورفعت يدها نحو عينيها كأنها ستمسح

رمصاً، ما أثار اهتمام سيسيليا لتسأل:

- هل توفي؟

لكنها حينما لمحت استياء تشاكالانا عدلت من نبرتها مضيفة:

- .. هذا إذا كان بإمكانني أن أسأل.

أجابها تشاكالانا بنفور: «هي قصة طويلة»، ثم حاول إعادة السهرة

لمجراها:

- اليوم سنذهب إلى السينما يا أمي الحبيبة.

- وأي فيلم ستشاهدانه؟

أجابت سيسيليا:

- «حمى ليلة السبت».. من بطولة جون ترافولتا. الفيلم عن الرقص.

اختلج تشاكالтана من الداخل، فكلّيات «حمى» و«ليلة» و«رقص» لم تكن تنبئ بشيء جيد على الإطلاق وهنا هجمت أمه:

- اليوم هو الاثنيّن. أعتقدان أنها ليلة مناسبة للخروج؟

- سنكون بالقرب يا أمي الحبيبة. سينما «روما» ليست بالبعيدة.

- أيوافق أبواك على هذا؟

رفعت سيسيليا كتفيها:

- حسنًا.. نحن في السبعينات.

- الوقار والأخلاق لا يتيمان إلى عالم الموضات المتهية أيتها الشابة الصغيرة.

- الأمر لا يتعلق بالأخلاق، بل..

نهض تشاكالтана فجأة من مجلسه:

- حسنًا أعتقد أن ساعة الرحيل قد حانت. لا نرغب في أن تضيع علينا

بداية الفيلم. أليس كذلك؟

احتجت سيسيليا:

- ما تزال تنقص نصف ساعة. كنت قد أحضرت لك شريط كاسيت

الفيلم، لكن حسنًا سنشغله غدًا.

- لن تتمكني غداً من الحضور. أنا لن أكون موجودة.

أصدرت الأم فرمانها وقبل أن ترد سيسيليا تمكن تشاكاللتانا من الإمساك بيدها حتى اقتادها نحو الخارج. بداله هواء الشارع أكثر إنعاشاً من أي وقت مضى. قطعاً معاً ثلاثة مربعات سكنية في صمت وسارت تشاكاللتانا على الجانب الخارجي من الرصيف كما يجب على أي رجل شهيم. كانت سينما «روما» ضخمة وفارحة بل -ورغم أنه يوم الاثنين- ممتلئة عن بكرة أبيها. كانت كل نساء القاعة يتنهدين مع أي حركة للبطل، بل أن الفيلم كاملاً مخصص لتلميعة. جون ترافولتا يتواثب على المسرح على وقع أغنية (Stayin' Alive)، جون ترافولتا -شاب في مثل عمره، يرتدي سترة وقميصاً بياقة كبيرة وسروالاً ضيقاً- مع أغنية (You Should be Dancing)، جون ترافولتا يرفع سحب سرواله ويصفف شعره ويحمل فتاة أسفل كرة تشع نوراً ملوناً. شعر فيليكس بألم في فخذه من مجرد مشاهدته للأمر، إلا أنه شعر جواره بتصاعد أنفاس سيسيليا في حركة عذبة، كأنها خرخرة قطة.

بعد انتهاء العرض، حينما رافقها لمنزلها في حافلة نصف خاوية، بدأت تتحدث بلا توقف. كانت تشرق فرحاً:

- يا لطريقة رقصهم! رأيت هذه الفساتين؟ ألا يفترض أن يوجد ملهى مثل هذا في ليا؟
- صحيح.

أجابها فيليكس وهو يفكر في أنه من الأفضل ألا يوجد، ثم أضاف لإبداء وجهة نظره المهنية:

- لكن يجب أن يغلق في أوقات حظر التجوال.
ضحكت سيسيليا ليدافع فيليكس عن نفسه:

- على ماذا تضحكين؟ هذا هو القانون.

- أنت كللك على بعضك هكذا. صحيح؟ تميل لتحليل كل شيء.

امتعض لكنها نظرت له بتحدي:

- أنا واثقة من أنك لن تقدم أبدًا على ارتكاب فعل مجنون؛ كالرقص

أمام العالم بأكمله أو.. لا أعرف. أي شيء مجنون.

- أنا قادر على ارتكاب فعل مجنون.

- حسنًا. كلي آذان صاغية.

بدت سيسيليا تحت أضواء الحافلة الخافتة غاية في الجمال. لم تكن

طويلة، إلا أن ساقها كانتا تبدوان طويلتين وناعمتين إلى ما لا نهاية. أوشك

تشاكالانا على طلب الزواج منها هنا في التو واللحظة دون أي توطئة، لكنه

بعدها عاد إلى رشده:

- سأفعلها في الوقت المناسب.

مازحته:

- لا توجد لحظات مناسبة لارتكاب الأفعال الجنونية.

- يوم الأربعاء.

- يوم الأربعاء ماذا؟

- يوم الأربعاء سأقدم على ارتكاب فعل مجنون. أعدك بهذا.

أهدت له نظرة لعبوية:

- حسنًا. سأنتظره. فعل مجنون دقيق ومحسوب بعناية.

ابتسم وعجز عن تجنب تضرج وجهه بالحمرة في الوقت الذي ظهرت

فيه من النوافذ منازل حي خيسوس ماريا قبل أن تسأله فجأة:

- ما هي قصة ما حدث مع أبيك؟

رغب تشاكاللتانا في أن يحكي لها.. ذكرياته السيئة، كل هذا العنف، بل وحتى ألسنة اللهب التي التهمت منزله. رغب في أن يقص عليها رحلته إلى ليا لينأى بنفسه عن الماضي وتعلقه لاحقاً بأمه. افترض أن هذه أمور يجب على سيسيليا أن تعرفها، لكنها وصلا في هذه اللحظة إلى المحطة واضطرا للتزول من الحافلة. قطعاً المربعات السكنية الثلاثة في صمت. أمسكت بذراعه حينما كانا قوب قوسين أو أدنى من باب منزلها:

- هل يمكنكني أن أوجه لك سؤالاً؟

- بكل تأكيد.

- هل يجب أن تكون أمك حاضرة في كل مرة نرى فيها بعضنا؟ الأمر مزعج.

- هي لن تقبل تركنا وحيدين في المنزل. احتراماً لك قبل أي شيء وبسبب ما قد يقوله الناس.

- من الذي قد يقول شيئاً ما؟ لا يوجد أحد آخر في منزلك.

- حسناً.. ربما بسبب ما قد تظنه هي.

- أعتقد أنني لا أروق لها.

- لا!! أنت بكل تأكيد تروقين لها.. هي هكذا. تبدو أحياناً صعبة المراس، لكنك سترين أنها ليست هكذا.

- أتظن هذا؟

- أنا متأكد.

لم يكن متأكدًا في الحقيقة، بل على النقيض تمامًا: سيسيليا لم ترق لأمه قط. لم يكن هناك أحد ليروق لها غالبًا، خاصة إذا كان سيعد ابنها عنها، لكن تشاكالانا كان قد بات رجلاً بالغًا بالفعل، رجلاً له مركزه. سيحب عليه الآن تنظيم الأمور في بيته. عانقته سيسيليا في لحظة الوداع. اندهش، لكنه استمتع باللحظة. سألته:

- ستقدم يوم الأربعاء على ارتكاب فعلتك المجنونة؟

- صحيح. يوم الأربعاء. فعل مجنون دقيق ومحسوب بعناية.

ابتسمت ووجهت قبلة مباشرة نحو فمه. تفادها لكن لكيلا يبدو صفيقًا ترك شفيتها تلامسان، مفترضًا أنه بعد يوم الأربعاء سيصبح لديها كل الوقت الكافي لدفقات أخرى من المشاعر.

- من؟

انحنت موظفة الشباك برأسها نحو تشاكالтана بعد السؤال وهي تتفحصه بتشكك.

- كالبو. خواكين كالبو. أستاذ علم الاجتماع.

قاطعته بعد أن تفحصت عدة أوراق على مكتبها:

- لا يقدم اليوم استشارات للطلبة. فقط الأربعاء والجمعة من كل أسبوع.

- لست طالبًا عنده. أنا صديقه.

أنزلت الموظفة نظارتها حتى أنفها لتزدريه من علو. ضغطت بذقنها على لغدها. تشكل انتفاخ في رقبتها يشبه البيغاء، لكنها وافقت في النهاية على إجراء مكالمة هاتفية. بدأت مجموعات الطلبة في الخروج عبر الرواق باتجاه ساحة «فرنسا» بينما كان تشاكالтана منتظرًا. كان إهمال كثير منهم لنظافته الشخصية أمرًا جليًا: شعر طويل غير مصفف، لحى كثيفة ونظارات مستهلكة من الباغ. ارتدى بعضهم سراويل متسعة كأنها أقدام فيل وشاعت التنانير القصيرة بين البنات. شعر تشاكالтана أنه في مكانة أعلى حينما رآهم، مع بدلة التصفيات التي يرتديها، هي وربطة عنق جده والوشاح الذي حاكته له أمه. شعر بكونه بالغًا.

قالت له موظفة الاستقبال بعد إغلاق الخط:

- الأستاذ كالبو لم يحضر اليوم.

- وهل من سبب يا آنسة؟

كانت قد أدارت له ظهرها بالفعل إلا أنها التفتت له بصورة بسيطة لتتخلص منه:

- ليس لدي أي معلومة يا سيدي.

- إذا لم يكن في الأمر إزعاج لك، هل أفترض أنك بكل لطف قد تتحقي من المسألة؟

رفعت يدها في إشارة ازدراء.

قبل أن يسمعها، كان تشاكالثانا قد تساءل عن ماهية ما قد يفعله خواكين نفسه في موقف مثل هذا. كرر صديقه دومًا على مسامعه أن المعجزات تتحقق بالسلوكيات الجيدة وصنعة اللطافة. كان أحيانًا يلقي بكلمة ماكرة هنا أو هناك مع بائعة اليبسي. حاول تذكر واحدة من جملة ونجح:

- أظن أن الملائكة مثلك في سمائهن منشغلات للغاية، لكن لن يصنع فارقًا أن تهبطي لفترة قليلة لصنع جميل لمحبوبك.

تضرج وجهه بالحمرة من مجرد قولها. ندم على الفور. تخوف من فكرة أن يكون قد تصرف بحماقة، لكنها على الأقل عادت. نظرت له في البداية بوقاحة - من أسفل لأعلى - ثم اهتز جسدها لاحقًا من الضحك. كانت مكتنزة نوعًا ما.

- أكانت هذه مغازلة؟

أجابها تشاكالثانا بإصرار:

- من المهم أن أعثر على الأستاذ كالبو.

ظن أن إكساب الأمر أهمية ستكون نافعًا قبل أن يضيف:

- أتعاون معه بصورة نشطة في أبحاثه.

- أنا في مثل عمر أمك يا فتى.

- لا. وصدقيني حينما أقولها لك.

تهددت المرأة مستسلمة، لكن عمق لمعان أهدافها المخضبة بالسواد كان يوحى بشيء ما، مثل التواطؤ.

- الأستاذ أبلغ عن إجازة مرضية الأسبوع الماضي ولم يأت منذ ذلك الحين.

هو مريض إذًا. بكل تأكيد. هذا يفسر كل شيء.

طيلة وريدته، التي أنشأ فيها قسمًا فرعيًا جديدًا لمخالفات المرور، ظل تشاكالтана ينتظر أن يظهر خواكين في الأرشيف، فقد آله تخلفه عن مواعده في اليوم السابق، إلا أن أكبر مشاكله الملحة حقًا هي رغبته في أن يرافقه صديقه لشراء خاتم الزواج. يحتاج لجليزية رصينة، تراعي حساسية أمه، لكنها في الوقت نفسه تعكس شغفه. كان قد سمع أن خاتم الزفاف يجب أن يكلف ثلاثة أضعاف مرتب العريس، لكنه لن يسمح بإنفاق أكثر من ضعفه فقط. كان يبحث عن حليلة جميلة، إلا أنه لم يثق في ذوقه. خرج بعد انتهاء الوردية ليتفحص محلات الذهب في شارعى أونيون ولامبا. هناك قطع جميلة، لكن كلها تقريبًا سبق وامتلكها أحد، بل إن بعضها حُفرت عليه الأحرف الأولى لأساء. لم يعرف إن توجب عليه الشراء من هناك وفي النهاية، منهكًا، قرر التوجه نحو ساحة «فرنسا» عند مبنى الجامعة للسؤال عن خواكين، الذي تبين أنه كان مريضًا منذ الأسبوع الماضي.

كان تشاكالтана هو من يجب عليه أن يعتذر. لقد قابله يوم الجمعة وبدا متوعدكًا بالفعل، لكن خواكين لم يقل شيئًا له. يتفهم الآن أنه فعل هذا

الأمر لكيلا يقلقه. هذا هو خواكين الرجل الذي يعرفه: فارس شهم مهتم بالتفاصيل، لم يرغب حينها في تناول شيء ما بالساحة لأنه متوعك. تذكر تشاكالтана أن خواكين ودعه بتحفظ وربما بنوع من التوجس.

«كن بخير يا فيليكس. كن بخير».

قالها له ممسكا بذراعه -ربما بقوة أكثر من اللازم- بينما ينظر لعينه بنوع من الإصرار. كانت كلمات غريبة.

«كن بخير. كل الأمور ستتهي على خير».

- هل من الممكن أن تفضلي عليّ وتكتبي لي عنوانه؟

نظرت له المرأة كأنه قد طلب منها القمر. حاول تشاكالтана اللجوء للحيلة السحرية السابقة:

- إذا كانت يداك الرقيقتان ستذبلان من لمس الـ...

كشرت له السيدة عن أنيابها:

- بحق الرب! لا تحاول. أنا لا أفهم حتى ما تقوله.

- أوه.

- ولا يمكنني أن أدون لك عنوان الأستاذ. متأسفة.

- أوه.

- هذا هو ما تنص عليه اللوائح.

لم يصر فيليكس تشاكالтана على طلبه. لم يكن ليكسر أي لائحة على الإطلاق. لا يوجد مواطن شريف قد يتجرأ على هذا. شكر الموظفة بأداء مبالغ فيه وابتعد عن النافذة. كان أول ما خطر على باله هو العودة للساحة

والبحث عن صائغ بنفسه، لكن بما أنه في الجامعة، قرر التوغل داخل المبني والبحث عن القاعة التي يدرس فيها خواكين، فربما يجد أحدًا يعطيه معلومة ذات أهمية، بطريقة قانونية بكل تأكيد. لم تكن الكلية ضخمة للغاية وعلقت على جدرانها قاطبة منشورات سياسية وإعلانات ودعوات لمؤتمرات عامة. تقدم تشاكالтана وهو يسأل الطلاب حتى وصل إلى قاعة صغيرة وخاوية. تدلت سبورة مغطاة بالطباشير بجوار مكتب وتراصت أمامها عشر دكك أو خمس عشرة دكة أضاءتها نافذة ضيقة. تخيل تشاكالтана صديقه هناك وهو يُدرس وينير عقول من سيقودون مستقبل البلاد، وهو يبني مستقبل الوطن من منصة التعليم العالي التي لا يقدر أحد قيمتها أبدًا. اكتسحه شعور بالفخر بصديق ينتمي لهذه الفئة المقدسة. لمح طالبين يتناقشان بخصوص كتاب في الصف الأخير. لأحدهما لحية وشعر كثيف، وخمن أن رائحته سيئة نوعًا ما. بدا مظهر الآخر لائقًا نوعًا ما بسترته وربطة عنقه، لولا بثور الشباب التي كست وجهه. كانا في مثل عمر تشاكالтана، إلا أنه مع إمعان النظر، شعر بكونه أكبر وأكثر حكمة.

- صباح الخير يا شباب. هل أنتما من طلاب الأستاذ خواكين كالبو؟

رفع كلاهما وجههما نحوه ثم نظرا فيما بينهما كأنهما يتشاوران بينهما من سيجيده على سؤاله. فعلها ذو اللحية:

- لماذا تسأل؟

أجابه تشاكالтана وهو يمد يده نحوه للتحية:

- اعذرني على سوء سلوكي. أنا مساعد أُرشيف السلطة القضائية فيليكس تشاكالтана سالديبار وأنا في حاجة ملحة للعثور على الأستاذ كالبو لإتمام بعض المساعي.

سأله أحدهما:

- مساعي؟

أضاف الآخر:

- السلطة القضائية؟

لم يمد أي منهما يده لتحية تشاكاللتانا. لم يجيبا أيضًا. تفهم مساعد الأرشيف أن عليه تقديم المزيد من المعلومات. أوضح لهما:

- الأمر ذو طابع شخصي. أفهم أن الأستاذ متوعك نوعًا ما. سأحب أن أرافقه لتناول طبق من حساء الدجاج.

بدأ ذو اللحية في الضحك:

- حساء الدجاج؟

تبعه صديقه ذو البثور ثم انفجر الثنائي في الضحك بأعلى صوت:

- حساء الدجاج!!!

ابتسم تشاكاللتانا معهما بدافع الأدب. تجمدت الإيلاء على وجهه بينما نهض الطالبان وجمع كل منهما أغراضه في حقيبة قماشية مزينة برسومات مطبوعة تخص حضارة الإينكا. لم يزعج أي منهما نفسه بتوديعه حينما خرجا. لم يجيبا على سؤاله بالمثل، لكنهما ظللا يمزحان بخصوص حساء الدجاج حتى وهما في المرر. تعاطف تشاكاللتانا معهما. فكر في أنها لم يصلا بعد لمستوى نضجه. رحل عن الجامعة وعاد مترجلًا حتى قصر العدل. باتت الساعة السابعة بالفعل، ما يعني أن ساعة الانفجار، أو موعد انصراف الموظفين، قد مرت. وكل من يتبقى هم وكلاء النيابة وقضاة الوردية الليلية. هبط تشاكاللتانا للأرشيف وتوجه نحو سجل المستخدمين. لم يستغرق كثيرًا من

الوقت للوصول للملف خواكين كالبو. السن: أربعون عامًا، النوع: ذكر، نوع البحث: «الحركات الثورية واستراتيجيات الأمن»، وفي النهاية ما كان يسعى خلفه؛ العنوان: رقم «كذا» في شارع كابون. انزعج تشاكالثانا. لم يكن واثقًا من أن البحث عن عنوان مستخدم للأرشيف لأغراض شخصية هو التصرف الصحيح، ناهيك عن قانونيته، إلا أنه قلقٌ من كون صديقه مريضًا ووحيدًا. وعلاوة على ذلك، يجب أن يقص عليه آخر التطورات مع سيسيليا، إذا لم يتحدث مع أحد عن الموضوع، كان لينفجر.

خرج مرة أخرى من «قصر العدل». سار في جادة «أبانكاي» وانعطف عند السوق الرئيسي ليتوغل داخل الحي الصيني وقبل أن يصل حتى عند بوابته بحروفها الصينية الضخمة، هبت رائحة دجاج «تشي جاو كاي» ولحم الخنزير بصلصة التمر الهندي. عُرض البط البكيني وحيوانات أخرى مكبوسة في واجهات المطعم. لم يسبق وظن أن خواكين قد يقطن في حي مثل هذا. كان كأنه دولة أخرى. نقرت حالة من جوع الكلاب معدته بينما يعبر الشارع الرئيسي. دخل إلى أحد المتاجر وطلب طبقًا من حساء الدجاج. قدموه له في سلطانية بلاستيكية، مُتبلًا بالكزبرة والـ«سياو» ومحفوظًا داخل حقيبة ورقية، هذا بعد أن تحقق من أدق تفاصيل نظافة المكان. كان الرقم الذي يبحث عنه على بعد مائتي متر. دخل المبنى. لم يعثر على مصعد لذا صعد الأدوار الثلاثة على الدرج. استند برأسه على الباب قبل أن يطرقة. لم يكن يقصد التلصص، كان يسعى فقط للتحقق من أنه لم يصل في لحظة غير مناسبة، خاصة وأنه لم يعلن عن مجيئه بشكل مسبق. على الرغم من هذا، اعتراه شعور بالذنب وسحب أذنه. سمع صوتًا مكتومًا يصدر من الداخل. ظن أن خواكين يشاهد التلفاز.

دق الجرس في النهاية وانتظر. تزايد صوت الجلبة القادمة من الداخل،

كأن خواكين ليس بمفرده، إلا أن أحدًا لم يقترب من الباب. عد تشاكالтана حتى مائة ودق الجرس المجدد وهنا فتح له رجل الباب. كان بنفس عمر خواكين تقريبًا وله ملامح شرقية وخلفه طفل يزحف وهو يكركر. كان صوت الجلبة يصل من تلفاز الصالة المفتوح على أعلى صوت. قال الرجل شيئًا ما بالصينية. حياه مساعد الأرشيف:

- مساء الخير. أتمنى ألا أكون قد جئت في وقت غير مناسب. أنا أبحث عن الأستاذ خواكين إذا تفضلت.

نظر له الرجل الصيني كأنه لص. هتف بشيء. بدا كأنه كورال لأغنية ما، لكن بلا روح أو لذة. من مكان ما في الخلف أجابه صوت أنثوي بلغة غير مفهومة أيضًا.

قال تشاكالтана وهو يرفع السلطانية البلاستيكية ليظهرها للرجل الواقف عند الباب:

- سمحت لنفسى بإحضار طبق من حساء الدجاج له.

أمسك الرجل الصيني بالسلطانية. فتح الحقيبة الورقية وفحص محتواها، ثم عاد ليصرخ بشيء ما. أجابه الصوت القادم من خلف ظهره مجددًا. تناقشا - أو أن هذا هو ما تفهمه تشاكالтана- حتى أطلت المرأة هي الأخرى برأسها عند الباب وهي تحمل الرضيع بذراع وسله ملابس في تلك الأخرى.

- مساء الخير. سعيد بمعرفتك. اسمي فيليكس تشاكالтана سالدبيار وأنا أبحث عن الأستاذ خواكين كالبو.

نظرت له المرأة والطفل. كانت عينا الرضيع كبيرتان للغاية إلى حد الاستدارة ورأسه متدثرة بطاقيّة ضيقة. بدا كأنه على وشك الاختناق. تركت الأم السلة على الأرض عند أحد الجانبين ورفعت ذراعها كإشارة ربما على

الفهم. فكر تشاكالنانا في أن هذه المرأة ربما قد تفهمه بالفعل، لكنها أغلقت الباب بكل بساطة. انضمت الجلبة القادمة من الداخل لصوت تطبيق الحقيبة الورقية وتلاها لاحقًا بكاء الرضيع. افترض تشاكالنانا أنها سيتناولان الحساء معا وعرف -هذه المرة عن حق- إن الأمر لا يستحق دق الجرس مرة أخرى.

- عزيزتي سيسيليا، أتمنى من أعماق روحي وقلبي المشتاق، أن تقبليني زوجًا لك بالسيلين المدني والديني.

كرر فيليكس تشاكالтана العبارة أمام المرأة في حمام القبو. أعادت له الجدران كلماته وأكسبت إضاءة النيون البيضاء ما كان يفعل لمسة من الحزن. اعتبر إنه يجب أن يطلب المسألة بصورة مختلفة، لكنه كان مقتنعًا على أية حال بضرورة الإقدام عليها. كان قد تعهد بارتكاب فعل مجنون يوم الأربعاء وهو رجل يفني دائمًا بوعوده. سيقولها في ذلك اليوم، سواء بمساعدة من خواكين أو بدونها، حتى لو احتاج لأكثر من بروفة للعثور على الكلمات المناسبة:

- عزيزتي سيسيليا، ظلت ممارسة الخطبة قائمة في مجتمعنا طيلة تاريخ..
لا. لا. لا. نظري للغاية. مستبعد.

أخرجه صوت ما من مرآته:

- أهلا يا بطل! هل تتحدث مع نفسك؟

وقف تشاكالтана في وضعية ثبات:

- سيدي المدير!

- قل لي أرتورو فقط يا بني!

- أرتورو فقط يا سيدي!

تموضع المدير أمام مبولة لكن مر وقت طويل دون أن يُسمع صوت سريان المياه. سأله بنبرة ساخرة بينما ينتظر:

- قل لي.. هل حصلت لنفسك على تلفاز؟

- بدأت إجراءات الطلب كما يجب، لكن المواعيد الموضوعية لبدء التعاطي مع..

- فيليكس.

- سيدي؟

- كانت مزحة. لست مضطراً للحصول على تلافيز في الحقيقة.

- شكراً يا سيدي.

بدا المدير قلقاً، في الحقيقة كان المدير يبدو قلقاً كلما نظر له، كأن تشاكالانا سينكسر في أي لحظة. هناك، في الأسفل، في المبولة، ظلت الأمور كما هي.

وكان هذا اللقاء قد تحول لاجتماع عمل. قال مساعد الأرشيف:

- سيدي، لم أتلق حتى الآن أي أوامر محددة بخصوص البلاغ المخالف.

- ال... ماذا؟

- بلاغ «مخالفة إدارة الجوازات المرتبط ب... حدث».

اضطر المدير لنكئ أقصى أركان ذاكرته ليعثر على ما كان تشاكالانا يتحدث عنه وبدلاً من تقديم إجابة رفع كتفيه وقال:

- إذا كنت ترغب في مشاهدة المباراة، ستجد تلافيزاً في منطقة الزنازين.

حاول الربط بين هذه المعلومة وبلاغه المتعلق بـ«مخالفة إدارة الجوازات»، إلا أنه لم ينجح. نظر بعدها عبر باب المرحاض نحو الخارج، نحو منطقة ذلك الثقب الأسود المسمى بالزنازين. لم يسبق قط وأن دخل هناك. لم تخرج أصوات كثيرة منه باستثناء الصوت الأمر لشخص ما أو الجلبة المعدنية للقبضان والأصفاد. لم يسبق واقترب قط من هذا البثر الأسود ولم تكن لديه رغبة كبيرة الآن في زيارته.

- أخشى أن الحدث الرياضي المقصود سيُقام بعد موعد عملي الرسمي
يا سيدي.

بدأ صوت سائل يتدفق في المbole كأنه يسيل من قطارة. استقبله المدير
بارتياح واضح ثم أجابه:

- لا يا فيليكسيو. الدوام اليوم بعد مواعيد العمل الرسمية. هناك
مباراة كرة قدم عصرًا. لن يتحرك أحد من منزله صباحًا، لكن بعدها ستكون
هناك مشاجرات في الشوارع، سكارى وعمليات مدهامة وبلاغات كثيرة.

- صحيح يا سيدي.

- علينا أن نتواجد جميعًا هنا.

- بالفعل يا سيدي.

- وبيننا نحن هنا سنشاهد المباراة.

- صح... صح... صحيح.

- ارحل الآن على أن تأتي لاحقًا.

أنهى المدير تعليقاته وهو يرفع سحابه بسرعة. فكر تشاكالانا: إذا كانوا
سيقضون الليلة هنا، فعليه أن يتصرف صباحًا؛ بمعنى آخر الآن. انتظر رحيل
المدير والذي جاء سريعًا لأنه لم يغسل يديه. جرب عدة عبارات أمام المرأة
وانطلق ليجلب وشاحه. فكر كثيرًا في مسألة الرحيل مباشرة، لكن غريزة
رجل القانون انتصرت في النهاية على التسرع. حرر طلبًا لإلغاء المعلومات
ومسح العنوان الخاطيء من ملف خواكين. تحسن شعوره، فاليانات الخاطئة
في سجلاته كانت تثير اضطرابه بصورة هائلة.

زار ثلاثة من الصاغة في شارع أونيون. عشر في النهاية على مراده في مكتب رهونات: خاتم ذهبي عيار 18، مرصع بحجر لامع زائف، حُفر عليه حرف الـ«C». بدا الأمر كأن مالكة قد رهنه وهو يفكر في فيليكس تشاكالثانا بالذات. عقب هذا الاكتشاف دخل متجرًا للزهور في جادة «إمانسياسيون» من فرط حماسه. اختار بكل تأكيد وروداً حمراء. اختيار كلاسيكي له فحواه المفهومة. لم يكن مستعداً لإجراء أي تجارب ومستقبله العاطفي على المحك. كانت الظهيرة قد انتصفت حينما دخل صالة استقبال جريدة (إل كومرسيو) التي كانت تغلي من فرط النشاط رغمًا عن خصوصية ذلك الصباح؛ فأسفل بيت النور المُطعم بالرخام كانت أسراب المعلنين -صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساء- تدفع مقابل إعلاناتها المبوبة التي تنوعت بين دعوات زفاف وتعازٍ ووفيات وأشياء للبيع وأخرى للإيجار لتنشرها الصحيفة في الأيام القادمة. سجل ضخّم آخر ينبض بحياة كل ما قد يحدث في المدينة.

كانت سيسيليا تؤدي وظيفتها في شباكها المعتاد وحينما رأت تشاكالثانا أضاء وجهها. أشارت له أن ينتظر وخرجت في موعد تناول الغداء بعدها بخمس دقائق. عانقته:

- هل هذا هو الفعل المجنون الذي وعدتني به؟

- لا. هذه فقط هي المرحلة الأولى.

- صحيح. فعل مجنون دقيق ومحسوب بعناية. لقد نسيت.

أغرقت وجهها بين الورود. قبلت تشاكالثانا في مقرن شفثيه بعدما استنشقت رحيقها. شعر فيليكس بأن قلبه وأجزاء أخرى من جسده تتفاعل

مع هذا الاتصال. رافقها إلى فندق «بوليفار» في ساحة «سان مارتين». مرا عبر تلك القاعات المليئة بالمرايا قبل الوصول لصالة الطعام. بدت سيسيليا متحمسة، لكنها سألته إن كان قادرًا على الدفع هنا. هداها تشاكالثانا دون أن ينطق بكلمة. كان قد أجرى حساباته؛ إذا طلب لنفسه طبقًا واحدًا من «سييتشي» السمك، فيمكن لسيسيليا أن تأخذ تحلية إن أرادت. ظل يكرر هذا الأمر داخل عقله بينما يوجهها النادل بين الطاومات.

مزحت سيسيليا:

- أعرف أي فعل مجنون قد ارتكبته. لقد سطوت على مصرف.

قصت عليه كيف كان صباحها في العمل وهما يطلبان المشروبات. هناك رجل عجوز عمره ثمانون عامًا وضع إعلانًا موبًا يطلب فيه خطبية وكان من بين الكلمات التي اختارها «معافى» و«شديد». أضحكته كلمة «شديد» جدًا. كان تشاكالثانا يجب الإنصات لها وهي تتحدث. لم يستمع دومًا لكل ما تقوله، أحيانًا كان يستمتع بكل بساطة بموسيقى صوتها، فمنذ أن تعرف عليها حينها ذهب بنفسه لنشر إعلان لبيع قطع أثاث قديمة، بات مولعًا بهذا الصوت، ورنين بهجته، بل إنه في هذه اللحظة عجز عن التركيز في قصصها. شعر بأن صدره على وشك الانفجار، إذ تراكت الكلمات التي يرغب في قولها في مجرى دمه ومنعته من التنفس. حافظ على رصانته وهم يجلبون له طبق الـ«سييتشي» المغطى ببصلة، ولسيسيليا معجون البطاطا كريمي القوام مع الجوز المطحون على طريقة مدينة أوانكايو، وهو سر الشيف.

قالت له:

- أنت رجل فوق العادة يا فيليكس. ما نفعله جميل للغاية، لكن ألن

يتاح لك بعض الوقت لتصحبني للرقص؟

نظر تشاكالانا نحو طبقها. كان عاجزًا عن الشعور بالجوع. بدت البطاطا الحلوة برتقالية اللون كصاروخ نووي، وثمار الفلفل كألسنة لهب، أو ربما كان الأمر يتعلق فقط به، هو الذي تكورت معدته من فرط التوتر. لم يعد قادرًا على التحمل. ابتلع لعابه. داعب علبة الخاتم الصغيرة الموجودة في جيبه وانطلق ليجهز على الهدف:

- علينا أن نتحدث يا سيسيليا.

- فيليكس. أنت شاحب. لم تأت بي إلى هنا لتقطع علاقتك بي. أليس كذلك؟

- نعم.. أقصد. لا. لا.. يجب أن أخبرك بشيء ما.

استندت بظهرها إلى الخلف وانتظرت. على ما يبدو كان كل ما نجح فيه فيليكس حتى الآن هو إرعاها ولكي يصلح الأمر تنحج لتسليك حنجرته وتابع:

- طوال تلك الشهور التي كنا نرى فيها بعضنا.. حسنا.. أعتقد أنك أصبحت.. مثل.. مثل.. البصلة الموجودة في طبق الـ«سييتشي» هذا.

غيرت سيسيليا تعبير الرعب بآخر يعكس الانزعاج:

- رائحة البصلة قوية نوعًا ما. ألا تظن هذا؟

- أقصد أنه بات من غير المعقول، من غير الممكن، من الغريب أن..

الكلمات. في أي مكان ملعون كانت تذهب الكلمات حينما يحتاجها؟ كان تشاكالانا ماهرًا للغاية في توزيعها هنا وهناك فوق الأوراق، لكن كان يصعب عليه العثور عليها الآن ليرسلها فقط نحو الطرف الآخر من المائدة. استنشقت بعض الهواء مجددًا. بحث عن الخاتم في جيبه. تعرقت يدها، إلا أنه

أخرج العلبة الصغيرة ووضعها أمامها، بجوار طبق البطاطا على طريقة مدينة أوانكايو.

- هل تقبلين الزواج بي؟ هل تقبليني زوجًا لك؟

توقفت دقائق الساعات حوله، أصيب نُذُل الفندق الأنيقون بالشلل وتجمد ماسحو الأحذية في الساحة وصمتت محركات السيارات. قربت سيسيليا يدها بخجل من العلبة الصغيرة وفتحتها. حينما شاهدت الخاتم سحبت يدها فجأة، كأنها عثرت على فأر حي. نظرت نحو تشاكالانا. كانت عيناها تعكسان شكًا في كونها مزحة، في أن هذا يحدث فعلاً. قالت:

- فيليكس. أنا..

- لا أعرف إن كنت قد قلتها جيدًا. لست ماهرًا مع الكلمات، بل أنا ماهر معها حينما يتعلق الأمر بكتابتها. إذا كنت ترغين في تقديم أي بلاغ عن مخالفات إدارية أو جنح، يمكنني مساعدتك على صياغتها، لكن ليس لدي خبرة كبيرة في طلب اليد.. وأتمنى أن تكون هذه هي أول وآخر مرة.

كانت الجملة الأخيرة لها وقع جيد، وفوق كل شيء صادقة. بحث عن القبول في عيني سيسيليا، إلا أن شيئًا غير متوقع كان يبرق فيهما، كأن بهما مغمصًا. غمغمت:

- نحن متساويان في هذه المسألة.. أنا.. لا أعرف ما أقوله.

- ما رأيك في أن تقولي «نعم».

لم تكن مزحة، بل رجاء، لكن سيسيليا حافظت على تلك النظرة الذاهلة، كأن كلبًا قد اقتحم المطعم.

- فيليكس. أنت شاب ممتاز. أنت من أفضل..

كان الأمر يبدو كـ«لا». حاول فيليكس العثور على «نعم» خفية بين كلمات سيسيليا، إلا أن وقعها جميعًا كان يبدو كـ«لا»، لذا حاول طرح الموضوع من منظور آخر:

- أعرف أنني الآن مجرد مساعد في الأرشيف وهي وظيفة صغيرة، لكن يومًا ما سأصبح وكيل نيابة عظيم يا سيسيليا. أمامي مستقبل عظيم. كلي ثقة في هذا.

نظرت سيسيليا نحو الأسفل. قلبت البطاطا بالشوكة في الصلصلة. ظل طبق الـ«سيبتيشي» الخاص بتشاكلتانا كما هو.

- عمملك جيد. هذه ليست المشكلة.

- ما هي المشكلة إذن؟ هل لم أتحل بالأدب في أي مرة؟ هل قلت شيئًا سيئًا؟

- أنت لا تقول أي شيء سيئ أبدًا.

- إذن؟

كانت سيسيليا تلعب حينها بزيتونة في طبقها وشأنها شأن تشاكلتانا كانت تبحث عن كلمات ترفض الوصول لشفتيها:

- لا أعرف كيف أصيغها لك يا فيليكس. لا أعرف كيف أقولها لك دون أن يبدو وقعها سيئًا.

رغب تشاكلتانا في أن يتجهز ذهنيًا. جمع في رأسه قائمة بالأمر التي قد يبدو وقعها سيئًا: لون روابط عنقه، اهتمامه المفرط بالدقة اللغوية، جهله بالشؤون الرياضية، رائحة إبطيه، لكن بدا له أن هذه النقطة الأخيرة لم تكن ملائمة. قال لها بصوت خافت:

- أرغب في معرفة الأمر يا سيسيليا.

تنهدت بعمق وبعدها رفعت نظرتها. بدت عازمة:

- فيليكس. أنت لم تقبلني قط كما يجب. قط.

أجابها فيليكس مؤمناً على كلامها:

- صحيح. بكل تأكيد.

إلا أنه حينما نظر لعينيها بدأ يدرك أن الأمر لم يكن من ضمن النقاط الموجودة في صالحه وغمغم:

- هل تقصدين أنه كان يجب أن..؟

لم ترفع سيسيليا صوتها وبالمثل لم تخفض نظرتها حتى آخر كلمة نطقتها:

- أنت تروق لي كثيراً، لكن أحياناً أعتقد أنني لا أروق لك بنفس

الصورة. تحبني كما لو كنت ابنة عمومتك أو.. أمك.

منذ حادث ووفاة أبيه، عاش تشاكالثانا ملتصقاً بتنورة أمه. كان هو رجل المنزل. يجب أن يحميها، حتى من نفسها بل وأيضاً من ذكرياتها. انعزل عن الحياة الاجتماعية وعن سبل الترفيه الطبيعية لأي شاب في سنه. بات يعي الآن نقص خبرته. كان ومايزال آخر طالب بكر في الجامعة ويفتقر للخبرة بخصوص رغبات النساء، باستثناء تلك التي أنجبته، تلك التي كانت تخلو من الرغبات.

- إذن؟ أنت لديك رغبة في..؟ هل تقولين أنك..؟ أنك لديك رغبة في..؟

- أرغب في الشعور بأنك تحبني.

أكدت له ظنه، لكنها ما لبثت أن غطست بوجهها بين يديها بتعقل

-دون أن تلفت الانتباه- كأنها ستممخط، ثم قالت بحزن:

-والآن ما الذي ستظنه بي!

درس تشاكاللتانا الاحتمالات القائمة. كل ما فكر فيه كان جميلاً. رغب في تقبيلها بحق. لا يوجد شك في هذا، بل أنه رغب في أمور أسوأ من هذا. كان يستيقظ في المنزل وهو يفكر فيها، وكان يضطر لتغيير بيجامته قبل الخروج من الغرفة، لكيلا تكون المسألة ملحوظة.

- سأظن أنها فكرة جيدة. فكرة ممتازة.

- حقًا؟

- حقًا. ما رأيك في أن نفعلها الآن؟

تخرج وجهها قبل أن يتبادلا عدة ضحكات حاملة.

- لا. من الأفضل أن نفعلها بمكان به قدر من الخصوصية.

عادا للابتسام كأنهما زوج من الحمقى قبل أن تضيف:

- يوم الأحد ممكن.

أوما تشاكاللتانا برأسه مبتهجًا:

- ممكن جدًا. بكل تأكيد.

كان لديه الكثير ليتعلمه.

- فيليكس تشاكالثانا سالديبار! ما الذي تفعله هنا في هذه الساعة؟ هل
طرودك من العمل؟

كان تشاكالثانا محصناً ضد التآنيب والأسئلة وفي حالة مزاجية جيدة لا
يمكن تدميرها، لذا رد ببساطة:

- لا يا أمي. أترغبين في تناول بعض الشاي؟

علق وشاحه على الشماعة المجاورة للباب واقترب من أمه لتقبيلها.
وجدتها جالسة في الجهة المقابلة للطاولة أمام صورة العائلة، تلك التي
يرتدي فيها أبوه الزي العسكري. كانت عينا السيدة مبللتين بينما تشبثت
يدها بمسبحة.

- أمي!

- لا تقلق يا بني. فقط كنت أصلي.

- لا أحب أن تدخل في هذه الحالة يا أمي الحبيبة. عليك البحث عن
شيء لتسليتك.

أجابته بنبرة ميلودرامية:

- ذكرياتي وحدها تكفيني يا بني.

توجه تشاكالثانا نحو المطبخ لإعداد الشاي. عمل جاهداً لتفادي
الذكريات، الذكريات الباقية عن أبيه، لأنه حتى تلك التي تسبق الحريق،
لم تكن على وجه الخصوص جيدة. كانت -لحسن الحظ- تصل إليه كأنها
تأتي من خلف حجاب، كأنها صور من فيلم شاهده وهو نصف نائم. أما أمه

-على النقيض - فلديها بثر يذخر بالذكريات لتشرب منه وتغوص فيه، وما من شيء آخر لديها سواه. عاد إليها بالشاي.

- التفكير في الماضي يؤذك يا أمي الحبيبة. حانت لحظة النظر نحو ما هو قادم.

أخذت الفنجان وتشبثت بيد ابنها. كانت نظرتها تحتضر.

- ليس لدي ما هو قادم يا بني. لن أتزوج أبدًا برجل آخر.

حذرهما بينما يضع السكر:

- لا تعذبي نفسك يا أمي. فربما ذات يوم أجلب لك خبرًا جيدًا.

عوضًا عن أن تتهلهل أساريرها دمدمت:

- لقد تبذلت أحوالك وغبت عن العظة ثلاث مرات هذا الأسبوع.

أمسكته من حيث تؤكل الكتف، فتشاكلتانا، المنشغل بخططه الشخصية، كان قد نحى جانبًا بعضًا من التزاماته اليومية.

- اعذريني يا أمي فهي أيام صعبة.

- آه! صحيح؟ لأن هناك مونديال لكرة القدم وأنت تواعد خياطة الحي

الصغيرة. حينما يحين الوقت، ستشرح الأمر جيدًا لحارس بوابة جهنم عندما تمر من عنده.

وظهره لأمه، رفع تشاكلتانا للأعلى بؤبؤي عينيه اللتين لم يبق فيهما

سوى بياضهما، فحينما تنفوه شفتهاها بعبارة «خياطة الحي الصغيرة» فهي

تعني «امرأة بلا مستقبل تحاول النوم مع أكبر كمية ممكنة من الرجال في انتظار

أن يتركها أحدهم حُبلى ليصبح مجبرًا على الزواج منها». لم يتفهم -وربما لن

يتفهم - تشاكلتانا من أن أين أنت أمه بهذا المفهوم الرديء عن أهالي مهنة

القص والحياكة، لكنه على الأقل أجاها:

- سيسيليا ليست خياطة. تعمل في جريدة.

- ولماذا تعمل؟ ألا يجب عليها أن تعتني بعائلتها؟

- هناك جدتها فقط وتعتني بها ليلاً مثلما أفعل أنا معك.

وضع في اللحظة الأخيرة بعض الزيزفون في الشاي لأمه لربما تهدأ قليلاً، لكن كثرة الإشارات لسيسيليا كبحت تأثير المشروب الساخن.

- لقد جاءت يوم الاثنين إلى هنا مرتدية ملابس راقصة في كباريه رخيص.

- كانت مجرد تنورة قصيرة. هذه هي الموضة في يومنا هذا يا أمي. الأمور تتغير.

- للأسوأ. تتغير للأسوأ.

كانت محادثات تشاكالثانا مع أمه حول زمن الحاضر لها خصلة واحدة وهي نجاحها دومًا في تحويل كل ما هو لطيف إلى انحراف وقذارة، لذا قرر إيقافها عند هذه النقطة ليحافظ على مزاجه الرائق. كان قبلها ووسط فورة الحماس قد فكر في أن يحكي لها قصة غدائه مع سيسيليا. ليست كلها بالطبع، بل فقط الجزء الذي قد تقبله أمه، ذلك الذي يكشف أن سيسيليا أعطته أملًا في الزواج، إلا أن تشاكالثانا بدأ يتفهم وبقا لما يسمعه الآن من أمه، أنه من الأفضل أن يتوخى الحذر. ستأتي فرصة لاحقًا ليحكي لها، كما إنه الآن لديه مهمة أكثر إلحاحًا.

- سأرافك غدا إلى العظة وكل الأيام الباقية من هذا الأسبوع.

- آه؟ فعلا؟ هذا معناه أنك ارتكبت خطايا عدة وترغب في تطهير

روحك.

- لا يا أمي. هذ يعني أني أرغب في مرافقتك و.. أنني لن أستطيع ذلك
يوم الأحد.

- لكن يوم الأحد إلزامي!

- لكن.. لدي... آآآه.. إن..

ها هي مرة أخرى. مشكلته مع الكلمات. تزداد المشكلة صعوبة إذا
تعلقت بالكذب، فلكي يكذب عن اقتناع، يعوز تشاكالنانا أن تصبح كلماته
حقيقة وفقاً لتفسير واحد على الأقل، مهما كان ملتويًا.

- يوم الأحد اتفقت على تعزيز بعض الـ.. صداقات عن طريق.. مآدبة.
- ستهب لمشاهدة كرة القدم بكل تأكيد.

قطبت أمه جبينها، لكنها دون أن تدري منحه منفذا للخروج وهكذا
أضاء نور على شكل كرة شكوك تشاكالنانا:

- فعلا. هي كرة القدم. بيرو ستلعب يوم الأحد مع.. مع فريق مهم
جدا وهو تاريخ له أهميته الوطنية لأنه..

- لست في حاجة لتخبرني بشيء يا فيليكس. لست في حاجة للاعتذار.
كان هذا آخر ما ينتظر سماعه من فم تلك المرأة. على ما يبدو، فإن الرب
حقيقةً يصنع المعجزات.

- شكرا يا أمي.

لكنها بينما تنهي الشاي وتهض عن مقعدها أضافت دون حتى أن تنظر

له:

- ستكون لديك الأبدية بأكملها لتندم بينما تلتهمك نيران جهنم.

خفض تشاكالانا رأسه في صمت، كأنه يطلب الغفران عن شهوته الكروية، إلا أنه في النهاية بينما تغسل أمه الفئجان سألها:

- تذهين لعظة أيام الأحاد عصرًا. في الثالثة؟ صحيح؟

- تعرف جيدًا أن كلامك صحيح.

أجابته أمه بحدة من المطبخ، ولحسن الحظ لم تخرج للصالون في تلك اللحظة، لأنها إن فعلت كانت لتندesh من الابتسامة العريضة التي ارتسمت على وجه ابنها، فبلا شك لم يكن هناك شيء قادر على تحطيم مزاجه الرائق حينها.

كان سيقبل سيسيليا. ليست قبلة على وجنتها أو جبهتها، بل واحدة من تلك القبل. قبلة من فيلم «حمى ليلة السبت». وهو عائد إلى جادة «أبانكاي» ويحلم بيوم الأحد، كان تشاكالانا مذهولاً من كيف تغيرت حياته في ظرف ساعات. شعر بأنه قوي، ناضج، بأنه قد تمكن من فعل كل الأمور بنفسه دون أي مساعدة من خواكين. صحيح أنه لم يفعل شيئاً بالفعل حتى الآن، وأن طلب زواجه -بتفسير أكثر تشددًا- قد قوبل بالرفض أو على الأقل التأجيل، إلا أنه كان على يقين من أن كل الأمور ستنتهي بصورة جيدة، فحينها يهل الأسبوع المقبل سيكون رجلاً قد تم تقبيله ومخطوباً. لن يسأل صديقه كيف له أن يفعلها، بل سيقص عليه كيف فعلها.

لم يكن هناك أحد في أرشيف قصر العدل، لا المدير ولا أي مستخدم. فقط الملفات والدفاتر النائمة على الرفوف. تذكر تشاكالانا بعدما شرد لعدة ثوان في جدران القبو أنه ضرب موعداً في منطقة الزنازين. كان ما يزال مسروراً، لدرجة أنه لدى عبوره الرواق المظلم، لم تجلب بخاطره تقريباً مسألة نفوره من هذا المكان. فتح الباب وسمع صوت معلق المباراة يحبي مشاهديه عبر الشاشة:

- مساء الخير اتأصدقاءنا المشاهدين. من مندوثا، من الأرجنتين نوجه لكم التحية بكل الود وآملين في أن تقدم بيرو مباراة كبيرة أمام هولندا.

كان الحجز عبارة عن امتداد للرواق يتفرع في نهايته لعدة زنازين جماعية يُنقل إليها المساجين في أيام الجلسات القضائية وأحياناً منذ لحظة اعتقالهم إذا ما طلبت الشرطة. عند المدخل انتصب مكتب يُستخدم لفحص الأغراض

الشخصية للسجناء ولإنهاء الإجراءات الورقية، لكن اليوم؛ ظهر التلفاز بديلاً للآلة الكاتبة وكانت وجوه الحراس المتجهمة بطبعها قد تخلت عن هذه الصفة لتفترشها أمارات ترقب طفل حصل للتو على لعبة جديدة.

- أهلا يا نمر! أخيراً!

كان المدير قد انضم للحراس الثلاثة وعشرات السجناء الذين وجهوا من زنازينهم نظرة ثابتة على صورة البث بالأبيض والأسود. في الواقع، كان ما يحدث هنا هو تهرب ضخم كصرح عن مهام العمل، لكن تشاكالتانا قرر مسايرة الأمور بلين فكلهم كانوا في محل عملهم ولم يكن أحدهم يتناول الكحول بل فقط القهوة من الترمس. وجه أحد السجناء طلبه إلى عريف الحراسة:

- صب لي قهوة يا زعيم.

- اخرس يا ملعون. أتراني أمك؟

- وسيجارة؟

غمغم الحارس:

- يا ابن الساقطة!

لكنه قرّب منه في النهاية علبته ليخرج واحدة فتجرأ سجين آخر وهتف:

- وأنا بالمرّة يا زعيم.

عاد الحارس للسجين الأول وأخبره:

- انتهينا. دخنها مع أصحابك واسمحوا لي أن أتابع المباراة يا أغبياء.

سرت موجة من الاحتجاجات بين السجناء، لكنها توقفت حينها دخل اللاعبون لأرض الملعب ليأسروا اهتمام الحجز بأكمله والبلاد قاطبة. قال

صوت معلق التلفاز:

- سيداتي سادتي كل الجمهور مع بيرو. بعد الفوز على إسكتلندا، سيواجه فريقنا هولندا لأول مرة في كأس العالم والدم اللاتيني ينادي، هذا الدم الذي يتوحد لدعم منتخبنا. ستخوض بيرو المباراة بحماس متقد من أجل الفوز. الفريق الهولندي كان وصيف مونديال ألمانيا 1974، لذا قد يكون التعادل مفيدًا لنا وهم يعرفون الأمر.

قال المدير كأنه يصدر مرسومًا بعدما ظهر فجأة بجوار تشاكالтана:

- علينا أن ندخل الملعب من أجل التعادل يا نمر. لا داعي للمخاطرة. نتعادل ونتأهل.

- صحيح يا سيدي!

- بعدها ستلاعب إيران وسنفوز على هؤلاء المخصيين.

- صحيح يا سيدي!

- أترغب في فنجان من القهوة؟

رفض تشاكالтана. كانت عاداته تقتضي بعدم تناول أي مشروبات منبهة بعد انتصاف الظهيرة. ظهر كوبياس على الشاشة وهو يدخل الملعب وزأر الحجز بأكملهم. صرخ أحدهم من الزنازين:

- تحرك قليلاً يا زعيم. لا أرى.

لم يتحرك الحارس ولو قيد أنملة وقال:

- أناخذ كأساً من الويسكي بالمرة يا حبيب أمك؟

تبين تشاكالтана أن المدير قد اقترب منه بصورة أكبر نوعاً ما من تلك

الرائحة الكريهة الخفيفة. كان يُحدثه عن شيء ما. في الواقع، لم يتوقف عن الحديث منذ أن وجه له التحية. خشي تشاكالтана أن يكون اعترافاً شخصياً، لكنه تحقق بعدها بارتياح من أن المسألة ترتبط بإبلاغه بأمر مهني، إلا أنه ظل عاجزاً عن فهم فحواه.

واصل المدير حديثه:

- باختصار، يجب أن يذهب أحد الآن لتحرير المحضر وهناك لفظ حول من سيذهب ليفعلها. يفترض أن يكون أحد العاملين بالطابق الثالث وكلهم يرغبون في مشاهدة المباراة. لاراجانايا يقول فليذهب أورتيث وأورتيث يلقي الكرة في ملعب بيانوبيا وهكذا دواليك.

- نعم. مفهوم. مفهوم.

- من نخدع هنا؟ العمل شيء روتيني لكن المباراة ليست كذلك.

- أكيد.

- لهذا أخبرتهم أنك ستذهب وأنت ستحب القيام بهذه المهمة.

وعلى الفور، وكأن زراً أخلاقياً قد نَسَط شيئاً ما داخله، اعترض تشاكالтана:

- سيدي، سأسمح لنفسي إبداء ملاحظة وهي أن اللائحة الداخلية تنص على أن الأحداث ذات الطابع الثقافي والرياضي والفولكلوري لا يجب أن تتداخل مع الممارسة الصحيحة والسليمة لمهامنا..

- لن تتداخل يا صديقي. لن تتداخل لأنك ستذهب. ألا ترغب في العمل؟ ألا ترغب في أن تصبح المدعي الأول يوماً ما؟ حسناً. هيا اذهب وحرر المحضر.

- حسنا، حيننا تقوها هكذا ف..

- ستكون فرصة أيضًا للاحظوا عملك في الطابق الثالث.

غمز له بعينه وأشار نحو الأعلى كأنه في مكان ما فوق الحجز يوجد شخص ذكي يراقبهم، شخص مهم. أنهى حديثه:

- وفي النهاية يا صديقي. كفى هراء. أنت حتى لا تعرف من الذي يلعب.

أقر تشاكالثانا بهذه الحجة وتلقى من مديره ورقة بالتعليقات ليصل للمكان. لم يفهم بعد ماهية المسألة، لكن كل المحاضر واحدة تقريبا في أي مكان، وبخلاف هذا، ستسمح له هذه النزهة بمواصلة الحلم بيوم الأحد والقبلات. كفاه الوقت وزاد لكي يحلم لأن حركة النقل العام لم يكن لها وجود. اضطر للسير لأكثر من ساعة في شوارع خاوية، فحتى جنود الحراسة في دباباتهم كانوا يستمعون للمباراة عبر أثير الراديو. سار بمحاذاة النهر حتى وصل للمكان المنشود، وهناك كان ينتظره شرطيان يجلسان كأنها يلتصقان براديو ترانزيستور على سور مظل على الماء. حاول تشاكالثانا لدى وصوله اتخاذ وضعية عسكرية جادة وقيادية وحياهما:

- مساء الخير يا سادة. أنا هنا بشخصي ممثلا لنيابة السلطة القضائية لتحرير المحضر المطلوب.

كان الصوت الوحيد الذي لباه قادمًا من الراديو:

- بيلاسكيث يعثر على كوبيياس. بيدآن في تبادل الكرة. هات وخذ جميلة. أنت وأنا وتمريرة مثالية. هاهما يتسللان بين الدفاع الهولندي. وصلا للمنطقة وها هو كوبيياس ووووووو.. الحارس يان يونغلويد يخرج في النهاية ليكبح الهجمة. كانت بيرو تصل بسرعة وجمال عبر كرة سلسة وانسيابية وعبقرية لتقترب من مرمى الخصم.

تنهد الشريطان لتفريغ العاطفة التي كبحاها في وقت الهجمة. تنحنح مساعد الأرشيف فيليكس تشاكاللتانا وكرر التحية:

- أيها السادة. مساء الخير.

انتفض جسد أحد الحارسين واقترب من تشاكاللتانا. لم يكن عمره يتخطى عشرين عامًا. أما الآخر، ذلك البدين الثلاثيني، فكان أقل تأثرًا بوجوده. كان يصعب إبعاد انتباهه عن الراديو، كأن جزءًا من مخه ما يزال متعلقًا بالجهاز وهو يتحدث. حياه بلا اكتراث:

- مساء الخير يا دكتور. نحن هنا تحت الأمر والطلب.

لم يدع تشاكاللتانا شيئًا ينفذ كرامته حينما نودي بلقب «دكتور». استمروا جميعًا في الاستماع للمباراة. يجهل تشاكاللتانا السبب وراء وجوده هنا، ولم يعرف طريقة للسؤال. فحص المكان بحثًا عن أي دليل حول وقوع حوادث قد تستوجب وجودهم، ربما كانت تهمة إهمال وقد فاض النهر أو ربما وقع حادث سطو، إلا أن الشرطي الأكبر سنا - و فقط حينما بات جليًا أنه لا توجد أي فرص تهديفية - أشار له نحو نقطة ما عند الضفة:

- ها هو طردك يا حضرة الدكتور. افحصه كما تحب.

أدرك تشاكاللتانا مرتعبًا أنه سيضطر لعبور السور. كان نهر ريباك نصف جاف، إلا أن الأماكن الخالية من الماء موحلة وتجذب جحافلًا من البعوض وحشرات أخرى. لم يظهر اضطرابه على الرغم من هذا، وبأكبر قدر لديه من الرجولة رفع ساقًا ومررها عند الجانب الآخر من السور. حينما لمس الأرض، شعر بقدمه تغرق في رغوة من الطمي.

- مونيانتي يسير بالكرة. يتقدم ولا يمرر لكيلا يقع الفريق في مصيدة التسلل. لا روسا الآن بات في مكان أفضل. يستقبلها ويهرب من الناحية

اليسرى. حذارِ فهو وحده. هل سيتجرأ على تسديدها؟ سيتجرأ بالفعل ويسدد.. والكرة تحيد نحو الأعلى وتذهب عند المدرجات! انتباه يا سادة: بيرو دخلت المباراة وهي تستهي التهديد.

كان الشرطي قد أشار نحو كتلة سوداء تجمع حولها البعوض، تقريبًا عند النقطة التي يبدأ فيها ارتفاع منسوب مياه النهر. ظن تشاكالтана أنها ستكون نفايات هدم غير قانوني أو ربما غنيمة سرقة ما أبلغ أحدهم عنها في وقت سابق، لكنه بينما يخوض طريقه في الوحل تبادر إلى ذهنه ماهية ذلك الشيء الحقيقية. توقف كرد فعل ناجم عن الخوف.

- واصل طريقك يا دكتور. ففلان هذا لم يعد قادرًا على فعل شيء.

هتف له الشرطي الشاب بهذه العبارة بنبرة ساخرة ثم عاد للاندماج مع المباراة:

- هولندا تبدأ الهجوم. رينسبرينك.. فان دي كيركوف يدعمه. استخلاص صعب للكرة. يرسل ريب عرضية من الجهة اليسرى. يستقبلها نيسكينس وها هي التسديدة.. رامون كيروغا يوقفها! تصد ممتاز صفاق له الجمهور بحرارة لأن حارسنا يظهر ردود فعل استثنائية.

امتلاً حذاء وطرفا سروال تشاكالтана بالوحل. كانت أمه قد حاكته له بيديها، لكنه الآن لديه أمور أخرى يقلق بخصوصها فعلى بعد ثلاثة أمتار من الضفة، لم يعد خلق أي أوام بخصوص طبيعة تلك الكتلة يمكننا. كان رجلا ذا رأس مشعر. لم يكن الغطاء الأسود كيسًا كبيرًا بل سترة ارتدى أسفلها قميصًا أبيض. لم يرغب تشاكالтана في التقدم أكثر نحو الأمام، لكن شعور الواجب منعه من التراجع. حينها وصل في النهاية بجواره، تسببت رائحة الجثة في إثارة غثيانه وبالمثل لم يساعد لون جلده الضارب إلى البنفسجي في

تحسين الأمور. سأل وهو يحاول إبقاء معدته في مكانها:

- منذ متى وهو هنا؟

أجابه الشرطي الأكبر سنًا:

- ظهر هنا منذ الصباح، حينما انخفض منسوب النهر، لكن من الرائحة
يمكنني قول إنه يتعفن هنا منذ عدة أيام.

اعتبر تشاكالтана أن الفحص البصري الذي أجراه كان كافيًا. سيجب
عليه أن يشهد بوجود بجثة. أوشك على الرحيل فعلاً، لكن إلقاء نظرة أخيرة
على وجه الرجل جعله يصطدم بمفاجأة جديدة، برعب جديد.

- يتردد هتاف «بيرو، بيرو» في ملعب مندوثا. كوبيياس في الهجوم.
تشولو سوتيل على يساره ومونياتي على يمينه. أوبليتاس يهرب من الرقابة
لكن كوبيياس يتجراً وحده ويسدد نحو المرمى.. لكن المدافع يبعد تلك
الكرة المحملة بالسّم لركلة ركنية.

كانت جثة خواكين. مليئة بالرضوض والكدمات وذات لون بنفسجي،
لكنه كان صديقه. هذا هو شعره المبعثر، وهذا هو أنفه، وهذا هو الفم الذي
كم من نصائح قدمها لتشاكالтана! وكانت هاتان هما اليدان اللتان طالما حياه
بهما.

- صافرة النهاية. بيرو صفر وهولندا صفر. ضمن الفريقان التأهل
بالفعل. يدخل كل الجهاز الفني لاحتضان لاعبي فريقنا. الجمهور يحتفل.
كانت المباراة مليئة بالأناقة والقوة وأكثر من لعبة لها رونقها وكل ما يرغب
الجمهور في مشاهدته في مباراة كرة قدم. هذا تعادل بطعم الانتصار!

شعر تشاكالтана بأن أزيز البعوض يزداد قوة، لدرجة تؤذي أذنيه، وهناك،
في الأعلى عند السور، كان الشرطيان قد انصهرا في عناق. سار نحوهما لكن

الأرض تغوص أسفل قدميه مع كل خطوة كأنها مستنقع. حاول طلب المساعدة، لكنه حينها فتح فمه كان كل ما نجح فيه هو إفراغ ما في جوفه.

بيرو- إيران

لاحظ تشاكالنانا أن خواكين حينما ذهب آخر مرة لمقابلته يوم الجمعة كان شاحبًا نوعًا ما. «كن بخير». «كن بخير. كل الأمور ستنتهي على خير». كان آخر ما قاله له حينها، لكن الحقيقة أنه هو من لم يبدُ على ما يرام.

الآن وعلى محفة المشرحة المتهالكة تمدد جثمان خواكين متصلبًا ومتورما وبنفسجي اللون. إذا ما قورن مظهره يوم الجمعة بما استحال إليه الآن كان ليبدو في خير حال. ألقى تشاكالنانا نظرة أخيرة على هذا الوجه، أو ما يتبقى منه. لا بد وأن رطوبة المدينة -وبالأخص النهر على مدار الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية- هي السبب وراء هذه الحالة المتدهورة التي آل إليها. كانت جريمة قتل نظيفة: ناجمة عن إصابة بسلاح ناري. طلقة حربية واحدة من تسعة مليمترات سكنت بالضبط فيما بين عينيه كأنها شامة، عمل شخص محترف له ضغطة زناد مثالية، سلاح غريب لا يظهر في أرشيفات قطاع الذخيرة. ربما هو تحفة، غالبًا مسدس لأحد هواة الاقتناء.

غطى مساعد الأرشيف بالملاء الرمادية هذا الوجه الذابل وتساءل من يجب أن يقدم له العزاء. لم يحدثه خواكين قط عن أي زوجة أو قريب. سأل الموظف:

- هل جاء أحد للتعرف على الجثة أيها الممرض؟

على الرغم من ارتدائه للبالطو الطبي، كان تشاكالنانا يشك في استخدام مصطلح «ممرض» لمناداة شخص يعمل مع الجثث. الجثث لا يمكن أن تصبح مريضة، حتى ولو بدت كذلك. لم تكن هيئة المكان بالمثل كمستشفى، بل كعلية أو خزانة متهالكة لحفظ القتلى وروائحهم قبل التخلص منهم للأبد.

- أحدهم.

دمدم الرجل قبل أن يشير عبر الباب المفتوح نحو قاعة الانتظار ثم غرق برأسه بعدها في صفحة الرياضة في الجريدة، وبالأخص في المقالات التي احتفلت بالتعادل مع هولندا.

سار تشاكالنانا نحو الاتجاه الذي أشار نحوه الإصبع. شك لدى عبوره عتبة الباب أن الموظف رغب في التخلص منه لمواصلة القراءة، إلا أنه هناك في الخارج عثر بالفعل على رجل كبير في السن. كان جالسًا أو بالأصح منهارًا فوق دكة خشبية قديمة كأن أحدهم قد نسي أن يدفنه. اقترب مساعد الأرشيف من الرجل وجلس بجانبه انتظارًا للإشارة أو فرصة لمحاديثه. لم تتحرك ولا واحدة حتى من عضلات العجوز. لم يبدُ حزينًا، بل غائبًا عن هذا العالم أكثر من أي شيء آخر، كأن اهتمامه ينصب على ما يحدث في كوكب بعيد. انعكس شعاع شمس وحيد فوق صلعته الناتئة ليجعلها تلمع بينما ينظر نحو الأرض. تنحنح تشاكالنانا وقرع بأصابعه على ذراع الدكة. تفهم في النهاية أنه يجب أن يتحدث:

- حضرتك.. هنا من أجل خواكين؟

دارت عينا الرجل -و فقط عيناه- نحو الأعلى واستقرتا عند وجه تشاكالنانا، لكن لم تأت إجابة. شعر مساعد الأرشيف بأنه ملزم بملاء الفراغ:

- أنا.. كنت صديقه.

ولأن الرجل ظل صامتاً، واصل تشاكالثانا حديثه:

- كنا نلعب الشطرنج.. كان يستخدم أرشيف المحكمة حيث أعمل.
كان مستخدماً مثاليًا وتعامل مع الوثائق بنظام مثير للإعجاب وكان يحفظ
بطاقات الدفاتر عن ظهر قلب. ليس لدي أي.. شكوى من طريقة تصرفه
في الأرشيف.

فكر تشاكالثانا في أن هذا ليس من نوع الخطابات المنتظر إلقائها
بخصوص الموتى، لكنه لم يكن يعرف أكثر من هذا عن خواكين. تساءل
عن أي شيء قد تحدثنا طوال تلك الشهور وكيف تمكنا من ملء هذا الفراغ
الزمني.

- حضرتك.. هل تلعب الشطرنج أيضاً؟

- لم أعبه منذ فترة.

أجابه الرجل قبل أن ينغمس مجدداً في تأملاته. كان ينطق حرف الـ«c»
كالثاء، مثل الإسباني، لكن لم تكن لديه لكتتهم، ربما فقط عصب لسانهم، لا
أكثر أو أقل. رغب تشاكالثانا في مواصلة الحديث لكن لم يخطر على باله شيء
ليقوله، لكن الغريب فاجأه باستئناف المحادثة. سأله:

- تقول إنك تعمل في المحكمة؟ هل كان خواكين متورطاً في مشكلة ما؟

«إسباني - قالها تشاكالثانا في سره حينما تعرف على لكتته - إسباني بلا
أدنى شك» ثم بادر بالرد:

- لا! كما سبق وأخبرت حضرتك. كان مستخدماً مثاليًا. ربما مستخدم
الأرشيف الوحيد.

- ولماذا.. ولماذا حدث له هذا؟

عجز الرجل عن تحمل المزيد وانفجر وجهه باكيًا. تفهم تشاكالтана أن وحده والد خواكين سيكي بهذه الصورة. بحث في جيبه عن منديله الاحتياطي وقدمه له.

- لا أدري. فقط أرغب في أن أنقل لك مشاعري العزائية.

- ماذا؟

- أصدق تعازي.

- حسنًا.

قبل الأب المنديل ووضع على وجهه. لاحظ تشاكالтана رجفة في يده. لم تكن رعشة قوية، لكن من قوتها قد يُستشف أن سببها ليس الحزن وحده؛ ربما تكون حركة عصبية لا إرادية أو بداية لمرض الشلل الرعاش. حاول تهدئته:

- ربما كانت محاولة سرقة.

- لديه طلقة في منتصف جبهته. اللعنة! لا أحد يطلق عليك النار لسرقة محفظتك.

استمر الرجل في النحيب وتساءل تشاكالтана إذا كان يجب عليه أن يقدم له منديله الأساسي. ظلا في صمت قرابة الساعة حتى نهض والد خواكين من مجلسه وسار نحو المخرج. لم يسمح له تشاكالтана أن يفتح الباب برعشة يديه. لم يرغب أيضًا أن يسير وحيدًا بالشارع في حالة إحباط مثل هذه، وقبل أن يتمكن الرجل من تفادي المسألة، كان مساعد الأرشيف يسير برفقته في الشارع حتى أول حانة عثرا عليها.

- لا حاجة لي أن ترافقني يا فتى. أنا في حالة جيدة.

نظر تشاكالтана نحو الباب، لكن عوضًا عن إلقاء الوداع تحدث بكل

صراحة ممكنة:

- ربما أنا من أحتاج لرفقة حضرتك.

طلبا اثنين من مشروب البيسكو اللاذع، أو بالأصح والد خواكين هو من طلبهما. فتشاكلتانا يتجنب دوما شرب البيسكو، إذ كان يتسبب في همو معدته، لكن هذه المرة جعله طعم الكوكتيل الحلو والمر يشعر بأنه أفضل. كانت بعض القطرات أحيانا تنسكب من كأس الأب، لكنه عامة شرب بطمأنينة توفرها له الخبرة. اقترح عليه تشاكلتانا:

- إذا وفرت لي الأسماء. يمكنني الاتصال بأصدقاء خواكين لحضور الجنازة.

هز والد خواكين رأسه في إشارة للرفض:

- لا أعرفهم. توقف خواكين منذ سنوات عدة عن اصطحاب أحد للمنزل، سواء أصدقاء أو حبيبات، بل إنه لم يأت حتى على ذكرهم. شعر تشاكلتانا بالإحباط لأن خواكين لم يتحدث عنه. أما هو فقد ذكره أمام أمه، خاصة في كل مرة يفوز عليه في مباراة للشطرنج.

- حسناً.. أنا اسمي فيليكس.

- وأنا جونتالو كالبو.

طلب السيد كالبو دورًا جديدًا من البيسكو اللاذع في الوقت الذي شرب فيه تشاكلتانا ثلث كوبه. احتسبا مشروبهما في صمت لكن حينها جاء الدور الثالث عجز فيليكس عن تجنب الحديث بل إنه شعر برغبة مجنونة في إجراء محادثة.

- حينما التقيت بخواكين آخر مرة قال لي: «كل الأمور ستنتهي على خير».

- آه. فعلا؟

- أمسكني من ذراعي وكان يبدو عليه التوتر، لكنه ابتسم وقال: «كن بخير يا فيليكس. كل الأمور ستنتهي على خير». لم أعرف لم قالها.

- كان شابًا متفائلًا. رأيي أن كل الأمور تنتهي بصورة سيئة دومًا. وهذا الرأي لم يخب قط.

شعر تشاكالтана بضغط المشروب على كليتيه. رغب في الذهاب للحمام، لكنه لدى نهوضه، دارت الحانة بأكملها بزاوية 80 درجة بل دارت الطاولة حول نفسها وهكذا تفهم أن أفضل ما يجب عليه فعله هو البقاء جالسًا ومحاولة جعل السيد كالبو يتحدث.

- هل اتصلت والدة خواكين؟ لا بد وأنها قلقة.

أشعل الرجل لفاقة ووجهها نحو فمه بصعوبة وبعد أن نفث الدخان أجاب:

- لا أظن. هي ميتة منذ 40 عامًا، منذ ولادته.

لم يخبر خواكين تشاكالтана قط بأي شيء عن أبويه وهو نفس ما فعله تشاكالтана، لذا تساءل مساعد الأرشيف مرة أخرى عن أي شيء كانا يتحدثان وما الذي نعرفه حقا عن الناس المحيطين بنا. وكان ما توصل له هو أننا لا نعرف شيئًا. غيرت أفكاره - التي هزها تأثير الكحول - مجددا وجهتها نحو باب المرحاض الذي لا يمكن الوصول إليه وعلى الفور قال المجاملة التي يعوزها الموقف بصعوبة:

- تعازي الحارة.

كان يشعر بانعقاد لسانه وثقل رأسه. نفث الرجل سحابة جديدة من

الدخان ورفع كتفيه كأن موت الأحياء من بني البشر حدث طبيعي؛ صحيح أنه حدث حزين لكن لا يمكن تجنبه، ثم شرع يحكي:

- ولد خواكين في قلب الحرب الأهلية في برشلونة. نزلت أمه كثيرا في الولادة. تنازع الموت والحياة عليها طيلة أيام. ربما كانت لتعيش، إلا أن المدينة كانت مصابة بالشلل. كانت القنابل تسقط من السماء يوماً تلو الآخر وانقطعت الاتصالات. لم تكن هناك أدوية تقريباً بالمستشفى. لم أتمكن من فعل شيء من أجلها، ولا حتى الذهاب للمستشفى.

وحدها الجملة الأخيرة خانها انكسار عاطفي في صوته، لكنه استجمع شتات نفسه سريعاً فهو بلا شك لم يكن يفكر في البكاء مرتين أمام شخص غريب، وبالأخص في مكان عام. من جانبه تأخر تشاكالثانا ضعف الوقت المعتاد لمعالجة كلماته والفرع كما يجب.

- لهذا جئت حضرتك إلى بيرو؟

لم يجبه السيد كالبو. ظل ينظر للرقوة والقرفة الموجودة في قاع كوبه، كأنهما توجهان رسالة له، قبل أن يؤكد:

- هنا. هناك. قبل. الآن. كل الأمور سواسية. حرب أخذت زوجتي وحرب أخذت ابني.

رغم معدته الهائجة ورأسه التي ألمتها الكحول، لاحظ تشاكالثانا الخطأ في عبارة الرجل وتجاهل أي خطأ كان قطعاً ضد طبيعته، لذا رد:

- خواكين لم يمت في حرب. هذه مسألة مختلفة.

ألقي السيد كالبو بورقة نقدية فوق الطاولة واستدار نحو المخرج:

- حقاً؟ ما يستقر في جبهة ابني هي «رصاصه رحمة». أنا قادر على التعرف

عليها. هذه الرصاصة أطلقها عسكري والعسكريون يقودون الحروب.

رحل بعدها عن الحانة دون إلقاء الوداع. تركه تشاكال تانا يذهب وطلب

كوبًا من الماء. انتظر نحو عشرين دقيقة حتى استعاد اتزانه بأفضل صورة
ممكنة قبل أن ينهض من على الطاولة.

- فيليكس. أنت بخير؟

عاد تشاكالтана إلى أرض الواقع. كان طبق الدجاج بالفلفل الأحمر الموضوع أمامه قد بدأ يبرد وعلى الجانب الآخر من الطاولة كانت سيسيليا تنظر له بقلق. أجاها متمتًا:

- أنا في خير حال.

كان يكذب. آلمته رأسه وحلقه كان جافًا وبخلاف هذا كان يعاني من دوار أخلاقي، فأمه ألقت عليه في الليلة السابقة خطبة عن ساعة عودته المتأخرة وعلى الرغم من محاولته إخفاء حالته، إلا أن أنفاسه المعبأة بالكحول كان يستحيل سترها. لم ينم جيدًا. كان الفراش يلف ويدور به بجنون ولم يكن تركيزه صباحًا في العمل كما يجب. أخطأ مرتين في تصنيفات فحصه الروتيني، وفوق كل هذا لم يدفن بعض البلاغات الهامة في ذلك الثقب الأسود الموجود في رواق السرقات الصغرى حيث لا يقدر أحد على العثور عليها.

- الأمر يتعلق بصديقك. أليس كذلك؟

أوما تشاكالтана برأسه مهزومًا.

- هل لديك فكرة من الذي...؟ أنت تعرف..

كانت سيسيليا جميلة، كما هي دائمًا، لكن طبق السبييتشي الذي كانت تتناوله كان يبدو كمادة مشعة. أعاد تشاكالтана نظره لطبق الدجاج بالفلفل الأحمر ورآه كقيء قطة. حاول أن يبعد عن ذهنه أي تفكير قد يرتبط بالمعدة لتجنب عقبات المسألة.

- عثرت الجامعة على أبيه. تحدثت الليلة الماضية معه. يعتقد أن ما حدث كان بيد العسكريين. يقول إنها رصاصة رحمة، مثل تلك التي تُطلق بعد الإعدام بالرصاص.

- وما رأيك؟

هز تشاكالтана رأسه. حتى هذا سبب له ألماً.

- رأيي أن القوات المسؤولة عن حماية الوطن لا تفعل هذه الأمور.

- ربما كلها لا، لكن أحد أفرادها ربما.. ربما كان نزاعاً ذا طابع شخصي أو جندي ثمل.

بقي تشاكالтана صامتا. استاء من التفكير في هذه الاحتمالية، ففي كل مرة يرى في طريقه جندياً، كان ينتفخ زهواً بالفخر الوطني. كانت لديه فوق فراشه، بجوار المسيح مصلوباً، شارة بألوان العلم، ومساءً حينها يبدأ برنامج البث التلفزيوني بإذاعة النشيد الوطني، كان يمكث أمام الجهاز ليردده بصوت خافت. قرر تغيير الموضوع:

- هل فكرت في طلبي؟

أجابته ببعض المكر:

- وهل فكرت أنت في طلبي؟

كان ينتظر السؤال وخرجت منه الإجابة سريعة كأنها طليقة:

- هذا الأحد.

- هذا الأحد ماذا؟

- هذا الأحد ستأتين إلى منزلي و..

لم يعرف كيف يقولها. لم يكن يعرف ما الذي سيفعلانه تحديداً، لكنه أنهى عبارته:

- ويمكننا أن نصبح وحدنا.

قطبت سيسيليا جينها:

- وحدنا مع أمك!؟

كانت قد رفعت عصير التفاح نحو فمها، لكنها حينها سمعت عبارته ابتسمت بعينها. رسمت هاتان العينان شعاعاً من النور وسط ضباب يوم تشاكالтана. رافقها حتى العودة إلى مكتبها وودعها بقبلة حارة لكن دون التخلي عن جانب الاحترام المطلوب. استمر في طريقه نحو الأرشيف وسط مخيلات وأحلام. اصطدم بمظاهرة. لم تكن كبيرة للغاية. شغلت مربعاً سكنياً بالصحفيين الذين جاؤوا لتغطيتها. طوقتها أربع سيارات للشرطة سريعاً. ارتدى أفرادها خوذة ودرعاً. طوقوا المحيط وتوترت الأجواء بين قصر العدل والكاتدرائية لكن لم يتحرك أحد. هتف شرطي من مدرعته:

- من فضلكم. عودوا للخلف!

ثمة سياسي في وسط الشارع يحمل مكبراً للصوت ويدعو للعصيان العام. تعرف تشاكالтана عليه. إنه الذي يظهر بيندية في اللافتات الدعائية. لم يحسم أنصاره مسألة بدء المواجهة، فيما ظل رجال الشرطة في أماكنهم انتظاراً لأمر الهجوم. سارع تشاكالтана من خطواته متوقفاً المضايقات التي قد يتعرض لها بصورة يصعب تفاديها كأحد المشاة في أوقات الاضطرابات العامة. حينما وصل لقصر العدل كان يلهث، وإضاءة السلم معطوبة؛ لهذا هبط نحو القبو وسط ظلام دامس متحسسا طريقه عبر درابزين الدرج. بدا ممتنا من وصوله لمكتبه وفوقه عثر على بلاغ «مخالفة إدارة الجوازات» ضد نيوموسينو بالدببيا

ينتظره. كان البلاغ هناك منذ عدة أيام وقد نسيه. لم يجب تشاكاللتانا أن تتراكم الأوراق فوق مكتبه، لكن أرشفة هذا البلاغ تحتاج لمعرفة من أين قد خرج وما هي فحواها بالضبط. جلس ليجهز إخطاراً للاستعلام. وحده صوت المدير هو ما أخرجه من أفكاره:

- فيليكسيو ابني الصغير. يا لسعادة عيني برؤيتك. أين كنت؟

عجز تشاكاللتانا عن الرد. استغرق غداؤه نحو ساعة كاملة، تماماً كما تنص اللائحة. لم يره المدير منذ يوم الأربعاء لأنه لم يأت للعمل.
- أنا..

- لا مشكلة يا فيليكسيو. هذا الأمر بيننا. اليوم أنت. غدا أنا وهكذا.
أليس كذلك؟

غمز له بعينه من خلف نظارته السميقة. لم ينجح تشاكاللتانا في تقديم أي إجابة وفرض الصمت بينهما كلمات مديره كحقيقة. استطرد المدير:
- صحيح. ما فعلته يوم الأربعاء عمل جيد جداً. أليس كذلك؟ في الدور الثالث يشكرونك على تدخلك ويرسلون لك تحياتهم.

غمز له مجدداً بعينه. كانت هذه الكلمات بلا شك لها مغزى عجز تشاكاللتانا عن فهمه، لكنه على أي حال حاول الرد بغمزة، إلا أنه لم يتمكن من غلق عين واحدة وكان كل ما نجح فيه بالكاد هو رفة حمقاء برمشه.

- بالمناسبة يا بني. سأجتمع معهم لمشاهدة مباراة إيران. هل ستراهن أم ماذا؟

- آه.

- سنحطم مؤخرات الإيرانيين. كن واثقاً من هذا.

- بالطبع.

- أتعرف ما يجب عليهم فعله؟ السماح لنا بإقامة حفل من الأهداف على شرفهم. تعرضوا للإقصاء بالفعل فلماذا لا يمنحونا فرحة؟ سأراهن على أنهم سيتضامنون معنا لنفوز بثلاثية نظيفة من أجل الأخوة البيروفية الإيرانية. أترغب في الرهان؟

- لا شكرا.

- سأسجل اسمك لكي تحضر المباراة على الأقل.

- ممتن وأتشف بهذه الدعوة، لكن أخشى أن لدي التزام لا يمكن الغياب عنه يا سيدي.

لم يخف المدير اندهاشه:

- يا بني ارحم خصيتي! المباراة يوم الأحد. لا يوجد شيء لتفعله يوم الأحد.

- حسناً.. فعلاً.. المشكلة أنه توجد.. عظة.

- عظة!

ضحك المدير بشدة ثم قال له بنبرة متفهمة:

- أعرف أنك لا تهتم بكرة القدم، لكن حينما نفوز سيكون رجال الدور الثالث في حالة مزاجية جيدة وسيحظون بذكرى جيدة عنك. أفهمني؟

- لا.

- حقًا يا بني؟ أحيانًا تصيبي بالذهول.

- شكرا يا سيدي.

صفف المدير شعره بنفاد صبر. كان أصلع من الأعلى، إلا أنه يترك شعره ينمو عند أحد الجانبين ثم يمرره نحو الناحية الأخرى كأنه لسان بقرة أسود ممتلئ بالقشرة. أدار له ظهره محبطاً ثم قال بتذمر:

- فيليكس. إذا رغبت في الترقى، فأنت في حاجة لعلاقات. أتفهم؟
دعني أخبرك: لن يمنحك أحد أي شيء لأنك تجلس منزويًا في ركنك.
أجابه تشاكالтана، كما يفعل دومًا:

- صحيح يا سيدي.

لم يشكل الأمر فارقًا معه حينها. ما كان يرغب فيه بكل بساطة هو أن يتوقف صداع رأسه وأن تطول عظة الأحد، وفوق كل شيء أن يعود خواكين للحياة ليتحدثا معًا ويلعبا الشطرنج. من في الدور الثالث ليسوا قادرين على منحه أي من هذا، ولا من هم سواهم.

طرف نحو الأعلى والآخر نحو اليسار.

علمه خواكين كالبو كيف يربط الكرافات بعقدة «ويندسور». حدث هذا ذات صباح عقب لعب الشطرنج في حديقة ميرافلوريس. أخبره أنه لا يمكن أن يعيش طيلة حياته بعقدة كرافات المرؤوسين البسيطة هذه وشرح له طرق لف وأسرار عقدة الـ«ويندسور» التي يعتبرها أنيقة. الآن يحاول تشاكالانا تكرار هذه اللفة وتلك في رابطة عنقه السوداء ليلتقي مع صديقه للمرة الأخيرة.

- إلى أين تذهب؟

- إلى ماتم صديقي يا أمي. أنت تعرفين هذا بالفعل؟

- ذلك الذي مات في شجار؟

- لا نعرف كيف مات. فقط أنهم أطلقوا النار عليه.

- لا بد وأنه فعل شيئًا ما يا فيليكس. لا بد.

هزت أمه رأسه وهي تتخيل بلا شك ما افترضت أن خواكين فعله. ربما رقص مع سيدة متزوجة أو أسرف في تناول الكحول. فهذه الأشياء تحدث حينما تلعب مع القدر.

دافع فيليكس عن صديقه:

- كان رجلاً شهماً وكريماً يا أمي. شريفاً ومجتهداً أيضاً.

- ألم يكن أعزب؟ الشهم الحقيقي في سن الأربعين يكون له عائلة.

مسألته هذه كانت.. غريبة نوعاً ما.

في قاموس مفردات أمه كانت كلمة «غريب» تعني «غريب»، أما اصطلاح «غريب نوعاً ما» فهو اشتقاق يحمل مغزى جنسياً، أي أنه منحرف تماماً، إذ كانت أمه ترى أنه إذا لم يقدم الرجل -في عمر ما- على إتمام رباط الزواج المقدس، فلا بد وأن يسقط في هذا التصنيف.

انتهى تشاكالنانا من ربط العقدة. أخرج من الدرج مندبلاً أسود وثنائه، ثم وضعه في جيب سترته ليظل طرفاه منه كنسيج مموج. ليست المسألة أنه لم يكن يتحدث عن النساء مع خواكين، بل أنها لم يتحدثا معا عن امرأة بعينها. كان خواكين أحياناً يمزح بخصوص النساء بصفة عامة أو بعض أجزائهن، لكنه لم يكن متزوجاً على حد علمه. سألته أمه:

- لم لا تأخذني معك؟

- إلى الدفن؟

- ستكون هناك عظة، أليس كذلك؟ ستكفيني عن عظة اليوم.

- ح... ح... حسناً.

في نهاية المطاف سيعود عليها استنشاق بعض الهواء بالنفع. هذا إن تمكنا من الوصول بالطبع، فقد استغرقت السيدة نحو ساعة لتتهندم. غيرت حذاءها. وضعت بعض الماكياج وطرحة الدانتيل السوداء (مانتيلا)⁽¹⁾، ومشط الـ«بينيتا»⁽²⁾ على الطراز الإسباني فوق رأسها. أضافت طرحة أخرى ومسبحة من البورسلين وصلبياً تتلى منه بعض الخرزات الذهبية. لاحظ

1. طرحة من الدانتيل أو الحرير ذات قصة معينة وأصلها إسباني.

2. مشط زينة إسباني للشعر يستخدم مع طرحة المانتيلا.

تشاكالтана دوما أن أمه كانت ترتدي أفضل ثيابها في المآتم فقط.

لم تلعب بيرو في ذلك السبب لذا كان الشارع يفيض بالحياة التي تجسدت في ازدحام الأرصفة والمتاجر المفتوحة وأجهزة الراديو المشغلة بعلو الصوت في الحانات والمطاعم؛ الحركة المعتادة لأي يوم طبيعي، على الرغم من بث ثلاث مباريات في ذلك المساء، الأخيرة منها بين إيطاليا والأرجنتين. كانت الحركة المرورية متشعبة بأناس تعود لبيوتها، لذا استغرقت عملية تغيير الحافلة نحو منطقة كاياو وقتاً طويلاً جداً، وهنا تفهم تشاكالтана بقلق أنها سيتأخران أكثر من ساعة في الوصول للوجهة المطلوبة.

اشترى تشاكالтана عند مدخل مقبرة «باكيخانو وكازيو» زهوراً. كان يرغب في شراء زهور الكولونيا لأنه تذكر أن خواكين أحبها، لكن أمه أصرت على أن «ما يليق» هو شراء إكليل تقليدي. أخرهما النقاش لوقت أطول وأذعن تشاكالтана في النهاية لرغبتها ليسرعا في طريقهما. بينما كانا يعبران الأضرحة الرخامية الخاصة بالعائلات المقتدرة، اعتقد تشاكالтана أنه رأى شخصا يعرفه. أو مضت ذاكرته كفلاش كاميرا، إلا أن أمه لم تتوقف عن الحديث ليتبخر الأمر من رأسه. صممت أمه فقط حينها وصلا لمنطقة مدافن الفقراء، حيث تراكمت المقابر بعضها فوق الأخرى، كوحدات أهالٍ سكنية في حي للعمال. كان هذا هو حي الموتى الفقراء. وصلا متأخرين. يبدو أن حفاري القبور هم الوحيدون الذين يصلون في موعدهم في ليما، إذ كانوا يقومون بالفعل بتغطية كوة الدفن. خلعت المقبرة من أي زينة سوى صورة لخواكين وشاهد يحمل اسمه وسنوات حياته. «1938 - 1978». وقف جونثالو كالبو أمام الشاهد مرتدياً نظارة قاتمة. بدا كأنه ينظر نحو عيني ابنه. شعر تشاكالтана بالذنب.

- أرى أننا وصلنا حينها رحل الجميع. آسف.

تأخر أبو الفقيد عدة ثوان قبل إدراك أن لديه صحبة وحينما تمكن من إدراك الأمر غمغم فقط:

- لم يأت أحد.

شعر تشاكالтана باستياء بحزن أكبر. برز الحزن في منديله الأسود ورابطة عنقه ومشط الـ«بينيتا» وطرحه أمه؛ كل تلك الملابس التي ارتديها لكيلا يراها أحد في النهاية.

- لست مندهشة بالمرّة. الأصدقاء الزائفون في كل مكان. وحدهما الموت والمعاناة يكشفان معدن الأشخاص.

قالتها أمه وبسبب نبرة صوتها المعتادة استحال معرفة إن كانت تحتج أم أنه مجرد تعليق.

لم يتحرك شيء في السيد كالبو، إلا أن عينيه التفتتا غالبًا من خلف عدسات نظارته القائمة.

- هذه أمي، والسيد هو دون جونثالو والد خواكين.

حياهما الرجل:

- شكرًا على الحضور.

- أتمنى أن تكون الخدمة قد نالت رضاك.

قالها تشاكالтана، على الرغم من أنه لم يكن واثقًا من أن الخدمات الجنائزية قد تنال رضا أحد.

- استغرق الأمر خمس دقائق. حتى الكاهن أخطأ في اسم خواكين.

حاول تشاكالтана أن يجد عذرًا:

- ربما كان لديه الكثير من العمل.

نظرة واحدة لما هو حوله تثبت العكس. على ما يبدو فإن الناس في أيام كرة القدم لا يموتون أساسًا. رأى أن من واجبه إخماد معاناة هذا الرجل، لكنها ربما كانت طريقة لتخفيف وطأة معاناته الشخصية.

اقتربت أم تشاكالтана من المدفن وتشبثت بحبات مسبحتها وبشفتين انفرجتا بالكاد تمتمت ببعض الصلوات، كأنه روتين تقليدي في مثل هذه الحالات. استغل السيد كالبو هذه اللحظة وقال بصوت منخفض:

- فيليكس. أيمكنني أن أطلب منك خدمة؟

- قل يا دون جونثالو. اعتمد علي في أي شيء قد تحتاجه.

- معي مفتاح شقة خواكين، لكن لا أتجرأ على الدخول. هو أمر.. شديد القسوة بالنسبة لي. لا أعرف إن كنت تفهمني.

أوما تشاكالтана برأسه بينما تنهد السيد كالبو. استطرد العجوز:

- أرغب في أن تلقي نظرة. إذا كان هناك شيء له قيمة عائلية. احفظه لي وبالطبع إذا كان هناك له قيمة شخصية عندك، فهو لك.

- أتشرف باختيارك لي لهذه المهمة يا سيدي.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه السيد كالبو. أعطاه المفتاح وبطاقة بالعنوان مكتوبًا، والذي لم يكن ذلك الواقع في شارع كابون، كما سجله خواكين في الأرشيف. عادت يد العجوز لترتجف حينما لمست يد تشاكالтана قبل أن يعترف:

- بأمانة يا فيليكس ليس لدي أي خيار آخر.

كان تشاكالтана سيجيبه، إلا أن أمه كانت قد انتهت من صلواتها واقتربت

حينها منها. قالت للسيد كالبو:

- نحن أيضًا فقدنا والد فيليكس.

- أمي لا أعتقد أن السيد قد يهتم ب...

قاطعها كالبو:

- من فضلك. أنا مهتم.

- كانت مصيبة. مأساة.

تحدثت كأن الحادث وقع قبلها بيوم، وقصت مرة تلو الأخرى ألم خسارتها. استاء تشاكالтана من الموضوع. ليست لديه ذكريات جيدة عن والده. لم يرغب في الإنصات لأي شيء متعلق بوفاته. بوجه عام كان يفضل تجنب التفكير فيه أو الإنصات لأي شيء يخصه، لكن أمه عنيدة ويستحيل كبحها بمجرد أن تبدأ واحدة من خطاباتها المسهبة. متوارياً، ابتعد عنها. بدا أن كالبو يستمتع بالحديث، لهذا اقترب تشاكالтана من المقبرة لتوديع صديقه في صمت. حينما انتهت المحادثة، أو بالأصح حينما انتهى مونولوج أمه، كان ما يزال أمامها. يومئ كالبو برأسه هنا وهناك ويشجعها على الاستمرار. لهذا تقدم تشاكالтана بعض الشيء نحو الأمام، نحو الأضرحة الأفخم. تجول بنظرة بين صور القديسين والملائكة التي زينت المدافن الأعلى. بعض المقابر ضخمة لدرجة بدت معها كأنها بيوت، ما جعل الحفرة التي ستحلل فيها عظام صديقه تبدو أصغر، وبينما تتجول أفكاره بين الموتى، ظن مجدداً أنه رأى ظلاً يعرفه، هناك في الأمام، وهو شبه مختفٍ خلف صليب على الطراز القوطي.

ظل ساكناً في مكانه. لم يتحرك الظل بالمثل. تفهم أنه ينظر إليه - إلى تشاكالтана- لكنه لم يرفع نظره. رغب في الاقتراب من الظل دون أن يثير

انتباهه. واصل جولته متظاهرا الاهتمام بالمزاهر والشموع الموجودة في الطريق. رسم طريقا ليقرب من ملاحقه الصامت. افترض وفقا لحساباته أن الظل يحاول الابتعاد بعض الشيء وأنه سيلتقي به عند نحت كثيب ملاك الموت. أصاب في تخمينه. كان هذا الظل المتحرك يخصّ رجلاً. اثنين في الحقيقة. حاولا الهرب منه، لكنها الآن في مواجهته، ولكيلا يصطنعا شيئاً ما، خفضا رأسيهما واستدارا نحو اتجاه الخروج. لم يتوقف أي منهما. لم يتحدث أي منهما؛ على الأقل حينما كانا أمامه. تذكر مساعد الأرشيف أين سبق ورأى هذين الرجلين. حدث هذا في الجامعة. حينما ذهب للبحث عن خواكين. إنها الطالب ذو البثور وصديقه ذو اللحية. سخر منه في ذلك اليوم بقاعة الدراسة والآن يتعدان بخطوات مسرعة في ممر المدافن والمقابر. هناك سبب واحد قد يدفعهما للوجود هنا، لكن لماذا لم يقتربا من المقبرة؟ لماذا تظاهرا بأنهما لا يعرفانه؟ وبالأخص لماذا نظرا نحوه وليس نحو جثمان أستاذهما السابق. وصل الرجلان عند باب المقبرة. فكر تشاكاليتانا في اللحاق بهما، لكن جسده لم يتقدم ولو خطوة واحدة نحو الأمام.

- أخيرًا أصبحنا وحدنا.

على الرغم من الابتسامة العذبة التي أهدتها له سيسيليا من على عتبة الباب، كانت يدا فيليكس تشاكاليتانا تتعرقان. هناك جزء منه يحرقه الشوق للوصول هذه اللحظة، لكن الجزء الآخر يشعر بأنها فوق قدرته على التحمل. حتى آخر لحظة ود هذا الجزء أن تمرض أمه وتمكث في المنزل أو أن تُلغى العظة بسبب المباراة، إلا أن أيا من هذا لم يحدث، وكان يخشى الآن عجزه عن متابعة الأمر.

كانت الكلمة الأولى على الأقل سهلة:

- أهلا.

- كيف كان الدفن؟

- غريبًا. كانت كل الأمور غريبة نوعًا ما.

كانت يدا تشاكاليتانا في جيبه وكتفاه مرفوعان، كأنه طالب مدرسي يتلقى توبيخًا.

- أوافق من رغبتك في حدوث هذا؟ ربما تفضل الآن البقاء وحدك.

صرفت هذه الكلمات كل مخاوف مساعد الأرشيف فيليكس تشاكاليتانا، كأنها طارد للبعوض. كانت لديه شكوكه الكثيرة وشيء واحد مؤكد؛ لم يكن يرغب في البقاء وحيدًا.

- لم لا نشرب بعض الشاي؟

جلست سيسيليا على الأريكة، وبينما هو في طريقه نحو المطبخ أدار صورة والده نحو الخلف، لكيلا يشاهدهما من مذبحه. عاد بعدها بعدة دقائق بالبراد محاولاً ألا يسكب شيئاً بسبب رعشة أعصابه. تأخر في صبه، ثم جلس بجوارها. لم يعرف ما الذي يجب عليه قوله.

سألته سيسيليا:

- أنت بخير؟

- أنا بخير. مزيد من السكر؟ أو ربما بعض العسل؟ لدي أيضاً لبن و...

- قبة. أرغب في قبة. جئت إلى هنا من أجل قبلي الموعودة.

صحيح. القبة. حاول تشاكالثانا تذكر قبلات المسلسلات التي تشاهدها أمه. اعتدل في جلسته نحو جانب، ثم عدلها نحو الآخر، لكنه لم يعثر على الوضع الصحيح. رأى بعدها أنه لن يبدو أبداً مثل أبطال المسلسلات التي تشاهدها أمه. أصابه الإحباط حتى قبلته هي في النهاية. حاول تشاكالثانا في اللحظات الأولى محاكاة حركات فم سيسيليا ونجح الأمر. اقتصرت المنطقة النشطة في البداية على الشفاه. ملتصقة ببعضها البعض كانت شفاهه تضغط على شفاهها. بعدها فتحت سيسيليا فمها وواصل تشاكالثانا التقبيل. فتح عينيه لدراسة الموقف، لكنها أبقت عينيها مغلقتين. ارتأى أن الصواب يقتضي أن يغلقها هو الآخر. كان قادراً على الاستماع لصوت أنفاس فتاته عن قرب، وحينها عرضت عليه عنقها قبلها من شحمة أذنها إلى ما تحت شفيتها واستثار على الفور. فجأة أصبح لسانها داخل فمه. هذا كان يصعب محاكاته، إلا أنه حاول مجاراته. لا بد وأنه كان يبلي بلاء حسناً لأن أنفاسها كانت تزداد كثافة والتصق صدرها به. كانا ما يزالان في وضع الجلوس، بجسدين يطوقان بعضهما عند منطقة ما فوق الخصر، يتلامسان ويأخذ كل

منها عصارة الآخر. فك تشاكالثانا لجامه وبدأ في إجراء تجاربه الشخصية: مداعبة وجهها، احتضانها بقوة من منطقة الخصر، الاستمتاع بلمس نهدتها، كبرتقالتين ناضجتين تلتصقان بجذعه وحينها حدث ما كان يجب أن يحدث. بلا شك، هذه واحدة من الأمور التي يكتبها القدر، فقد دخلت أمه من الباب وهتفت:

- فيليكس تشاكالثانا سالدييار!

فرع الثنائي. استعاد كل منهما باندفاع وضعية جلوسه السابقة بالنظر نحو الأمام، كأنها هكذا سيقدران على إخفاء ما كانا يفعلانه وهنا عثرا على السيدة تقف شاحبة عند إطار الباب.

- لم أبتعد سوى ثلاثمائة متر وأنت جلبت عا... عا...

- أمي. هي سيسيليا فقط.

- «فقط»؟ ما تفعله هو تلطix سمعة هذا البيت.

انتفضت سيسيليا وكان الوضع يسليها:

- سمعة؟ وما هي «سمعة» هذا البيت؟

- أعتقد أن ساعة رحيلك قد حانت أيتها الشابة الصغيرة.

- أمي سترحل سيسيليا حينما أقول إنها سترحل.

كان رد أمه كمن تلقت صفة، وبخليط من الغضب والعجز عن

التصديق فقالت:

- آه! لقد بت أعرف! هو شيطان الشهوة.

- شيطان «ماذا»؟

ضحكت سيسيليا لكنها بعد نظرة رجاء من تشاكالтана بقت صامته، إلا أن الأم على النقيض كان لديها الكثير لتؤنب وتوبخ بسببه.

- وحده الرب جعلني أنسى حافظة نقود صدقات العظة لكي أفاجئكما في لحظة الخطيئة.

- حسناً يا أمي. كفى. أعتقد أن سيسيليا لا تستحق سماع هذه الأمور.

- هذه الأنسة تستحق سماع ما هي عليه.

- من الأفضل أن أذهب يا فيليكس.

هتفت الأم:

- بكل تأكيد.

- سأرافك.

كان يتحدى أمه، وبينما يضع وشاحه وترتدي سيسيليا معطفها ألقى السيدة عليها وابلًا من السباب والإهانات. هددت فيليكس بأنها لن تتركه يدخل المنزل وسيسيليا بأشكال متنوعة من الإدانة الأبدية. لم يرد أي منهما عليها. وحده تشاكالтана شعر بأنه كان يجب أن يتحدث، وأن صمته لم يكن بدافع الكرامة، بل أحد أنواع الخوف.

لم يتبادلا الحديث داخل الحافلة الصغيرة. كان وجه فيليكس قد احمر من الغضب والخجل وعلى الرغم من احتواء سيسيليا لمشاعرها إلا أن تأنيبا كان يُمكن قراءته في نظرتها، بل وكلمة واحدة أيضًا: جبان. ودعا بعضها عند باب منزلها بقبلة لم تلامس فيها الشفاه حتى الحدود ووعدها بأن يتصل بها خلال الأيام المقبلة. تساءل تشاكالтана عما يجب أن يفعله بعدما شاهدها وهي تختفي في الداخل. لم يرغب في العودة للمنزل. عاجلاً أم آجلاً لن يجد

سبيلاً سوى العودة، لكن «آجلاً» بدا خياراً أفضل. سار حول المربع السكني وذلك الذي يليه. مستسلماً دون معرفة ما الذي يجب عليه فعله عاد نحو محطة الحافلات الصغيرة. كان يرتدي نفس سروال اليوم السابق. وحينما وضع يديه في جيبه عشر دون قصد على ما نسيه هناك. بعد كل هذا الوقت، عرف أن لديه مكاناً بالفعل يذهب إليه. في تلك اللحظة تحديداً، كان هناك مكان ما في العالم ينتظره.

يقع بيت خواكين كالبو الحقيقي في شارع «لامبا» بالدور العلوي من
بناية بلا مصعد قد تساقط طلاؤها، بين باعة متجولين لمشروبات تساعد
على الانتصاب والعباب جنسية. عاش خواكين على بعد خطوات من «ليما
ذات الإطار المعروف»، لكنه في نفس الوقت خارجها كأنه يستعد للفرار.
حينما وصل تشاكاللتانا عند الباب ظل واقفًا. كان في حاجة لاستعادة بعض
أنفاسه بعد صعود خمسة أدوار على الدرج، إلا أنه رغب أيضًا في منح اللحظة
جلالها المطلوب. لم يود الدخول هناك لمساعدة دون جوثالو فقط، بل كان
تشاكاللتانا محتاجًا لمعرفة حقيقة صديقه، وهذا هو المكان الوحيد الذي أمل
أن يعثر فيه على إجابة. فتح الباب ببطء، كأنه يخشى إيقاظ أحد ما ومكث
عند عتبة ليأخذ فكرة عامة عن الشقة. كانت صورته الأولى عنها هي فوضى
من الأشياء المحطمة. رقد كرسي الصالون على الأرض بجوار مائدة الطعام،
بعد تمزيق حشوها وفتقه، أما الأريكة فظلت في مكانها، إلا أن أحدًا ما شققها
بمطواة ليتدفق حشوها من تلك الفتحة. من على الجدران، سقطت خزانتان
ورف لتبعثر مجموعة متنوعة من الكتب ومانافض السجائر والزينة في كل
أركان الصالة. بقيت كثير من الكتب مفتوحة، ممزقة الأوراق بل ومنزوعة
الجعوب. أطل جانبًا الصالة على مطبخ وغرفة نوم تطابقا في نفس حالة
الدمار. هذه الفوضى أمر لا يمكن التفكير به لدى رجل دقيق مثل خواكين،
لكن مرة أخرى وجد تشاكاللتانا نفسه مضطرا للتساؤل إن كان حقًا يعرف
من هو خواكين، إن كان لاعب الشطرنج المسالم هو نفسه خواكين الحقيقي
أم أنه مجرد تنكر ماهر ل... ل... لـ «ماذا»؟ توغل تشاكاللتانا في غابة الأوراق
والخشب هذه. على ما يبدو لم يكن هناك شيء عضوي في البيت: لا أصانص

للنباتات أو حيوانات أو طعام مكشوف. لا يوجد شيء يعيش هنا ولهذا لم تكن رائحة الشقة سيئة. كانت غرفة النوم الوحيدة مقلوبة رأسًا على عقب. المرتبة مبقورة البطن متروكة فوق الأرضية والمفارش الممزقة تغطي المصباح. ثمة أوراق هنا أيضًا، لكن لا وجود للصور، فوسط مقبرة الوثائق هذه لم تظهر صورة لصديقه أو أي من أحبائه، ولو حتى كلب. لم يتجرأ على دخول المطبخ خوفًا من أي شظايا لأطباق وأكواب مكسورة.

كانت الستائر والنوافذ مغلقة منذ عدة أيام والأجواء ثخينة ورطبة. شعر تشاكاللتانا بالانزعاج. كان يتجول في أرض خطيرة؛ صحيح أنه يرغب في تكريم صديقه، إلا أن المشهد يغرقه كل مرة في بحر من الشكوك. فتح النافذة وهو يفكر في اتخاذ قراره، وليحظى ببعض الرفقة شغل تلفاز الصلاة، ومن الجهاز جاء ذلك الصوت المعروف:

- ها هو مونيانتي صاحب القميص رقم سبعة يتقدم لإرسال أول ركلة ركنية في المباراة لصالح بيرو. مرت دقيقتان فقط من اللعب، لكن الفريق الإيراني محاصر.

على الشاشة، ظهر بعض الحضور في الملعب بجلاليب وعباءات فارسية. شعر تشاكاللتانا بأنه غريب مثلهم.

- دعونا ننتبه للعرضية. رأسية من بيلاسكيث وهدف. جوووووووول لبيلاسكيث! لم تكد المباراة تبدأ وبيرو أشهرت مخالبيها!

شعر باهتزاز. احتفال جماعي قادم من الخارج. فكر تشاكاللتانا في مدير الأرشيف. على الأقل سيكون سعيدًا مع أصدقائه في الدور الثالث وهو يحتفل بالهدف. كان يتوق لنسمة من الهواء المنعش، كأنه في شارع «لامبا». سار بين ذلك الجانب والآخر وذهنه يحاول إعادة بناء حياة صديقه وسط

هذه المقبرة من الأغراض منزوعة الأحشاء. لفتت انتباهه كومة متراكمة ذات لون زاعق عند أحد الأركان. تحقق حينها اقترب منها من كونها أعلاما. هي أعلام حمراء، طُبع على بعضها منجل ومطرقة باللون الأصفر. حمل بعضها الآخر اختصارات مثل PSR و PCP و MIR و FOCEP. حينها ركز في الأوراق المثورة على الأرضية عشر على نفس الرموز وبالمثل المناجل والمطارق وكلمات أخرى عرفها من مكان آخر «اليانكيون الإمبرياليون» و«ماكينه النظام القمعية» و«حركة التحرير الشعبي». كان قد قرأ هذه الكلمات في منشورات توزعها أيد مجهولة في وسط ليبيا وسمعها في مظاهرات سياسية بالجامعة وأنشطة شبه سرية كانت تتوقف وقت ظهور الأساتذة. سمعها من فم زملائه، منطوقة دومًا بغضب وحدة كأن الكلمات نفسها أسلحة نارية. لم يعرف تحديدًا إلى أي شيء تشير. لم يختلط قط بأشخاص قد يستخدمونها، إلا أنه كان جليًا لديه أن هذه الكلمات لا تجلب سوى المشاكل.

حينما مر بجوار الحمام، أحس كأنه سمع صفييرًا، همسًا أو ربما انزلاقًا. تجمد في مكانه. احتوى أنفاسه واقترب من الباب. كان الحمام قد أفلت من الفوضى التي لحقت بالشقة، لكن لم يكن به شيء يذكر. عبوات للدواء في خزانها الموجودة فوق المراض، ومناشف على الأرضية، لكن في نهاية الحمام انتظره اكتشاف ينذر بالخطر، إذ عكست الستارة البلاستيكية الزمردية بخفوت ظلًا قائمًا بحجم رجل.

واصل معلق المباراة عمله عبر التلفاز:

- إيران تسعى للملمة شتاتها. يهاجمون الآن من قلب الملعب، لكن الدفاع البيروفي يقف كعمود روماني راسخ. ارتياك في المنطقة وحسن روشن يسعى للتسجيل. حذارٍ؛ فلا يمكن ترك هذا الرجل وحده. يسدد على المرمى و... كيروغا. الحارس البيروفي يحطم آمال الإيرانيين بتصدٍ عظيم ومذهل وحاسم.

من خلف الستارة ينقبض ذلك الظل وينبسط بخفة. كان تنفسا لجذع بشري يرتدي قميصا وسترة. حاول تشاكاللتانا تقرير ما يجب فعله. كان جزء منه يرغب في أن يستدير ويخرج كأن شيئاً لم يحدث. سيبلغ دون جونثالو كالبو بوضع الشقة ويحاول ألا يعود مجدداً. لن يشير من قريب أو من بعيد لهذا الظل، لكنه من ناحية أخرى أمام حالة تلبس لانتهاك حرمة منزل وخرق للنظام العام. من واجبه أن يبلغ عن الأمر. لم يعد الأمر يتعلق بخواكين، بل باللوائح الأساسية للتعايش في المجتمع. بحث عن أداة حادة. كاد قلبه يتفجر في صدره. عشر على ساق مقعد مكسورة. رفعها في الهواء وإن لم يمتلك أي فكرة حول كيفية استخدامها. حاول أن يتدثر برداء السلطة، أن يقول شيئاً له وزنه، كأنه أمر صادر من شرطي:

- إذا.. كان هناك أحد.. أرجوه أن يمثل في الصلاة.. من فضله.

بمجرد أن بدأ حديثه، تسلل له صوت صرير. لم تبد كلماته بأي حال من الأحوال شديدة القوة، لذا حاول تحسينها:

- قف باسم الله.. أنا موظف في.. هذا أمر من نيابة الأمة!

بدا هذا جيداً، وإن كان مدى قانونية العبارة قابل للشك. هل يحق له الادعاء بكونه ممثلاً لنيابة الأمة؟ قال لنفسه إنه سيتحقق من هذا الأمر لاحقاً، بينما يتحرك الظل ويبطء أبعاد الستارة التي كان يختبئ خلفها. سار بعدها عدة خطوات نحو الأمام رافعا يديه. حافظ تشاكاللتانا على إمساكه بساق الكرسي المكسورة بشدة كأنها معبأة بالذخيرة، فيما رفع الآخر يديه أكثر بقليل. حينما عبر عتبة الحمام تعرّف تشاكاللتانا عليه. هذا نفس الوجه المليء بالبثور الذي شاهده في الجامعة حينما ذهب بحثاً عن خواكين، وهذه ذات السترة التي ارتداها في المقبرة في اليوم السابق عقب دفن خواكين، وما كان في عينيه لم يكن تهديداً أو خطراً، بل فقط الخوف.

تحدث المعلق عبر التلفاز:

- توفيلو كوبياس. «نيني» يواجه الدفاع. يرغب في المراوغة. يهرب من الجانب. مخالفة! دفعة ضد كوبياس على حدود المنطقة لكن الحكم يقول إنها كانت بالداخل. ركلة جزاء يا سادة! يحتج الإيرانيون لكن الحكم ثابت على قراره. هي العقوبة القصوى في كرة القدم. كوبياس نفسه هو من سيسدد. «نيني» يتجهز. ينتظر الصافرة يسدد و.. هدف! جوووووووووول لـ«نيني»! «نيني» يعود للتألق وتتقدم بيرو بهدفين.

خرج الشاب في نهاية المطاف للصالة. كان يرتعش. شعر تشاكالтана من جديد أنه أكبر بكثير منه، لكن بالنسبة لبقية الأمور فقد كان خائفًا مثله، إلا أنه رغم ذلك افترض أنه سيحاول الحفاظ على كرامة منصبه، أيًا كانت ماهية هذا المنصب تحديداً:

- يجب أن أخبرك يا فتى أنك قد ارتكبت انتهاكات عدة ضد الملكية الخاصة، وعليك مسؤوليات مفترضة ستحددها النيابة المختصة كما يلي وهي..
- من فضلك. لا تقتلني..

خرجت الكلمات من فمه كأنها غاز يتسرب في صمت وبسرعة، لكنها كانت واضحة. استنتج تشاكالтана لدى سماعها أنه يسيطر على الموقف، لكنه لم يكن يفهم ما هي طبيعة الموقف:

- يبدو لي أن هناك سوء فهم يا فتى. أحتاج فقط أن تأتي بصحبتني لمقر السلطة القضائية حيث..

- لا. أرجوك..

- يتعلق الأمر فقط بطلب صحيفتك الجنائية من أجل العملية اللازمة للتحقق من..

ظل الشاب رافعاً يديه بينما عكس وجهه شحوباً ناجماً عن رعب.

- صحيفتي الجنايئة. أهدا تلاحقني؟

- ما هذا الذي تقوله؟

- حضرتك اسمعني.. لا أرغب في معرفة شيء. لا تقتلني. سأختفي

ولن تراني مجدداً. أقسم لك. أنا آسف.

تبرعمت دمعة في عينيه ثم انسابت فوق بشرات وجهه حتى سقطت

عند شفثيه. بات تشاكاللتانا الآن مقتنعاً بكونه صادقاً. خفض ساق المقعد

المكسورة.

- أنت مخطئ يا فتى..

- لن أقول شيئاً عما يفعلونه.

- عما يفعله من؟ لن تقول شيئاً عن من؟ أعتقد أنك لا تفهم..

- حسناً. حسناً.

لاحظ تشاكاللتانا أن الشاب يحاول اكتساب بعض الوقت. كان يقول ما

يعتقد أنه سيكسبه بعض الوقت. في الخارج انفجرت البلاد في صراخ سعادة

شتت كليهما.

- جووووووووووووووووو. من ركلة جزاء أخرى. لقد تحول

الفوز إلى حفل أهداف لا تشوبه شائبة. أفضل منتخب لبيرو في التاريخ

يركض ولا أحد يقدر على اللحاق به نحو ربع النهائي.

تنحنح تشاكاللتانا. لم يرغب في أن تكسر كرة القدم خطورة الموقف.

لاحظ أن الشاب لم ينظر حتى نحو الشاشة. كان ما يزال مرعوباً بعينين

اصطبغا باللون الأحمر ويدين مرتعشتين.

أمره تشاكالтана:

- يا فتى. تحل بالطيبة اللازمة لكي ترافقني.

قبل أن يدرك الأمر لم يكن الشاب عند باب الحمام. دفعه فجأة بعد أن بات بجانبه. كان تشاكالтана قد تخلى بالكامل عن رفع ساق المقعد المكسورة. شعر الآن به وهو يمسكه من معصمه ليضربه بكوعه في صدره. حاول الحفاظ على اتزانه، لكنه سقط بقوة فوق الكتب التي افترشت الأرضية وارتطمت رأسه برجل المائدة. صرخ:

- لا يمكنك أن ترحل هكذا يا فتى. هذا سيعقد فقط من موقفك.

لكن الغرفة لم يكن بها أحد سوى صوت معلق المباراة، الذي يصيح للإعلان عن هدف جديد، بينما تعانق البيروفيون في الملعب وفي بيوتهم بل وحتى قلوبهم فيما بينها:

- جوووووووول. تيوفيلو كوبياس وتسديدة بعد «هات وخذ» مثالية. لمسة ساحرة. كوبياس يتصدر هدافي المونديال. بيرو تتصدر مجموعتها. على كل مواطني بلادنا الاحتفال بكرة القدم القوية والرائعة التي يقدمها هذا الفريق.

كان تشاكالтана عصبياً لدرجة أنه كاد يطرق الباب ضرباً. حاول تهدئة نفسه وعثر على الجرس. ضغط على الزر بقوة أكثر من اللازم ثم ارتأى أنه احتياطياً سيطرق الباب ضرباً. هدأ فقط حينما سمع خطوات على الجانب الآخر وصوت معتاد يزجر من على الجانب الآخر وهو يفتح:

- ما مشكلتك يا بن الـ..؟

- مساء الخير حضرة المدير. اعذرني على الإزعاج.

كان المدير قد غادر فراشه للتو، لذا لم يكن قد صفف شعره الذي تدلى من أحد جانبي رأسه كأنه لسان بقرة. ارتدى نظارته واستغرق عدة ثوان في تفهم من هذا الذي لم يقف أمامه. لم يعط فيليكس تشاكالтана عنوانه، لكن عنوان بيته في خيسوس ماريا كان في عقده، والمسؤول عن حفظ العقود هو تشاكالтана نفسه الذي يتعرق ويتمايل أمام بابه.

- فيليكسيو يا بني. أي مصيبة جلبتك إلى هنا؟

- أتيت لأنني كنت شاهد عيان على عدة مخالفات سيدي المدير، والتي أعرف منها انتهاك حرمة منزل وتدمير ملكية خاصة والسطو عليها واعتداء مصحوب بجرم مقاومة السلطات والفرار.

تلا تشاكالтана كل هذا من الذاكرة. ظل طيلة ساعات يرغب في أن تخرج هذه الكلمات من فمه، من داخل أحشائه. كان ينتظر رد فعل غاضب من رئيسه، لكن نظرة مدير الأرشيف كانت ما تزال تائهة، أو ربما كان هذا ناجماً عن إصابته بقصر النظر.

- فيليكسيو. ألا يمكن لهذا أن ينتظر للصباح يا بني؟

- وقعت الأحداث مساء اليوم يا سيدي. أعتقد أن واجبنا يقتضي
- نظرًا لكوني شاهد عيان- بفتح النيابة وتحرير البلاغ المناسب.

كانت ليلة باردة وأكسبت الرطوبة الهواء كثافة الماء. ربط المدير عند
إطار الباب روب نومه وارتعش. حينها تفهم في النهاية أنه لن يتخلص من
تشاكالтана بسهولة، قرر الاستسلام:

- حسنًا. حسنًا. ادخل. أرى أنك ستحكي لي مهما حدث.

جاء صوت أنثوي مؤنبًا من الدور العلوي:

- أرتورو. ما الذي فعله؟

أجابها المدير بصوت ودود لم يسبق وأن سمعه تشاكالтана من قبل:

- لا شيء يا عزيزتي. مجرد أمر طارئ في العمل. نامي ولا تقلقي.
سأصعد في ظرف لا شيء.

استقبلتهما في الداخل بقايا اجتماع، عُقد بلا شك لمشاهدة المباراة.
زجاجات فارغة وأنصاف أكواب وبقايا أطباق من البطاطا على طريقة
مدينة أوانكايو والذرة المحمصنة تنتشر في أرجاء الصالة وحول تلفاز من
ماركة «باناسونيك». حرك المدير أحد كراسي الصالون ببعض العنف ودعا
تشاكالтана للجلوس عليه. لم يُشغِل سوى إضاءة الاستقبال. لم يعرض عليه
ولو حتى كوبًا من الماء. اقتصر ما فعله على الجلوس فوق مقعد آخر ليتنفس
بعمق متسلحًا بالصبر. فرك عينيه بقبضتيه ثم أمره في النهاية:

- حسنًا. هيا. قل لي ما عندك.

تلعثم تشاكالтана وهو يتحدث:

- بموجب طلب من أقارب الفقيد خواكين كالبو. بدأت إجراءات
عملية لتفقد شقة المذكور، وهي المهمة التي حدث خلالها أن..

- انتظر. انتظر. كل جزء على حدة. كالبو هو قاتل ذلك اليوم. أليس كذلك؟
القتيل. أراد تشاكالانا أن يقول لا، أو أن يدعو على الأقل بلفظ آخر:
الأستاذ، أو الباحث. صديقه.

- بالفعل يا سيدي. خلال الظروف التي جرى فيها النشاط المذكور،
فالمائل أمامك قد تعرض ل...

- انتظر يا فيليكسيو. أي شيء ملعون كنت تفعله في منزل القاتل؟
أتعتقد أنك تتولى أمر التحقيق؟

- لا يا سيدي. كان طلبًا من من والد الـ.. فقيد. لم يستطع السيد على
دخول المكان بنفسه. الأمر مؤلم أكثر من اللازم بالنسبة له.

من خلف نظارة المدير، أطل انفعال غير منتظر: الاستنكار.

- لا يعجبني ما تقوله يا فيليكسيو. هذا تحقيق تتولى الشرطة أمره
وفي كل الأحوال هم ينسقون الأمر مع من في الدور الثالث. أنت مساعد
الأرشفيف. التدخل في عملهم مخالفة خطيرة.

- كل هذا بعيد عن نواياي يا سيدي. ذهبت فقط لجلب أي مقتنيات
للذكرى قد تفيد السيد والد الأستاذ كالبو.

ظل المدير ينظر نحوه بتشكك وبعد ثوان طويلة أجابه:

- حسنًا. وما الذي حدث؟

- وجدت كل شيء محطما يا سيدي. أحدهم قلب المنزل رأسًا على عقب
بحسبًا عن شيء ما وحطم الأثاث ومزق الكتب..

- حسنًا. أحدهم هذا لص يا بني. عرف أن القاتل قد قتل ودخل
بغرض السرقة.

- الغريب أنهم لم يأخذوا شيئًا يا سيدي. كسروا ومزقوا وخربوا، لكن يبدو أنهم لم يسرقوا. كان التلفاز في مكانه، وكانت هناك منفضة سجائر من الفضة..

- لا يأخذون دومًا أشياء معهم. أحيانًا يأخذون أوراقًا ووثائق وشهادات..

- ليست هذه الأشياء حتى موجودة عند السيد كالبو. كان يعيش بكل بساطة. كانت هناك وثائق سياسية فقط.

- سياسية؟

- يبدو أن الأستاذ كان عضوًا في حزب سياسي ما. كانت لديه أيضًا بعض وسائل الدعاية. أعلام حمراء وهذه الأشياء.

- انتظر. انتظر. أعلام حمراء؟

- جميلة للغاية، كأنها من الحرير و..

- أوه.. اللعنة!

قاطعته المدير. الآن بدا وجهه ممتنعًا على غير العادة. نهض واقترب من طاولة التلفاز. اختار من بين الأكواب واحدًا ممتلئًا حتى نصفه بالكوكاكولا، لكنه تناوله بسرعة لدرجة أن كوبًا غيره تحرك ووقع على الأرض، ومن فوق عاد الصوت الأنثوي لمناداته.

- أرتورو ما الذي فعله.

- سأصعد في ظرف لا شيء يا عزيزتي. لم يحدث شيء. سأصعد لاحقًا.

ترك شظايا الزجاج على الأرضية وعاد لمكانه. لم يخرج أكوابًا أو يعرض على تشاكالانا شيئًا ليشر به. أنهى فقط كوبه وعاد للطاولة بحثًا عن كوب آخر.

- أعلام حمراء والمكان مقلوب رأسًا على عقب.

أوما تشاكالثانا برأسه. عشر المدير على كوب آخر مملوء حتى نصفه
وتابع:

- القتل كان عضوًا في حزب سياسي ما، وغالبًا أحد الأحزاب الهدامة.

بينما يتخيل ما يفكر فيه مديره، راجع تشاكالثانا داخل ذهنه قانون
العقوبات، الذي يحفظه عن ظهر قلب، حتى توصل لاستنتاجه النهائي:

- السياسة ليست جريمة يا سيدي. لم تعد كذلك. لدينا انتخابات في
ظرف أسبوع.

- ها! الانتخابات.

أطلق المدير شيئًا كأنه ضحكة، لكنها لم يبد أنها بدافع السعادة. بدت
جافة. كأنها ضربة.

- يا بني، لو كنت مكانك، لن أقدم بلاغًا. لن أفتح تحقيقًا. سأطبق
فمي، كسمكة صغيرة وأنظر نحو الجانب الآخر. هذه المسألة بها رائحة
عملية تتعلق بـ«أمن الدولة».

- في هذه الحالة، علينا الاتصال بمسؤولي «أمن الدولة» لنقل المعلومات
التي تكشف أن..

- الاتصال؟ أنت مجنون؟

شرب المدير كوبه على جرعة واحدة وبات قطاع شعره الجانبي الطويل
الآن يغطي وجهه كأنها ستارة مسرح صلبة ثم قال:

- ليس علينا أن نبلغهم بما يحدث يا حبيبي. هم بكل تأكيد من قلبوا
الشقة رأسًا على عقب. لا بد وأن القتل كان على صلة بمؤامرة ما، وذهبوا

لإلقاء نظرة على أغراضه. هذا هو كل شيء. النياية ليس لديها شيئاً لتفعله حتى يأتي بلاغ رسمي.

هز تشاكالنانا رأسه رافضاً ومصرّاً:

- أنا أعرف من الذي قلب المنزل رأسها على عقب سيدي المدير. عثرت عليه هناك، لكنه تمكن من الفرار.

- حسناً فعل. هذا هو ما كان يجب عليك فعله.

- لكن يا سيدي..

- هل رآك أحدهم؟

- بخلاف الفار لا.

- هذا أفضل.

- أعرف كيف يمكنني الوصول إليه. أعرف من هو.

- لكن ليست لدي نية لمعرفته يا بني.

- سيدي..

- الأمور مضطربة جداً. أنت قلتها بنفسك. الانتخابات في ظرف أسبوع. الشرطة والجيش يبحثان هنا وهناك عن الإرهابيين. ينفذان عمليات مدممة. يسجنان البعض. هو أمر صعب، لكنه ضرورة أمنية. يجب أن ندافع عن الدولة وأنت تعمل لصالح الدولة، لذا لا ترفع السجادة فالخبراء الموجود أسفلها قد يكون خراءنا.

افترض تشاكالنانا أن مديره بهذه الكلمة الرنانة يشير لجرائم انتهاك حرمة المنزل وتبعاتها. هناك جريمة قتل في القائمة أيضاً، لكن المدير بالطبع لم يكن يشير إليها. الحديث عن المسألة مستحيل. مستحيل لدرجة أن تشاكالنانا

لم يسأله. خشي من الجواب الذي قد يصل إليه. رغب فقط في معرفة ما يجب عليه فعله، لكيلا تقع الفأس في الرأس:

- إذن سيدي. ما هي أوامرك.

عاد الصوت العلوي مجددا ليصل إليها شاكيًا ونصف نائم:

- أرتورووو..

صاح المدير بعصبية:

- اخرسي عليك اللعنة! سأصعد الآن.

نظر بعدها لتشاكالтана مجيئًا:

- ليس لدي أي أوامر يا فيليكسيو. ليس لدي، لأنك لم تأت إلى هنا، ونحن لم نجر هذه المحادثة قط. ما فعله شأن يخصك. لا دخل لي بمثل هذه الأمور.

- مفهوم يا سيدي.

نهض تشاكالтана ودون أن يلقي وداعًا توجه نحو الباب وفي الخلف استمع المدير وهو يحتسي جرعة أخرى من مشروب «الزُم». أوصاه المدير فيما ما تزال الجرعة في فمه:

- فيليكسيو، إذا كنت تعرف أين هي مصلحتك، فمن الأفضل لك أن تنسى الأمر. وإلا ستغرق نفسك في مشكلة لن تسلم منها خصيتاك.

- شكرًا يا سيدي.

قالها تشاكالтана ثم أغلق الباب.

جالسًا هناك، في حانة كوردانو نفسها، حيث اعتاد تشاكاللتانا أن يلتقي بخواكين، بدا دون جونثالو كابنه أكثر من أي وقت مضى، كأنه نسخة ذابلة ومجعدة من تلك الأصلية: الأنف المفلطحة ذاتها لكن تقطعها أوردة صغيرة. يدان قويتان، لكنهما أكثر تجعيدًا وتشوبهما بعض البقع وبهما بتلك الرعشة. نفس العينين السوداوين، إلا أنهما تختبئان خلف نظارة سميكة، لكن على الرغم من هذا يبدو أن نظره كان جيدًا لأنه قال له بمجرد جلوسه:

- وجهك يقول إنك لست بخير يا فيليكس.

كان تشاكاللتانا قد عاد الليلة السابقة لبيته في وقت متأخر للغاية ورحل عنه اليوم في ساعة مبكرة. عانى من نوم صعب ومتقطع اكتسحته الكوابيس. اتخذ قرارًا معقدًا ومزعجًا يتعارض مع كل أفكاره، لكنه لم يود أن يطرح الموضوع.

- على النقيض مني، أنت تبدو في خير حال سيد جونثالو.

- ما هي أخبار السيدة والدتك؟

لم يكن تشاكاللتانا يعرف كيف هو حالها، فقد حاول تجنبها وهي قامت بالمثل.

- سعيدة وبخير حال.

- هي سيدة مميزة للغاية.

مر وقت طويل على مساعد الأرشيف دون سماع أي شيء جيد بخصوص أمه أو التفكير حتى في وجوده. على الرغم من هذا؛ يجب عليه أن

يرد بقول شيء ما، حتى وإن كانت كلمة خافتة مثل:

- شكرًا.

- وأنيقة للغاية.

- بالطبع.

- أرسل لها تحياتي.

هل يحاول دون جونثالو إطالة الموضوع؟ هل يرغب في مواصلة الحديث عن أمه؟ بدا الأمر غير محتمل بالنسبة لتشاكاللتانا. ربما كانت محاولة لإجراء محادثة. حاول العودة لسبب اللقاء:

- دون جونثالو. ممتن لتجاوبك مع مكالمتي بمثل هذه السرعة. أنا.. ضربت معك موعدًا فقط لأنني أرغب أن أعيد لك شيئًا ما.

وقبل أن يسأل دون جونثالو، أخرج المفتاح من جيبه ووضعها في يده. فكر العجوز في المسألة أكثر من مرة دون أن يشيح ببصره من عليه كأنه لا يعرف ما هو:

- هل ذهبت للمنزل؟ بهذه السرعة؟

كان فيليكس تشاكاللتانا ماهرًا في إعداد التقارير وتصنيف الوثائق أو التحقق من البيانات، لكن الكذب لم يكن من ضمن مهاراته.

- أخشى أنني.. لا يمكنني الذهاب لمنزل خواكين.. الأمر.. مستحيل كل الاستحالة.

- أفهمك.

زاد غياب رد فعل الرجل العجوز من توتر تشاكاللتانا بصورة أكبر:

- حسنًا. المسألة أنه.. أقصد على وجه الخصوص، أنه.. ليس لدي وقت.

- ليس لديك وقت؟

لمع المفتاح في يد دون جونثالو. كانت نظرتة حزينه لكنها لم تحل من الثبات. انغرست تلك النظرة مستفهمة في وجه تشاكالثانا الذي حاول تفاديها. حاول مساعد الأرشيف أن يشرح:

- لا أجد توقيتا مناسباً لزيارة منزل خواكين. أعمل طوال اليوم. أزور حبيبتي في المساء وأعتني بأمي ليلاً..

لم يجد شيئاً آخر ليقوله. لم يرغب في سرد قصة زيارته للشقة أو محادثته اللاحقة مع مدير الأرشيف. الحقيقة أن الأمر كان سيضعه في مشكلة، بل وأيضا كان سيضع دون جونثالو نفسه في مشكلة.

تلاعب العجوز بالمفتاح وهو في يده ثم هز رأسه في حزن.

- أنت خائف. أليس كذلك؟

- أنا.. لا.. الأمر أن..

- أتعرف؟ أدرك ماهية الخوف. كنت فردًا في ميليشيا. شاركت في الحرب الأهلية الإسبانية في جبهة أراغون. لم يكن أي شيء يحدث في البداية. نقضي النهار بطوله وعرضه نحفر الخنادق ونقوم بدوريات. كانت السحب وحدها هي ما يتحرك لتهبط بعدها حتى الأرض الجافة والجرداء بينما تنتصب قمم الجبال الثلجية كأنها تحرسها في مشهد الخلفية البعيدة. كانت مهمتنا الرئيسية تغطية أنفسنا للحماية من البرد، وأيضًا الثروة. هذا صحيح. كنا نثرثر بلا توقف. كلنا جميعًا كنا سنصبح أبطالًا. كلنا كنا سنهزم الفاشيين ونكتب التاريخ. حسنًا، أنا لا. لم أعرف حتى كيف أقبض على السلاح. كنت

مجرد مرسال، عامل نظافة، فتى يصلح للقيام بأي شيء.

رفع يديه اللتين عادتا للارتعاش. كان وجهه تعيسًا. تفهم تشاكاللتانا أن هذا ليس بفعل السن. دون جونثالو عانى دومًا من هذا النوع من الشلل الرعاش. كان قد ولد ضعيفًا نسبة للوقت الذي اضطر للعيش فيه. أضاف العجوز:

- كان لدي رفيق ثرثار أكثر من اللازم. لقبه ميراييس. كان صديقي إلا أنه أيضًا كان أبله. لم يتوقف عن المطالبة بدخولنا لأرض المعركة. اعتاد قول إنه قد مل من الوقوف هنا، دون أن يسلمح الأعداء، ويقسم أنه لم يعد قادرًا على الانتظار. لم يضطر للانتظار. نقلونا في أحد الأيام نحو ويسكا ومن رغب في الحرب حصل عليها هناك بالفعل. كانت القذائف تسقط بجانبنا، إذا لم تصرعنا تصيبنا بالصمم، وإن لم تكن القذائف فالطائرات، وإذا لم تكن الطائرات فهي المعارك الفردية. بعد المواجهات؛ لم تتناثر في أرض المعركة الجثث، بل الأعضاء: سيقان وآذان وأيدي مبعثرة فوق الأرض، كأنها بقايا طعام بعد وليمة. كان عملي يقتضي الذهاب من هنا إلى هناك للتعرف على الجثث والمساعدة في جمعها. لم يظهر صديقي ميراييس في أي مكان. اعتقدت أنه مات، لكنني قضيت طوال اليوم أتفحص الجثث، ولم تكن أي منها جثته. أتعرف أين وجدته؟

لم يكن لدى مساعد الأرشيف أي فكرة، لكنه تفهم أنه مجرد سؤال بلاغي. ضم كتفيه لكي ينهي العجوز قصته. قال له:

- كنا قد صنعنا حفرة. أنت تعرف، من أجل قضاء حاجتنا. حفرة كبيرة بالصورة الكافية لاحتواء خراء الميليشيا بأكملها وكنا قد ملأناها سريعًا. كانت رائحتها تثير الاشمزاز من على بعد 10 أو 20 مترًا. بعدما أسدل النهار ستاره، ذهبت لإفراغ ما في بطني وسمعت نحيب صديقي يأتي من

الأسفل؛ فبمجرد أن بدأت الانفجارات، ألقى ميراييس الشجاع، ميراييس سالخ الأعداء، بنفسه في الحفرة. ظل هناك متدنّراً بالخبراء تغطيه دموعه. بعدها تبين حقاً أن ميراييس هذا رجل شجاع. حتى أكثر الشجعان شجاعة، يخشون الحرب، لهذا لا تحجل من نفسك.

حاول تشاكال تانا ربط هذه الكلمات بنفسه. افترض أنه -وبشكل قاطع- لن يغرق نفسه تحت أي ظرف في حفرة قد تؤثر على نظافته الشخصية، لكنه على أي حال ليس محتاجاً لفعل ذلك:

- مع فائق احترامي دون جونثالو، هذا الموقف لا يرتبط بقريب أو بعيد بوضعنا الحالي. لسنا الآن في هذه الحرب، بل أننا لسنا في حالة حرب من الأساس.

- أنت مخطئ في هذا يا بني. هي نفس الحرب. ربما تغيرت الأطقم العسكرية بعض الشيء وتبدو لكناات المقاتلين مختلفة، لكن كل الأمور الباقية متساوية.

نهض العجوز وترك بعض العملات بجوار قهوته. اصطيغ صوته بشيء من السخرية لدى وداعه:

- معرفتك كانت أمراً لطيفاً يا فيليكس. أتمنى أن تحصل على حياة سعيدة.

مستنداً بخفة على الكراسي، توجه دون جونثالو نحو المخرج. كل ما احتاجه الأمر هو مجرد أسبوع لكي يُقدر تشاكال تانا هذا الرجل، والآن كان عليه أن يتركه هو وحظه. قال لنفسه أكثر من مرة إن تصرفه خاضع لأسباب قهرية. ليس ذنبه. العالم ليس ذنبه، وأيضاً لا يمكن أن يحدث شيء لدون جونثالو. أهذا صحيح؟ تخيل تشاكال تانا العجوز وهو يدخل البناية الواقعة

في شارع لامبا، وهو يصعد السلام بصعوبة ليتوقف ملتقطاً أنفاسه في كل دور حتى يكتشف الفوضى الموجودة في الشقة. لا شيء من هذه الأمور قد يلحق به ضرراً أكثر من مجرد الخوف. أم على العكس؟ ربما سيكتشف أموراً قد أخفاها عنه خواكين دومًا، كما أخفاها عن الجميع. ربما سيعثر على الابن الذي لم يعرفه. أو الأسوأ من كل هذا: ربما أن شخصاً ما ينتظره داخل الشقة خلف ستارة الدُّش ليهجم عليه. ربما هو جهاز «أمن الدولة» وربما لا.

- دون جونثالو!

توقف العجوز عند الباب في مواجهة محطة «لوس ديسامبارادوس». لم يلتفت، ما فعله هو أن انتظر.

- لا تذهب وحدك للشقة.

نظر دون جونثالو يميناً ويساراً كأنه يبحث عن أحدهم ثم أكد:

- أخشى أنه لا يوجد المزيد من المتطوعين.

رغب تشاكالтана أن يفكر في شيء آخر، أن يبعد عن عقله شعور الذنب المتعلق بالعجوز الذي ربما لا يدرك حتى وجود مثل هذه المخاطر. لم يستطع تشاكالтана إخباره بها. في المرة المقبلة ربما يكون الرجل المختبئ مسلحاً. سيتهي الأمر بالأب والابن معاً في نفس المشرحة بعد إصابتهما بطلقة من نفس العيار، وسيجب على تشاكالтана العيش مع كل هذا العبء فوق ضميره.

سأله تشاكالтана:

- وما هي المشكلة إذا لم يذهب أحد؟

أصدر دون جونثالو صوتاً غير مفهوم. ربما هي ضحكة. ربما كان يسعل.

- ابني قد قتل يا فيليكس. على أحدهم أن يذهب، حتى لو لم يرغب أحد في ذلك.

استعد العجوز لمواصلة طريقه لكنه كان يتحرك ببطء. تراكمت الكلمات في صدر فيليكس تشاكالانا وهي تتنازع من أجل الخروج، مدفوعة بخليط من الخوف والشعور بالذنب. في النهاية وقبل أن يرحل العجوز نهائيًا عن حانة كوردانو. أطلق تشاكالانا العنان لما أراد قوله:

- لا يمكنني أن أسمح لك بهذا. سيكون تصرفًا شائنًا من طرفي أن أتركك وحدك في مثل هذه اللحظة. أعطني المفتاح.

بدلاً من العودة للعمل، توجه تشاكالثانا لمقر صحيفة (إل كومرسيو) وانتظر دوره في أحد صفوف نشر الإعلانات المبوبة. وصل إلى سيسيليا بعد ثلاثة معلنين. لم تبتسم حينما رآته.

- كيف أساعد حضرتك؟

- أرغب في نشر إعلان؟

- كم كلمة؟

- ثلاث كلمات فقط: «رافقيني إلى الغداء».

حافظت على لا مبالاتها:

- هذا كل شيء؟

- أضيفي كلمتين: «أنا أحبك».

بصورة لطيفة ولا إرادية انحنى شفتا سيسيليا لتشكلان ابتسامة وبعدها بدقيقتين كانا يتناولان الغداء في شارع «نيكولاس دي بيرولا». طلب هو أرزاً مع الدجاج وهي طبق الـ«كاوسا»⁽¹⁾.

سألها حينما جلبوا لها طبقها:

- هل تعرفين لماذا تسمى «كاوسا»؟

- لماذا؟

1 . كلمة La causa بالإسبانية وتنطق «لا كاوسا» معناها «القضية».

- إبان حرب الاستقلال، كان هناك نقص في الطعام، باستثناء البطاطا. وكان طهارة جيش التحرير يصنعون معجون البطاطا ويحشونه بأي شيء. كان طعامه سيئاً للغاية ولهذا كانوا يتوسلون للجنود أن يأكلوا هذا الشيء من أجل «القضية الوطنية».

- حقا؟

أوما تشاكالтана برأسه مصطنعاً دور العالم بيوطن الأمور. كان يعمل في الأرشيف، وفي أي أرشيف توجد أفضلية: الاطلاع على أطنان من المعلومات غير المفيدة، والبيانات التي يتخلص منها الناس لأنهم لا يعرفون ما يجب فعله بها.

- الآن بات طعامها جميلاً للغاية.

ضحكت وهي تقولها بينما تقطع طبق الـ«كاوسا» خاصتها بالشوكة، وأسفل معجون البطاطا الأصفر ظهر الأفوكادو والتونة والمايونيز.

ساد الصمت بعدها. تفهم تشاكالтана أنه هو المعني بكسره. ليسا هنا للحديث عن الطبخ.

- سيسيليا.. أرغب في الاعتذار بالنيابة عن أومي.

قاطعته بحدة:

- ليس عليك أن تعتذر بالنيابة عنها، بل عليها أن تعتذر بالنيابة عن نفسها.

واصلت سيسيليا تناول طعامها، لكنها خفضت نظرتها. كان يصعب عليها بالمثل مناقشة هذا الموضوع. خفض تشاكالтана عينيه هو الآخر وعثر على طبق الأرز بالدجاج. عرف على الفور أنه لن يتناوله. حاول أن يشرح:

- حينما مات أبي، انتقلت وأمي للييا. كان علينا الهرب من ذكرياتنا. اضطرت أُمي للعمل هنا بكل ما أوتيت من قوة لتدفع بي نحو الأمام. امرأة وحيدة ومعها ابنها. كان في مقدرتها أن تتزوج. خطب ودها أكثر من شخص، لكنها ضحت لتعتني بي بأفضل صورة ممكنة، لترسلني للجامعة. - لا أعرف ما علاقة كل هذا بـ..

بإشارة من يده، ربما من كل جسده، طلب منها تشاكالثانا الصبر: - رغبت دومًا في مكافأتهما على كل ما فعلته من أجلي، وبينما أكبر حاولت أن أصبح رجل المنزل. أعتقد أنها تغار عليّ كما تغار المرأة على زوجها. توقفت سيسيليا الآن عن تناول طعامها. كانت فقط تقلب المكونات الملونة لطبقها كأنه فنجان شاي. - لا بد وأن والدك كان رجلًا طيبًا جدًا.

حاول تشاكالثانا تذكر أباه، لكن كل ما حضر لذاكرته كان الضرب والسياح وصب اللعنات، لهذا لم يسعَ قط لتذكر أي شيء يخصه. - بالفعل. هذا صحيح.

لقد كذب. كانت هذه هي الكذبة الوحيدة التي تخرج منه بسهولة. سألته سيسيليا:

- ما الذي سنفعله؟ لا يمكنني مساعدتك في هذه المسألة. هو أمر يجب أن تحله بنفسك معها، وطالما ظل كمسألة عالقة؛ لا أعرف كيف ستكون لي علاقة بك. لن أذهب لمنزلك وأملك لن تتركك تخرج. - سأحدث معها.

- هذا هو ما تقوله دومًا.

لم يسبق لمساعد الأرشيف فيليكس تشاكاليتانا أن شاهد سيسيليا تتحدث بمثل هذا الحسم والعدائية. توجب عليه استعادة احترامه. تذكر المفتاح الموجود في جيبه وقصته الشخصية في اليوم السابق. تحلى بالشجاعة حينما لم يفر راکضاً، وحينما حاول إلقاء القبض على الشاب ذي البثور، لكنه مرة أخرى عجز عن حكاية الأمر. في الواقع لم يستطع حكاية شيء. الأمر الوحيد الذي كان بإمكانه أن يفعله هو تغيير الموضوع. أخرج المفتاح لها كأنها لعبة لتشتيت انتباه طفل وقال:

- انظري. هذا هو مفتاح منزل خواكين؟

- هل عرفت شيئاً جديداً بخصوص المسألة؟

- لا. لست مسؤولاً عن هذا التحقيق.

ربما كان يجب أن يضيف: «ولا أي تحقيق آخر»، لكنه فضل أن يترك عبارته كما هي.

- ولماذا هو معك إذن؟

- دون جونثالو، والد خواكين، طلب مني أن أذهب للشقة. يقول إنني إن عثرت على شيء يصلح كذكرى لي، فيمكنني الاحتفاظ به.

ظلت سيسيليا تنظر للمفتاح كأنها قد نومت مغناطيسياً. ركزت فيه باهتمام بالغ لدرجة أن تشاكاليتانا أمعن النظر فيه من جديد. ربما كان قديماً بعض الشيء أو من الذهب، لكن مع أي نظرة بسيطة له سيدو طبيعياً؛ بأسنان غير متجانسة وطرف مستدير، ككل المفاتيح تقريباً.

- معك مفتاح شقة؟

- نعم.

- المفتاح معك أنت وحدك ولا يوجد أحد هناك؟

- بالفعل.

ظلت تنظر له وهي تنتظر رد فعل لم يصل. ودّ تشاكاللتانا أن يصبح أكثر ذكاء. تمنى هذا الأمر دوماً، لكنه مهما عصر دماغه؛ يعجز عن معرفة ما يجول برأس فتاة. قالت بنفاد صبر:

- فيليكس. هذا المفتاح حل لكل مشكلاتنا. لم لا نتقابل هناك، في هذه الشقة؟

في تلك اللحظة، مر تيار من الصور أمام عيني مساعد الأرشيف. الشاب ذو البثور. الأعلام الحمراء. الوثائق السياسية. فوضى الأثاث منزوع الأحشاء والكتب الممزقة. جسد خواكين في المشرحة، ومع تلك الومضات البصرية جاءت الكلمات، آلاف الكلمات. تزاومت داخل أذنيه:

«كل الأمور ستنتهي بخير».

«ستغرق نفسك في مشكلة لن تسلم منها حتى خصيتيك».

«من فضلك. لا تقتلني».

- لا!!

قالها بصوت مرتفع جداً، لدرجة أن بقية رواد المطعم التفتوا نحو طاولته. قطبت سيسيليا جبينها.

- ولم لا؟؟؟

كان الأمر واضحاً بالنسبة له لدرجة أنه لم يعرف كيف يمكن أن يشرحه. قال لها هذه المرة بصوت منخفض:

- خواكين قد قُتل!

- ونحن ما نزال أحياء. هو لم يقتل هناك. أليس كذلك؟ والشقة شقة!

حاول فيليكس تشاكالтана للمرة المليون أن يشرح نفسه ووجد نفسه على حافة هاوية صمته الشخصي، عاجزا عن القيام بخطوة للأمام، وبنظرة واهنة أمام طبقه الذي بات باردًا بالفعل كان كل ما قاله:

- الأمر غير ممكن يا سيسيليا. الأمر غير ممكن.

- ما يجب عليّ التفكير فيه إذن هو أن المشكلة ليست أمك، بل أنت. أنت المشكلة وهو أمر ليس له حل بالفعل.

وقبل أن يتمكن تشاكالтана من قول شيء ليكبح جماحها، نهضت سيسيليا وتركت المطعم. وكل ما تركته في مكانها هو بقايا طبقها المبعثرة التي بدت كأنها ساحة معركة صغيرة بعد الهزيمة.

هيمنت أجواء جنازتيه دومًا على بيت فيليكس تشاكالانا الواقع في سانتا بياتريث، بالمذبح المخصص لوالده وثمانيل المسيح مصلوبًا، إلا أنه في تلك الليلة مع النوافذ المغلقة وأضواء الصالة المطفأة بدا كمقبرة حقيقية. المصباح الوحيد المضاء يقع في نهاية الطرقة، في غرفة أمه. لم يبد لتشاكالانا أنه النور الذي يظهر في نهاية النفق، بل كحريق وسط الظلمات. كان قد سار لليلة الثانية على التوالي طيلة ساعات دون وجهة محددة في شوارع وسط ليما القذرة بين العاهرات والنشالين. ولأن معدته قرصت عليه إذ لم يتناول غداءه، دخل مطعمًا لتناول طبق من حساء الأفوكادو. حينها دقت العاشرة، لم يعد قادرًا على التجول أكثر من هذا. عاد إلى المنزل عندما ظن أن أمه نامت. الآن بعدما أغلق الباب في صمت، سار على أطراف أصابعه نحو غرفته. اقتضت خطته أن يجلس نفسه في غرفته ويستلقي ويغلق عينيه حتى صباح اليوم الجديد. قبل أن يصل لوجهته، سمع من نهاية الطرقة أكثر صوت يحشاه:

- فيليكس تشاكالانا سالديبار!

خرجت أمه من غرفته متدثرة بروب النوم القطني. تضع بكر الشعر فوق رأسها ووسط الظلام بدت كأنها ترتدي خوذة.

- مساء الخير يا أمي. لم أرغب في إيقاظك.

- إيقاظي؟ إنك تعجز حتى عن النظر إلى وجهي.

كان تشاكالانا مرهقا للغاية بصورة لا تسمح له بالنقاش، لكنه لم يجد مفراً.

- أمي. من فضلك..

- ألا أقول الحقيقة؟ انظر في عيني وقل لي إن هذه ليست الحقيقة.

رفعت يديها وهي تقول العبارة. كانت تصلي صلاة المسبحة أو مازالت فيها عند «أبانا الذي في السماوات» الأخيرة واطعة خرزتها بين سبابتها وإبهامها.

- هذه ليست الحقيقة.

- هل مازلت ترى هذه... هذه... الخياطة الصغيرة؟

- لم تقولين هذا؟ هل قصت لك بعض الجارات نميمتهن؟

- لا، لكنك اعترفت بنفسك للتو.

لم يكن تشاكالтана سيئًا في الكذب فقط، بل ويقول الحقيقة دون أن يدري. عجز عن الرد، إلا أن أمه على أي حال لم تكن تنتظر ردًا.

- هذه المرأة ستكون هلاكك يا فيليكس. عليك أن تبتعد عنها.

- أمي نحن لم نفعل شيئًا بالأمس بعيدًا عما يفعله بقية المتحايين؟

- وإذا قرر باقي المتحايين التعفن في الجحيم، هل ستقلدهم؟ وإذا ما

رغبوا الغرق في وسط وحل الشهوة، هل ستبعهم؟

- أنتِ تبالغين..

- وها أنت الآن تهينني. تقول إنني أبالغ. لو كان أبوك هنا، لعرفك

مقامك.

لا شك في هذا. لو كان أبوه هنا لعرفه مقامه عبر الضرب؛ ففي نهاية

المطاف؛ كان هذا كل ما يجيد فعله. لم يفقد فيليكس تشاكالтана سالديبار

أعصابه قط. لم يسبق وتسربت من فمه أي كلمة قوية أو اتبع سلوكًا مسيئًا.

كان عاجزًا عن مواجهة الكل، لكن الإشارة لوالده اقتربت من الحد الأخير

لمقاومته. تنفس بعمق، أغلق عينيه وقال ببطء:

- أمي. لا تعودي لتكرار هذه المسألة مرة أخرى. أطلب منك هذا من فضلك.

- سأكررها كما يجلو لي. من أنت لكي تجعلني أطبق فمي.

كانا بجوار الصلاة، ورغم الإضاءة الخافتة، تمكن تشاكالانا من رؤية الطاولة التي وضعت عليها الصورة العائلية ووالده بالزي العسكري. بدا له أن الرجل الظاهر في تلك الصورة يتسم له بسخرية. ثار داخله غضب غير معهود ظل محتفظاً به طيلة حياته.

- سأذهب للنوم.

- لا يا شاب يا محترم. ستبقى هنا وتستمع لما تقوله أمك، وهذا هو ما يفعله الرجال الأخيار.

- أنا بالغ يا أمي. أنا بالغ! وأتخذ قراراتي الشخصية.

- لا وألف لا، طالما تعيش تحت سقف بيتي!

- حسناً.. سأتوقف عن العيش تحت سقف بيتك.

اندهش بينما ينطق هذه الكلمات. واندهش أكثر حينما ارتدت خطاه، لكن هذه المرة نحو الخلف، نحو باب الخروج. ظلت أمه ساكنة في مكانها بفم مفعور منذ هتافها الأخير والمسبحة محددة عند الصلاة التالية، بل وحتى والده في الصورة بدا مرعوباً من رد فعله، لكنه واصل طريقه، وعبر الباب ومن بعده الباحة في ثلاث خطوات وخرج نحو الشارع. لم يتوقف حينها عن السير، وعازماً ابتعد عن منزله، عن أمه، وعن إذلاله الشخصي. لم يتوقف إلا حين وصل لجادة أريكييا بعدما كادت تصدمه حافلة. فكر فيها فعليه. ما

اكتسحه الغضب سابقاً بات يسكنه الذعر. الفرار من المنزل أجراً ما خطر
على باله طيلة حياته، والآن لم يعرف كيف سيواصل طريقه.

نظر يميناً ويساراً، وقلبه يرغب في القفز من فمه، كأنه ينتظر العثور على
رد بين الغرباء الذين يسرون في الشوارع في تلك الساعة. لا حاجة للقول
إن ردًا لم يصل قط. تساءل أين سيقضي الليلة. لم ينم قط خارج منزله، إلا أن
الإجابة على هذا السؤال على الأقل كانت ممكنة. في حوزته. هذا الرد يرقد،
بلا حراك، في جيب سرواله.

ليلاً، يبدو شارع لامبا أكثر شؤماً. كانت الظلال تنزلق عند نواصيه، وتثير الدوريات العَرَضية المتوجهة نحو وسط المدينة شعوراً بالخوف أكثر من الطمأنينة. بدا باعة السجائر الجائلون برؤوسهم الملتحفة بقلنسوات لمواجهة البرد كجواسيس أو أشرار. حاول تشاكالтана ألا يفكر في كل هذا. أثار دخوله للمبنى في نفسه طمأنينة هائلة، إلا أنه حينما سمع صدى خطواته يرتد من على الجدران وهو يصعد الدرج، ظن أن أحدهم يلاحقه. قبل وصوله للدور الخامس، التفت عدة مرات للتأكد من أنه وحيد. لم تكن أجواء الشقة أكثر ترحيباً به من السلم. كانت كما تركها. خطأ تشاكالтана بمجرد دخوله فوق عدة إيصالات، ثم ركل طبقاً من البلاستيك. كان صوت أي شيء يفزعه. فاحت رائحة الرطوبة والانغلاق. فتحّ النوافذ كان سيرفع الرطوبة. فكر تشاكالтана في أن هواء ليما يبدو كبخار لزج. لو تركه يدخل، لن يرغب في الخروج أبداً. تساءل، ما الذي قد يفعله لو عادت الشرطة لتفتيش المكان؟ حسناً: لقد فتشته مرة واحدة فلم ستعود؟ افترض تشاكالтана أن مبدأ عدم محاكمة سجين مرتين على جرم قد ارتكبه يمكن تطبيقه هنا أيضاً. على أي حال، هو لم يكن يرتكب أي جريمة ويستطيع بصورة مثالية، شرح سبب وجوده في المكان. على الرغم من هذا ظلت أصداء عبارة واحدة تتردد داخل رأسه: «ستغرق في مشكلة لن تسلم منها حتى خصيتيك».

أغلق الباب بتكتي مفتاح. تفادى كل شيء وهو يسير بحذر بين ركام الشقة، فهكذا لن يفسد أي أدلة محتملة في مسرح جريمة. ما يفعله كان قانونياً بصورة لا تشوبها شائبة، فلأن المكان ليس مطوقاً بشرط، فهو ليس «مسرح جريمة» رسمياً. كان يعي بأنه غير قادر على إقناع نفسه بشيء،

لكن التفكير بهذه الطريقة ومعرفة أنه ما يزال داخل إطار التصرفات التي يضمنها القانون يطمئنه. بخلاف هذا؛ فهكذا سينأى بنفسه عن التفكير في أمه وهو أكثر ما يربكه في تلك اللحظة. دخل إلى غرفة النوم. إذا ما فُكّر في النوم هنا، فسيضطر على الأقل لترتيبها نوعًا ما بتعديل وضعية المرتبة على سبيل المثال أو تغيير المفارش. تحقق من الأدراج بحثًا عن أغطية أو ملاءات، لكنه لم يعثر عليها. بينما يواصل بحثه، بدأت مشكلات جديدة في الظهور: كيف سيغسل أسنانه؟ بأي شيء؟ هل توجد مناشف؟ ملابس على مقاسه. التفاصيل اليومية لحياته كانت دوماً مسؤولة أمه. في أول ساعة وحده، في منزل جديد، تراكمت صعوبات لا حصر لها داخل رأسه. كانت الوحدة حالة أقل ميثافيزيقية بكثير مما يظن، تتعلق بأمور لا يُعنى بها، عشاء لا يُقدم وحمّام يجب تنظيفه. لم يكن هناك أي شيء مفيد في معظم الأدراج، ولا حتى أغراض شخصية أو عائلية للذكرى. فقط ملفات لرسالة دكتوراه خواكين، وامتحانات طلاب جامعيين وتلك المستندات السياسية أكثر من أي شيء آخر. كانت عموماً عبارة عن نصوص ترتبط بمجالس متنوعة، لكنها ليست مجالس حزب أو مجموعة أو خلية بعينها بل كلها جميعاً. هناك محاضر ختامية لمؤتمرات ولقاءات وأكثر من بيان لمجموعات مختلفة. حملت كل ورقة ختمًا وشعارًا واختصارات خاصة ومختلفة. قلة منها تكررت. لم يكن تشاكالنانا خبيرًا، لكنه يفهم أكثر من أي شخص آخر عملية تنظيم الوثائق: عناوين رئيسية، ملاحظات، توقيعات، شعارات. على ما يبدو فإن كل جماعة تقدمية، اشتراكية أو «إرهابية» لها سجلها وسط فوضى هذه الأدراج. سرى نفس الأمر على الأعلام، ووفقاً لما تحقق منه لاحقاً على الشارات والملصقات واللوحات والزينة وكل أدوات وملحقات الدعاية التي احتفظ بها خواكين بين مقتنياته. كان كل غرض يبدو مأخوذاً من منظمة ما، بل أيضاً من دولة ما: تروتسكية وماوية وموالية لروسيا وموالية للصين؛ من تشيلي ومن كوبا

ومن أوروغواي، بل حتى من البرازيل. تبدو شعارات تلك الأخيرة كأنها كتبت بإسبانية سيئة، لكنها كتبت بالبرتغالية. بدأ تشاكالтана ينسى مشاكله المنزلية ويركز أكثر في الأوراق. ثمة شيء يثير القلق فيها: لغز خواكين الذي لا حل له. حتى داخل منزله، بين الأغراض التي لم يظهرها لأحد، كان العثور على تفسير، أو معنى، أو رد لسؤال حول حقيقة هذا الرجل أمرًا مستحيلًا.

بعد ساعة من محاولة اقتفاء أي أثر، شعر تشاكالтана بالإرهاق وانعدام التركيز. لم تكن أي قطعة ترتبط بأخرى. في الواقع لا حاجة لترتبط قطعة بأخرى. كل ما احتاجه هو ملاءة، أما أي شيء آخر فهو لتقضية الوقت أو التدخل في شأن لا يخصه، شيء ربما حانت ساعة نسيانه. حاول وضع الدرج في مكانه إلا أنه أبى. دفعه بقوة أكبر دون نجاح. ركل قطعة الأثاث بقوة من فرط الاستياء وحينها انكسر شيء. أحس مساعد الأرشيف بقطع الخشب لدى انفصاله وبعدها سقطت عدة أوراق على الأرض أسفل الدرج؛ أوراق مربعة صغيرة ولا معة مختلفة عن البقية ودفاتر صغيرة زرقاء وخضراء. كانت صورًا؛ أكثر من عشر صور وثلاثة جوازات سفر.

كانت الصور قد التقطت بكاميرات مختلفة في أماكن متنوعة وغالبًا عبر عدة مصورين. صور شخصية، أغلبها في حجم صور جوازات السفر لرجال مختلفين، وقد كُتبت على ظهر كل منها بيانات: أسماء وأرقام هاتفية وعناوين وبعض الأرقام، كأنها تصنيف. عثر على صور أخرى، التقطت بكاميرا (بولارويد) فورية، لرجال آخرين يدخنون في مقهى، لكن نفس النموذج تكرر فيها؛ إذ كُتبت على ظهرها أيضًا بيانات وكود للتصنيف. كانت جوازات السفر تنتمي لثلاثة رجال مختلفين، أحدهم هو خواكين.

ظهر في واحدة من الصور وجه معروف: الطالب ذو الوجه المليء بالبثور الذي عثر عليه تشاكالтана في هذه الشقة نفسها في اليوم السابق. يبدو مظهره

أفضل مع الإضاءة الخفيفة للصورة رغم استحالة إخفاء ما يفترض وجهه. كان ينظر للكاميرا ووجهه يخلو من أي تعبير، دون أن يتسم أو يبدى ضيقًا. على ظهر الصورة كُتب اسم: راميرو وارانغا ميسا وعنوان يقع في حي برينبا. بجانبه تعرف أيضًا على الآخر، الفتى ذي اللحية، ذلك الذي رآه في الجامعة مع ذي البثور. ظهر أيضًا اسمه: «دانييل ألباريث بانياغوا» وعنوان في حي بازانكو. استمر تشاكالنانا في تفحص هذا المعرض العجيب من الصور وبينما يفعلها بدأ يحفظ بها في جيبه.

احتفظ أيضًا بجوازات السفر. ربما ستصبح ذات فائدة، إلا أنها قبل أي شيء آخر، الذكريات الوحيدة الباقية من صديقه. صور البشر الوحيدة الموجودة في هذا المكان. ظهرت النساء في ثلاث فقط من هذه الصور. حينما أمعن تشاكالنانا بصره فيها اكتشف أن سيدة واحدة هي التي تظهر في كل الصور. شقراء نحيفة، ليست شابة وليست عجوز، إلا أنها جذابة. التفتت صورها بكاميرا الـ(بولارويد) ولم يُكتب شيء على ظهرها. في الواقع بدت الشقراء مسترخية ومبتسمة على عكس صور الرجال التي أظهرتهم جادين وصامتين. ظهرت في واحدة منها برداء البحر فوق الرمال، وفي الأخرى أثناء خروجها من منزل كأنها ستحتضن من يلتقط الصورة، إلا أن أكثر صورة صدمت تشاكالنانا كانت تلك الأخيرة. ظهرت فيها المرأة في صالة شقة خواكين ذاتها، على بعد عدة أمتار من مكان جلوس مساعد الأرشيف في تلك اللحظة. كانت الأريكة ماتزال سليمة بالطبع ولم تكن هناك أي أغراض محطمة، بل إن مكتبة ظهرت بجانبها بينما تكدست بداخلها نفس الكتب التي رقدت الآن على الأرضية. بجوارها على الأريكة نفسها، وبنفس القدر من السعادة، كأنه حبيب مغرم، جلس خواكين، إلا أنه خواكين مختلف عن ذلك الذي عرفه تشاكالنانا. أكثر سعادة، أكثر نورًا، تعانق يده يدي

الشقراء فيما تحاول شفثاه تقبيلها والابتسام في نفس اللحظة، بينما تنظر عيناه للكاميرا في انتظار الإضاءة التلقائية.

امراة. جانب جديد في حياة خواكين لم يعرفه تشاكالтана قط. ربما يسري نفس الأمر على دون جونثالو. ربما هي المرأة التي تتحدث في الخلفية حينما يتلقى خواكين مكالمات هاتفية، لكنها امرأة على أي حال، امرأة شقراء مثل نجيمات السينا وتتصرف بسعادة العشاق، ودليل دامغ على أن لخواكين حياة بعيدة ومجهولة في كوكب يختلف تمامًا عن الكوكب الذي يقطنه فيليكس تشاكالтана.

- صباح الخير سيدتي. إذا تفضلت، أرغب في معرفة إن كان السيد راميرو وارانغا ميسا يعيش هنا من فضلك؟

بالكاد تظهر السيدة من خلف الباب الموارب. كادت نظرتها المشككة أن تثقب روح تشاكالثانا. لم يبد على نبرة صوتها بالمثل أي ملمح للترحاب:
- من حضرتك؟ وما الذي ترغب فيه؟

ليس لدى مساعد الأرشيف ردًا دقيقًا حول هذا السؤال، بل أنه لتحري الدقة كان مليئًا بالتساؤلات التي لا يقدر سوى شخص وحيد على الرد عليها وهو الفتى الذي كان يحمل صورته في جيبه، ذلك الفتى صاحب الوجه المليء بالبثور الذي هرب قبل يومين منه.

- اسمي فيليكس تشاكالثانا سالديبار. أعمل في قصر العدل.

قضى تشاكالثانا الليلة يتقلب على المرتبة الممزقة أسفل أغطية لم تغسل وهو يتساءل عن طبيعة هذه القصة. صباحًا، غسل أسنانه بفرشاة رجل ميت، وبعد كل هذا قاده قدماء مباشرة نحو العنوان الذي ظهر على الصورة. أصرت رأسه على السير تحديدًا في الطريق المعاكس، لكن جسده رفض الإذعان لعقله. بخلاف هذا، فهو لم يكن يتحرى حول وفاة خواكين بل حياته وهذا لا يمكن أن يتعارض مع أي لائحة سارية. لم تتفاعل العينان الواقعتان خلف شباك الباب مع كلماته، لذا أوضح:

- هذا هو المكان الذي يعمل به القضاة يا سيدتي.

احمرت الآن العينان الواقعتان خلف الشباك. تحجرتا ثم اغرورقتا بالدموع. قالت المرأة:

- وماذا تريدون الآن؟ ألم تفتشوا كل شيء؟

- عذراً؟

انفجرت المرأة في البكاء فجأة.

- بالأمس قلبتم المنزل رأساً على عقب. لا يوجد شيء هنا يا سيدي!

نحن لم نفعل شيئاً. هذا الحي مليء باللصوص. لم لا تلاحقوهم؟

- سيدي.. أعتقد أنك يجب أن تهدأي.

- ليس علي أن أهدأ. أعد لي ابني وسأهدأ.

بينما تبكي، تضخمت عيناها في تحد وغضب. هذه المرأة الماثلة أمامه لم

تكمل مرحلة التعليم العالي وليس لديها أي معلومة عن التنظيم المؤسسي

للدولة. حاول تشاكالтана توضيح سوء التفاهم بأفضل أسلوب تعليمي

ممکن:

- سيدي. لست شرطياً. لست فرداً في الجيش. لا أعرف أين ابنك،

لكن لو كان مفقوداً فيإمكانني مساعدتك في العثور عليه، وإذا رغبت في

تقديم بلاغ ضد أحد، سأتعاون معك في تحريره.

- من أنت؟ كاهن؟

تريث تشاكالтана قبلما يرد. هو ليس وكيلاً للنيابة وليس بالمثل رجلاً ذا

سلطة بل موظفا حكوميا، موظفا في الأرشيف.

- أنا حاصل على ليسانس في الحقوق.

كلمات سحرية. فتحت المرأة الباب وعبر نور الشارع لمح نظرتها المفعمة

بالأمل.

- وهل ستساعدني؟

- يمكنكني المحاولة، لكنني أحتاج أن تشرحي لي بعض الأمور: ما الذي حدث بالضبط؟

تركت المرأة الباب مفتوحًا ودخل. فوق رف، رقدت علبة بسكويت كبيرة من الصفيح. فتحتها وأخرجت من داخلها ورقة ومدت يدها لتشاكاللتانا. سمحت له الإشارة بدخول الصالة. سألته:

- أصب لك بعض الشاي؟

- لا سيدتي. شكرًا لك على ذوقك.

الأثاث الوحيد في الشقة عبارة عن كرسيين معدنيين قابلين للطي وطاولة خشبية غير مطلية. كانت الصالة متصلة بباب يفضي لغرفة نوم كانت في الواقع هي الوحيدة في المنزل. علقت على الجدار صورة لـ«قلب المسيح» وبجوارها ملصق لتشي جيفارا. جلس تشاكاللتانا على أحد المقعدين وفحص الورقة التي أعطتها له. كان إخطار اعتقال على يد أمن الدولة، إخطار اعتيادي دون أي صفات لها خصوصية. كان سيشرح للمرأة ما يعنيه الأمر، لكن قبل أن يتحدث، انفجرت مجددًا في البكاء.

- جاؤوا بالأمس في ساعة الإفطار. فتشوا كل شيء يا بني. أسفل المرتبة وفي الحمام. لم يكن هناك أي شيء، إلا أنهم أخذوا معهم راميرو.

- كم فردا كانوا؟

- ثلاثة يا بني.

- يرتدون زيا عسكريًا؟

- لا لم يرتدوا زيا. لم يكونوا حتى من بيرو. اثنان منهم على الأقل لكتتهما غربية. كولومبيان بكل تأكيد، أو من إسبانيا. لم يتحدث الأخير.

- هل قالوا لك إلى أين سيأخذونه؟

هزت رأسها بالنفي:

- لم يرغبوا في قول أي شيء لي. ابتسم أحد الأجنبيين ليزيد الطين بلة. قال لي «لا تقلقي يا سيدتي. ابنك سيتعرف على العالم». هذا المتعوس. أي عالم سيراه ابني في المكان الذي سيحبسونه فيه؟

كانت المرأة تتحدث بين مخاط وعويل بصوت مكسور. جلست على الكرسي الآخر وأغرقت وجهها بين يديها. بدأ تشاكاللتانا في دراسة إمكانية تقديم بلاغ بتهمة الاعتداء:

- هل تعاملوا بعنف؟

- في البداية لا. قالوا إنه إجراء روتيني لا أكثر أو أقل، إلا أنهم حينها شاهدوا ملصق راميرو- ثم أشارت نحو صورة تشي جيفارا على الحائط- تعاملوا بقلّة تربية. سألوا عن أمور وأفرغوا محتويات الأدراج. بعدها حاول راميرو الركض وحينها أسقطوه أرضاً وقيدوا يديه بالأغلال. قالوا له: «يا شيوعي يا قدر»، و«ملعونة أمك».

لم يكن هناك أي إشارة حوله حول وجود عملية مراهمة. تفهم تشاكاللتانا بكل بساطة أن هذا بسبب عدم وجود شيء يذكر في المنزل، فترتيبه أو إلحاق الفوضى به لن يستغرق أكثر من عشر دقائق. تذكر تشاكاللتانا عبارة راميرو. «لا تقتلني من فضلك». «لن أقول أي شيء عما يفعلونه. من فضلك. لا تقتلني».

- هل كان لابنك توجهات سياسية يا سيدتي؟

- لا أعرف يا بني. أحياناً يقول أموراً.. أراء.. سلبية للغاية عن الرئيس وعن العالم، لكن هذه طريقة تفكيره. كنت أقول له إنه سيكبر ويهدأ بمرور

الوقت. لم أعرف قط إن انضم لحزب سياسي يا بني. ربما لم يحك لي، أو لم يرغب في إخباري بالأمر. هذا شيء لا أعرفه. ما أعرفه أنه ولد طيب وأنه لا يستحق أن يأخذونه ويتعرض للضرب.

- بكل تأكيد يا سيدتي.

ثمة سؤال يطفو في الأجواء. في الواقع، هو السؤال الوحيد الذي فكر تشاكالтана في طرحه. ربما هذه هي اللحظة الملائمة لذلك:

- سيدتي. هل يعني لك اسم خواكين كالبو شيئاً ما؟

في ظرف ثانية، تغير وجه المرأة وأشع، لدرجة بدا معه الأمر كأنها تضحك.

- أوه. دون خواكين.. رجل شهيم. كان أستاذاً لراميرو. جاء للمنزل مرتين لزيارتنا. كان دوماً دمئاً. جلب لي أزهاراً وأشياء من هذا القبيل.

ابتهج تشاكالтана هو الآخر، فللمرة الأولى منذ بدأ كل هذا كان لدى أحدهم تصور عن خواكين مثل ذلك الذي يخصه.

- أتتذكرين متى كانت آخر مرة جاء فيها؟

- منذ فترة يا بني. دون خواكين لم يأت إلى هنا منذ العام الماضي على الأقل. لم يعد يلتقي بابني.

- هل كان لابنك أي تعليق بخصوص المسألة؟

- توقف عن الحديث عنه لا أكثر أو أقل. توقف عن حكاية الأشياء لي، وهو توقف عن المجيء.

- ألم يخبرك راميرو قط بالسبب؟

نظرت المرأة نحو السقف، كأنها ستعثر هناك على الإجابة. رفع تشاكالтана نظرتة هو الآخر لكنه لم يجد سوى بعض التنقيط وبقع بفعل الرطوبة. أجابت المرأة في النهاية:

- سألت راميرو ذات مرة، ما الذي حدث لدون خواكين ولم لم يعد يأتي؟

- وماذا كانت إجابته؟

ابتسمت بحزن، بحنين شخص يتحدث عن الأموات دون حتى أن يعرفهم:

- قال لي «لم يعد من الممكن رؤيته يا أمي. أصبح حبيبًا لشقراء ويات لا يأتي للجامعة إلا فقط من أجل فصوله وبعدها يركض لحيث توجد حبيته». على الأقل فإن دون خواكين سعيد الآن. أليس كذلك؟ هل تزوج؟
- لم يتزوج.

أجابها تشاكالтана وهو يفكر في الشقراء. مرة أخرى تلك الشقراء التي لم تكن موجودة سابقًا وها هي الآن فجأة تظهر في كل الأنحاء.

انفجرت المرأة فجأة في البكاء مرة أخرى:

- راميرو يا بني. أخذك وأنت لم تفعل شيئًا!

أجابها تشاكالтана وهو يضع يده فوق كتفها بينما يقدم لها منديلًا ورقيًا:
- بكل تأكيد.

- هل ستعثر لي عليه؟

- ماذا؟

- هل ستعثر لي عليه؟ هل ستساعدني؟ من فضلك.. ساعدني.

عاودت المرأة البكاء كمن لا يمكن تعزيته وهي تتمخط في المنديل وبينما
يحتضنها، ندم تشاكالтана على رفض كوب الشاي الذي عرضته.

بيرو - البرازيل

حسم قراره. لن يستمر في هذا الطريق، ففي نهاية المطاف لديه وظيفة، تلك التي أهملها. لدى عودته للأرشيف، بحث تشاكالтана عن بلاغ «مخالفة إدارة الجوازات» ضد المدعو نيبوموسينو بالديييا. كان البلاغ يرقد على مكتبه منذ أسبوع بخطه الذي لا يقرأ ونقص بياناته المخجل. العثور على من قام بتحريره أمر واجب، وكذا العثور على من أوصله للقبو بهذه الصورة غير المسؤولة وشبه الفاضحة. هذا هو جوهر عمل مساعد الأرشيف. هذا هو واجبه. وما الذي فعله فيليكس تشاكالтана طيلة الأيام الماضية؟ لعب دور المحقق، والإنصات لثرهات عجوز أبله والتشاجر مع سيسيليا والتجول في ليما بحثًا عن قوم لا يبحث عنهم أحد، بل والغياب لعدة ساعات عن عمله. قضى أسبوعًا بالفعل وهو يضيع وقته فاقداً للتركيز، منغمسا في العدم وكلها تصرفات لا تمت له بصلة، لكنه الآن قرر العودة لرشده. أخرج من الدرج ثلاث أوراق بالحجم الرسمي وورقتي كربون. جلس واستعد لتحرير إخطار بشكوى سترُفع -داخل مظروف رسمي- للطابق الثالث للمطالبة بتحمل أحدهم مسؤولية هذا البلاغ المخالف. الآن ستعرف الإدارة القضائية بأكملها من هو حقًا فيليكس تشاكالтана سالديبار وما هو قادر على فعله.

مر المدير بجانبه بينما تفوح منه رائحة كحوله التقليدية:

- صباح الخير يا بني. هل اتصل بي أحد؟

تفهم مساعد الأرشيف أن مديره لم يلحظ تأخره هذا الصباح. فكر في تحرير إخطار آخر للإبلاغ عن غيابات المدير المتكررة عن محل عمله، إلا أنه استبعد هذه الفكرة لأنها ستعني القفز فوق التدرج الوظيفي.

- لا يا سيدي.

قام المدير بإيلاء ترحيماً بأنه سيستأنف طريقه لكنه توقف وسأله - وبطريقة غامضة - كأنه لا يرغب في الاستماع لرد:

- ما الذي تفعله يا فيليكسيو؟ لا تقل لي أنك ما تزال تضع نفسك في مشاكل؟

- لا تقلق يا سيدي.

ارتسمت ابتسامة ترحيماً بالارتياح على وجه المدير.

- هذا أفضل لك يا بني. فمن تدخل فيما لا يعنيه..

من تدخل فيما لا يعنيه.. هذا صحيح. أم لا؟ تذكر تشاكالانا سيسيليا وهي تنظر له كجبان، لكنه ليس جباناً. هو بكل بساطة يدرك الحدود الدقيقة لمسؤولياته كموظف حكومي، كمواطن، كابن.

- أتفق معك تماماً يا سيدي. هذا هو ما أفكر فيه الآن.

- تفكير جيد يا بني.

ابتهج تشاكالانا، فربما تكون هذه نقطة فاصلة في علاقته مع مديره. ربما الآن يمكنها التناغم معاً كمدير ومرؤوس، كأستاذ وتلميذ لتحقيق أفضل أداء للأرشيف. اعترف تشاكالانا متحمساً:

- لهذا عدت للعمل على بلاغ «مخالفة إدارة الجوازات». أتذكره؟ ذلك الذي لم أتمكن من أرشفته بسبب عيوب الصياغة. سأرفع شكوى للطابق

الثالث. سأرفعها لك قبلها في ظرف نصف ساعة لكي تذيّلها بتوقيعك.

تبدلت ملامح وجه المدير الآن بأخرى غريبة، ليست «غريبة» مثل كل مرة وضع فيها تشاكالثانا نفسه في مشكلة، بل مثل تلك الملامح التي ارتسمت على وجهه قبلها بعدة أيام أمام المبولة، حينما كافح دون نجاح ليقضي حاجته. قال له باستنكار:

- شكوى؟ مم تشكو يا بني؟ هل طلب أحدهم هذا البلاغ؟

- لا؟

- هل تعرف ما هي فحواه بالضبط؟

رغب مساعد الأرشيف في الرد بأن هذا هو أصل المشكلة، وأن فحوى البلاغ ليست واضحة، إلا أنه رده اقتصر على قول:

- هي «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب.. حدث».

- إذن هي مجرد حماقة يا بني. ربما الحدث هو أن أحدهم على سبيل المثال أدخل كرتونة سجائر للبلاد دون سداد الضرائب، وأبلغ أبله آخر عن المسألة، على الرغم من أن تكلفة ملاحقة مرتكب المخالفة ستكون أعلى من الضرائب المفروضة على كرتونة السجائر.

- حتى لو كان الأمر صحيحا، فالالتزام بالإجراءات الاعتيادية ضروري لكي..

- أو ربما أن أحدهم قد خرج من البلاد دون ختم الدخول. حماقة معروفة وتحدث دائما.

- سيعد هذا مخالفة خطيرة تتعلق ب..

- احفظ البلاغ يا بني وأغلق القضية.

- هذا أمر مستحيل يا سيدي.

ظل تشاكالثانا ثابتا على موقفه. إخفاء بلاغ لم يشكل قط جانبًا من برجة عقله. تفهم المدير المسألة. لوح بيده كأنه يبعد بعوضة أو وطواط:

- حسنا. حسنا. حسنا. افعل ما يحلو لك يا بني، لكن وقعها أنت. اتفقنا. لدي كثير من الأمور لأفعلها اليوم.

- هل تحتاج أي مساعدة يا سيدي؟

نظر المدير إلى مساعده متشككا ثم قال:

- لا تشعر بالإهانة يا فيليكسيو، لكن لا أعتقد أنك الشخص المناسب لمساعدتي في أموري.

ظن تشاكالثانا أن هذه ربما تكون فرصته لإعادة تسيير علاقاته المهنية. نهض ونفخ صدره كأنه جندي يقف أمام العلم وقال كأنه يتلو بيانًا:

- سيدي، اسمح لي بأن أخبرك، أنه ورغم الخلافات بيننا حتى الآن فيما يتعلق بإدارة المهام المرتبطة بوظيفتنا، إلا أن نيتي بداية من اللحظة إرساء نفسي كمعاون موثوق لإدارة هذا الأرشيف.

- هل تقصد أنك ستساعدني؟

- بكل تأكيد يا سيدي.

نظر المدير حوله، في كل الأنحاء كأنه يخشى كونها خدعة أو كمينًا ثم سأله:

- هل أنت متأكد مما تقوله؟

- متأكد بنسبة 100%.

معجبًا باليقين الذي يتحدث به مرؤوسه، فتح المدير عينيه وأومأ برأسه:

- حسنًا. حسنًا. إذا كنت مصرًا، سأعتمد عليك.

- شكرًا يا سيدي.

- في الوقت الحالي، كل ما أحتاج إليه هو القيام بعملية حسابية. عملية تقديرية.

اقرب المدير من مساعده كمن يتواطأ معه على شيء، كمن سيحكي له سرًا كبيرًا. استعد تشاكالثانا لسماع كلماته كأنها كشف عن سر مكنون، كأنها جواز سفر نحو مرحلة جديدة في مسيرته المهنية. وصلت الكلمات:

- فيليكسيو. كم هدفًا سنسجل في البرازيل؟

لم تكن الكلمات التي ينتظرها تشاكالثانا. ظن أنه ربما لم يسمع جيدًا، أو ربما لم يعبر عن نواياه كما يجب.

- سيدي؟

- دعنا نتحدث تاريخيًا يا بني: في 1970 كنا الفريق الوحيد الذي سجل فيهم هدفين ونحن الآن نتصدر المجموعة متفوقين على هولندا. البرازيليون جاؤوا في المركز الثاني خلف النمسا. من الواضح يا فيليكسيو أن مباراة الغد ستكون لنا، لكن الناس لا تصدق، بكل تأكيد بسبب كؤوس العالم الثلاثة التي توجت بها البرازيل، لهذا فإن مدفوعات الرهانات ستكون جيدة في حالة فوز بيرو. المسألة هي بكم هدفًا سنفوز؟ لا يجب علينا ترك أنفسنا تنقاد خلف أجواء الزهو بالانتصار، لكن في نفس الوقت لا يصح أن نغض بصرنا عن اللحظة الرائعة التي نمر بها. أليس كذلك؟

لم يعرف تشاكالثانا كيف يرد، فمعلوماته عن الأمر الذي سأل مديره بخصوصه هي نفس معلوماته عن ترتيب بقية الكواكب مع المشتري، لكنه على أي حال رغب في قول شيء ما:

- ممم.. ستة؟

- ستة؟ هذه كرة القدم وليست كرة السلة.

فقدت عينا المدير ذلك البريق وانمحي التواطؤ من طريقة تعامله
وابتعد جسده عدة سنتيمترات عن تشاكالтана وامتلات ملامحه بالإحباط،
كأن تشاكالтана قد انتهى للتو من إبلاغه ب وفاة أحد أحبائه. للحظة بدا أنه
على وشك توجيه خطاب مليء باللوم له عن كرة القدم والحياة الاجتماعية
والترقي، لكن رده في النهاية اقتصر على قول:

- يا بني.. سأعود في الخامسة مساء. لو اتصل أحدهم قل له إن عندي
اجتماعا في الوزارة.

تاركًا إياه مع هذا الظن، رحل المدير إلى حيث كان ذاهبًا.

قطع تشاكالтана عهدًا مع نفسه بمعرفة المزيد عن كرة القدم، إلا أنه لم
يرغب في إعطاء تلك الواقعة أهمية كبرى، إذ كان يمكث الآن وحده في
هدوء. جلس لينهي الإخطار بخصوص بلاغ «مخالفة إدارة الجوازات».
حرر الإخطار بعناية بالغة فيما يتعلق بالصفات والنعوت، لأنه رغب في
عكس صورة تنم عن الجدية وحسن التنظيم، وقبل انتصاف الظهيرة كان
يلصق الأظرف بقلم الصمغ الأبيض. حينما سلمها للساعي عند الباب
غمره شعور بالراحة، بالتححر. إنه الآن متأكد من أنه يفعل ما يمليه على
واجبه. وبينما أوشك على العودة إلى مكتبه أدرك فجأة أنه ليس لديه شيء
ليفعله في بقية اليوم.

حينما انتصفت الظهيرة وبدلاً من تناول الغداء، بدأ تشاكالانانا في السير نحو جادة «ممتزه الجمهورية». ليس الالتزام بعمله هو الأمر الوحيد المطلوب منه، فهناك شأن آخر يجب عليه حله، ذلك الذي إن لم يحله سريعاً فسيضطر لقضاء ليلة أخرى في شقة خواكين. عند الملعب الوطني، انعطف ناحية اليمين. كاد أن يتعثر في أحد القوائم لشدة تركيزه في التفكير بالمحادثة التي تنتظره. تحضّر لكل عبارة في خطابه. على أي حال، حينما توقفت قدماه عند باب منزله، لم يعرف من أين يبدأ. التقط أنفاسه. افترض أن أمه بلا شك هي من ستأخذ زمام المبادرة في المحادثة وستمطره بوابل من التأنيب والتوبيخ وسيجب عليه تحمله. كان يرغب في أن يصبح رجلاً حرّاً وناضجاً، إلا أن الأمور انتهت بصورة سيئة. العالم في الخارج عدائي وخطير، وها هو الآن يعود جازاً أذبال الخيبة فيما بين ساقيه. من بين كل العقوبات الممكنة التي افترض أنها تنتظره، كان أطفها هو توبيخ مصحوب بطبق من الطعام الساخن. تدرب على العبارات الوحيدة التي احتاجها وهو يعبر الباحة الأمامية ليصعد السلام: «آسف يا أمي. لقد تصرفت بصورة سيئة». «أنت محقة. كما هو الأمر دائماً». «هذا الأمر لن يتكرر». ممتاز! لأي سبب قد يخلق نقاشاً؟ الأمر الوحيد الذي يجب عليه فعله هو الاستسلام التام. عودته بعد مجرد يوم من الرحيل هي الراية البيضاء، طلب السلام الذي يتقدم به المهزوم. وضع المفتاح في القفل وأداره. حينما فتح الباب، بدا له المنزل مختلفاً. فاحت منه رائحة الدجاج بالفلفل الأحمر، الطبق المميز لأمه والذي لم تطبخه منذ تخرجه. سمع أصواتاً. باستثناء زيارة سيسيليا، وذكرها الحزينة، لم يستقبل هذا المنزل أي زيارات منذ آخر تعداد قومي، لكن أغرب شيء كان صوت أمه العذب في مخالفة لكل التوقعات:

- فيليكس! جميل أنك وصلت. هل أقدم لك فنجانًا صغيرًا من الشاي؟

فتح تشاكالтана الباب. أول ما وقعت عليه عيناه مشهد أمه واقفة بشعر مصفف وبملابسها المخصصة للسهرات الجنازوية: تنورة تصل لأسفل الركبة، قبعة سومبريرو، غطاء المانتيل، لكن ولأول مرة سترة بيضاء كلمسة سعيدة في ملابسها. على بعد متر منها، على الأريكة، وجد دون جونثالو، الذي يخفي يده المصابة أسفل وسادة ويمسك بالأخرى كوبًا صغيرًا من البيسكو.

- فيليكس! جميل أنك وصلت. تناولنا الغداء بالفعل، لكن كنا نأخذ التحلية.

ابتسمت أمه:

- دون جونثالو اتصل صباح اليوم ليسأل عنك. قلت له أن يأتي لمقابلتك الآن. جلب لي.. أقصد أنه جلب زينة للمنزل.

وقعت عينتا تشاكالтана على باقة من الزهور تشارك الآن سطح الطاولة مع صورة أبيه. كانت باقة كبيرة من زهور الكولونيا عديمة اللون وبها لمسة جنازوية خفيفة. عكست تصرفات أمه إفراطا في الجمالة، وكشف لون وجنتي دون جونثالو أن هذا ثاني أو ثالث كوب من البيسكو. اعترف الأخير:

- استقبلتني والدتك بلطف كبير.

استنكرت مضيفته:

- لا تقل هذا يا دون جونثالو. كأى زيارة.

أي شخص غريب كان ليجد السيدة الصلبة الباردة الشاردة تجلس كعادتها في روبا المخملي كملكة تعطي منصة أمام المقصلة. تشاكالтана يعرفها جيدًا ولا حظ كيف تحركت يداها بتوتر فوق المائدة لتنظيف منافض السجائر الخاوية وترتيب تماثيل البورسلين، وكيف كانت لكنت دون جونثالو الأوروبية

-رغم تأثرها بالسنوات التي عاشها في القارة الأمريكية- تسعدها؛ تجعلها فخورة، وتمكن تشاكالтана من الإحساس بالمسألة.

- سأتناول الشاي يا أمي. شكرًا لك.

جلس بجانبه على الأريكة، بجوار ضيفه. كان الوضع غير متوقع وغير مألوف لذا لم يعرف جيدًا ما الذي يجب فعله، ما الذي يجب قوله، لكنه من ناحية أخرى عرف ما الذي يفعله دون جونثالو هنا. أدرك جيدًا ما هو في حاجة لسماعه، وبالفعل بعد المجاملات التقليدية والحديث عن الطقس والبرودة والرطوبة، لم يتأخر السؤال المخيف في الوصول:

- فيليكس. هل كان لديك بعض الوقت لتمر على شقة خواكين؟

- هذا بالضبط ما كنت أرغب في تبادل بعض الكلمات معك بخصوصه..

- جميل. هل مررت على الشقة؟

تناول تشاكالтана رشفة كبيرة من شايه وهو يفكر، كيف يقول ما يرغب في قوله دون كذب:

- مررت ببضعة أيام صعبة دون جونثالو. لا تعرف كم الأمور التي فعلتها.

- أتفهم.

تدخلت والدته بنبرة حادة:

- فيليكس. إذا كان دون جونثالو قد طلب منك خدمة تكريرا لذكرى ابنه، فعليك أن تفعلها.

- أعرف هذا بالفعل يا أمي.

حاول دون جونثالو التخفيف من حدة الموقف:

- لا تقلقي دونيا آنا. لا يمكننا أن نترك التزاماتنا من أجل الموتى. أليس كذلك؟ أنا ثقيل أكثر من اللازم. لا أرغب في أن يشعر فيليكس بالضغط.

دونيا آنا. مرت سنوات لم يسمع فيها تشاكاللتانا من ينادي أمه بهذه الطريقة. كان تقريباً قد نسي أنها تدعى هكذا، إلا أنه حاول التركيز مع دون جونثالو الذي واصل حديثه:

- ربما من الأفضل أن أذهب بنفسى للشقة.

- لا!! أقصد أن أقول.. لا تقلق. سأتكفل أنا بهذه المهمة.

ابتسم دون جونثالو لكن ابتسامته محملة بلمسة من الحنين الحزين للماضي.

- هناك أمور كثيرة كان علي أن أكونها لابني، أمور كثيرة توجب أن أقولها له ولم أقلها.. أنظر لكما وأفكر قائلاً: يا لحظكما السعيد! أنتما ماتزالان معاً. أنتما عائلة ومايزال بإمكان كل منكما أن يقول للأخر ما يرغب فيه.

لم يسبق وخطر على بال تشاكاللتانا النظر للوضع بهذه الطريقة. نظر إلى أمه ولأول مرة خلال الأسبوع لم ير في وجهها الوحدة والحدة والتأنيب، بل الحماية والحب. حاول بعدها النظر نحو أبيه في صورة العائلة الموضوعة على الطاولة، إلا أن إحدى زهرات الكولونيا كانت تغطي وجهه.

تابع دون جونثالو وهو يصب لنفسه كوباً جديداً من البيسكو:

- زوجتي، لترقد في سلام، كانت امرأة شديدة العذوبة. طيبة لدرجة السذاجة. أتعرفان. قضينا عدة سنوات معاً وكان وقتاً سعيداً مليئاً بالأمل. حملت بخواكين وبعدها هي..

انكسر صوته في العبارة الأخيرة، فالموت الزائد عن الحد يصعب تذكره

ببرود.

قالت والدة تشاكالтана كأنها تصدر حُكمًا:

- الموت سيلحق بالجميع. لا أحد سيهرب منه.

- الأسوأ ليس الموت نفسه، بل حزن الباقيين أحياء. الفراغ، والشك، لم أتمكن من البقاء بجوارها حينما ماتت. كانوا يجلوننا. وتوجب إما إنقاذ الطفل أو إنقاذها.

تمتت الأم كأنها تحدث لنفسها:

- لا تعذب نفسك دون جونثالو، فالحياة تصبح أحياناً أقوى منا.

واصل العجوز حديثه:

- لم أعرف قط كلماتها الأخيرة. لم أعرف ما الذي دار في رأسها بتلك اللحظات الأخيرة، ولا حتى الأيام الأخيرة..

انفجر الرجل في البكاء الآن بالفعل. شعر تشاكالтана بأن هناك أمرًا لا يستطيع التقاطه في هذه المحادثة، إن دون جونثالو وأمه يتواصلان عبر مستوى مختلف، لكنه أراد أن يشكل جزءًا من هذا. خطر له فجأة أن دون جونثالو ربما يكون العنصر الذي ينقص هذا البيت، أنه هو نفسه - هو وأمه - ربما ما افتقده دون جونثالو طيلة حياته. سُرق شيء من كل الموجودين في هذه الصالة وبت من الوجود ولم يعرف أي منهم السبب. قال بصوت مرتفع، على عكس رغبته تقريبًا:

- الموتى يتركون لنا ألغازًا لن نحلها أبدًا.

ربما تكون قد حانت ساعة إغلاق زجاجة البيسكو، فقد أجابه دون جونثالو، غالبًا بحدة أكثر مما تقتضيه قواعد الذوق:

- لكنني لن أستسلم يا فيليكس. خواكين رحل دون أن يخبرني من هو

وما الذي يفعله وما الذي ينتظره من هذه الحياة، إذا كان سعيدا.. كل من أحببت اختفوا دون أن يتركوا خلفهم أثرا، كأنهم أشباح.

أوما فيليكس برأسه:

- أفهمك.

وكان حقاً يفهم مسألة الأشباح.

- والشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي هو أنت يا فيليكس. هل

ستساعدني؟

فجأة، بات كل من له ابن في هذا العالم يرغب في أن يساعده فيليكس. كان يعي أن له هيئة الابن المثالي، الذي لا يضع نفسه أبداً في أي مشكلة، وأراد أن يظل هكذا تحديداً.

- معرفة كل شيء عن رحلوا ليست دوماً فكرة جيدة.

هتفت أمه:

- فيليكس! دون جونثالو يطلب مساعدتك.

أدرك فيليكس تشاكالانا أنه قد حوصر. نطق ببطء الكلمات التي سعى لتجنبها، وهو يعرف أنه سيندم عليها مستقبلاً:

- ما الذي ترغب في معرفته تحديداً دون جونثالو؟

كانت عينا العجوز تبدوان أشبه بزجاج على وشك الانكسار، ربما بسبب الحنين الحزين للماضي، ربما بسبب الكحول، إلا أن إجابته بدت حاسمة وقاطعة:

- من الذي قتله ولماذا.

- صباح الخير سيدتي. إذا تفضلتِ، أرغب في معرفة إن كان السيد دانييل ألبارث بانياغوا يعيش هنا؟

ألبارث كان صديق الفتى ذي البثور، وارانغا ميسا، أو على الأقل زميله في الدراسة. كانا معا في ذلك اليوم بالجامعة وأيضًا في المقبرة يوم دفن خواكين. على الرغم من هذا، ظهر تباين هائل في المنطقة السكنية لكل منهما. برينيا كان حيًا شعبيًا ومزدحمًا، أما بارانكو فبمناخة منتجع للهروب من ليا حتى فترة ليست بالبعيدة. ابتلعت المدينة وتحول إلى أحد أحياء الطبقة المتوسطة، لكنه مازال يحتفظ بأجواء منازل القرى الصغيرة الجميلة. احتل شارع خونين الصف الأول أمام الجرف بطلّة على البحر، وإن كان البحر رماديًا بفعل لون السماء الشبيه ببطن حمار. وصل الاختلاف أيضًا في هيئة الشخص الذي فتح الباب. كانت أم وارانغا ميسا امرأة بسيطة، هجينة، لم تدخل مرحلة التعليم العالي أو ربما لم تحظ بأي تعليم من الأساس. على النقيض، كان الشخص الذي فتح الباب في هذا المنزل أبيض البشرة، ذا شعر كستنائي ناعم. بعيدًا عن كل هذه الاختلافات، هناك عامل مشترك بين الاثنين: النظرة المتوترة التي أطلابها من وراء الباب، هاتان العينان المفزوعتان من خلف الباب الموارب، كحيوان يخشى أن يتعرض الصيد.

- سيدتي؟

كرر تشاكالانا عبارته خشية أن تكون صماء.

أجابه صوت ذكوري:

- أنا لست سيدة.

نظر تشاكالтана مجددا وأدرك خطأه. كان معتادًا على مبدأ الشعر القصير للرجال والطويل للنساء، فهذه فكرته الأساسية عن الأنواع. كانت لدى المرأة المزعومة لحية لكنها لم تظهر في البداية عبر المساحة الضيقة من الباب الموارب، وكذلك فإن القميص الذي لم تزينه كرافات وخرج من السروال بألوانه الزاعقة لم يكن أنثويا بالضرورة. تذكر تشاكالтана الفيلم الذي أخذته سيسيليا لمشاهدته: «حمى ليلة السبت»، فبعض الناس يرتدون مثل هذه الملابس، على الأقل على الشاشة.

- آسف. هل أنت دانييل؟ أنا..

- أعرف من أنت. هل معك أمر تفتيش أو شيء من هذا القبيل؟

- ماذا؟ لا. لا. أنا هنا بصفتي.. بصفتي صديق لخواكين.

شك في نفسه وهو يقولها. لم يحدثه خواكين قط عن هؤلاء الأشخاص وما هو واضح فلم يحدثهم قط عنه. هل يستطيع فعلاً اعتباره صديقه؟ كان بطريقة ما يتحقق من الأمر إرضاء لغروره. عرف أن دون جوثالو سيعود لزيارته لمعرفة إن كان قد عثر له على معلومات عن ابنه. أراد تكرار ذلك الغداء، ورؤية أمه متوترة ولطيفة، أن يناديها أحد باسمها، أن يكون في منزله رجل كأنه والده، وإن لم يكن كذلك، فهو أب لأحدهم على الأقل، أب يبحث عن أبناء شاغرين. أراد أن تغطي المزيد من زهور الكولونيا صورة أبيه الحقيقي، وليحقق كل هذا كان مستعدًا للذهاب لطرح أسئلة في الجحيم نفسه. في تلك اللحظة ودون أن ينطق بشيء، أغلق دانييل ألبارث الباب. انتظر تشاكالтана أن يسمع صوت السلسلة وهي تنسل وطققة الباب بينما يفتح، إلا أن كل ما سمعه نعيق طيور النورس والصدى البعيد للبحر. قال بصوت مرتفع لكن داخل حدود الاحترام:

- سيد أباريث. اسمعني. أعرف أن المسألة تبدو غريبة بالنسبة لك، لكنني أرغب في أن تستمع لبعض الأمور عن خواكين. لم آت بصفتي موظفا في المحكمة. لن أطلب منك أن توقع شيئًا. لن أقول لأحد إنني كنت هنا.

تردد صوت بوق صغير في الخارج. كانت عربة بائع الثلجات الصفراء الصغيرة تسير في الشارع. على بعد عدة أمتار قليلة من تشاكاللتانا توقف البائع ونظر لتشاكاللتانا بفضول. تذكر مساعد الأرشيف لقائه في شقة خواكين مع الطالب الآخر. غالبًا كان أباريث مرعوبًا مثله وغالبًا كان محققًا في هذا. عاود الحديث:

- سيد أباريث. أعرف ما الذي تخشاه. صدقني ليس لدي أي صلة بهذا ولا أرغب في أن تكون لدي صلة به. أصنع لي اليوم وبعدها سأذهب ولن أعود لأزعجك من جديد. أقسم لك بهذا سيد أباريث، أقسم لك بأمي.

عند الناصية ثمة رجل يرتدي زيًا رياضيًا يتمشى مع كلب من فصيلة الراعي الألماني. نظر الرجل أيضًا لتشاكاللتانا. تخيل مساعد الأرشيف أنه يبدو هنا، وبحديثه مع باب مغلق، كحبيب مطرود، بل والأسوأ من هذا منحرف. تخرج وجهه من التفكير في المسألة فقط. حينما أوشك على الرحيل، انفتح الباب. مازال دانييل أباريث واقفا هناك، على الجانب الآخر، وينظر إليه كمن عثر على حشرة في طعامه، ثم نهره بصوت حاد ككلب يزجر:

- اللعنة. ادخل. لا تمكث هنا بينما تصرخ.

كان تشاكاللتانا سيبالغ في شكره على دعوته، لكنه أدرك أن الأكثر ملائمة هو الصمت. خطا نحو الأمام وأغلق الباب خلفه. المنزل من الداخل نقيض لكل ما في شقة خواكين. ليس مليئًا بقطع الأثاث والأغراض المبعثرة. ليس

هناك شيء تقريبًا. على يساره، وجد أسفل النافذة كرسيين بلا مسند للظهر وبعيدًا سلما يفضي إلى الدور الثاني. كان هذا هو كل شيء. المكان خاوٍ لدرجة أن لخطوات تشاكالтана صدى في الجدران، بل إن البيت أبرد من الخارج. - اجلس.

سحب أباريث مقعدًا نحو أحد جانبي النافذة ليجلس عليه فيما جلس تشاكالтана على المقعد الآخر. لم يعرض عليه أن تناول شيء فلم يكن لديه أساسًا شيئًا يصلح تقديمه. حاول تشاكالтана إظهار سلمية مقصده:

- ممتن لتفضلك عليّ بإدخالي لمنزلك..

- كيف عثرت على هذا المكان؟

خاطبه أباريث بدون رسميات، لكن تشاكالтана يفضل أن يعامله بها. فعلى الرغم من كونها في نفس السن تقريبًا، إلا أنه يشعر أنه مختلف، كأن كل منهما يعيش في قارة منفصلة عن الآخر.

- عذرًا؟

- هل أنت أصم؟ بأي طريقة ملعونة عثرت علينا؟

- أنا..

ليس لدى تشاكالтана شيئًا ليخفيه. فكر في أن يظهر له الصور التي كان خواكين يحتفظ بها والعناوين المكتوبة عليها؛ صورته هو وراميرو وارانغا ميسا وبقية الصور للشباب العشرة الذين لم يسبق له رؤيتهم قط في حياته، بل إنه فكر في إظهار الصور التي لا تحمل عناوين أو اسم، الصور الثلاث الخاصة بالمرأة الشقراء. إذا كان وارانغا ميسا يعرفها فلا بد أن نفس الأمر ينطبق على أباريث، لكن طريقة تعامل الشاب الحذرة كشفت له إنها ليست

فكرة جيدة، وأن خواكين لم يتوجب عليه الاحتفاظ بهذه الصور، وأن هذا الدرج السري ليس تحديدًا سجلًا للطلاب ولا دفترًا للعناوين الأصدقاء. مرة أخرى حاول الكذب دون أن يكذب:

- صباح اليوم كنت في منزل صديقك راميرو. تحدثت مع أمه.

حينما سمع الاسم، هدا الشاب ذو اللحية وسأله:

- أين أخذوا راميرو؟

بالكاد نظر ألبارث لتشاكالтана، إذ ثبت عينيه طوال الوقت تقريبًا على الشارع من خلف الستارة الخفيفة التي تدلت من فوق النافذة، والتي سمحت له بمراقبة ما يحدث في الخارج دون أن يراه أحد.

- لا أعرف. لم آت إلى هنا بسبب هذه المسألة سيد ألبارث. أنا هنا لسبب شخصي.

نظر الشاب لتشاكالтана لفترة طويلة للمرة الأولى ثم ضحك أو ربما زمجر:

- بعد المنحنى الذي وصلت له الأمور، لا يوجد شيء شخصي.

- هذا صحيح.. أنا.. جئت بتكليف من السيد والده.

اندهش ألبارث وعبر ظل الشك نظرته:

- والد خواكين؟

أوما تشاكالтана برأسه فيما حك الآخر لحيته:

- لم يهه ابنه وهو حي. لم قد يهتم به الآن؟

- لأنه قدمات.

شعر تشاكالانا بتعليق ألبارث كأنه ينغزه، فهذا الشاب طويل الشعر ذو المظهر الأنثوي -الذي لا يعتني بالمناسبة بنظافته الشخصية- يعرف عن خواكين أمورًا أكثر مما يعرفها هو، بل وتحدث معه عن أشياء لم يأت صديقه على ذكرها معه، وهو الأمر الذي يبدو أنه حدث مع الجميع سواه.

حاول أن يوضح أكثر السبب من وراء زيارته:

- السيد كالبو يرغب في معرفة أمور عن ابنه، لذا سأسعد كثيرًا لو قبلت أن تتحدث معه بصفة شخصية.

كان ألبارث قد عاد للنظر عبر النافذة، إلا أنه بعدها بدأ يضحك والتفت بسخرية نحو تشاكالانا:

- أنا؟ أتحدث معه؟ نأخذ فنجانًا من القهوة ربيًا؟ في هايتي مثلًا؟ أم في مكان آخر أكثر عمومية؟

- هو فقط يرغب في..

- قل له إن ابنه كان رجلًا طيبًا وشجاعًا ويحب التكاتف، كان رجلًا يخاطر بحياته من أجل الآخرين.

- هل كان...

لم يعرف تشاكالانا مرادفا لطيفا لكلمة «إرهاي» فقال:

- زميلًا لكم؟

- ولم يجب أن أتحدث معك؟

رفع مساعد الأرشيف كتفيه. ليس لديه سبب معقول ليقدمه، لكن هذا الأمر تحديدًا جعله مثيرًا للشكوك بصورة أقل. خفض ألبارث نظرتة عدة ستيمترات وطالع وجه ضيفه بإرهاق ثم شرع يحكي في النهاية:

- أنا عضو في جماعة سياسية. حزب اليسار الثوري. نحن حزب صغير يشارك في الانتخابات المقررة الأحد المقبل. خواكين على النقيض لم يكن عضوًا في أي حزب سياسي أو أي لجنة دعم أو أي خلية، لهذا كان مفيدًا. كان أستاذنا فقط ولم يشك أحد فيه.

- وماذا حدث؟

- منذ عدة شهور، قبل الانتخابات، بدأت الأمور تسوء مع الشرطة، صاروا يشنون مدهامات طويلة الوقت، وتعرض زملاؤنا للاعتقال. يفترض أننا سنخوض انتخابات حرة، لكن الشرطة تفسد كل اجتماعاتنا وتصادر وثائقنا وتعتقل أنصارنا. أفترض أن نيتهم هي ملاحقتنا والتحرش بنا حتى نختفي.

«لقد فعلوا شيئًا ما غالبًا». فكر تشاكالثانا في هذا لكنه لم ينطقه. شعر بانزعاج عميق، إلا أنه لم يعرف كيف يخرج من هذا المنزل.

تابع ألباريث حديثه:

- الوسائل الدعائية هي الجرم الأكبر بالنسبة لهم. إذا عثروا عليها في منزلك كأنهم عثروا على قبلة، لهذا عرض خواكين إخفاء هذه المواد الحساسة: المنشورات والمجلات وآلات النسخ... هذه الأشياء. بدأ الأمر بما يخصنا، لكن هذا قال لذلك وبات الأمر معروفًا في الجماعات السياسية، وفي النهاية تحول منزله إلى ما هو أشبه بمخزن لأدوات الدعاية.

- ألم يكن هكذا يخاطر أكثر من اللازم؟

- صحيح، لكنه لم يتوقف، وهذا معنى أن تكون شجاعًا.

شعر تشاكالثانا أن قلبه قد انقلب في مكانه. كان صديقه يتعاون مع محاولات قلب النظام. كل هذه الأوراق ليست من أجل رسالته. بل دليلا

على تورطه في أنشطة إرهابية وخيانة للوطن. لم يكن متأكدًا من رغبته في معرفة المزيد، لكن الباريت بعدما بدأ في الحديث لم يفكر في التوقف:

- بينما يحدث كل هذا، بدأنا في استقبال رفقاء تطاردهم ديكتاتوريات دول أخرى، من الأرجنتين وتشيلي على وجه الخصوص، لكن أيضًا من باراغواي وأوروغواي. لا يمكنك أن تتخيل ما الذي يفعلونه بأعضاء حركة «مونتونيروس» أو اليساريين أو الشيوعيين أو أشخاص ليس لهم صلة بأي شيء، آباء وأمهات وزوجات. يعذبونهم. يغتالونهم. يضعون المنخس الكهربائي على خصاهم، إما أن يكشفوا عن ذوبهم أو يموتوا من الألم. سمعت أشياء فظيعة عن الأمر.

- أفهمك.

اقتصر تعليق تشاكالтана على هذه العبارة. يعرف حجج الدعاية المثيرة للفتن، ويعلم أنها دوما افتراءات، إلا أنه لم يرغب في النقاش بخصوص الأمر الآن. واصل الباريت حديثه:

- من يحالفهم التوفيق يهربون من بلادهم ويلجؤون إلينا. نوفر لهم جوازات سفر مزورة وبعض المبالغ وجهات اتصال ويواصلون رحلتهم. أغلبهم يذهبون للمكسيك أو باريس أو السويد. كل هذه الأمور تحتاج إلى تنظيم صلب للغاية ولدعم كبير.

كانت المسألة أسوأ بكثير مما يظن تشاكالтана. لم يخفِ خواكين وئاتق مُفسِدة فقط، بل شارك أيضًا في الاتجار بالبشر وتزوير وئاتق وعمليات تزوير على الصعيد الدولي. مع كل جملة لألباريت، كانت جريمة أخرى تضاف لسيرة خواكين الذاتية، لكن الشاب لم يصمت ولم يجد تشاكالтана سبيلا لإيقافه:

- بمرور الوقت بدأ يصل عدد أكبر من اللاجئيين ومن جماعات سياسية مختلفة، وبتنا جميعًا مراقبين من قبل جهاز «أمن الدولة»، لهذا بدأ خواكين في مساعدتنا بالمسألة. استقبل أشخاصًا ومنحهم ملاذًا في منزله، وحصل لهم على وثائق.. كان رجلًا شجاعًا بحق، بالطريقة التي تجرأ بها على مساعدتنا.

- وأي نفع عاد عليه بعد كل هذا؟

بهذه العبارة، قاطعه تشاكالтана الذي عجز احتواء نفسه أكثر من هذا. تخوف من أن يكون قد نطق بحماقة، إلا أن الشاب أو ما برأسه في حزن. ثم قال بصوت هامس:

- منذ ثلاثة أسابيع، وفي ظل اقتراب الانتخابات. صارت الأمور بشعة فعلاً. تضاعفت عمليات المداهمة والاعتقالات، واختفى اثنان من رجالنا. لا نعرف إلى أين ذهبوا بهما. وخواكين.. أنت تعرف بالفعل ما جرى لخواكين. كان ضحية مظلومة وسط كل هذا.

طأ رأسه. ذكر صمت الغرفة الخاوية تشاكالтана بسكون المقبرة، أو بصمت شقة خواكين. سلام المقابر. بات ما يعرفه تشاكالтана الآن بخصوص صديقه بمثابة حالة وفاة جديدة فغمغم:

- كيف سأقصر كل هذا على أبيه؟

أجابه الآخر بصوت ممزوج بالغضب:

- يجب أن يعرف. هذا العجوز كان جبانًا على عكس خواكين. يجب أن يعرف أن ابنه كان أفضل بكثير منه.

أفقد هذا التأكيد تشاكالтана تركيزه بصورة أكبر. على ما يبدو فإن دانييل ألباريت لم يكن يعرف معلومات أكثر منه عن خواكين فقط، بل أيضًا عن دون جونثالو نفسه. تخيل تشاكالтана خواكين وهو يحكي قصة حياته كاملة

للطلاب. كان واحدًا منهم. مجرم في عصابة. من كان ليتخيل هذا!

هبط أحدهم على السلم. كانت امرأة، فتاة، في نفس عمرهما وترتدي ملابسها بنفس طريقة ألباريث المهملة: بنطال من الجينز وقميص قديم بالكمين طويلين، لكنها تحمل مسدسًا في حزامها. سألت وهي تنظر بشك إلى تشاكالтана:

- من هذا؟

تفهم تشاكالтана أنه لا داعي لأن ينهض ويقدم نفسه إذ قال ألباريث:

- هو صديق لخواكين وأم راميرو.

أجابته بضيق:

- صديق؟ أين نحن يا أحق؟ ناد اجتماعي؟ هل ستلعبان الورق الآن؟

تعرف تشاكالтана على لكتتها لأنه كان يستمع إليها في كل مكان عبر التليفزيون في مباريات كرة القدم. كانت أرجنتينية.

- لا داعي للعصبية يا ماريانا.

- لا داعي للعصبية؟ أهذا ما تقوله؟ هم يقتلون ويخفون رفقاءنا، وأنت

تستقبل الأصدقاء في الصالون يا أبله!

اعتذر تشاكالтана ونهض واقفًا:

- لا أرغب في التسبب في أي خلاف زوجي.

إلا أنها وجهت له نظرة أكثر غضبًا:

- زوجي؟ ما الذي تظنه؟ أن هذا بيت عائلة؟

- ماريانا اصعدي للأعلى. هذا الرجل سيرحل الآن.

نهض الباريت لتهدتتها. لاحظ تشاكالانا عند ظهره وأسفل قميصه كتلة سلاح آخر.

احتجت ماريانا:

- وإذا خرج من هنا نحو «أمن الدولة»؟ هل خطر ببالك هذا الأمر على الأقل؟

شعر تشاكالانا أنه مجبر على الحديث:

- لن أفعل هذا. لا أعرف حتى ما الذي قد أقصه.

كان هذا المنزل، بلا شك، يشهد أحد أنواع خرق القانون، لكن تشاكالانا لم يكن ليقدم على أي خطوة، طالما ما زال يجهل ماهية هذا الخرق، وبالمثل لم يكن ليسأل عن رخص السلاح أو يرغب في أن يسمع شيئاً جديداً في هذه المحادثة. افترض أن أمن شيء هو الخروج فوراً من هنا، قبل أن يجعله حدث عارض متورطاً في كل هذا.

أصر الباريت:

- هو شخص يمكن الوثوق فيه.

- ربما ينطبق هذا الأمر عليه، أما عليك فلا وبالمناسبة دعني أخبرك أن مندوثا سيعرف المسألة.

- حسناً. ستتحدث عن المسألة مع مندوثا. اتفقنا؟ فلتهدأي الآن.

قال تشاكالانا وكله رغبة في ألا يعرض نفسه لمزيد من المخاطر:

- حسناً. حانت لحظة وداعي. شكرا على..

لم يتمكن من إنهاء جملته. غرست الفتاة عينيها فيه وتحسست كعب سلاحها. امرأة تحمل سلاحاً ورجل ذو شعر طويل. لم يستطع تشاكالانا

فهم عالم هذين الشابين، إلا أنه واثق من عدم إعجابه به.

أمرته:

- توقف. يجب أن نخرج نحن أولاً.

شرح ألبارث المسألة:

- ستفقد الشارع. هذا بروتوكول أمني.

فعل تشاكالтана كل ما في وسعه لكيلا ينصت لما يقولانه. اقتصر ما فعله على البقاء واقفاً بجوار الباب محاولاً التفكير في شيء آخر، بينما يمارس هذان الشابان (المخربان؟ المجرمان؟ فردا العصابات) نشاطاً يفضل بلا شك ألا يراه.

كبداية نزع الفتاة قميصها وسروالها وبقيت بملابسها الداخلية هناك، أمام الاثنين. اندهش تشاكالтана حينما لم يبد رفيقها أي رغبة جنسية، أو يطلق أي ضحكة أو مزحة قذرة. كل ما فعله أن عبر الباب المجاور للصالة، ربما نحو الحمام وعاد ليخرج بملابس ومرتأة في يديه. ارتدت تنورة وبلوزة مزينة بمربعات وشففت شعرها وتزينت قليلاً. في ظرف دقائق لم يعد مظهرها مهلهلاً وقذراً. صارت الآن وبصورة مثالية ربة منزل طبيعية، باستثناء المسدس الموضوع أسفل القميص. بذل هو الآخر مكان سلاحه ووضع عند أحد جانبي خصره ثم ارتدى سترة. بعدها وأمام تشاكالтана الواقف كالتمثال أخرج ألبارث من المطبخ حقيبة قمامة ومقشاة وسلمها للفتاة. تنفس الاثنان بعمق. بدا الزمن كأنه توقف حولهما وفي النهاية تبادلوا إيماءتين لتأكيد جاهزيتهما وفتحا الباب. تقدمت والحقيبة في يدها. خرج ألبارث بعدها بصورة طبيعية. هبطا درجات السلم وعبرا مربع النجيل حتى الرصيف. كنست بعض الأوراق الساقطة باتجاه قارعة الطريق ووضع هو

حقيقية القمامة بجوار المدخل. كان جسد كل منهما يتحرك بشكل طبيعي كأنه روتين منزلي يومي، إلا أن عينيها كانتا تنظران بتوتر نحو هذا الجانب وذاك في الشارع. بدت كل الأمور هادئة. مع البحر وطيور النورس في الخلفية، تردد صوت محرك سيارة «تويوتا كورولا 76» تعبر قارعة الطريق. ما زال بائع الثلجات هناك، جالسا بتكاسل في عربته الصفراء، والرجل ذو الطقم الرياضي ما زال ينزه كلبه من فصيلة الراعي الألماني. تأمل تشاكالانا بارتياح كيف أن الأمور كانت كما هي، لكنه بعدها بلحظة تبين أن الأمور كانت كما هي أكثر من اللازم. بائعو الثلجات لا يمكنون في نفس المكان لفترة طويلة ومسار تمشية الكلاب يكون عادة أكبر من عشرين متراً، والسيارات لا تسير بمثل هذا البطء، إلا أنه فكر في كل هذا بعدما فات الوقت، فحتى ألبارث وصديقه اللذين كانا في حالة تأهب لأي طارئ، تأخرا في إبداء رد فعل. في ظرف لحظات أصبح بائع الثلجات بجوارهما من جانب، والرجل ذو الكلب من الناحية الأخرى، فيما توقفت السيارة الـ«تويوتا» أمام الباب. كان بائع الثلجات أول من تكلم معها:

- هدوء! هدوء. لن نفعل شيئاً لكما إذا تصرفتما بشكل جيد.

من مكانه، تمكن تشاكالانا من مشاهدة كيف أخرج هذا شيئاً من عربته ليشهره في وجه ألبارث. كان مسدداً ساقيه. رفع ألبارث يديه بينما قربت صديقه يدها من خصرها. من خلفها، كان الرجل ذو الكلب يقترب. حينما حاولت إخراج سلاحها، انقض عليها الرجل من الخلف وجرّها نحو المركبة.

- اصعدي للسيارة!

صرخت:

- اتركني!

- اصعدي للسيارة يا عاهرة الخراء!

انطلق الكلب لينبح في عنف. خرج أحدهم من المقعد المجاور للسائق في السيارة الـ«تويوتا» وتمكنا معًا من دفع الفتاة لتدخل في السيارة. يبدو أنها عضت الأخير، لذا صرخ من فرط الألم ثم صفعها على رأسها. كانوا جميعًا يتحدثون بنفس لكتتها. أجبرها على أن ترقد على بطنها في أرضية السيارة.

- إذا تحركتِ سأقتلك. أسمعين ما أقوله؟ سأقتلك!

في تلك الفترة، انتهى بائع الثلجات المزعوم من نزع سلاح ألبارث شاهرًا مسدسه نحو رأسه. بعدما انتهى من مسألة الفتاة، أدخله الرجل ذو الكلب هو الآخر إلى داخل السيارة. لم يقاوم ألبارث وقال فقط:
- لقد استسلمت. لقد استسلمت.

رغم هذا، تعرض للضرب مرتين بكعب السلاح:

- لكي تصبح أكثر وسامة مما أنت عليه يا ابن العاهرة!

استغرق كل شيء نحو ثابنتين. سقط ألبارث وهو ينزف من أنفه كرزمة ثقيلة فوق المقعد الخلفي. أغلق مساعد السائق الباب وعاد لمكانه دون أن يخفي سلاحه. شغل السائق المحرك وصعد بائع الثلجات المزعوم فوق عربته وبدأ يحرك البدال بقوة. ركض الرجل ذو الكلب سريعًا بصحبة حيوانه الذي كان ينبح ببؤس وبعدها بلحظة، لم يعد لهم وجود. اختفى النباح وسط ضباب المساء. خفت صوت محرك الـ«تويوتا»، وصمت بوق عربة الثلجات. بدا الأمر كأنه حلم سيئ، إلا أنه حقيقي. ظل تشاكالاناثابنا في مكانه لعدة دقائق. ترتعش ركبتاه لدرجة اصطدام كل منهما بالأخرى. وعلى الرغم من ارتبائه، كان هناك شيء واحد واضح فقط بالنسبة له وهو التزامه بضرورة إبلاغ السلطات بما حدث للتو.

فحص الدور الأول بأكمله بحثًا عن هاتف. باستثناء بعض أدوات المائدة في المطبخ، كان المكان خاويًا. صعد للدور الثاني حيث عثر على غرفتين بهما مرتبتان على الأرض تغطيهما ملاءات متسخة ومجعدة وقطع ملابس في الدولاب. إحدى الغرفتين تخص ألبارث بكل تأكيد، والأخرى للفتاة. بجوار مرتبتها عثر على هاتف. بدلًا من المائدة، كان موضوعًا فوق سجل هاتف. بحث تشاكالтана واتصل بالرقم. أجابه صوت رجل:

- قسم شرطة بارانكو. صباح الخير.

- أرغب في الإبلاغ عن عملية اختطاف. الأمر طارئ. ما زال بإمكانكم القبض عليهم.

- اعطني التفاصيل.

يعرف تشاكالтана جيدًا كيف يقدم بلاغًا، وتلاه بدقة طالب مجتهد يلقي قصيدة مدرسية. وصف الأحداث وموقعها وساعة حدوثها بإيجاز وهدوء دون أن يتوتر. طلب منه الشرطي أن يبقى في مكانه. هبط تشاكالтана إلى الدور الأول وانتظر بجوار النافذة.

جالسًا فوق نفس الكرسي، انتظر توقف ركبته عن الارتعاش، وفي ظل ذلك تساءل، أي أحداث سيشرحها: ما الذي يمكنه قصه؟ وأخطر شيء: ما هي علاقته بكل هذا؟ ما الذي يفعله هنا؟ هل سيحاول إقناعهم بأنه كان ينفذ مهمة تتعلق بعاطفة أب يشعر بالذنب؟ ليست لديه أي فكرة، لكن هذا كان واجبه، ففي النهاية، ليس لديه شيء ليخفيه. أو العكس؟ مرت عشرون دقيقة ولم يأت أحد. عاود الاتصال بقسم الشرطة. أجابه نفس الشرطي السابق:

- لا تقلق يا سيدي. أرسلنا دورية بالفعل.

- لم تصل. قسم الشرطة يقع على بعد أقل من كيلومتر من هنا، في سان مارتين، بل أنهم كانوا ليصلوا في خمس دقائق لو جاؤوا سيرًا.

- عليك بالهدوء يا سيدي. نحن نهتم بالمسألة.

مرت ساعة إلا ربع ولم يصل أحد. حينما هدأت ركبتا تشاكالانا نهض من فوق مقعده وخرج نحو الباب. مازال الشارع صامتًا، ربما أكثر من المرة الأولى. تزايدت الرطوبة، وغزت رائحة البحر المالحة أنفه. قال متفهما بصوت مرتفع، بينما يخلق طائر نورس كبير - كأنه كلب - فوق الجرف مترصدًا الفئران:

- لن يأتي أحد.

ما تزال إضاءة السلم معطوبة. تعثر تشاكالانا بينما يهبطه. كان مفزوعا مما شاهده قبلها بقليل. بدا له قصر العدل كبيت ساحرات شاسع، كقلعة قوطية مليئة بمخلوقات الغرغول والقطط السوداء، والأرشيف كقبو لتخزين تعويذاتهم القديمة.

حياه المدير دون أن ينظر نحوه:

- فيليكسيو. جيد أنك وصلت. اتصلوا بنا من أعلى لطلب بعض البلاغات الطارئة ولم يكن أحد هنا يا بني. قمنا بأعمال ورقية ضخمة. الرؤساء في قمة الغضب. يقولون إنهم لا يسددون لنا مرتباتنا لكي نذهب ونحتسي القهوة.

- سيدي..

- علينا أن ننظم المسألة بيننا. أليس كذلك؟ إما أن تأخذ أنت وقتًا حرا أو أخذه أنا، لكن لا يمكننا ترك الأرشيف وحده بكل تأكيد.

- سيدي المدير..

- يجب أن ألقى اللوم عليك. أليس كذلك؟ بعد أن كنت شديد الالتزام، ها أنت تخنفي طيلة اليوم، لكنني أفهمك يا فيليكسيو. على المرء أن يعيش حياته. علينا فقط أن نعيشها أنا وأنت كل في دوره لئلا يلحق بنا ضرر.

- لقد شهدت عملية اختطاف!

بين جدران الأرشيف الصامتة، كان لكلمات تشاكالانا صدى مشؤوماً. رفع المدير بصره من على آله الكاتبة وفتح عينيه، كأنه يتعرف بهما على ذلك

الواقف عند الباب.

- فعلا؟

- شهدتها بأمر عيني يا سيدي. أنا شاهد عيان من الدرجة الأولى.

تلعثم في حديثه. فرك المدير عينيه وعدل من وضعية نظارته:

- هل يُمكنني معرفة ما الذي تحدثت عنه يا فيليكسيو؟

- أربعة رجال يا سيدي. مسلحون، اختطفوا امرأة ورجلا آخر في حي

بارانكو وارتكبوا تهمة الاعتداء والخطف والسب. كان معهم سيارة وعربة مثلجات، لذا قد يتسع الأمر لإضافة تهمة السرقة وربما التهريب.

تحرك شيء ما داخل المدير. تسارعت نبضاته. تبدل حاله، بل إنه داخل بقايا هذا الجسد المتهالك الذي حطمته سنوات كثيرة من مراهنات كرة القدم، كان يُمكن العثور على بقايا من معنى الواجب.

- لا تضيف شيئاً يا بني. الآن سنحرر بلاغاً ونتصل بالشرطة. لدي

استمارات. أتعرف أسماء الضحايا؟

- اسم أحدهما يا سيدي.

- لنبدأ بهذا: المكان؟

بصورة تفصيلية، ربما باستمتاع، راجع المدير ومساعدته كل نقاط استمارة البلاغ؛ فأي معلومة كانت لتصبح كاشفة. قاما معاً بملء كل خانة بدقة، كأن أحد أنواع التواطؤ قد نشأ بينهما، زمالة أداء الواجب، طاقة العمل في صالح تطبيق القانون، وهذا فقط حتى وجه المدير سؤالاً. الأخير تقريباً وغير ذي صلة، إلا أنه كان شديد الخطورة:

- مهنة الضحيتين؟

- مم.. حسنًا، أفترض أنها.. متمردان يا سيدي.

- ما الذي تقوله؟

تجمد عيا المدير، لكن تشاكالانا كان متحمسًا بدرجة لم تسمح له بملاحظة المسألة:

- أظن أنه يجب أن نبلغ جهاز أمن الدولة أو شرطة التحقيقات أو الحرس المدني، أو من الأفضل أن نقدم بلاغًا ثلاثيًا لهم جميعًا.

مع كل إشارة لواحد من أسماء هذه الأجهزة النظامية، تتسع عينا المدير بصورة أكبر. انزلت واحدة من خصل شعره عن صلعته، إلا أنه عاد لتعليقها من الجانب كأنها رجل مشنوق ثم أمره:

- يا بني.. أغلق الباب.

أطاعه تشاكالانا. أخرج المدير زجاجة مشروب الرُم من درج مكتبه. تناول رشفة وعرض عليه المثل، إلا أن مساعد الأرشيف رفض. تجرع رشفة أخرى ثم سأله وهو يرفع نبرته:

- اسمعني: ألم أقل لك ألا توقع نفسك في مشكلات يا أبله؟

- سيدي، ليست نيتي. أنا..

راجع ما كان سيقوله: إنه توجه لمتزل مشتببه به ليحصل على معلومات حول شخص قتل بالرصاص، وما زالت قضيته قيد التحقيق. حاول إعادة صياغة الأمر والتحجج بأن المسألة ترتبط بشأن عائلي، إلا أنه في النهاية تمتم:

- آسف يا سيدي..

- ما الذي سأقوله لمن في الطابق الثالث؟ أننا لسنا في المكتب لأننا كنا

ندافع عن إرهابيين؟

- أفترض أنه لا يمكننا قول هذا يا سيدي.

انكمش تشاكاللتانا ككومة صغيرة على الكرسي الصلب الواقع في مقابل المكتب. وبيننا يمزق البلاغ الذي ملأه، عنفه مديره. بدا الأمر كأن الهواء بات أثقل من طبيعته.

- أي شيء ملعون قد حدث لك يا فيليكسيو؟ لماذا تتسبب لي بكل هذا الصداع؟ أين ذهب الفتى الهادئ الذي كان يعمل هنا منذ أسبوع؟

- ربما قد اختفى فالآن تختفي الناس.

لم يستطع تفادي النطق بهذه العبارة، فحتى فيليكس تشاكاللتانا سالدبيار لديه حدود، نقطة معينة يعجز عندها على البقاء جاهلاً دون الحصول على جواب واضح.

باتت عينا المدير الآن ربما أوسع من عدسات نظارته:

- ما الذي قلته يا بني؟ هل يمكنك تكرار ما قلته.

يستطيع حقاً أن يكرر ما قاله. ما لم يستطعه هو ابتلاع كل هذه المسألة لوقت أكثر من هذا:

- سيدي المدير، وفقاً للمتمردين السابق ذكرهما، فإن السلطات هي التي تنفذ عمليات الـ...

- ما هذا الخراء! الآن ستخبرني برواية الشيوعيين.

- علمت بوجود حالتين.

- حالتان! من هم أصدقاؤك يا بني؟ حزب الأمية الاشتراكية؟

- المسألة تتعلق براميرو وارانغا ميسا ودانييل ألباريث بانياغوا. هما طالبان. مشاركة عناصر القوات النظامية في الأمر مثبتة وفي الثانية إهمالها.

أنا بنفسى اتصلت بقسم الشرطة ولم يأت أحد.

حينما سمع إشارته للطالين، ابتسم المدير فجأة بسخرية. عثر تشاكالانا دومًا على مفهوم الجمال في الابتسامات، لكن وفقًا لتجربته فإن المدير كان الرجل الوحيد القبيح في كل شيء، حتى في سعادته.

- طالبان يا فيليكسيو؟

رسم المدير علامتي تنصيب بيديه في الهواء وهو يقول:

- ولماذا ستقدم «القوات النظامية» على ملاحقة عدوي الشعب المخيفين هذين بكل قسوة؟ هل سرقا مرحاض الجامعة؟ أم تحسنا جسد أستاذة؟

- يعملان بالسياسة يا سيدي. هما متمردان، ومن أخذوهما لم يتركوا لهما أثرا. واجبي هو الإبلاغ عن الأمر. هذا هو كل ما أعرفه.

- ربما هي عملية فحص روتينية يا فيليكسيو لإفزازهما لمدة يومين في زنزانة قبل أن يطلقوا سراحهما. ما تراه هو أشباح.

- بل أشخاص يتعرضون للاختفاء يا سيدي.

أوشك تشاكالانا أن يضرب المكتب براحة يده، إلا أنه لم يتجرأ على فعلها. على أي حال، اندهش من الحسم الذي ملأ صوته. اضطجع المدير في مجلسه نحو الخلف. شبك يديه خلف رقبته ونظر لمساعدته لفترة طويلة، كأنه يحاول اتخاذ قرار بخصوص ما سيفعله ثم سأله:

- وما الذي تعتقد أنه حدث لهذين الولدين؟

- أنا.. شاهدت كيف تعاملوا حينما أخذوا المرأة. ضربوها وأهانوها ودفعوا بها داخل سيارة. لا أود التفكير فيما قد يفعلونه بعدها إذا كانوا قد حبسوها.

- تعتقد أنهم اغتصبوها.

لم يبد كأنه يسأل، بل كأنه يؤكد.

- لا أعرف يا سيدي.

- تعتقد أنهم عذبوها.

.. -

- أنهم ضربوها، أنهم نزعوا أظافرها، أنهم وضعوا فأرًا في فرجها، وكل

هذا وسط الحملة الانتخابية!

حاول تشاكالтана ألا يسمي شكوكه. فضل التفكير فيها مذيلة كلها

بعلامة استفهام. خشي أن يشرع في التخيل ويصيب. لم يردّ على افتراضات

مديره.

نهض مديره من على مقعده فجأة قائلاً:

- تعال معي يا فيليكسيو.

- إلى أين سنذهب؟

- تعال معي. سأعلمك شيئًا ما.

- لكن سيدي.. سيدي!

دون أن ينظر خلفه، ترك المدير غرفة مكتبه وقطع الأرشيف. تأخر رد

فعل تشاكالтана لكنه في النهاية سار خلفه. بينما يتقدمان حاول أن يسأله إلى

أين سيذهبان، إلا أنها كانا يسيران بسرعة لا تصلح معها المحادثة. مر المدير

من أمام الحمام وواصل طريقه حتى باب الحجز. كان تشاكالтана ليفضل -كما

جرت العادة- ألا يدخل هناك لكنه أذعن لأمر مديره، حتى عثرا على مكتب

الحارس الموجود في الخدمة وهو نفس عريف المرة السابقة. قال المدير:

- مساء الخير يا عريفنا.

أجابه الحارس -الذي بدا أسمن من المرة السابقة- وقميصه موضوع في سرواله بصورة سيئة:

- مساء النور يا دكتور! قالوا لي إن إدارتك لا تعمل، وأن من في الطابق العلوي بحثوا عنكما وكنتما في الشاطئ.

مزح المدير:

- يا للنميمة! مجرد قيلولة صغيرة لا أكثر، أو أقل، أخذناها حينها اتصلوا. اللعنة. هم بكل تأكيد في الأعلى يحظون بوقت فراغ أكبر، لكن لا توجد سلطة لمراقبتهم.

أجابه العريف:

- الحياة ظالمة يا دكتور. ستشاهد المباراة معنا غدا؟

أجابه المدير بمداهنة وهو يطيل نطق الـ «ياء» في كلمة «زعيم»:

- أكيد. طبعاً يا زعيم! ومع من غيركم قد أشاهدها؟

- لا أعرف. ربما كنت ستحب أن تعمل غداً.

- انتهينا. لا تتجاوز حدودك. اتفقنا؟ فأنا لا أعرف أيضاً إن كانت اللائحة تسمح بوضع تلفاز في الحجز! لو تعاملنا كلنا بثقل ظل سيخسر الجميع.

هز الشرطي رأسه، في إشارة قبول لكلام المدير ثم استفسر:

- كيف أخدم حضرتك؟

- خدمة صغيرة لا أكثر أو أقل. جئت هنا مع الشاب الذي يتأهل تحت

إدارتي.

أمام هذا التقديم، نظر العريف لتشاكالتانا. نفذ حركة برأسه يمكن تفسيرها على أساس أنها تحية والعكس صحيح، ثم وجه نظره للمدير مجددًا:

- شاهدت الشاب. ما المشكلة؟

- هو يعد تقريرًا يتطلب توجيه أسئلة لبعض سجنائك.

نظر الحارس نحو الزنازين. كانت هادئة. أغلبها كان خاويًا. بدا الأمر أيضًا كأنه ليس هناك حراس سواء ثم أجابه:

- كلهم لك، كل ما عليك هو اختيار من تحب، لكن عليك فقط ألا تأخذهم.

- أنا في حاجة لسجين سياسي. هل لديك سجناء سياسيون؟

حك العريف أنفه وبتكاسل، راجع الأوراق الراقدة فوق مكتبه. كان يتصرف كمدير متجر يراجع ما لديه من مخزون. بحث عن سجين كأنه يبحث عن حزمة كرفس أو ثمرة فجل.

- ثمة واحد فقط. يوجد أكثر عادة، وبالأخص الآن بسبب الانتخابات، لكن اليوم لا يوجد إلا واحد فقط.

طمأنه المدير:

- أيا كان العدد فسيكون مفيدًا.

طلب منها الحارس عبر إيحاء أن يتبعها، وببطء شديد سار بين صفي الزنازين، التي نظر السجناء الموجودون فيها بفضول لهذين الزائرين. أرسل أحدهم لتشاكالتانا قبلة طائرة. خفض مساعد الأرشيف رأسه ونظر نحو الجانب الآخر. توقف العريف أمام واحدة من الزنازين الأخيرة واستند على الباب ليتحدث مع من يشغلها:

- يا رفيق، كيف حالك؟

من داخل الزنزانة، وصلهم صوت جاف وسعى المزاج:

- لست رفيقك يا خنزير.

ملابس السجن قديمة وقذرة، إلا أنها ذات جودة. بشرته بيضاء وبالنظر

للكتته، يبدو أنه حظي بتعليم عال. قدمه العريف لتشاكالтана والمدير:

- كان يجب أن يتواجد السيد بيريرا هنا بتهمة الانضمام لجماعة غير

مشروعة والتآمر، لكنه هنا بتهمة كسر نوافذ مصرف عبر إلقاء الحجارة. غدا

سيمثل أمام القاضي وحتى يحدث هذا فهو ضيفنا هنا.

- يقونني هنا لإسكاتي، لكن لا يمكن إسكات شعب عبر هراوة أو

كلاب حراسة مثلك.

ضحك الحارس نوعًا ما:

- فم السيد بيريرا ينساب منه السكر. يسبنا طوال اليوم. أجمل شيء أنه

يتحدث بطريقة معقدة ولا نفهم منه أي شيء. لا تنزعج إذن يا رفيق!

- لا تدعني بالرفيق!

لاحظ تشاكالтана أن هذا السجن ينتمي لطبقة اجتماعية أعلى بكثير من

الحارس، فرغم أنه متمرد أمام سجانته، إلا أنه يستخدم نفس نبرة السيدات

مع خدمنهن في المنازل، لكن الأمر لم يكن يهم العريف على أي حال، وبطريقة

لا مبالية نظر للمدير الذي نظر لدوره لمساعدته. تنحج تشاكالтана:

- آآآ.. اعذرني يا سيدي. هل تعرضت للضرب؟

فحص السجن تشاكالтана محاولاً التحقق مما إذا كان موظفًا أم محاميًا،

ثم أجابه:

- الضربة الحقيقية هي قتل ملايين الأشخاص من أجل مصلحة قلة قليلة. هذه هي الضربة الحقيقية.

تدخل العريف:

- رُدّ على الشاب يا رفيق! هل ضربناك أم لا؟

- لقد ألقوا القبض عليّ لدفاعي عن قضية عادلة. هل يبدو لك هذا الأمر قليلاً؟

قال العريف ووجهه يعكس أنه يتسلى حقًا بكل المسألة:

- هذه الإجابة تعني «لا».

رفض تشاكالانا الاستسلام:

- وأصدقاؤك؟ أرغب في أن أعرف إذا تعرضت أو أي من معارفك لسوء معاملة بدنية أو تعذيب في منشآت تابعة للشرطة؟

هتف السجين:

- كلنا! كلنا عانينا من التعذيب حينما وجدنا أنفسنا محرومين من الحرية في أوضاع لا يتحملها بشر و..

قاطعته الشرطي:

- الشاب لا يتحدث عن هذا يا وجه الحصان. يرغب في معرفة إذا كنا قد كهرنا خصيتيك أو ضربناك لكي نخبرنا من هم كل أصدقائك الصغار. هل قام أحدهم بهذا معك؟ قل له. هل لمس أحدهم مؤخرتك البيضاء؟ إذا كان أحدهم قد لمسها قل له. سيساعدك.

تبرم السجين. أخرج في البداية شخيرًا من حلقه إلا أنه قال في النهاية:

- أنا لا أتحدث مع خدام القمع.

ابتعد حتى ركن زنزاتته وانزوى في صمت. انفجر العريف في الضحك حينها:

- أوه يا رفيق! ربما يجب أن نضربك من وقت لآخر، لكن ليس لأنك مخرب، بل ثقيل الظل!

بعدها انتهى الحارس من عبارته أطلق بصاقًا من فمه ليسقط داخل الزنزانة، بالقرب للغاية من سجينه.

حينها خرج تشاكالنانا من الأرشيف في ذلك المساء شعر كأنه أبله. سخر منه مديره والحارس طيلة خمس وأربعين دقيقة دون توقف:

- بت تعرف الآن يا فيليكسيو، فلتحسن التصرف وإلا عذبتك. اتفقنا؟

- لا تقلق أيها الشاب. ما نفعله هنا فقط هو نزع أسنانهم لكن بكل حب.

- هل تعرف ما الذي قد يروق لك يا بني؟ منخس كهربائي صغير كل صباح.. لكي تستيقظ. مفعوله أقوى من القهوة!

- أو بعض الضربات بمنشفة مبتلة فهي لا تترك علامات.

الاستنتاج: في هذا البلد لا تحدث مثل هذه الأمور يا فيليكسيو. لسنا قومًا من الهمج. ربما نحتجز مشتبهًا لمدة يومين وفقًا للقانون. ربما يتلقى عدة صفعات، لكن لا شيء أكثر من هذا. لا يحدث له شيء. إن كنا قد دعونا لعقد انتخابات، إن كنا سنعود للديمقراطية، فلم ستثير ضيق من قد يصبحون رؤساءنا في غضون وقت قليل؟ وفوق كل هذا، إذا بدأ السجناء في الصراخ، لن يسمحوا لنا بالاستماع لمباريات كرة القدم، أليس كذلك؟ ها ها.

على تشاكاللتانا أن يعترف بالمسألة. ليس لديه بالفعل أي دليل على أن الشرطة متورطة في عمليات الاختطاف هذه. أم وارانغا ميسا امرأة بسيطة يسهل خداعها. المعتدون لم يرتدوا حتى زياً رسمياً، وقد يكونوا انتحلوا صفة السلطات، وفي حالتها هي وألباريث كان المعتدون أجنب. أين رأى أحدهم شرطياً أو عسكرياً أجنبياً؟

لا. الأجنب هم الآخرون؛ المخربون الذين خبثهم خواكين. المرأة التي خبأها ألباريث. من الواضح أن الأمر يتعلق بعمليات انتقامية بين عصابات مافيا دولية. موت خواكين، اختفاء وارانغا ميسا وعملية الاختطاف هذا الصباح. كل شيء. عمليات انتقامية بين أرجنتينيين. في النهاية، حررتشاكلالتانا بلاغا حدد فيه التهمة بعبارة «مواجهة بين عصابات إجرامية»، إلا أن التفكير في خواكين كرجل عصابات أصابه بالاضطراب. سار تشاكاللتانا هائماً في حديقة المعارض محاولاً تصفية أفكاره وساعياً لتجميع قطع لغز خواكين كالبو. عجز عن رسم صورة صديقه في لعب الشطرنج كزعيم دموي لإحدى عصابات المافيا. كان دوماً، حينما يشعر بالارتباك، يلجأ لسييليا والآن بداله الأمر كأن قروناً قد مرت دون أن يراها. ربما قد حانت لحظة زيارتها. افترض أنها غالباً ستكون قد هدأت عقب نقاشهما الأخير، وهذا وقت خروجها من العمل. كان في حاجة ليتحدث معها أكثر من أي وقت مضى، أن يتشمم عبيرها، بل وأن يلمسها إن حالفه الحظ. رحل عن الحديقة وسار في شارع أسانغارو. حينما وصل لجادة إمانيباسيون حسب أن أحدهم يتبعه، لكنه حاول نفض هذا الخوف من داخل رأسه. «أنت ترى أشباحاً يا بني»، هذا هو ما قاله له المدير وربما كان محقاً. انعطف عند شارع ميرو كيسادا وهو يتساءل متى ساءت الأمور بهذه الصورة مع سييليا؟ طلب يدها للزواج. النساء يرغبن في الزواج. أم لا؟ كل شيء ينتهي فجأة بصورة غير متوقعة، ليس هذا فحسب

بل وأيضًا سيئة. هذه بلا شك واحدة أخرى من علامات الزمن. المدن تمتلئ بالأشباح. النساء لا يتصرفن كنساء. سنوات السبعينات كانت كارثة. ود تشاكالтана لو عاش في الثلاثينيات أو الخمسينات، فحينها كان العالم ما يزال منظمًا. وصل في النهاية عند ناصية صحيفة (إل كومرسيو). شعر مجددًا بأن هناك ظلًا ما يتحرك خلف ظهره، على وقع خطواته ثم قال لنفسه مجددًا إن هذا مستحيل ثم شرع يركز في هدفه الرئيسي؛ دخل البناية. نوافذ الإعلانات المبوبة على وشك الإغلاق. وسيسيليا في مكانها أمام العميل الأخير ورأت تشاكالтана. حاول مساعد الأرشيف لفت انتباهها بابتسامة خجولة، إلا أنها لم تتفاعل معه. خفضت نظرتها وواصلت عملها. تفهم تشاكالтана أن عليه بذل مجهود أكبر. تبقت لها عدة دقائق، وله ورقة رابحة أخيرة. خرج للشارع واتجه نحو كنيسة «لاميرسيد» حيث يوجد دومًا بائعو زهور لبيع الأكاليل. اشترى عدة أزهار لا يعرف اسمها. اختارها لأن ألوانها مبهجة، برتقالية وصفراء، رغب في شيء مبهج. عاد للصحيفة حاملًا باقة الزهور في يده وانتظر عند باب الخروج بين أربعة أو خمسة رجال كانوا بلا شك ينتظرون حبيباتهن. لا يمكن أن تكون سيسيليا في محل عملها حتى الآن. افترض أنها ربما تعدل من زيتتها في الحمام. تموضع تشاكالтана عند منتصف الباب الرئيسي الضخم، ليصبح ملحوظًا بأكبر صورة ممكنة.

ظهرت سيسيليا في النهاية، على الجانب الآخر من البهو بالقرب من السلم. اقشعرت كل خلية في جسد تشاكالтана. كانت تشع نورًا، أو هكذا ظن. شفتاها مرسومتان، وترتدي تنورة أقصر عن المرة الأخيرة، تلك التي اعتبرتها أمه حينها أول حدود العار، لكن الأهم أنها مبتسمة، في إشارة صداقة وتواطؤ موجهة إلى حيث يقف. شعر تشاكالтана بالراحة، لكن دقائق قلبه تسارعت أيضًا. كانت لديه أمور عدة يرغب في أن يخبرها بها، لدرجة أنه لم يعرف حتى كيف سيحییها. تقدم ليقابلها وباقه الورد أمامه. تساءل كيف

سيعانقها دون أن تنسحق الزهور، لكنه ليس محتاجا لجواب؛ فقد واصلت السير في طريقها، بل يمكن القول إنها قد مرت عبر تشاكالтана نفسه، كأنه والعدم سواء. فاقداً لتركيزه، التفت تشاكالтана نحو الخلف وهناك، عند الباب، التقت سيسيليا بشاب، شاب آخر، المرسل إليه الحقيقي بالنسبة لقبلتها. في مثل عمره تقريباً، إلا أن ملابسه أقل رسمية منه، دون ربطة عنق وبسروال جينز. بشرته أفتح، ولم يرهق نفسه حتى بجلب الزهور. لكنها هناك تحييه هو، تقبله هو.. في خده، قبل أن تبتعد عن تشاكالтана باتجاه شارع وانكايليكيا. حدث كل هذا كأنه لقطة سينمائية بالتصوير البطيء، لكي يرى معجبها الأحمق أدق تفاصيل إذلاله. شعر مساعد الأرشيف بالأزهار تذبذب بين أصابعه وتتحول لمسحوق ترابي. ظن أن الكون بأسره شاهد على تلك اللحظة، لكنه حينها نظره حوله أدرك أن لا أحد بقي هناك.

ألقى بجثث الأزهار في سلة مهملات عند ناصية ميدان لاس أرماس. في تلك الساعة، ما يزال الموظفون يخرجون من مكاتبهم، وفوق كل هذا كان هناك الباعة المتجولون وأفراد الشرطة. فاضت جموع الناس من على الأرصفة والميدان ودرجات سلم الكاتدرائية، وحملت أبواق الحافلات والأدخنة المنبعثة منها الأجواء بثقل أكبر. شعر تشاكالтана أن المدينة تتحرك بإيقاع لن يتمكن أبداً من اللحاق به، وأنه مدان بالوصول متأخراً لكل الأماكن، بما فيها مكان وجوده نفسه. قرر أن يعود للمنزل سيراً. لا رغبة لديه لأن يعجن داخل حافلة، وظن أن الهواء ربما ليخفف قليلاً من وطأة ما هو فيه. صنعت ذكرى سيسيليا وهي تمر بجانبه دون أن تراه غمامة ضبابية داخل عقله كأثار الكحول.

عند جادة الثامن والعشرين من يوليو، بدأت الجموع في الذوبان وعاد ليلحظ خطوات مستمرة خلف ظهره. استبعد قبلها هوس أن أحداً ما يلاحقه وصنغه كرهاب، إلا أن صوت الخطوات يتردد الآن خلفه بوضوح.

هدأ من سرعته وقلدته الخطوات. سارعها وفعلت المثل. دون أن يلتفت، وقبل الوصول لحديقة «لا ريسيربا»، قطع دورة كاملة حول المربع السكني وعاد إلى جادة «بيتي توار» في نفس النقطة التي بدأ الدورة فيها. ما تزال الخطوات الملعونة هناك. انزلت قطرات عرق باردة من على جبهته، إذ تذكر المشهد الذي شهده قبلها بساعات في حي بارانكو. نظر حوله ليرى إن كانت هناك عربة مثلجات أو سيارة تويوتا، لكن كل الأمور بدت طبيعية. على أي حال، فكّر في أنه لا يمكن له أن يقود رجال عصابات نحو منزله، حيث تعيش أمه؛ لذا فكر في الصعود على متن حافلة بالاتجاه المعاكس أو إيقاف سيارة أجرة، لكن الحافلة ستأخر ولم تبد له أي سيارة أجرة آمنة. يجب عليه أن يتعامل مع الموقف هنا، في الشارع. تقدم نحو ناصية مضاءة بشكل جيد بها محطة حافلات وأناس كثيرون. حينما وصل، صلى في صمت «السلام عليك يا مريم» وتنفس بعمق ثم التفت.

كانت هناك امرأة خلفه، امرأة شاهدها من قبل، جذابة ثلاثينية بشعر أشقر طويل، سبق وشاهد مدى لمعانه في صور خواكين كالبو.

- أنت فيليكس، صحيح؟

أوما تشاكالтана برأسه. لكي تلاحقه في الخفاء بدت متوترة وغير مطمئنة. كانت غير مؤهلة للمرة لملاحقته. بين كل الرؤوس السوداء في وسط ليما، لفت شعرها الأشقر أنظار الجميع. فقد تشاكالтана خوفه. عضت شفتها السفلية، تلك الشفة المكتنزة كما في الصور وسألته:

- هل لديك دقيقة؟

وكانت لديه بكل تأكيد دقيقة.

تقابلا في مقهى بجادة أريكييا. كان صغيرًا وقذرا، إلا أنه به مائدة هادئة

في أحد أركانها ويقدم عصير البرتقال والشاي. ليسا محتاجين لأكثر من هذا. حاول تشاكالانا تهدئة أعصابه بالحديث عن الطقس، لكن السماء غائمة منذ أسبوع دون سقوط أمطار، كما يحدث سنويا في تلك الفترة دون غيرها. ليس شائنا يُمكن الحديث عنه كثيرا. والشقراء ليست أكثر هدوءًا منه، إلا أنها احتوت مشاعرها. كانت عيناها واسعتان برموش شديدة الالتفاف. قدمت نفسها باسم سوسانا أراندا وانتظرت وصول العصير لتبدأ كلامها. أخبرته وهي تأخذ رشفة من قشتها الوردية:

- يتحدث خواكين عنك كثيرا. إنه يقدرك.

تحدثت المرأة عن خواكين بصيغة الحاضر. هل من المحتمل أنها لا تعرف ما قد حدث له؟ فضل تشاكالانا ألا يُسيّر المحادثة في هذا الاتجاه.

- هل لي أن أعلم كيف تعرّفت عليّ؟

- مواصفاتك لا يمكن لأحد أن يخطئ في التعرف عليها.

ابتسم تشاكالانا في حزن، فعلى النقيض من خواكين، كان رجلاً يسهل التعرف عليه، رجل وفيّ دوما لما هو عليه، بلا ألغاز أو مفاجآت، رجل عمل. على الرغم من هذا، كان لديه سبب ليسعد، فقد تحدث خواكين عنه مع أحد. خواكين بخلاف سيسيليا وبقية المدينة، كان يعترف بوجوده. تذكر:

- كنا نلعب الشطرنج معًا في منزله أو لايا.

- يقول إنك شخص طيب.

حافظت على صيغة الحاضر وأصر هو على صيغة الماضي:

- كان يفوز تقريبًا في كل الأوقات.

تضرج وجه تشاكالانا. حينما تحدث عن صديقه ومباريات الشطرنج

بينهما، استعاد قطعة من ماضٍ مفقود، من عالم كان على شفا الغرق. قالت له:

- لم يلعب من أجل الفوز. هو يجب القواعد. قال لي ذات مرة: «الشطرنج لعبة مثالية، بقواعد شديدة الجمال». لا أعرف كيف للقواعد أن تصبح جميلة.

انكسر صوتها نوعًا ما ثم توقفت عن الحديث. لم يحتج تشاكالانا لسماع المزيد منها ليتأكد من أنها عرفا خواكين ذاته؛ فالبقية على ما يبدو عرفت نسخة مختلفة للغاية. آمن تشاكالانا بأن نسخته هي الأكثر واقعية، وظن أنها قادرة على إثبات الأمر له. دقت الشقراء بأصابعها بجوار كوبها ثم تجرأت على السؤال:

- ما الذي جرى له يا فيليكس؟ أين هو؟

ربما ليكسب بعض الوقت، رد تشاكالانا بسؤال:

- ألا تعرفين؟

هزت رأسها بالنفي. تفهم تشاكالانا أن لا وسيلة لهذه المرأة لمعرفة ما حدث، فجريمة بارأيوس ألتوس لم تظهر في صفحات الجرائد.

- لقد.. مات. جريمة قتل.

نظر إلى عينيها وهو يقولها ولاحظ السرعة التي اغرورقتا فيها بالدموع. قدم لها منديله وبينما كانت تنهار، شرع تشاكالانا ينفذ مهمته بكل الدقة الممكنة: شرح لها الأحداث بالتفصيل كأنه تقرير رسمي، بل كشف -ربما بصورة غير ضرورية- خصائص الجرح الناجم عن الطلقة وأشار لتاريخ الوفاة والجنازة. حينما أنهى حديثه افترش وجهه سوسانا الأسى. كان الزبائن الموجودون على الطاوات الأخرى ينظرون لهما كأنهما ثنائي منفصل ويعلقون بلا شك على صغر سنه وقلة وسامته.

تمت سوسانا:

- لماذا؟ ومن؟

أخفى أفكاره بخصوص الأمر وقال:

- التحقيق في المسألة ليس من ضمن اختصاصاتي.

- كان طيبًا. أكثر من عرفت طيبة.

- أعرف ماهية شعورك.

- لا، أنت لا تعرف!

جذب صراخها النظرات من جديد. بعدها نهضت وأخذت حقيبتها لتركض نحو الحمام. تركت المنديل على الطاولة، مبللاً بالدموع والمخاط. قرر تشاكالтана أن يتركه في مكانه تحسبًا لحاجتها له مرة أخرى. عادت سوسانا راسمة زينة وجهها من جديد ومصففة شعرها، لكنّ عينيها مازالتا هراوين. لمع نهدها أمام عينيّ تشاكالтана حينما مرت أمام المائدة. عجز عن تجنب ملاحظتهما، لكنه أنب نفسه على هذه النظرة بسبب خطورة الظرف. تركت جسدها يسقط فوق المقعد وقالت:

- آسفة يا فيليكس. النبأ الذي أخبرتني به.. لم أكن أنتظره.

- أتفهم.

- ظننت أنه قد هجرني، أنه قد فعلها بدافع الجبن. ذهبت لمنزله أكثر من مرة ولم يكن موجودًا. شعرت بالغضب ولم أعرف مع من أتحدث.. وحسنًا، تذكرت أنك كنت تعمل في قصر العدل.

- أليس بينكما أي معارف مشتركة. ولو صديق واحد؟

- علاقتنا لم تكن.. في النور.

لم يفهم تشاكاللتانا معنى ما قالته. لا بد وأن وجهه قد كشفه، لذا أضافت:

- أنا امرأة متزوجة.

أخيرًا معلومة تتماشى مع نسخة خواكين التي عرفها تشاكاللتانا: رجل متمرس في شؤون النساء رغم أنه لم يذكر اسم إحداهن على وجه الخصوص. أخفى تشاكاللتانا ابتسامة إعجاب بصديقه، فبعد كل شيء لم يكن يكذب ولم يخن بالمثل ثقة عشيقته. على الرغم من هذا تعهد تشاكاللتانا بالبحث عن مصطلح آخر غير «عشيقته» للإشارة للسيدة التي بدت محترمة بصورة لا تشوبها شائبة.

استنتج تشاكاللتانا:

- لهذا لم يحدثني قط عنك.

- لم نكن نرى بعضنا تقريبًا خارج شقته. ذهبنا ذات مرة للشاطئ، إلا أننا لم نستمتع بالمسألة. الظهور علانية يصيبنا بتوتر كبير.

- فهمت. فهمت.

تسرب شيء من تأنيب أمه إلى صوته. إنه لا يحكم على صديقه، لكنه ببساطة لا يعرف التحدّث بغير هذه الطريقة. لاحظت سوسانا الأمر وقالت كأنها تبرر المسألة:

- لم نكن سنظل هكذا للأبد. كنا.. كنا...

مرة أخرى، أخرسها البكاء. أحس تشاكاللتانا باندفاع لمواساتها عبر لمس هذه اليد البيضاء التي تلونت أظافرها بطلاء باهظ، بل وربما احتضانها، لكن الاتصال الجسدي مع أي امرأة - وما زاد الطين بلة في هذه الحالة كونها

متزوجة- أمرٌ يقع خارج حدود إمكانياته.

- لست في حاجة لأن تقدمي لي أي تفسيرات.

واصلت حديثها بعد أن استعادت نفسها نوعًا ما:

- كنا سنبقى معًا. كنت سأترك زوجي. كنا قد تحدثنا عن الأمر بالفعل.

كان خواكين سيذهب في رحلة صغيرة، قصيرة للغاية، يومين بالكاد، ومع عودته كنا سنرحل معًا للعيش في مكان آخر.

تعجب تشاكالтана:

- رحلة؟

- لمدة يومين فقط. كان سيسافر للأرجنتين ليتسلم طردًا.

إلى الأرجنتين. مثل الخاطفين والمختطفة، وطرده؟ إنه بلا شك أمرٌ يتعلق بتجارة المخدرات، أو السلاح. تهريب مخدرات أو مواد حربية. خواكين، خواكين القديم، مستخدم الأرشيف المثالي يتحول مع مرور كل ثانية لرجل أكثر خطورة، وموته ينتج بمرور الوقت إشارات تقول إن ما حدث كان تصفية لحسابات بين مجرمين. لم يسمح تشاكالтана لوجهه بأن يعكس تكهناته وسأل:

- متى؟

- المرة الأخيرة التي شاهدها فيها كانت يوم الأربعاء منذ أسبوعين.

قال إنه سيسافر جواً يوم الخميس ويعود الجمعة، وسيصل بي بمجرد أن تهبط الطائرة، وكنت سأعترف بكل شيء لزوجي في نفس عطلة الأسبوع، إلا أن خواكين لم يتصل. لا في ذلك اليوم ولا في عطلة الأسبوع. لم يتصل قط وظننت.. حسناً، أنت تخيلت حقاً ما ظنته.

منذ الخميس في اليوم الأول من الشهر حتى الجمعة الثاني منه. كان خواكين موجودًا في مساء تلك الجمعة في الأرشيف. ظهر بهيئة شاحبة يبدو عليها المرض وودعه بهذه الكلمات: «كن بخير. كل الأمور ستنتهي على خير». على ما يبدو كان مخطئًا. لم ينته شيء على خير منذ ذلك الحين، ففي المرة الثانية التي رآه فيها؛ كان يرقد وسط النهر وثمة ثقب في رأسه.

تمخضت المرأة. لم تبك هذه المرة، لكنّ دموعها السابقة بللت مجياها بالفعل. خطر على بال تشاكالтана طريقة لمساعدتها وعرض عليها:

- ربما يجب أن تشربي شيئًا أكثر قوة. كوبا من البيسكو مثلاً.

- شكرًا، لكن لا يمكنني أن أشرب وحدي. لن يبدو أمرًا حسنًا في أعين الناس.

فكر تشاكالтана في أن لا شيء حقيقة يبدو جيدًا، فالجميع يعيشون وهم يخفون حياتهم عن الآخرين. لم يكن هناك أحد يعرف أحد تمام المعرفة. كان كل ما قاله:

- سأكون صحبتك.

طلب كويين صغيرين من البيسكو. شربت كوبها جرعة واحدة، لكن أول رشفة لتشاكالтана أحرقت حنجرته وهزت دماغه. افترض أن مقهى الموت السيئ هذا ليس أفضل مكان لتناول المشروبات الكحولية.

- سيدتي، هل كان لديك أي علم إن كان خواكين عضوًا في أي جماعة سياسية أو حزب ما؟

لم تضطر حتى للتفكير في المسألة:

- لا. يمتلئ منزله بالمنشورات السياسية، لكن هذا كان من أجل رسالة

الدكتوراه. كانت دراسته عن التطرف. هذا هو ما شرحه لي. لم يخبرني قط بأنه سيحضر أي مؤتمر. لم أسمعه حتى يدلي برأي سياسي.

إذاً خواكين كان يخفي أسرارًا عنها، فهذا يعني أنه يضع تشاكالтана في نفس معزتها. تحمس مساعد الأرشيف حينها نظر في هذه الاحتمالية، إلا أنه ويخ نفسه على أفكاره الأنانية. هذه لم تكن لحظتها، لكنها كانت بالفعل اللحظة المناسبة للمقارنة بين نسخة خواكين كالبو التي عرفتتها هذه المرأة وتلك التي عرفها الشاب القادم من حي بارانكو، ولتحقيق هذا لا بد من طرح سؤال جوهري:

- هل حدثك ذات مرة عن أبيه؟

اندهشت. سوت تنورتها بيديها، ليس لديها أسباب لثلاث ثق في تشاكالтана، وأجبت كذلك أن تتذكر:

- ذات مرة. حدث هذا منذ فترة قصيرة، في إحدى المرات الأخيرة التي تقابلنا فيها. كان شديد الحزن في ذلك المساء، وقد ثمل وواصل الشرب في لقائنا. أنصتُ له. لم يسبق لي قط أن رأيته هكذا.

- وما الذي قاله لك؟

- أن أباه كان خائناً، أنه ترك أمه، أنها ماتت بسببه. قال أيضًا إنه كان سكيرًا وخذعه طيلة حياته.

فكر تشاكالтана في اللحظة التي سيضطر فيها لإخبار دون جونثالو بهذه المحادثة:

- ألم يقل شيئًا جيدًا؟

- لا أعتقد، لكنه كان ثملًا. لم يكن كلامه متناسقًا.

استمر تشاكالтана في الشرب، وصارت حنجرتة تحرقه مع كل رشفة. بعدما أنهى كوبه أصابه الصداع، وتأخر الوقت. كان يومه طويلًا بلا شك. أطول يوم في حياته، ووفقًا لما يراه فهو الأطول في حياتها أيضًا. قالت وهي تنهض:

- سأترك لك بطاقتي. إذا رغبت في التحقق من شيء ما أو معرفة أمر آخر، لكن كن حذرًا. لا أريد أن تتعقد المسألة أكثر من هذا.

وقبل أن تصدر ردة فعل من تشاكالтана، تركت البطاقة فوق المائدة وابتعدت عبر الرواق بين العمال والسائقين الذين ملؤوا المقهى. بشعرها الأشقر وملابسها ذات العلامة التجارية، بدت كأميرة خرجت من إحدى القصص لتتوه في أرض الواقع.

هناك شيء ما لا ينسجم مع كل هذا، شيء خارج مكانه، كغراب في برج حمام.

من موقعه أعلى السلم، أعاد تشاكال تانا النظر للرفوف التي تصل حتى سقف الأرشيف. جلب بعض الملفات وفتحها لفحصها. في البداية بدا كل شيء في مكانه، إلا أن تحليلاً دقيقة كشف له المشكلة. مشكلة خطيرة، إذ كان يحفظ بلاغات تخص قضايا الأسرة في قسم الاعتداءات على الملكية الخاصة. تفقد ما حوله، خشية أن أحدهم قد اكتشف المسألة. ما فعله فضيحة. لو كانت هذه خريطة للعالم، فما فعله سيعني غالباً نحو بلد بأكمله، وبشكل ما فهذه خريطة لأحد العوالم، نموذج بالمقاس لمخالفات وجرائم الجميع، مستودع للنزاعات والتهم. تقتضي مسؤوليته تنظيمها بأدق صورة. لا يمكن أن يتشتت ذهنه. المشكلة أن رأسه بات ممتلئاً بأمور عدة؛ ليست فقط كوابيس عصابات الأجانب وهي تهرب مخدراتها وتفسد المدينة بالجريمة - وهذا كان أمراً قاسياً - بل تلك الأمور شديدة الخصوصية التي تؤرقه في تلك اللحظة تحديداً. مسألة سوسانا أراندا وخواكين. مسألة سيسيليا وذلك الشاب في اليوم السابق. في الحقيقة ما يؤرقه هو أنه نفسه ليس لديه مسألة تخصه، فحتى أمه التي ظلت طاهرة منذ حادث أبيه؛ تغازل الآن دون جونثالو، وهذا هو الأمر الأسوأ، فليلاً حينها عاد للمنزل سألته أمه متى سيدعو دون جونثالو. أصرت على أنه في حاجة لأنباء عن ابنه - فليرقد بسلام - وأجبرت تشاكال تانا في النهاية على دعوته للغداء. سيجبر تشاكال تانا الآن أن يخبره أن ابنه كان رجلاً خطيراً، سيضطر لإخباره أن خواكين بحث بنفسه عن موته عبر علاقاته المتشابكة مع عصابات المافيا الدولية. أراد تشاكال تانا أن يؤخر تقديم

هذا التفسير إلى أجل غير مسمى.

- فيليكسيو يا بني!

استدار تشاكالانا وكاد أن يسقط على الأرض. كان المدير قد اقترب في صمت شديد كمن سيغدر به.

- صباح الخير يا سيدي. لم أعرف أنك موجود هنا.

- سعدت للطابق الثالث. هل تتذكر أنهم بحثوا عنا بالأمس ولم يجدوا أحداً؟

- نعم يا سيدي. أتمنى أن تكون قد تمكنت من إصلاح الأمر.

- في الحقيقة لست في حاجة لإصلاح أي شيء.

هبط مساعد الأرشيف من على السلم. حاولت نظره الالتقاء بنظرة مدير الغامضة، والتي ربما تسعى للهروب. سأله:

- إذن.. هل كل الأمور بخير؟

أجابه المدير بصوت متحرج:

- المسألة ليست معي يا فيليكسيو. لم يعلم أحد بغياباتي، وخصوصاً أنه لا أحد يهبط إلى هذا البدروم الحقير في الأساس.

ما تزال نظره مكسورة من خلف نظارته، كأنه فأر في مصرف مياه. ود تشاكالانا أن يواصل عمله، إلا أن شيئاً ما أخبره بأن هذه المحادثة لم تنته:

- سعيد أن كل الأمور بخير.

- لم أقل إن كل الأمور بخير، بل إن المسألة لم تكن معي.

حاول تشاكالانا التقدم بين الرفوف إلا أن جسده مديره يسد طريقه.

كان قريبًا منه لدرجة أنه رأى قشرة الشعر التي افترشت كتفيه

- إذن.. سيدي؟

- المسألة تتعلق بك. المشكلة معك.

- ماذا؟

الآن بالفعل التقت نظراتهما، وبدت نظرة المدير كأن قوامها من الثلج.

تأسف تشاكالтана:

- آسف يا سيدي. في ظل هياج الأيام الماضية أهملت مهامتي. من

المحتمل أنني بدلت أماكن حفظ بعض البلاغات المهمة. أقسم لك أنني آسف

من أعمق أعماقي، وأنني مستعد لتحمل المسؤولية الكاملة عن أفعالي..

- فيليكسيو. عزيزي.. هذه المسألة ليست ذات صلة بملفاتك.

لم يفهم تشاكالтана، ففي عمله تتعلق كل الأمور بملفاته.

- سيدي؟

فقد المدير أعصابه:

- أوراقك المصنوعة من الخراء لا تهم أحدًا. أتعرف ما هو أفضل شيء

في أن يرسلوا أحدهم للعمل في الأرشيف؟ أنك لا تهم أحد. لا يعرف أحد

أنك موجود من الأساس ولهذا لا تواجه مشكلة مع أحدهم، وما الذي

نجحت فيه؟ أن يهتم كل العالم بنا. شكرًا يا أحمق، لقد ضاجعتنا جيدًا. أتمنى

أن تكون سعيدًا.

تردد صوته بين الرفوف والممرات وبقية الصناديق التي رقدت فيها

الأوراق. شعر المدير بأنه تعرض للخيانة؛ فإذا كان التواضع مقبولًا بالنسبة

له فلا بد وأن يأتي مع الولاء. حاول تشاكالтана أن يتحمل المسؤولية. ترك

السجل فوق السلم وقال:

- لا تقلق يا سيدي. سأصعد للطابق الثالث وأقدم التفسيرات التي يطلبونها. لا يوجد شيء لأخفيه. لم أنتهك بروتوكولات التصرف القانوني أو اللوائح الداخلية أو اللائحة الأخلاقية أو..

وضع المدير يديه فوق وجهه في إشارة تدل على الإحباط. كان يرتدي خاتماً ثقيلاً من الذهب، إلا أن شعره كان يلمع أكثر منه.

- فيليكسيتو.. الاستدعاء لم يأت من الطابق الثالث.

- ها.. فعلاً. ظننت أن..

- إنه من جهاز الاستخبارات.

خفض المدير يديه وهو يقولها وغرس في وجهه تشاكالтана نظرة تحمل داخلها الارتياح والأسف معاً. كان مجرد استدعاء، دعوة لمقابلة، إلا أن كلمتي «جهاز الاستخبارات»، رغم هذا، ترددتا كأنهما حكم قضائي.

«وزارة الحرب».

بينما كانت سيارة الأجرة تتقدم في جادة سان بورخا نورتي، استمتع تشاكالтана بمذاق هذا الاسم. كان يتشرف باستدعائه للمثول في هذا المكان، الذي يدافع عن السيادة الوطنية حتى بالروح لو تطلب الأمر. قبلها بفترة، بعد أن أغرته المسيرات والأعلام الوطنية، رغب في الانخراط بالحياة العسكرية، إلا أنه استبعد بسبب قصر نظره وقدمه المسطحة. الآن بينما يتقدم داخل السيارة بمحاذاة صرح الوزارة الضخم، شعر بأن رغباته - أو على الأقل جزء صغير منها - يكتمل. أوقفها جندي عند نقطة تفتيش البوابة:

- الاسم؟

- فيليكس تشاكالтана سالديبار، من الأرشيف القضائي. أبحث عن الأدميرال إكتور كارمونا، موفد الاستخبارات البحرية في الوزارة. حضرته من استدعائي.

- وثائقك من فضلك.

سلمه تشاكالтана دفتر بطاقته. عاد الجندي للكابينة وأجرى اتصالاً هاتفياً. كان تشاكالтана صغيراً في السن، إلا أن هذا الجندي بدا أصغر منه، فعلى الرغم من خودته وحذائه العسكري وبنديته، لكن عمره لم يكن ليتخطى سبعة عشر عاماً. أعجب تشاكالтана بقدرته على تلبية نداء الوطن، رغم صغر سنه.

خرج الجندي مجدداً ورفع القضيب المعدني:

- نحو الأمام. واصلا طريقكما حتى المبنى الرئيسي. سيتوجب على سيارة الأجرة الرحيل عن الصرح وحضرتك ستنتظر عند البوابة.

ودعمها بتحية عسكرية رد عليها تشاكاللتانا برفع يده نحو جبهته التي كان يرغب في أن تكون هي الأخرى مغطاة بطاقيّة عسكرية.

يمثل الاستدعاء بالنسبة لمدير الأرشيف مشكلة. تقتضي فلسفته بالألا تلاحظه أي جهة عليا تحت أي ظرف، باستثناء أوقات مشاهدة مباريات كرة القدم معهم، لكن تلك الكتلة الخرسانية التي بدت كوحش بسبعة رؤوس والمائلة أمام تشاكاللتانا تمثل فرصة. لم يفعل أمراً سيئاً ومن لا يدين لأحد بشيء، ليس لديه ما يخشاه. قطعت سيارة الأجرة الساحة التي ضمت دبابات وعربات قتالية بل وحتى مروحية، وإن كانت كلها خارج الخدمة. جزء من الديكور كاللوحات المعلقة داخل منزل. أغلب المشاة من الذكور ويرتدون الزي العسكري، لكن بعض السيدات أيضاً ظهرن بملابس مدنية وأكمام بلاستيكية تكشف أنهن سكرتيرات. كانت إحداهن تنتظره عند باب البرج الرئيسي. رحبت به:

- سيد تشاكاللتانا. سأرافك لمكتب الأدميرال.

توغلا بعدها داخل متاهة من المكاتب والأروقة والقاعات والسلام. من الخارج، تبدو البناية كسفينة فضائية، لكن كل شيء في الداخل يفشي طبيعتها الحقيقية: بناية بيروقراطية مليئة بالأوراق التي تذهب من باب نحو الآخر لينتهي بها الأمر داخل مجموعة من الأدراج، وهذا الأمر أعجب تشاكاللتانا.

وصلا في النهاية إلى قاعة صغيرة بلا نوافذ، وفي نهايتها باب. قطع الأثاث الوحيدة الموجودة فيها عبارة عن مائدة منخفضة ومقعدي صالون من جلد مقلد. في السطح الجلدي ثُقب من عدة أماكن، أظهرت حشواً من الإسفنج الأصفر. طلبت منه المرأة الانتظار هناك وتركته.

اقترب تشاكاللتانا من المائدة، بحثاً عن أي تسلية. هناك نسخة واحدة من صحيفة (البيروانو) ومعها الجريدة الرسمية للدولة ليمضي الزوار وقتهم. كانت قراءته المفضلة. قضى ساعة في مراجعة القواعد واللوائح السارية، إلا أنه خصص عدة دقائق لقراءة أخبار الصحيفة: افتتاح طريق جديد في مدينة واتشو وبناء عدة ملاعب رياضية في إل سركادو. كل الأنباء تحتفل بإنجازات حكومة القوات المسلحة المجيدة. يجب تشاكاللتانا هذه الجريدة لأنها إيجابية، وإن توجب الاعتراف بأن كل الصحف باتت هكذا في السنوات الأخيرة. مع وصول الديمقراطية، ستفتقر كلها إلى مفهوم السلم هذا. بينما يقرأ، دخلت مجموعات من الضباط وخرجت من الباب الذي في نهاية القاعة الصغيرة. بعضهم يسير بجدية، لكن آخرين كانوا يضحكون. بلغ الأمر إلى حد أنه استمع لأجزاء لما كان بلا أدنى شك نكتة إباحية، ومراهنات لا نهاية لها بخصوص مواجهة البرازيل التي ستلعب في غضون ساعات. يحمل أغلب الزوار أوراقاً. لم ينظر أحدهم إلى تشاكاللتانا. بعد مرور ساعة وربع، بدأ مساعد الأرشيف يفكر في أنهم قد نسيوه هنا، كلعبة قديمة. في النهاية انفتح الباب. لم يخرج أحد، لكن صوتاً من الداخل دعاه، أو بالأصح أصدر له أمراً:

- ادخل يا تشاكاللتانا وأغلق الباب لدى دخولك.

أطاع مساعد الأرشيف الأمر. لسبب ما؛ ينتج هذا المكان اندفاعاً نحو الطاعة. كان قد تخيل أنه سيدخل مكتبا فخما مزينا بأعلام بيرو، لكنه دخل غرفة بنفس حجم قاعة الانتظار الصغيرة، ليس فيها هي الأخرى تهوية طبيعية. في مكان النافذة، تدلت صورة الجنرال فرانثيسكو موراليس برمودث، رئيس الجمهورية. اكتمل المشهد بخزان صغير للماء وشجرة تين صغيرة، كأنه دليل على وجود حياة في الداخل.

بعيداً عن إحباطه، اعتبر تشاكالтана المسألة دليلاً على توضيحات «حواريي السلاح». لم يرفع الأدميرال كارمونا نظرتة. كان تركيزه منصباً على كتلة كبيرة من الأوراق يراجعها بقلم. كان في منتصف العمر، وله جسد نحيف وعود صلب، لكن شعره القصير قد شاب مبكراً ليصبح لونه في نفس بياض قميصه وبشرتة. كل هذا البياض منحه مظهرًا أكثر حدة.

لأن أحدًا لم يدعه للجلوس، ظل تشاكالтана واقفًا أمام المكتب. اعتقد أنه سيظل هنا وقتًا أطول مما قضاه في قاعة الانتظار الصغيرة بينما يراجع الأدميرال كل هذه التقارير أو أيا كانت ماهيتها. في النهاية رفع الضابط من فوق مكتبه عينين صبغهما الضوء البارد بلون رمادي. قال له:

- أتمنى أن تكون قد أحضرت معك فرشاة أسنانك يا تشاكالтана، لأن حضرتك ستنام معنا هنا.

- سيدي؟

- حسنًا، ليس هنا، بل في قاعدة «لاس بالماس» الجوية. لديهم هناك بكل تأكيد زنازين عقابية مع مساحة للتحقيق.

- اعدرني، لكنني لا أفهم.

أسكته الضابط بإشارة بيده، وبعدها رمقه بنظرة من أعلى لأسفل ثم أضاف:

- حضرتك صغير في السن جدًا. أليس كذلك؟

فكر تشاكالтана لم قد يكون هذا السؤال، لكن رده على أي حال اقتصر على قول:

- بالفعل سيدي الأدميرال.

لم يكن «سيده الأدميرال»، إلا أن تشاكالтана لم يجد طريقة أخرى لمخاطبته سوى هذه.

قال العسكري بهدوء:

- حسناً.. كل المخربين هكذا. مثاليون في أعماقهم. صحيح؟ هذا فقط هو ما هم عليه.

لأن الأدميرال أجاب عن سؤاله الشخصي بنفسه، اعتبر تشاكالтана أنه معنى من الرد. فكر أنه كلما قل ما يقوله سيكون الأمر أفضل. أخرج العسكري ورقة ووضعها أمامه. كان البلاغ عن «مخالفة إدارة الجوازات» والموجه ضد نيبوموسينو بالدبييا، ذلك البلاغ المعيوب شكلاً. كان هذا هو آخر ما انتظر تشاكالтана أن يراه في هذا المكان.

- سيدي الأدميرال: أنا مندهش من رؤية إلى أين وصلت هذه الورقة.

- إلى أين وصلت؟ ما يهمني يا تشاكالтана هو من أين خرجت.

- هذا هو نفس سؤالى يا سيدي. يوم الاثنين الموافق الخامس من هذا الشهر، في الخامسة صباحاً كانت فوق مكتبي، بدون أي أثر عن تلقاها ولا حتى رقم وثيقة هوية المبلغ. انعدام حقيقي للمسؤولية.

بدأت عينا الأدميرال كمكعبي ثلج بينما كانتا تتأملانه، اعتقد تشاكالтана أن درجة حرارة المكتب بأكمله تنخفض. سأله الضابط:

- وهل تظن أنني قد أصدق هذا؟

- إجابتي هي نعم سيدي الأدميرال.

- هل تعرف من هو نيبوموسينو بالدبييا؟ المبلغ عنه؟

أشعل اسم نيبوموسينو بالدبييا شرارة داخل رأس تشاكالтана: كان

قد شاهد هذا الاسم هناك، في مكان ما، خلال الأيام الأخيرة، إلا أن هذه الشرارة انطفأت على الفور كشهاب:

- لا، سيدي الأدميرال.

أوما الضابط برأسه كأنه سيتحقق من المعلومة التي سمعها للتو. فحص ملاحظاته وبعدها عاود الحديث:

- هذه ليست الورقة الصغيرة الوحيدة التي خرجت من مكتبك، بالأمس حررت محضرًا - ثم قرأ من بين ملاحظاته: «مواجهة بين عصابات إجرامية». أوردت هنا.. اختطاف دانييل ألبارث بانياغوا. هل تعرف من هو دانييل ألبارث بانياغوا؟

- نعم يا سيدي. متمرّد.

فتح الضابط ذراعيه كأن تشاكالانا قد قال كلمة وقحة:

- وتعترف بأنك تعرفه؟

- بالطبع سيدي الأدميرال، بل لدي أسباب للاعتقاد بأن ألبارث بانياغوا يشكل جزءًا من عصابة لتجارة المخدرات، وأن نشاطه السياسي مجرد غطاء، وأن عملية اختطافه كانت لتصفية حسابات بين مهريين، وتأتي داخل إطار أنشطته الإجرامية الروتينية.

تساءل تشاكالانا إن كان من الملائم توصيف بعض الأنشطة الإجرامية بـ«الروتينية»، إلا أنه حينما شاهد رد فعل الأدميرال قرر أن يركز. عدّل الأدميرال من جلسته نحو الخلف، بمظهر أعطى انطباعًا بأنه مهتم للغاية بما يقوله تشاكالانا. اكتسبت عيناه لمسة من صبغة الشك:

- مهربون؟

- سمحت لنفسي بالشروع في تحقيق مواز سيدي الأدميرال. بالطبع لا أشك في فاعلية أنظمة تحقيقنا ولا المهنية المرتفعة لرجالنا المعنيين بـ..

- تشاكالтана ليس لدي اليوم بأكمله. اشرح لي مسألة المهربين.

كان لدى إكتور كارمونا موهبة نادرة، فحتى وإن تحدث بصوت منخفض يمكن سماعه بالكاد، كان صوته يتحلى بنبرة أمرة قيادية. أطاعه تشاكالтана بشيء أكبر من مفهوم الطاعة نفسه، وهو الفخر:

- لدي مؤشرات بخصوص أن أحد أعضاء عصابته قد سافر في الأيام السابقة نحو الأرجنتين حيث تسلم ما قد يكون شحنة من المخدرات أو النقود، وبمجرد عودته تعرض عدد من أعضاء العصابة للقتل أو الاختطاف. يوجد شهود على عمليات الاختطاف، والذين أنا منهم، قد شهدوا مشاركة أرجنتينيين في الأنشطة الإجرامية السابق ذكرها.

«أعضاء في عصابة». لم يتخيل تشاكالтана قط أن يشير إلى خواكين بمثل هذا المصطلح، خاصة في وجود محقق عسكري، إلا أن هذا كان واجبه بلا شك. خواكين قد تصرف بشكل سيئ وأحبطه ولم يترك له خيارًا. ليغفر له الرب. توقف الأدميرال عن قراءة أوراقه. نظر نحو السقف. بدا كأنه يدرس كيف يبدو له مذاق ما قاله مساعد الأرشيف، وعقب التمعن في المسألة لفترة، سأله مباشرة:

- ما الذي يربط بينك وهؤلاء القوم يا تشاكالтана؟

دارت شكوك تشاكالтана حول عدة إجابات ممكنة. لم يرغب في إظهار أن شيئًا ما يربطه بهؤلاء القوم.

- الصدفة.. يا سيدي.

- حسنًا.

ساد الصمت. فكر تشاكالтана في ما إذا كان الضابط قد صدقه، وفي أنه في حالة النقيض سيتعرض للاعتقال هنا. فجأة بات وضعه في كل هذا مثيرًا للشبهات، لكن أيضًا: في أي مكان آخر رأى اسم نيبوموسينو بالديبيا؟ لديه علاقة ما مع هذا الرجل، إلا أنه لم يتذكر ما هي تحديدًا. سمع الباب يفتح من خلف ظهره وأعطى الضابط إشارة لأحد ما خلفه. ظن تشاكالтана في هذه اللحظة أنه سيشعر بأغلال تقبض على معصميه، بل كان على يقين من أن صف ضابط ما سيأتي ويحمله ويذهب به لتحقيق أكثر إنهاكًا، ربما في الحجز ذاته الموجود في قصر العدل. تذكر زيارته الأخيرة لهذا المكان، وشعر بارتياح حينما فكر في أنهم - على الأقل - لن يضربوه كثيرًا هناك، إلا أن الباب أقفل مرة أخرى.

فجأة، غير كارمونا من طريقة تعامله. أغلق ملاحظاته. بدأ في ترتيب مجموعة من الأوراق. وبدا أنه فقد اهتمامه تمامًا بزائره. في النهاية وضع كل الأوراق في حقيبة ونهض. حينها فقط تذكر أن تشاكالтана ما يزال هناك.

- حسنًا يا تشاكالтана. قصتك غريبة للغاية. أليس كذلك؟

- لا أعرف سيدي الأدميرال؟ أهي كذلك؟

- لدينا انتخابات يوم الأحد، وسحب من الإرهابيين تحلق في البلاد. إرهابيون محليون وإرهابيون أجانب وفجأة يصبح لديك علاقات معهم بـ«الصدفة» وتنتهي الأمر باكتشاف عصابة للمهربين..

- كل ما أفعله هو القيام بواجبي فقط، سيدي الأدميرال.

انكشمت عينا الأدميرال قليلًا وبدا بؤبؤاه كأنهما مثقاب يحفره من الداخل:

- هذا هو أغرب ما في المسألة يا تشاكالтана، أن تأتي إلى هنا وتقص علي

كل هذا كأنك تحدثني عن قائمة مشتريات. لا أعرف حقًا إن كنت شديد الذكاء أم شديد الغباء.

- أنا.. مجرد موظف حكومي يا سيدي. رغبتني الوحيدة هي تنفيذ القانون.

ظهرت نقرتان في محيا الأدميرال الخالي تماما من التعبيرات، تحديداً فوق منفرج شفتيه. تساءل تشاكالنانا إن كانت هذه ابتسامة، ثم قال الرجل العسكري بصوت حاسم:

- سأقول لك ما سأفعله. سأبقىك تحت الملاحظة ومع أول شك فيك، ستذهب برفقة أصدقائك، أي هؤلاء المخربين أو تجار المخدرات أو أيًا كانوا.
- لا سيدي الأدميرال. ليسوا أصدقا..

أسكته الأدميرال بمجرد إشارة من أصابعه الممدودة وواصل حديثه:
- لكن إن كانت لديك معلومات كاشفة للدفاع عن السيادة الوطنية سنهتم كثيرًا بمعرفتها. أتفهمني؟
- بالتأكيد يا سيدي.

- أرغب في أدلة، أي دليل على الأشياء التي قلتها في مكثبي. إذا تمكنت من فعل هذا، فإن مهاراتك قد تصبح ذات أهمية كبيرة بالنسبة للقسم الذي أديره. هل تقدر على فعلها؟

«مهاراتك قد تصبح ذات أهمية كبيرة بالنسبة للقسم الذي أديره». أحس تشاكالنانا بأن شعورًا، لم يعرفه منذ التحاقه بالقطاع العام، قد غمره؛ وهو التقدير. الاهتمام بعمله. الاحترام، بل وربما حتى الإعجاب. حينها شاهد الأدميرال واقفًا تفهم أنه يدعو للخروج. همّ وهو يبجل هنا وهناك:

- طبعًا سيدي الأدميرال. بكل تأكيد سيدي الأدميرال.

رافقه كارمونا، بل دفعه دفعًا تقريبًا، نحو صالة الانتظار وودعه هناك بالتحية العسكرية. رد له تشاكالانا التحية بصدر متفخ ومملوء بالمجد وهو يردد بدون توقف:

- اعتمد عليّ. سأحصل على الأدلة. لا شيء يحفزني أكثر من الخدمة الوفية لبلدي وقواتي المسلحة والشرطة الوطنية صاحبة الفضل التي رفعت راية الشرف لتمييز...

إلا أنه قبل أن ينهي حديثه، كان الأدميرال قد رحل بالفعل.

عاد لوسط المدينة في سيارة أجرة. جعلته مقابلته مع كارمونا مفتونًا، فحيث رأى المدير مشكلات، رأى الأدميرال فرصًا، ما اعتبره المدير خطرًا في شخص تشاكالтана، اعتبره الأدميرال ذا نفع، وفوق كل هذا، بينما كان مديره يشاهد مباريات كرة القدم، كان الرجل العسكري يرغب في العمل. ليس عجيبيًا أن يتولى العسكريون مسؤولية البلاد. من سواهم قد يقدر على هذا؟
بالقرب من سينما روما طلب من سائق سيارة الأجرة:

- ادخل من اليمين المقبل من فضلك.

لم يتوجه للأرشيف. كان أحد أيام كرة القدم، أي أن أحدًا لن ينتظر هناك حتى الخامسة، وفوق هذا فإن المدير يظن بكل تأكيد أن تشاكالтана تعرض للاعتقال، وفي الوقت الحالي ليس تصويب ظنه الخاطئ واجبًا. كانت لدى تشاكالтана أمور ليفعلها في بيته. صادف مظاهرة سياسية لدى مروره بجادة أريكييا. نحو مئة شخص يحملون لافتات تابعة لحزب ما، ويسيرون في الطريق. تطوقهم الشرطة بخوذاتها ودروعها، بل وبخرطوم مياه، لكنها لم تهاجمهم. الغاضبون حقًا هم السواق المتعجلون للعودة إلى بيوتهم لمشاهدة المباراة. علت أبواقهم وشتائمهم فوق شعارات المتظاهرين. هتف أحدهم من سيارته الفولكسفاجن الخنفساء:

- لا أرغب في الديمقراطية. أرغب في مشاهدة المونديال.

وصلت بعدها عربة شرطة أخرى لتقطع الطريق أمام المظاهرة وانهارت الحركة المرورية تمامًا. أدرك تشاكالтана أنه سيصل للمنزل أسرع سيرًا. سدّد التعريفه لسائق سيارة الأجرة وقطع طريقه بين غابة الأبواق والدرع

والأعلام، وهو يفكر في أن لا شيء يمكنه جعل البلاد أفضل. كل ما تحتاجه هو النظام في المقام الأول. لدى وصوله لمنزله، حيا أمه دون اكتراث بقبلة في جبهتها. قالت له:

- وصلت في الوقت المناسب لاستقبال دون جونثالو. من الجيد أن تكون موجودًا في المنزل حينما يأتي رجل لزيارتي. هذا هو الصواب.

رد تشاكاللتانا عن عمد:

- ظننته قادمًا لمقابلتي أنا بخصوص خواكين.

أشاحت بوجهها في خجل نحو المطبخ:

- حسنًا.. أيا كان..

لاحظ تشاكاللتانا أن أمه ترتدي سترة وتنورة بلون وردي باهت ظللتا طيلة سنوات وسط النفثالين في خزانة الملابس. كانت أول مرة يراها في لون فاتح. وكان لهذا الأمر أثر غريب، كأنه حفل في كنيسة صغيرة، إلا أنه لديه أمور أخرى ليفكر فيها. أدلة. هذا هو ما قاله الأدميرال. كانت لديه أدلة بالفعل. أغلق على نفسه غرفته وفتح درج الكومود. كانت الصور وجوزات السفر التي أخذها من منزل خواكين موجودة هناك. ألقى نظرة مجددًا على صور الشباب التي التقطت بشكل سيئ. عد اثنتي عشرة صورة بالتمام والكمال. كان بعضهم يرتدي نظارات من الباغ وأغلبهم يحتاج بصورة ملحة لقص شعره، وتعكس تعبيراتهم جميعًا الهيئة العبوسة لرجال العصابات وقطاع الطرق. فصل صورهم عن الشقراء، سوسانا أراندا، قبل أن يعيدها لمكانها، فهي ليست على صلة بالبقية. إذا كان خواكين قد وضع هذه الصور معها، فهذا فقط لأنها على نفس القدر من السرية؛ صور العصابة وصور عشيقته، صورهم بأسماء وعناوين منازل صريحة، وصورها دون أي

علامات باستثناء عينيها شديدي الاتساع وجسدها الملفوح بلون الشمس في حلة السباحة. راجع الأسماء الموجودة في كل صورة من صور العصابة. لا. لم يكن أي منهم هو نيوموسينو بالديبيا، لكن رغم هذا ألح عليه شيء ما بأن هذا الاسم موجود هنا.

لا، بل ربما يكون موجودا هنا؛ فتح جوازات السفر الثلاثة، وكان الأول كما يتذكر هو جواز السفر البيروفي لخواكين كالبو وعليه صورة صديقه. عثر في الجوازين الآخرين -أحدهما بيروفي والآخر أرجنتيني- في النهاية على ما كان يبحث عنه، فكلاهما يخص نيوموسينو بالديبيا. فحص صورتي الجوازين من جديد بعناية. قبل ذلك اليوم، انحصر اهتمامه في صور الطالبين؛ لذا لم يركز في البقية، وظن في البداية أن كل جواز ينتمي لشخص مختلف. تفهم الآن السبب وراء هذا الظن: نيوموسينو بالديبيا بدا رجلاً مختلفاً في الصورتين، فهو يظهر في الجواز الأرجنتيني بلحية كثيفة وشعر مُصمغ ومصفف نحو الخلف، أما في الجواز البيروفي فتغير لون بشرته؛ بات أشقر أو ربما أشيب. يصعب تحديد ذلك بالأبيض والأسود، وليس في وجهه سوى شارب رفيع فوق شفته العليا. لم يكشف له التحليل الأدق فقط أنها ليسا نفس الشخص، بل أنه يعرف هذا الرجل. نيوموسينو بالديبيا كان هو خواكين كالبو. كل جوازات السفر كانت تخصه، حتى وإن كان لكل واحد منهم اسم وهيئة مختلفين. لا بد وأنه قد أثار الشكوك في المطار؛ فحرر أحدهم بلاغاً ضده بوجود «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب... حدث»، رغم أن المخالفة ليست هيئة، ولا يمكن وصفها بـ«حدث»، إنها انتحال شخصية بشكل صارخ وهائل، وهو دليل على أن خواكين شارك قبل مقتله في عمليات شبكة دولية سرية.

راجع تشاكالانا أختام الهجرة والجوازات. لم يستخدم جواز سفر

خواكين كالبو قط. وجد ختمين في جواز السفر البيروفي لنيوموسينو بالديبيا من مطار ليميا: الخروج يوم الخميس الموافق الأول من يونيو، والعودة الجمعة الموافق للثاني منه. هما اليومان اللذان -وفقاً لسوسانا أراندا- سافر فيهما لتسلم «طرْد». في تلك الجمعة ذاتها مر على الأرشيف وقال بوجه منهك أو مريض إن كل الأمور ستنتهي على خير. فتح تشاكالтана جواز السفر الأخير، ذلك الأرجنتيني. عثر على ختمين، كلاهما من مطار إيزيزا في بوينوس آيرس، وبتاريخي الأول والثاني من يونيو. خواكين كالبو، أو نيوموسينو بالديبيا، كان يدخل ويخرج من بيرو كبيروفي ومن الأرجنتين كأرجنتيني. أفلتت ضحكة من تشاكالтана. باغته الفرحة. هل كان الأدميرال كارمونا يرغب في أدلة؟ هو سيمنحه كل الأدلة التي تنقصه.

في الواحدة والنصف بالضبط، وصل دون جونثالو ومعه علبة احتوت أشكالاً مختلفة من الحلوى مصنوعة من عجينة السكر واللوز على هيئة ثمار كمشرى وفراولة وموز. كان تشاكالانا يعشق هذه الحلويات، إلا أن دون جونثالو جلبها لأمه. شكرته وهي تتلقاها منه:

- سأقدمها مع التحلية.

ثم أضافت كأنها تغازله:

- لكن قبلها عليكما أن تجربا طبق «كارابولكرا» الذي أعددت. أطهوه بشكل جيد للغاية.

على ملابسها وردية اللون علقت مشبكًا يحمل وجه العذراء مريم والذي -وفقًا لأفكارها- يحمل لمسة من المفهوم الحسي. جلسا على مائدة الطعام التي ليس عليها أي مقبلات، وتأكدا من أن دونيا أنا كانت محقة، فطبق «كارابولكرا» الذي أعدته شهى وقوي ومتبل كما يجب بالفلفل الأحمر وفستق العبيد. بينما يتناولون الغداء، استدعى دون جونثالو من ذاكرة الطفولة أطباق البائيا والمطبوخات التي كان يتناولها، دون أن ينسى الإشادة بالأطباق البيروفية التي تعرّف عليها في مرحلة البلوغ، وعلى الرغم من رعشة يده تناول طعامه بنفس مفتوحة.

تلك المرة، لم يرهق تشاكالانا نفسه حتى بالنظر لصورة والده الموضوعه فوق الطاولة، فعاتلته مكتملة لأول مرة في وجهة نظره. شعر كأنه يطفو فوق بحيرة صافية من الراحة. كانت لحظة القمة بالنسبة له حينما اقترحت أمه قبل أن ترفع الأطباق من فوق المائدة:

- فيليكس، يجب أن تدعو صديقتك سيسيليا يومًا ما لتتعرف على دون
جونثالو؟

قال لها باندهاش:

- حقًا يا أمي؟

سأل دون جونثالو:

- لديك إذن فتاة في مكان ما؟ وكنت تواريها عن الأنظار جيدًا، أليس
كذلك؟

أخبرته الأم أمام تشاكالтана المذهول:

- هي فتاة طيبة. ربما متمردة نوعًا ما، لكن هذا هو حال شباب هذه
الأيام، صحيح؟

أجابها دون جونثالو:

- شباب هذه الأيام وكل الأيام. ما رأيكما أن نأكل الحلوى الآن؟

ضحكت الأم:

- خطرت لي فكرة ستعجبكما جدًا.

أخذت القهوة والحلويات نحو غرفة التلفاز وجلبت زجاجة من
البيسكو وشغلت مباراة كرة القدم التي كانت على وشك البداية:

- سأنتهي من رفع مائدة الغداء ويمكنكما الحديث عن الأشياء التي
تخص الرجال.

صب دون جونثالو فنجانًا من القهوة لتشاكالтана وقرب منه الحلويات
ثم صب لنفسه هو الآخر فنجانًا وأضاف إليه جرعة من زجاجة البيسكو. لم
ينطق ولو كلمة واحدة، لكن تشاكالтана يعرف ما ينتظر أن يسمعه منه. حاول

ترتيب أفكاره. من شاشة التلفاز بدأ المذيع يعلن عن تشكيل الفريقين:

- يدخل الفريقان أرض الملعب بتشكيل مدجج بالنجوم. البرازيل، «لوس فيردي أماريلوس»⁽¹⁾ بسيريزو وديرسو ولياو في حراسة المرمى. بيرو بتشومبيثا وكويتو وبكل تأكيد كوبيياس. اليوم سنوجه صلواتنا جميعاً للقديس كوبيياس لكي تمطر أهدافه من السماء..

انتظر تشاكالثانا السؤال ثم تفهم أنه لن يأتي أبداً. على الرغم من هذا، شعر بتوتر دون جونثالو فوق الأريكة وهو يتظاهر بإبداء اهتمامه بكرة القدم. ضد رغبته، وضد عاداته، يجب على تشاكالثانا أن يبدأ المحادثة. حاول أن يبدأها من الجانب اللطيف:

- خواكين.. كان لديه حبيبة.

لم يبعد دون جونثالو نظره من على التلفاز، إلا أن وجهه أضواء بالسعادة:

- هل كانت جميلة؟

- جميلة. شقراء وأيضاً..

- أيضاً ماذا؟

- متزوجة.

في تلك اللحظة، عاد دون جونثالو لينظر لمحاوره ثم انفجر في الضحك وقلده تشاكالثانا. قال العجوز:

- عفريت صغير، أليس كذلك؟ كان على علاقة بشقراء متزوجة..

- لهذا كان متحفظاً جداً بخصوص حياته الشخصية، حسناً لهذا السبب

1. لوس فيردي أماريلوس: أحد الألقاب التي يعرف بها منتخب البرازيل في عالم كرة القدم.

وأيضًا بسبب.. أمور أخرى.

تردد تشاكالтана وهو ينطقها. لاحظ دون جونثالو تحفظاته وسأله:

- ما الذي تعرفه أيضًا؟

على شاشة التلفاز، بدأت الكرة في الحركة. ركلت بيرو ضربة البداية وبعد عدة لمسات في المنطقة أرسل أوبليتاس تمريرة طويلة نحو اليسار عند كوبياس الذي ركض نحو خط المرمى. تعرض للعرقلة واحتسب الحكم ركلة حرة. بدأت بيرو المباراة وهي تهاجم بينما يتساءل تشاكالтана: هل يجب أن يخبر هذا الرجل بما كان ابنه يفعل بالضبط؟ كان ملتزمًا بالإبلاغ عن مخالفات خواكين للدولة، لكن هل ثمة داع لتلطيف ذكريات أب؟ خطرت لتشاكالтана فكرة. هناك طريقة لإلقاء الضوء بصورة أطف على الأمور: الرواية التي قدمها ألبارث للأحداث. ففي النهاية كل الروايات، طالما لم يصدر أي حكم قضائي، ما تزال حقائق مفترضة. تنحني ثم تحدث:

- خواكين كان يعمل مع.. جماعة سياسية تطلق على نفسها حزب اليسار الثوري.

- خواكين؟

بدا جونثالو مندهشًا من هذه المسألة أكثر من مغامرات ابنه العاطفية.

أكد له تشاكالтана:

- كان يخفي بعض المواد التي تتعلق بالدعاية... وبعدها.. كان ملاذًا لرفاقه من دول أخرى. كان يوفر لهم الإقامة في شقته، ويحصل لهم على وثائق مزورة ويقدم لهم دعمًا لوجيستيًا.

- اللعنة!

صب العجوز لنفسه بعضًا من البيسكو، واستغنى في تلك المرة عن القهوة، ثم تجرعه دفعة واحدة قبل أن يضيف:

- لم أكن لأتخيل هذا قط.

اعترف تشاكالтана:

- ولا أنا.

ساد بين الاثنين صمت ملاء معلق المباراة:

- تتعقد المباراة بالنسبة لبيرو التي تعجز عن الخروج من المنطقة. البرازيل تضغط وتضغط، والآن ها هو مندوثا الذي يركض في قلب الملعب ويسقط. احتسب الحكم ركلة حرة لصالح الفريق البرازيلي، هي مخالفة بعيدة لكنها خطيرة. يوجه الحارس البيروفي كيروغا حائطه البشري.. يتقدم روبرتروو للتسديد، أخطر قاذفة صواريخ عند البرازيل، لكن ديرسو هو من يسدد والكرة تخلق في الهواء وووو... جوووول للبرازيل! ديرسو! كرة قوية لا تصد ولا ترد تسكن شباك بيرو.

غطت دمدمة إحياط المدينة، إلا أن لا تشاكالтана ولا دون جونثالو أبديا حزنًا من الهدف. بالكاد لاحظا الأمر، ففي تلك اللحظة كانا يلعبان مباراتهما الشخصية. على شاشة التلفاز، انفجر البرازيليون فرحًا ومن أمامها قال دون جونثالو بنبرة فخر:

- إذن.. خواكين كان يكافح من أجل عالم أفضل.

- لكن أي عالم يا سيدي؟

- عالم أكثر مساواة. أحيانًا يفرض نفسه، لكنهم لاحقًا يسحقونه مثلما حدث في 1936 في برشلونة على سبيل المثال. هناك كنا جميعًا سواسية. ليس

هناك من هو أكثر ثراءً أو أكثر فقراً من البقية. لم أكن لأدعو أحداً «دون» جونثالو ولا «دون» أي شيء آخر. كنا جميعاً نتعامل بلفظ «أنت» وندعو بعضنا البعض بـ«الرفقاء». تتدلى الأعلام الحمراء والسوداء من فوق البنايات، بل إن ماسحي الأحذية كانت لهم نقابتهم. كان ملبسنا واحداً، ولم يكن لرجال الكنيسة أهمية. كنت أنا نفسي وأصدقائي ندخل الكنائس لنكسر ونحرق صورهم. لم يكن هناك وجود للطبقات الاجتماعية. أنفهمني؟

أجابه تشاكالنانا:

- موضوع شيق للغاية.

وهذا فقط لأنه لم يعرف إن كان كل هذا الوضع جيداً أم سيئاً. بدا له ككابوس، لكن دون جونثالو كان يتحدث معه بمشاعر يبدو فيها حنين نحو ماض جميل.

واصل معلق المباراة قص أحداثها: أولاً ركلة حرة للبرازيل، ثم ركلة ركنية، ثم هجمة لبيرو، ثم ركلة ركنية وفجأة بدأت المباراة تبدو كأنها معركة مع كثرة استخدام لفظي الهجمات والطلقات:

- الكرة مع البرازيل بالقرب من خط النصف، لكنها تذهب نحو الخط الخلفي عند أمارال. «لوس فيردي أماريلوس» يجهزون الهجمة في منتصف الملعب. روبرتو. مندوثا يهرب من الدفاع إلا أن الكرة في النهاية تصل نحو الجانب الآخر. يلحق بها ديرسو البعيد جداً عن المرمى لكنه يحاول تجربة حظه و.. جوووووول! البرازيل تتقدم بهدفين في الدقيقة 27. مرة أخرى عن طريق ديرسو، مرة أخرى عن طريق قذيفة بعيدة. صاحب القميص رقم 11 يعزز من وضعيته كجلاد لفريقنا.

بعد انتهاء الشوط الأول توقف تشاكالنانا عن عد أكواب البيسكو التي

تجرعها العجوز، لكن الأخير انطلق في الحديث بلا توقف، ربما يوجه حديثه لنفسه أكثر من يوجهه لمضيفه:

- الأمر كأن كل الحروب التي تخصي المرء قد خسرتها لو حدي وسأستمر في خسارتها.

انكسر صوته في ألم. عادت يده لترتعش. تساءل تشاكالтана كيف يستطيع إطلاق الرصاص بتلك اليد المرتعشة. افترض من جديد أن إعاقة تعود لفترة ما بعد الحرب. ربما هو العمر. ربما هو الحزن. ربما هي إحدى تبعات الحرب. حاول تهدئة العجوز. وضع يده فوق كتفه ثم قال:

- فعلت ما في وسعك.

انكسرت نظرة دون جونثالو تمامًا. فجأة بدت شاشة التلفاز كأنها على بعد سنين ضوئية منهما، في نظام شمسي آخر. قال العجوز:

- إذن، هم العسكريون فعلاً. قتلوا خواكين بسبب أفكاره.

ضد رغبته، مُكرهاً، قرر مساعد الأرشيف أن يخبره بالحقيقة، أو على الأقل نسخته منها:

- أخشى يا سيدي أن أقول لك لا. كانوا زملاءه. للمجموعة صلوات بالخارج. وعلى ما يبدو ظهرت خلافات فيما بينهم. هم يختطفون ويقتلون بعضهم البعض، ويشيرون مشاجرات في الشوارع. هذا هو ما يحدث حيناً.. توقف تشاكالтана. كان سيكمل عبارته بقول «حينما يصبح المرء مجرماً»، إلا أن المسألة بدت له غير ملائمة. أنهى عبارته بقول:

- حينما ينشأ نشاط غير قانوني.. تحدث هنا نشاطات غير قانونية. مخدرات وأسلحة وكل هذه الأشياء.

قال دون جونثالو مندهشًا:

- زملاؤه؟ اللعنة. لقد ربيت لصًا سافرًا.

- لست مسؤولاً بأي صورة عن تصرفات خواكين.

- إلى أين ألقى هذا الولد بنفسه؟ لماذا لم يخبرني بأي شيء؟ لماذا لم يأت

ليتحدث معي؟ لماذا لم يطلب مساعدتي؟

- أرغب أنا أيضًا في معرفة إجابة هذا السؤال.

لم يفكر العجوز حتى في الرد عليه. نظر نحوه لوهلة طويلة لأول مرة.

بدا مذهولًا. شعر تشاكالانا بأنه معني بمواصلة الحديث:

- الأشخاص الذين تحدثت معهم يتفقون على أمر واحد.

عاد لينظر من جديد للعجوز الذي ينخره الفضول كالسوس من

الداخل:

- ما هو؟

- لا أعرف إن كان يجب أن أصدقهم أم لا. سأقتصر فقط على قول ما

سمعته. ليست نيتي أن..

- أي خراء يقولونه؟

بدا بؤبؤًا عيني دون جونثالو في تلك اللحظة كخنجرين صغيرين في

طريقهما نحو عيني تشاكالانا. لم يقدر مساعد الأرشيف على مواصلة النظر

له، إلا أنه أجابه:

- يقولون إن خواكين يملك ذنب وفاة أمه. وصل الأمر ببعضهم

للقول إنك لم ترغب حتى في إنقاذها وأن خواكين.. حسنا كان يعرف المسألة

أو يفكر بها.

تراجع العجوز نحو الخلف. نظر لزوجها البيسكو التي ترقد فارغة فوق الصينية وبدأ أنه سينهار على ظهر الأريكة.

- أهذا صحيح يا دون جونثالو؟

لم يبد العجوز ردة فعل تقريباً. كان تشاكالانا قد أتم الجزء الذي يعنيه من الاتفاق. لقد بحث عن قصة خواكين وسلمها له فوق صينية من ذهب وشعر الآن بأنه يحق له أن يسأل:

- أهذا صحيح؟

فتح جونثالو فمه، ربما ليحجب، لكن حينها وصلها صوت أنثوي من عند الباب:

- كيف تسير هذه المباراة؟

نظر كلاهما نحو أم تشاكالانا المبتسمة عند العتبة. كانت تحمل في يدها براداً ساخناً وبعض قطع البسكويت التي خرجت للتو من الفرن.

- لقد خبزت لكما بعض البسكويت وفكرت في أن أجلس معكما. بيرو

لا تلعب المونديال كل يوم، صحيح؟

بعد جملتها درات رأسا الرجلين بصورة آلية نحو شاشة التلفاز الذي تركاه منسيا. كان لاعب برازيلي يركض حينها عبر الملعب بأكمله وسط فرحة متفجرة من زملائه بينما يقول المعلق:

- جووول! هذه المرة من زيكو الذي بدأ المباراة من على مقاعد البدلاء

ليخترق شبك بيرو قبل 20 دقيقة على نهاية المباراة بهدف يدفن بلا شك كل تطلعاتنا في هذه المواجهة.

لم يحدث شيء في الأرشيف في ذلك المساء. عقب الهزيمة من البرازيل، أصيبت العاصمة بالشلل. ربما كان اللصوص أنفسهم قد أصيبوا بالإحباط إذ ليس في النيابة أي نشاط تقريبًا. قضى المدير طيلة اليوم يجلس نفسه في مكتبه. لم يسأل حتى عن مقابلة تشاكالтана في وزارة الحرب وحينما خرج من مكتبه، أحاطت بعينية تجاعيد متورمة.

- تشجع يا سيدي. ما تزال لدينا مباراتان.

حاول تشاكالтана أن يرفع من معنويات المدير الذي كان يجر ساقيه نحو السلم كأن قريبًا له قدمات، إلا أن المدير أطلق فقط زجاجة قبل أن يجتفي، تاركًا خلفه رائحة الكحول الكريهة.

تشاكالтана من ناحيته محصن ضد المحن الرياضية. كانت لديه مهام أخرى مقدسة يجب أن ينفذها. لقد حسب بدقه برنامجه في تلك الليلة، وبروح المغامر الخفية، رتب مكتبه وارتندي وشاحه، وقبل أن يرحل عجز عن تفادي تمرير خرقة فوق مكتبه لتنظيف بقعة من الحبر على حافة أحد الأدراج. كان مغامرًا، إلا أنه مغامر نظيف ومرتب. بعدها بعدة دقائق كان يتحرك في الخفاء داخل بهو جريدة (إل كومرسيو) مختبئًا خلف الزبائن الذين ملؤوا المكان. سيسيليا موجودة في مكانها الدائم، تسجل كل ما يرغب الناس في الإعلان عنه، وفيات، وزيجات ومبيعات، ومشتريات. لم تر تشاكالтана، ولا يمكن أن تراه، ليس الآن على الأقل. تبتقت خمس وأربعون دقيقة على موعد انصرافها بالضبط. رسم تشاكالтана الصليب بصورة غريزية؛ فهو يخطط لخدعة، لكن الرب غفور بلا شك مع خدع الحب. إذا ما تحملت الإدارة القضائية غيابات

مديره؛ فإن رب السماوات ليس أقل منها. فوق كل هذا، هي حيلة علمها له خواكين كالبو. وكالبو -وفقاً لما بدأ تشاكالтана يدركه- محترف في الخدع والحيل. هذه الحيلة لا يمكن أن تفشل.

بعدما تحقق من أن سيسيليا في مكانها، تسلل تشاكالтана نحو الخارج وتوجه نحو فندق «ماوري» حيث ينتظره مواعده التالي. لم يضطر للانتظار ولو لثانية، فبمجرد دخوله، وعلى إحدى الطاولات الأخيرة تعرف على الرأس الشقراء والشعر الطويل الذي يبحث عنه، وقبل أن يلمح كل هذا خمن أن هاتين هما شفتا وعينا سوسانا أراندا، وهما ربما أكبر شفتين وعينين رأهما طيلة حياته. بينما يتوجه نحو طاولتها، شعر بكل النظرات الحاقدة لرجال آخرين تسقط فوقه. أعجبه الأمر. كل هذا سيعود عليه بالنعف في غضون وقت قصير. حيثه:

- افترض أنني يجب أن أقدم لك التعازي. يبدو كل الرجال هذا المساء كأنهم موتى أحياء.

- لا. حضرتك لن تصدقي هذا. لكنني لا أتابع كرة القدم.

أعجبه أنها تخاطبه بلا رسميات، حتى إن توجب عليه ألا يفعل مثلها دون تصريح مسبق؛ فهذه ستكون وقاحة وقلة تربية لا يمكن غفرانها. اقترب منها النادل لتقول:

- أتناول البابونج الأبيض. هل تريد فنجاناً؟

قبل تشاكالтана المقترح. بينما ينتظر مشروبه، حاول البحث عن موضوع بريء لإرساء محادثة عادية. في النهاية، اعترف في داخله أن الموضوعات العادية لم تظهر قط أمامه داخل اللوائح العملية الصحيحة وقائمة المصطلحات الرسمية الموحدة في أرشيف الدولة.

كسرت سوسانا الجليد:

- لا بد وأنك قد ظننت أنني مجنونة أمس بالسير خلفك في الشارع
والبكاء في المقهى.. شكرا على صبرك.

- حضرتك تصرفت بصورة مثالية يا سوسانا. لم أفكر فيك قط كمجنونة.

ابتسمت:

- بـ«صورة مثالية»؟ هل تتحدث دوما كأستاذ في المدرسة الابتدائية؟

- تقريبًا.

لمعت دلالة على السخرية في نظرة هذه المرأة، لكن تشاكالانا كان يحترم
أساتذة المدارس الابتدائية ويفتقر تمامًا لمعاني السخرية. وضع النادل فوق
الطاولة فنجانًا آخر من البابونج وعلى الرغم من البخار المتصاعد منه إلا أن
اللقاء بات باردًا. بحث تشاكالانا عن موضوع ليبدو رجلًا ذا خبرة ومجا
للحياة الاجتماعية:

- يقدمون السكر هنا مسحوقًا. أفضل من المكعبات؟

حاولت أن تنظر للسكرية بكل الاهتمام المطلوب، إلا أنها قررت
الذهاب مباشرة لقلب الموضوع:

- فيليكس، لا تستأ لكن قل لي.. لم اتصلت بي؟

- حسنًا..

قالها وهو يرفع الفنجان نحو شفثيه فأصابه بلسعة خفيفة. حاول إخفاء
الألم، لكن كلماته الأولى بدت كتلعثم طفل:

- أرغب في إعطائك شيئًا ما. أظنك ستودين الاحتفاظ به.

ترك فوق الطاولة أحد أظرف أمه، الوحيد الذي عثر عليه في المنزل. كان عليه ملصق يحمل بياناتها ولقبها حينما كانت متزوجة: سالديار دي تشاكالانا. فتحت سوسانا أراندا الظرف وأخرجت محتواه: ثلاث صور لها، في الشاطئ، وبينما تخرج من منزل، وفي شقة خواكين. ثلاث صور للحظات سعيدة. نسخة أكثر ابتسامًا وانتعاشًا من سوسانا، إلا أنها ليست أقل جمالًا من المرأة الجالسة في الجهة المقابلة لتشاكالانا. حينما رأتها، كبحت اندفاعًا لديها نحو البكاء، وبكبرياء وجهت ظفر خنصر يدها اليمنى نحو طرف كل عين من عينيها ومسحت دموعين. بعد انتهاء ما فعلته، ظلت زيتتها كما هي دون أن تشوبها شائبة. سألته بصوت به رعشة خفيفة:

- أين كانت؟

- في شقة خواكين. محفوظة جيدًا داخل مخبأ سري بأحد الأدراج.

قالت وهي على وشك الابتسام:

- مخبأ سري. كان حريصًا.

تناول كل منهما رشفتين من فنجانه. تلاعبت بالصور بين أصابعها ثم قالت:

- لا يمكنني أن أحتفظ بها. أين قد أحتفظ بها؟ زوجي قد يعثر عليها.

- يمكن لحضرتك تمزيقها، لكن يجب أن تتولي بنفسك هذه المهمة.

نظرت مجددًا نحو الصور بنوع من الحنين:

- أتعرف يا فيليكس؟ منزلي مليء بالصور. صور الزفاف والمناولة

الأولى والعطلات، لكن لا أظنني أظهر في أي منها بالسعادة التي أبدو عليها في هذه الصور، وهي الصور الوحيدة التي يجب عليّ التخلص منها.

تذكر تشاكالтана صورتها العائلية الشخصية، تلك التي يظهر فيها أبوه
بزي الحفلات العسكري الأبيض والموضوعة إلى أبد الأبدين فوق طاولة
الصالة، كأنها فوق مذبح. لن يهتم لو مزق هذه الصورة أو غيرها، أو بدل
أباه برجل آخر، لكنه لم يفكر في قص كل هذا لامرأة يعرفها بالكاد. حاول
فقط أن يجعل الوضع أكثر لطافة:

- حسنًا.. لدى حضرتك بكل تأكيد صور مع أبنائك. صور العائلة
دوما ما تكون سببًا للسعادة.

- ليس لدي أبناء. ربما هذه هي المشكلة. سعينا أنا وزوجي وراء الأمر
طيلة سنوات، لكننا لم ننجح. جربنا كل السبل العلاجية، إلا أن أيًا منها لم
يصلح وهذا الفشل هدم زواجنا. كل منا يلقي باللوم على الآخر وفي نهاية
المطاف لم نعد نتحدث تقريبًا بخصوص المسألة. إجمالًا لم نعد نتحدث الآن
أيضا إلا في أضيق الحدود.

مرة أخرى، أوشكت على البكاء، إلا أنها أخفت حالتها برقة:

- خواكين قال لي إنني معه سأحصل على.. إنه سيمنحني أبناء. قال إنه
يرغب في عشرين أو ثلاثين. كان يمزح دوماً بخصوص المسألة.

لم تقدر على مواصلة حديثها. عادت أظافرها المتمرسه لتمحو الحزن من
على جفونها وبقيت صامتة. تفهم تشاكالтана أنها لا تستطيع الحديث حول
هذه الأمور مع أحد، وأن مساعد الأرشيف الذي خرج من العدم بات
حامل أسرارها المحتمل والوحيد. قال لها:

- كان ليصبح أبا جيداً.

في بعض الأمور، مثل النساء وربطات العنق ومباريات الشطرنج، كان
خواكين كأب بالنسبة له، بل وربما أيضًا بالنسبة لهؤلاء الطلبة الملتحين قليلي

الاهتمام بنظافتهم الشخصية. ربما كان هذا هو دوره في كل هذه المافيا وفي الحياة نفسها.

تنهدت سوسانا:

- تعهد بأن يصبح أفضل من أبيه، الذي كان -وفقا لما يقوله- كارثة، لذا فإن تفوقه عليه لن يكون صعبًا.

- ليس سيئًا هكذا.

تنهدت وجمعت الصور كأنها ستعيدها للظرف، لكنها عوضًا عن هذا، أخرجت مقصًا للأظافر من حقيبة يدها. تطلب الأمر في البداية بعض الجهد مع ورقة كاميرا الـ «بولارويد» الصلبة، لكن الصور استسلمت في النهاية وتمكنت من تمزيقها؛ كلها معًا أولًا ثم قطعة تلو الأخرى وحينها لم يعد ممكنا التعرف على أحد فيها، وضعت البقايا مجددًا في الظرف.

- انتهينا. ليت تدمير الماضي كان يمثل هذه السهولة.

- نحن نتفق في هذه المسألة.

وضعت سوسانا الظرف في حقيبتها وأنت مشروبها. أخرجت حافظة نقودها لتدفع لكن تشاكالثانا منعها بإشارة.

- أنا سأدفع.

- أبدًا ولا تحت أي ظرف. كنت لطيفًا للغاية معي يا فيليكس.

- لكنني الرجل.

- لكنك أصغر سنًا.

- أرغب في أن أطلب من حضرتك خدمة.

بفضول انعكس في نظرتها سحبت حافظة النقود.

- خدمة.

شرح تشاكالтана ما يخطط له. ضحكت في البداية ثم ظهر عليها بعض الضيق وفي النهاية قالت إنها فكرة سخيفة.

- لا يمكنك أن تطلب هذا من امرأة في مثل وضعي.

خفض تشاكالтана رأسه:

- أعرف. لم أقصد إهانة حضرتك.

- فعلت الكثير من أجلي وأشكرك. جلب الصور كانت مجاملة كبيرة،

لكن لا يمكنني.

- حضرتك لست في حاجة لتبرري أي شيء. على النقيض، اعذريني.

كانت فكرة حمقاء.

في تلك اللحظة بدا مساعد الأرشيف كأنه يفرق في مقعده ولمع خداه

كإشارة مرور حمراء.

أمسكت المرأة بحقيبتها ونهضت. سارت نحو الباب بل ودفعته، لكنها

عند ذلك نظرت نحو الخلف، كان تشاكالтана في مكانه، ويبدو أصغر من ذي

قبل. تمتت:

- اللعنة!

في موعد إغلاق قسم الإعلانات المبوبة، كان فيليكس تشاكالтана

وسوسانا أراندا عند ناصية شارع ميرو كيسادا، أمام درجات السلم الضخمة

المؤدية لجريدة «إل كومرسيو».

- واثق من رغبتك في القيام بهذا؟

- أرجو من حضرتك ألا تتراجعي الآن. هي مجرد دقيقة. بعدها لن
تريني مجددًا.

- ألا تفضل أن نتحدث معها؟

- إنها ترفض الحديث معي.

أنهى النقاش بهذه العبارة دون أن يتوقف عن النظر نحو الباب ليعلن
بعدها:

- الآن. ها هي تخرج.

كانت سيسيليا بالفعل تطل من باب الصحيفة وترتدي سروالا وسترة
بلون عصير الرمان فوق كتزة بعنق طويل. كانت وحدها. أيا كان الشاب
الموجود بالأمس فهو لم يأت اليوم من أجلها. انتظر تشاكالانا حتى خرجت
من البهو واستعدت لعبور الشارع. فقط وحينها تأكد من أنها ستراه. أصدر
أمر التصرف:

- الآن.

بكل طاعة عانقته سوسانا. شعر بنهديها فوق ملابسه ولم يقدر على كبح
انتصابه. رجا ألا تكون قد لاحظت الأمر، إلا أنه في النهاية استسلم لمتعة
خطته المثالية. شاهدته سيسيليا من بعيد قبل أن تعبر، بل إنها توقفت مصدومة
لتفكر إن كان من الأفضل أن تعبر من جانب آخر. تشبث تشاكالانا بقوة
أكبر بسوسانا أراندا، لكنه بدافع الاحترام حاول حينها التفكير في أمور لا
تثيره كالنعاج والمباني الكولونيلية.

قررت سيسيليا ألا تغير طريقها. استعادت خطواتها بكرامة وعبرت
الشارع، وفي الوقت نفسه الذي مرت فيه بجانبها، شعر تشاكالانا بأن
سوسانا ترجع رأسها نحو الخلف. حسبها تتخلص من ذراعه. افترض أنها

بكل تأكيد اكتشفت رد فعل ما بين ساقيه وشعرت بالإهانة، لكنها حين تقابل وجهها تقدمت مجددًا وطبعت قبلة مذهلة فوق شفثيه. قبلة دون استخدام اللسان، اتصال مغلق بين ثغرين جافين، لكنها رغم ذلك كانت أكثر قبل حياته شغفا، باستثناء تلك المرة مع سيسيليا فوق الأريكة. اضطرت سيسيليا لمشاهدة القبلة، لأنها كانت تحديدًا في اللحظة نفسها التي مرت فيها بجانبها. كانت فكرة تشاكالтана الأصلية هي «إدهاشها» لدى مرورها؛ توجيه التحية لها وتقديم سوسانا بطريقة حميمية وغير متكلفة، لكن القبلة غير المتوقعة منعه من التحدث بل وتركته أيضًا عاجزًا عن التنفس. حينما رفعت سوسانا في النهاية وجهها من فوق وجهه، لم يعد هناك أي وجود لسيسيليا في الأنحاء وكانت عينا تشاكالтана كيبضتين فاترتين، بعد أن تحجرتا بخليط من الاندهاش والمتعة والفرع.

قالت سوسانا بينما تضحك:

- إن كنت لن أراك بعدها أبدًا، فعلى الأقل سأترك لك ذكرى جيدة.

أدارت له ظهرها بعدها ورحلت. لم يتمكن تشاكالтана من توديعها بصورة لاثقة، بل واستغرق الأمر منه ثلاث دقائق ليتذكر أنه يجب عليه التنفس من جديد.

في صباح الخامس عشر من يونيو كانت وزارة الحرب تكرم اسمها. اصطفت فصائل من أسلحة «الأمة» الثلاثة في ساحة الوزارة بأوسمتها وأطقمها العسكرية المميزة. شعر فيليكس تشاكالانا حينها مرينها أن بعضًا من هذه العظمة، هذه الأبهة، قد التصق به. أخبره الأدميرال كارمونا بأنه لن يتمكن من مقابله قبل الاحتفالية، إلا أنه دعاه ليحضر بين الجمهور. كان لتشاكالانا كرسي مخصص في الصف الثالث من المنصة المرتجلة المزودة بمقاعد قابلة للطي. حينها وصل اكتشف أنه سيجلس بين سلطات معاهد حرية ومدنية. لو كان لديه علم بهذا من قبل لارتدى قميصه ذا الإسورتين العريضتين، لكن الوقت تأخر لإصلاح هذا الخطأ. فبحث عن حمام فيه مرآة، وأعاد تصفيف شعره لدرجة بدا معها أن المشط سيفتح ثقبًا في رأسه. ود أن يظهر بشكل أنيق، يتماشى مع الوضع. على الرغم من هذا، حينها عاد إلى مكانه لم ينظر إليه أحد. كان المدعون يصلون ويتبادلون التحية فيما بينهم كأنهم جميعًا يعرفون بعضهم البعض، أما تشاكالانا المتصلب في مقعده؛ فقد جلس بظهر شديد الاستقامة كما علموه في المدرسة. في لحظة ما سأله نقيب بالقوات الجوية:

- هل نعرف بعضنا؟ أين رأينا بعضنا سابقًا؟

- لا أعرف. هل زرت من قبل قبو قصر العدل؟

أوما النقيب برأسه احترامًا ثم انسحب من جانبه، كأن تشاكالانا قد حدثه بالصينية. لم يشعر مساعد الأرشيف بالضيق من هذا، فهو مستمتع بمجرد وجوده هناك وسط أناس مهمين ومشاركتهم هذه الأجواء التي تبجل خدمة الوطن. أمامه وفي وسط المنصة يرفرف علم الوطن المجيد وقد

وضعوا على جانبيه شارات باللونين الأحمر والأبيض، ومع العرض الذي قدمه حرس السيادة القومية، لم يشعر تشاكالтана سوى بحمى الوطنية تحتطف روحه. بدأت الاحتفالية في التاسعة والنصف صباحًا تمامًا. وبالتأكيد كانت أولى الفقرات ترديد النشيد الوطني. نهض تشاكالтана، مثل بقية السلطات ووضع يده على صدره ليردد تلك الأبيات حول البيروفيين المحررين من العبودية. اندهش حينما لاحظ أن كثيرًا من الموجودين بين الحضور لا يغنون النشيد بصوت مرتفع، بل يحرك شفاهه فقط. لحسن الحظ أن نسخة مسجلة من النشيد كانت تتردد عبر مكبرات الصوت لتخفي غياب الحماسة لدى الجمهور. بعدها تفقد الأدميرال إكتور كارمونا وثلاثة ضباط برتبة أكبر القوات التي تشكل الصف الأول، واستمتع تشاكالтана بالمناورات الصغيرة؛ فمع هتاف «صفا» بدأ الجنود في عرض بنادقهم وسيوفهم كأنهم على أتم الاستعداد للدخول في ساحة الشرف، ومع كلمة «انتباه» ضموا سيقانهم ورفعوا صدورهم للأعلى، كلهم بوتيرة واحدة.

مع صدى صوت الانضباط والنظام شعر تشاكالтана بالسعادة.

كانت الفقرة الثانية في الاحتفالية هي تكريم ثلاثة ضباط بميداليات، واحد من كل سلاح. أحدهم هو الأدميرال إكتور كارمونا الذي مثل سلاح البحرية البيروفي. تولى لواء مغطى بأوسمة ونياشين ذهبية مهمة التعريف بالمكرمين. رفع ميدالياتهم من على وسادة ليشبكها بقمصانهم قبل أن يردوا عليه بأداء التحية العسكرية. رأى تشاكالтана ما سمعه آلاف المرات طيلة حياته: بشرة رجال البحرية أكثر بياضًا من بشرة سلاح المشاة، وهم أطول أيضًا. ربما لهذا كان كارمونا تحديدًا هو المعني بإلقاء خطاب باسم المكرمين. بدأ الأدميرال وتردد صدى صوته:

- هذا الأحد، تبدأ بلادنا مرحلة جديدة. بعد عشر سنوات ومرحلتين لحكومتين عسكريتين، سنعود لنظام الأحزاب السياسية والرؤساء المدنيين.

بعيداً عن عرقلة هذه العملية أو التثبيت بالسلطة، تدفع قواتنا المسلحة نحو العودة للديمقراطية بل وتضمنها.

شرعت السلطات المدنية الحاضرة بالتصفيق، وتأخرت السلطات العسكرية قليلاً لكنها انتهت إلى الانضمام إليهم. لا يقرأ كارمونا من بيان، بل يتحدث مباشرة، وبزيه الأبيض وعينيه الزرقاوين بدا كملاك قد سقط من السماء ليعظ القوات.

- اختارت دول أخرى في منطقتنا الاستمرار في المسار العسكري. نحترم هذا القرار، لكن لم نتخذ مثله. نحن في الجيش البيروفي لدينا شجاعة ثابتة وصافية ولن نراجع عن إتمام هذه العملية.

تصفيق جديد. تعرف تشاكالانا في جزء من المنصة على عسكريين بأطقم مختلفة. ارتدى بعضهم بدلة الجيش التشيلي ذات القصة الألمانية، وآخرون قبة الجيش الأرجنتيني الكبيرة. لا بد وأنهم الملحقون العسكريون لهذه الدول. لم يصفقوا لهذه العبارة. واصل كارمونا حديثه:

- هذا لا يعني أننا تغلبنا على أعدائنا الرئيسيين. الصراع ضد التخريب والهدم مازال قائماً. هذا صراع دولي. الشيوعية أشبه بعنكبوت يعيش في كل دول منطقتنا. إذا قطعنا أحد أطرافه، يظل باقياً في بقية الأطراف الأخرى. لكي نهزمه، يجب أن نقطع كل الأطراف في نفس الوقت. فقط بالعمل معاً، بيروفيون وتشيليون وأرجنتينيون وباراغواييون وأوروغواييون وبوليفيون سنحرر منطقتنا من هذا السرطان الذي يهددها وينشر المرض في كل مكان يسكنه. قواتنا المسلحة ستواصل مكافحة التخريب وستعاون مع أصدقائنا وجيراننا حتى ننتزع هذا السرطان بصورة نهائية. هذا الوعد لن يتغير. لا هذا الأحد ولا بعده. عاشت بيرو!

- عاشت!

هتف الجمهور بأكمله بالكلمة وفي تلك اللحظة فقط ارتفعت عاصفة من التصفيق من كل أنحاء المنصة وأحاطت من كل صوب بكارمونا في طاقمه الأبيض، ليستقبلها بتحية عسكرية صلبة من فوق عينيه الرائقتين.

بعد تكرار عزف النشيد الوطني، صدر أمر انصراف الصفوف ثم خرج خليط الموظفين والعسكريين معاً من المكان. لم يعرف تشاكالانانا أين يذهب. ظل وحده في منتصف المنصة الخاوية وهو يتأمل الرموز الوطنية حتى ودع الأدميرال كارمونا آخر مدعويه قبل أن يقرب منه:

- سعيد بقدمك يا تشاكالانانا، لكنني أفترض أنك لم تأت إلى هنا فقط من أجل مشاهدة الاحتفالية.

- حتى لو كان هذا صحيحاً فلا توجد مشكلة. كانت مليئة بالعاطفة.
- شكراً. يجب أن تظل الروح المعنوية مرتفعة، خاصة وأن الأمور ستغير الآن.

- الأمور الجوهرية لا تتغير أبداً، سيدي الأدميرال.

- بالتأكيد.

واصل مساعد الأرشيف حديثه بكل صراحة:

- احترام الرموز الوطنية، الالتزام بالأمن الوطني والانضباط العسكري كلها هي الأسس التي ينتصب عليها..

- تشاكالانانا.

- سيدي الأدميرال؟

- أعتقد أن لديك معلومة لي.

- صحيح يا سيدي!

حولهما، كان المجندون قد بدأوا في رفع الشارات والمنصة ومكبرات الصوت. كانا وحدهما وسط مقبرة من المقاعد في قلب منشأة عسكرية. كان مكانا جيدًا كأبي مكان آخر لما سيفعله تشاكالانا. أخرج مساعد الأرشيف من جيبه جوازي سفر نيو مومسينو بالديبيا، البيروفي والأرجنتيني، كلاهما بصورة خواكين كالبو وأختام يومي الأول والثاني من الشهر ومعهما جواز سفره الحقيقي. مدها جميعًا نحو الضابط وبعدها وبصورة طبيعية تموضع بجواره في وضع الراحة العسكرية ثم قال:

- هذه الأدلة تثبت أن نيو مومسينو بالديبيا هو في الحقيقة خواكين كالبو الذي تجمعه صلات مثبتة مع قيادات تسعى لإثارة الفتن وسافر بصورة غير قانونية إلى الأرجنتين قبل أيام قليلة من مقتله يا سيدي.

أخذ الأدميرال وقته ليفحص جوازات السفر. فتح الثلاثة وراجعها صفحة صفحة. على الرغم من أنه حافظ على محياه الخالي من التعبيرات دومًا، كان مهتمًا بلا شك. عقب دراسة طويلة أغلقها وقال:

- أبحث منذ أسبوعين عن هذه الوثائق يا تشاكالانا. لقد قمت بعمل جيد للغاية.

- شكرًا سيدي الأدميرال.

- أعتقد أننا يمكننا تناول الغداء معًا اليوم.

- للأسف سيدي الأدميرال، التزاماتي مع أرشيف السلطة القضائية تمنعني من أن..

- سأتوجه لوسط المدينة بعد ساعة. سأمر عليك في الأرشيف وإذا كان هناك أي مانع، سأحدث مع رؤسائك. قسمني بلا شك يمكنه الاستفادة كثيرًا من محقق مثلك.

محقق. لقد ناداه بكلمة «محقق» وليس «مساعد» أو «موظف» أو «يا بني» كما كان بقية العالم ينادونه. شعر تشاكالтана أن أحدهم في النهاية قد تفهم قدراته وأن لحظة تألفه قد حانت، ليلمع مثل الميدالية التي كانت تزين صدر الأدميرال.

صدر صوت من خلف تشاكالтана:

- هل سنذهب يا إكتور؟ ينتظروننا في الأعلى، في الاستقبال.

كان تشاكالтана قد سمع هذا الصوت من قبل. ليس منذ فترة بعيدة. ابتسم كارمونا في اتجاه مصدر الصوت وقال:

- أنا قادم يا عزيزتي، لكن انتظري سأقدمك لشخص ما.

استدار تشاكالтана. في الحقيقة لم يكن هناك حاجة لكي يستدير، فقبل أن يرى شلال الشعر الأشقر والعينين شديدي الاتساع والشفيتين اللتين قبلهما في الليلة السابقة، كان يعرف بالفعل من الذي سيجده هناك، إلا أن اندهاشه لم يكن مصطنعًا حينها سمع الأدميرال يقول:

- فيليكس تشاكالтана من الأرشيف القضائي. هذه سوسانا أراندا. أسمعت تلك المقولة التي تقول: وراء كل رجل عظيم امرأة؟
- نعم يا سيدي.

- حسنًا.. لا أعرف إن كنت رجلًا عظيمًا لكنها امرأة عظيمة. أليس كذلك؟

ضحك الأدميرال، إلا أن أحدًا لم يضحك معه. التقت عينا سوسانا وتشاكالтана في صمت وحيًا كل منهما الآخر وبقا لما تقتضيه أصول المجاملات بصوت منخفض، منخفض للغاية.

بيرو- بولندا

قرع الأدميرال إكتور كارمونا كأسه بكأس تشاكالانا قائلاً:

- نخب الزمن الجديد سيد تشاكالانا لكي يجلب لنا السلام والبركات.

عجز مساعد الأرشيف عن كبح تفكيره في سوسانا أراندا، واضطر مع كل مرة يفكر فيها أن يخفض نظرتة كأن الأدميرال يستطيع أن يكتشف في عينه ما عشش في عقله.

لم يصدق تشاكالانا وجوده داخل «النادي الوطني»، محاطاً بصفوة المجتمع العاصمة، أو على الأقل صفوة رجاله. الطاولات المجاورة مشغولة بالرجال فقط وهم يقررون جميعاً -ببدهم الفخمة- مستقبل البلاد. رافقه الأدميرال قبل جلوسهما للشرفة التي تطل على ميدان سان مارتين. من هناك، يشعر المرء بأنه أمير على هذه المدينة. حتى طبق الـ«سييتشي» بسمكة غراب البحر الذي يتناوله بدا أكثر رقيًا ونظافة من كل أطباق الـ«سييتشي» التي أكلها طيلة حياته.

- كما قلت لك في الصباح يا فيليكس.. هل يمكنني أن أدعوك فيليكس؟

مازال الأدميرال يرتدي طقم الاحتفالات الأبيض. للحظة، حينما رآه تشاكالانا تذكر والده في صورة الكومود، لكنه نما من عقله هذه الذكرى على الفور.

- بكل تأكيد سيدي الأدميرال.

- كما قلت لك في الصباح، عملك فاجأنا بصورة مُرضية. اكتشفت الهوية المزدوجة لخواكين كالبو. قمت بحل ملف مستحيل ووضعتنا على أول الطريق نحو شبكة دولية للتهريب والأنشطة التخريبية. كنت أكثر فاعلية من جهازنا الاستخباراتي، وهو للأسف في مسألة الذكاء يصبح أحياناً بلا حس أو خبر.

ابتسم الأدميرال وشعر تشاكالثانا بأنه مدعو للابتسام أيضاً. لا بد وأنه محقق جيد، لأنه يعرف أشياء عن كارمونا نفسه، أو بالأصح عن زوجة كارمونا وعشيقها. تساءل إن كان يجب أيضاً أن يقص أيضاً هذه المسألة من ضمن الأمور التي يعرفها، إلا أنه نهر نفسه في النهاية.

- كل ما فعلته هو القيام بواجبي يا سيدي.

- ونحن نرغب في مكافأتك.

رفع نادل يرتدي بدلة سوداء أطباق المقبلات وجلب تلك الثانية. استقرت أمام تشاكالثانا قطعة سميكة من اللحم وسط صلصلة تبدو كمرابي بجانب وردة مصنوعة من الخضروات. لم يسبق لتشاكالثانا أن رأى قطعة لحم بمثل هذا الحجم مفصولة عن قوامها الحيواني الأصلي. سأله الأدميرال:

- هل تعرف ما هذا؟

- سيدي؟

- أسألك هل تعرف ما طلبته على الغداء؟

أحس تشاكالثانا بأن السؤال يتضمن خدعة، إلا أنه لم يعرف كيف يبدو ذكياً، لهذا اختار إجابة بسيطة:

- آآآ.. لحم يا سيدي.

- تذوقه.

- سيدي؟

- تذوق اللحم. هيا.

رن صوته كأمر. نفس نبرة ذلك اليوم الذي هدد فيه تشاكالтана بحبسه في زنزانة للتحقيقات. أطاعه مساعد الأرشيف. حينما خفض نظرته، عثر على أدوات مائدة كثيرة. لم يعرف أيها قد يختار. دون أن يرفع رأسه مرة أخرى، تفقد طاولة قريبة بحثًا عن الإجابة. كانوا يأكلون عليها سمك الموسيقى بسكين يبدو كمسواط وشوكة صغيرة. قلدهم. تطلب فصل قطعة صغيرة مجهودًا كبيرًا منه وحينما وضعها في فمه؛ بدا طعمها كلحم بقرة تحممت بالفراولة قبل ذبحها.

قال:

- شهبي. شهبي للغاية.

- هو لحم الخنزير البري. النادي الوطني تقريبًا هو المكان الوحيد الذي يقدمه.

- الخنزير البري؟

ارتسمت في عقل تشاكالтана صورة لخنزير بقرنين يخرجان من فمه. وكان الأدميرال يؤكد لها شرح له:

- أنت تأكل حيوانا شديد الخطورة يا فيليكس.

- شكرًا سيدي الأدميرال.

تذوق الضابط رشفة من نبيذه، وخلفه شاهد تشاكالтана أحد وزراء الحكومة يجلس وحزام ثنائي الألوان يلتف حول خصره. كانت هوية

الأشخاص الذين بدأ يختلط بهم تشاكالانا لا تصدق. فكر برضا: «وكل هذا لأنني أدت عملي جيدًا».

- لدينا حيوانات خطيرة هنا أيضًا يا فيليكس. الكثير منها طليق.. بعضهم.. هم من قتلوا صديقك خواكين.

توقف تشاكالانا عند توصيفه: «صديق». منذ عدة أيام، لم يعد يفكر في خواكين من هذا المنطلق، لكنه صادق. حتى لو كان مخربًا أو مهربًا، فلا أحد يحق له أن يضع طلقة فيما بين عينيه، ففي نهاية المطاف كان رجلًا طيبًا. على الأقل هذا هو ما اعتقده فيه، هو وسوسانا أراندا، لكن تشاكالانا تعهد ألا يفكر فيها وهو في صحبة زوجها؟ ظن أن وجهه قد احمر، إلا أن الأدميرال لم يبد إشارات عن ملاحظته للأمر.

- أتمنى أن ينالوا ما يستحقونه، سيدي الأدميرال.

- سينالون ما يستحقونه لو ساعدتنا يا فيليكس.

مر مساعد الأرشيف بلحظة سيئة في محاولة قطع اللحم بالسكين المثلم. خشي أن تطير قطعة نحو مائدة الوزير فيلنت فيلتفت الجميع نحوه، فقبل أي شيء آخر لم يرغب في إحراج نفسه. نشطت كلمات الأدميرال داخله حاجة لإلقاء خطاب:

- بالطبع يمكنكم الاعتماد عليّ في أي مساعدة تخدم العمل في صالحه

امن أمتنا، لا شيء سيسعد موظفًا عموميًا متفانيًا أكثر من فرصة الـ..

- تشاكالانا.. كبداية عليك أن تتكلم بصورة أقل.

- حسنًا سيدي الأدميرال.

- نحتاجك أن تسمع. سأقصر عليك أمورًا لا تعرفها، وبالأخص

مكان الشباب الذين تقلق جدًا بخصوصهم.

أوشك تشاكالثانا أن يجيبه «حسنًا سيدي الأدميرال»، لكن هذا سيعني أنه يتحدث ولا ينصت. أبقى فمه مطبقًا وبدا أن الأدميرال موافق على هذا الصمت، على رغم من نظراته الجليدية الدائمة، تفحصه لفترة طويلة بها دون أن ينبس ببنت شفة حتى نطق:

- في النهاية يا فيليكس.. سأكلفك بمهمة وأحتاج منك أكبر قدر من السرية.

ابتسم تشاكالثانا. بلا شك، هذا الأمر من بين قدراته. عاد ليتذكر سوسانا أراندا. وبات على يقين مثالي من قدرته على إخفاء الأسرار.

بمجرد وصوله لقصر العدل، بدأ تشاكالانا في تنفيذ خطة الأدميرال. طلب منه كارمونا أن ينفذها بأكبر قدر ممكن من الدقة، مع الالتزام بالرسميات بحذافيرها، وهو تحديداً اختصاص مساعد الأرشيف. كتب الإخطار العاجل وصنع نسخاً منه وأرسل الوثائق المطلوبة للطابق الثالث. ليس أمراً لم يفعله من قبل؛ لكنه شعر هذه المرة أنه أكثر أهمية. يجب أن يرتاح قليلاً قبل الخطوة التالية. تبقت له عدة ساعات قبل الذهاب للمطار. قرر أن يمر على منزله ليستلقي قليلاً. كان سيبلغ المدير بغيبابه لكنه ليس موجوداً في مكتبه. فكر أن ينتظر وصوله، إلا أنه رأى أن لديه أموراً أكثر خطورة لا بد من الاعتناء بها. يجب عليه التوقف عن التفكير بعقلية مساعد الأرشيف والبدء في التعامل كعميل، أو ما شابه.

بينما يسير، التقى مجدداً بمظاهرة طوقتها الشرطة. تقدم في طريقة بصعوبة بين الحشد، لكنه ليس مستعجلاً. عاد للتفكير في المهمة التي أوكلها له الأدميرال. إنه يشك حقاً في جاهزيته لتنفيذها، لكن رفض تقديم خدمة لصالح الوطن لم يكن قط في قائمة خياراته. آه لو يستطيع أن يقص المسألة لأحدهم! خواكين على سبيل المثال.. بالقرب من شارع أمانسياسيون، لم يتفرق الحشد، بل على النقيض ازداد عند التقاطع مع شارع لامبا. قطعت عدة سيارات حربية مع عدد من رجال الشرطة على صهوة أحصنة الطريق وطوق صف من قوات مكافحة الشغب بخوذاتهم المتظاهرين. سمع تشاكالانا صوت فرقة صغيرة. لم تكن طليقة، إذ بدت كضربة مكتومة وبدأ بعدها يشعر بحرقان في وجهه.

- على الأرض!

سمع أحدهم يهتف بهذه العبارة من خلفه، لكن في تلك اللحظة بدأت قوات مكافحة الشغب الهجوم على الناس. شعر تشاكالانا بأن جسده لا يطيعه. في البداية كانت حركة الحشد التي ذهبت به من هذا الجانب إلى ذاك، ثم حرقان لا يطاق في وجهه تلتته رغبة في البكاء. كان قد سمع عن آثار الغازات المسيلة للدموع، لم يسبق وخطر له أنها بمثل هذا السوء. ظن أنها تخلف شعورًا أشبه بالزكام. تلقى أحد ما بجانبه ضربة بهراوة. ركض مساعد الأرشيف نحو الجانب الآخر. فجأة تحول كل ما حوله إلى خليط من الأيدي والوجوه والعيون والهراوات، وبدا له أن جلده يتساقط في صورة قطع كبيرة من على وجهه. أدرك أنه قريب من شقة خواكين. حاول أن يتقدم في هذا الاتجاه بدفع هذا وذاك. لحسن الحظ، كانت الشرطة تحاول طرد المتظاهرين من وسط المدينة، أي أنه يسير في الاتجاه الصحيح. نجح باكيًا بينما يحاول تنظيف وجهه في الوصول إلى الباب. عقب عبوره، جلس ليرتاح فوق السلم. أخرج منديله الاحتياطي ورفع عند وجهه انتظاراً لأن تحف وطأة الحرقان. بعدها بوقت قليل، رأى أنه سيحتاج لأن يجفف نفسه بمنديل آخر، أو منشفة، أو أي شيء جاف. توجب عليه كتم رغبته التي لا يمكن البوح بها، إلا أنه في النهاية سعد. كانت شقة خواكين على نفس حالة الفوضى التي تركها بها. في ظل هذه الظروف، هداً قليلاً حينما وجدها على نفس حالتها السابقة. فوضى شقة خواكين هي الإشارة الوحيدة على استمرارية حياته. صب لنفسه كوبًا من الماء، أخذ حفنة من المناديل القماشية وجلس فوق الأريكة متفادياً الشق الذي بقر سطحها. بينما يتعافى، بدأ يلعب بالأعلام الحمراء التي بدت كمجموعة من رايات كرة القدم. فجأة هاجمته فكرة متوحشة: هو في منزل خواكين، لقد تعرف على عشيقته، والآن عليه أن يتصل بأتباعه، إنه يكرر خطوات صديقه، لكن إذا كان هذا قد انتهى به الأمر مقتولا في مجرى النهر، فهل ستأتي نهايته بنفس الصورة؟

رحل تشاكالانا عن الشقة وتأكد من إغلاق الباب بتكتي مفتاح. واصل طريقه حتى منزله محاولاً أن يطرد من عقله الأفكار التي تفرعه. كانت رؤية أمه لتشعره بالراحة دون شك. سيشرح أنه بخير معها حتى لو لم يشرح لها عمله الجديد. سارع خطواته. حينها وصل للبيت أحسن بوضوء قادمة من الصلاة. أصوات. فناجين. افترض أنه سيجد دون جونثالو. قبل أن يمر للتحية، دخل الحمام غسل وجهه بقوة كأنه سيقدر على إزالة شحوبه بالصابون. تصفف أمام المرأة وأخذ نفساً عميقاً ثم خرج للصلاة، إلا أنه لم يكن دون جونثالو، بل سيسيليا التي كانت تنتظره جالسة على الأريكة، بتنورة لم تغط ركبتيها، وشعرها الأسود الطويل منسدلاً فوق كتفيها.

- أهلا فيليكس!

- كيف حالك فيليكس. أترغب في فنجان صغير من الشاي يا بني؟

عذبة على غير العادة، كانت رنة صوت أمه، ليست كسوط، بل كخزير كريستالي لجدول مائي. حين وصل وسط الصلاة، بجوار المائدة، تأكد فيليكس من أن أمه تبسم، وهو أمر لم تفعله قط في وجود امرأة، وبالأخص سيسيليا.

- هذه مفاجأة.

قال العبارة دون تحديد أي مفاجأة يقصد.

حيته سيسيليا:

- لم أرك منذ فترة ورغبت أن أمر لزيارتك، كما يفعل الأصدقاء، أي لمعرفة أحوالك.

- بالطبع.

قبل خد سيسيليا وجلس بجانبها. اندهش حين لم تغمره سخونة
المرات السابقة، بل إنه لم يتتهج من زيارتها. عناق سوسانا أراندا وقبلتها
الحارة غير المتوقعة وسط الشارع، بلا شك غيرتا كل شيء. انقلب الوضع.
سجل تشاكالنانا هذا الأمر كملاحظة في عقله. ربما كان هذا أول درس له
بخصوص النساء.

واصلت سيسيليا حديثها:

- وجدت والدتك في مزاج جيد للغاية.

أومات الأم برأسها بينما تصب الشاي لابنها:

- لم أحسن التصرف دومًا مع سيسيليا. اعتذرت، لكنها ترى أن لا
داعي للاعتذار، فما من أم تتخطى الحدود في قلقها على ابنها. إنها ساحرة،
أليس كذلك؟

- بالفعل يا أمي.

- دعوتها أيضا لمجموعة صلاة في الأبرشية. نصلي صلاة المسبحة
أسبوعيا مع مجموعة من السيدات.

- لا أعتقد أن هذا الأمر قد يثير اهتمامها يا أمي.

- نصلي لصالح السلام العالمي.

- حتى ولو، لا أعتقد أنها ستهتم يا أمي.

- سأفكر في المسألة.

قالتها سيسيليا بنبرة تصالح. مرة أخرى راود تشاكالنانا الإحساس بأنه
بات في كوكب مختلف وبعيد للغاية. أراد سؤالها عن الشاب الوقح، فلان
حدث النعمة هذا، الذي لم يجلب لها زهورًا أو يرتدي ربطة عنق، وأخذها

من عند الصحيفة قبل عدة أيام، إلا أنه قال فقط:

- كيف أحوال الإعلانات المبوبة؟

- جيدة. كل شيء ما يزال في مكانه.

أجابها تشاكالтана بجدية تامة:

- هذا شيء يسعدني.

- وكيف أحوال الأرشيف؟

أراد أن يجيب بأنه لم يعد يعمل هناك، وأنه مفرغ الآن للاهتمام بأنشطة شديدة الأهمية للأمن الوطني، وأنه صار جزءاً من صفوة مختارة تضحي براحتها الشخصية لتحقيق أهداف أسمى، لكن أوامره اقتضت عدم الكشف عن وضعيته الجديدة، وهو مستعد لتنفيذ هذه الأوامر حتى الرمق الأخير. أجابها:

- كل شيء في مكانه.

للحظة، تجمدت المحادثة. تشاكالтана أشدّ خجلاً من أن يسأل عما رغب في معرفته، وبالمثل كانت سيسيليا في الغالب. لم يفكر أي منهما أيضاً في طرح السؤال أمام الأم التي تجلس في مكانها تحتسي الشاي ببطء دون أي نية لتركها وحدهما. وعلى عكس المتوقع، أخذت خيط الحديث بينما تغمّس في الشاي قطع البسكويت الدنماركي:

- فيليكس، أنا قلقة على دون جونثالو. في ذلك اليوم رحل عن المنزل دون وداع ولم يعد للاتصال بنا مجدداً. لم تقل له شيئاً ضايقه. أليس كذلك؟

تريث تشاكالтана؛ كان قد قال له إن ابنه مجرم وإنه يحتمل ذنب وفاة أمه ولهذا لم يعتبره أهلاً للثقة. قال له تشاكالтана بمواربة أيضاً إن القيم القديمة

التي تعجب دون جونثالو كانت مصدرًا للإلهام بالنسبة لعصابات بائعي المخدرات ومهربي الأسلحة. إذن، بالفعل، فقد قال له ما ضايقه.

- لا يا أمي. لم أكن لأضايق أبدًا رجلا شهما مثل دون جونثالو.

ثم نظر لسيسيليا ليوضح لها:

- هو أبو صديقي المتوفى خواكين.

كانت سيسيليا ستطرح سؤالًا، إلا أن أم تشاكاللتانا عادت لتتدخل:

- هل قلت له أنا شيئًا ضايقه؟

- لا يجب أن تطرحي مثل هذا السؤال يا أمي. ربما شعر بتوعك فجأة

ولم يرغب في إثارة قلقك.

حتى تشاكاللتانا، الذي مازال يتحسس طريقه في استخدامات الكذب بعالم البالغين، استطاع إدراك مدى سخافة نظريته؛ بل إن أمه الخبيرة في إغلاق مشاعرها بعيدًا عن عالم الواقع، لم تبد مقتنعة بها. طفت غيمة من الانزعاج فجأة على غرفة الصالون وأغرقتهم جميعًا لدى مرورها.

حاولت سيسيليا أن تكسر الجليد:

- هناك فيلم جديد أرغب في مشاهدته في السينما. اسمه «شحم». من

بطولة جون ترافولتا.

ترافولتا. هذا الممثل الذي أثار اشمزاز تشاكاللتانا منذ «حمى ليلة السبت»، لكنه الآن بات يربط بينه وقميص دانييل الباريت بانياغوا وبصفة عامة مع عش الإرهابيين الذي زاره في بارانكو. أدرك أن هذا الممثل لا يمكن أن يترك تأثيرًا إيجابيًا في الشباب البيروفي.

عاد ليكذب مجددًا:

- سأسعد بمرافقتك.

ليس ما قاله كذبًا بسبب جون ترافولتا فقط؛ بل أيضًا بسبب سيسيليا، إذ إنه هناك، بينما يجلس بجوارها؛ لم يتجنب فكرة مقارنتها بسوسانا أراندا، وقد خسرت أمامها في كل التصنيفات. شعرها الأسود اللامع حريري، لكن تاج سوسانا الكثيف يشع نورًا. طرق سيسيليا لطيفة، لكن سوسانا أراندا امرأة مميزة وأنيقة. زوجة الأدميرال كارمونا أكثر جاذبية، أكثر إثارة للاهتمام، أكثر أنوثة، أكثر في كل شيء. وإذا لم يكفِ كل هذا، فهو بفضل صورة الشاطئ رأى أجزاء من جسدها أكثر من تلك التي رآها من سيسيليا. شعر تشاكالانا فجأة -ربما بسبب تصنيفه المهني السري والجديد- بأنه يجب عليه أن يتطلع لما هو أكثر في الحياة، فسيسيليا، في نهاية المطاف، هي من هجرته، ولم تستحق أي عناية خاصة منه.

سألت الأم فجأة:

- هل سيعود؟

- جون ترافولتا؟

- دون جونثالو يا بني. أتحدث معك عن دون جونثالو.

لاحظ تشاكالانا أن أمه تحاول احتواء قلقها. لطفها مع سيسيليا، لطفها بصفة عامة، وإعادة اكتشاف موهبتها في الطبخ خلال الأيام الأخيرة، كل هذه طرق لتعزير علاقتها مع ابنها لجذب دون جونثالو.

- سيعود بكل تأكيد يا أمي! توقفي عن القلق.

بعدها مباشرة، عاد الصمت ليهمين على الصالة. قالت سيسيليا عقب وهلة صامتة مزعجة:

- أنا مضطرة للرحيل. ستقتلني جدتي بوصولي متأخرة دون سابق إنذار.

- مفهوم. لا توجد مشكلة.

قبل أن تنهض سيسيليا قبلت تشاكالтана أسفل أنفه، بالقرب من شفته العليا بصورة خطيرة؛ اختلاس لم تتمكن أمه حتى من ملاحظته. تركت قبلتها أثرا رطبًا، حكة ظلت تحوم هنا وهناك في وجهه بعدها بوقت طويل.

ألقت وداعها:

- ليلة سعيدة يا سيدتي.

صنعت الأم إشارة كسولة بيدها، إلا أن رأسها في مكان آخر، مكان يعرفه تشاكالтана.

تقع «المجموعة الجوية الثامنة»، أو مطار كاياو العسكري، في وسط
العدم، أبعد حتى من مطار خورخى تشافيز. واجه تشاكالثانا صعوبة كبيرة
ليعثر على سائق أجرة مستعد للذهاب إلى هناك ليلاً، وحينما عثر عليه في
النهاية اضطر لسداد ضعف الأجرة له، لأنه سيعود خاوياً.

تساءل تشاكالثانا وهو يرحل عن وسط ليما عمّن سيرفع إليه مصروفات
مهمته. بما أنها سرية فلا يمكنه رفع الفواتير لقسم الحسابات بالسلطة القضائية.
إلى أين قد يرفعها؟ تنهد حينما أدرك ما ينقص أن يتعلمه. حينما وصل وبمجرد
نزوله، انطلق سائق سيارة الأجرة مرتاحاً من عدم اضطرابه للانتظار هناك.
نظر مساعد الأرشيف حوله. كان كل شيء مظلماً، باستثناء سور المطار
العسكري الأبيض الذي ارتفع عند أحد جانبي الطريق. من كشك المراقبة،
وجه جنديان بندقيتهما نحو رأسه. هناك، في الأعلى، كانت أضواء الطائرات
تقطع ظلمة السماء كأنها أعمدة إنارة طائرة. ما من مجال للشك. إنه في المكان
المقصود. سلم دفتره الانتخابي عند الباب عبر نافذة زجاجية. عقب التحقق
من هويته، خصصوا له أحد هؤلاء المجندين الذين لديهم وجه طفل ولم يكن
يجيد أي كلمات سوى «نعم يا سيدي» و«لا يا سيدي». اقتاده المجند لمسافة
بدت له طويلة جداً نحو مضمار الهبوط وتركه هناك دون تقديم أي تفسيرات.
كانت هناك طائرة من طراز (فوكر) قادمة من مدينة خوخوي الأرجنتينية،
ومن المقرر أن تهبط في التاسعة والنصف؛ إلا أن الساعة العاشرة دقت ولم تظهر
أي طائرة. في العاشرة وست وعشرين دقيقة، هبطت طائرة (أنطونوف). نزل
منها عدة رجال لهم هيئة ريفية مع بعض صناديق الفاكهة. في الحادية عشرة
وست وأربعين دقيقة هبطت طائرة (بوينغ) تقل حمولة: حاويات ضخمة

فيها محتويات غامضة. خلال الساعات التالية هبطت طائرتان أخريان في «المجموعة الجوية الثامنة». هبطت كل هذه الطائرات بضجيج يصم الأذان، لكن أيا منها لم تكن الطائرة التي ينتظرها تشاكالтана. اخترقت رطوبة العراء عظامه. ما من مكان ليحتمي به. شبك ذراعيه وضمهما في محاولة لطرده البرد. نفخ بقوة وخرج بخار أبيض من فمه، كأنه خطم تين جليدي.

في النهاية، في الواحدة وست وثلاثين دقيقة، هبطت أضواء من السماء ولمست الأرض وهزتها. مرت الطائرة من أمام تشاكالтана بالسرعة والجلبة التقليديتين، لكن من شكل شفراتها، عرف أنها من طراز (فوكر). حينها توقفت الطائرة عن الحركة وفتحت أبوابها، اقترب تشاكالтана من أول عسكري خرج منها، ملازم أول بحرية يرتدي زياً مموهاً. لم يعرف جيداً كيف يقدم طلبه، لم يكن يعرف أساساً إن كان بالإمكان أن يطلق عليه «طلباً»، كأنه أحد مثلجات شركة «كريم ريكا».

- مساء الخير. أنا قادم من قصر العدل.

كانت المحركات ما تزال تعمل والضوضاء لا تطاق. هتف الملازم أول:

- من أين؟

هتف تشاكالтана هو الآخر:

- أنا من طرف الأدميرال كارمونا، من الاستخبارات!

- أنت من عملية «كوندور». صحيح؟

- لم يعرف تشاكالтана كيف يرد. بالنسبة له، تعني كلمة «كوندور» طائرًا

أصلع يأكل الجيف، إلا أنه أوما برأسه.

رد الملازم أول:

- ممتاز! لدينا طرد لك!

أشار الضابط للجنود من خلفه. عادوا نحو الطائرة. ظلوا داخلها وبدأت سرعة دوران الشفرات تنخفض. بعدها بعشر دقائق، خرجوا ومعهم رجل، يسحبه كل منهم من ذراع، لأنه لا يستطيع السير. تطوق يديه الأصفاد، ورأسه مغطى بقماش أسود مثقوب من المنتصف ليتنفس.

- ها هو طردك.

قال الملازم أول بينما يمد نحوه مجموعة من الأوراق ليقومها. ملأ تشاكالانا ثلاث نسخ من الاستمارة وأعادها. بعد التحقق من أن كل الأمور في محلها، وضع الضابط مفتاحًا في الأصفاد ونزعها عن السجن، الذي حرك أصابعه، كأنها ثعابين بحر قد تحررت من الحبس. قدم الملازم التحية العسكرية لتشاكالانا الذي رد بالمثل. حينها رحل، وكأنه يفعلها بدون قصد؛ نزع الكيس القماشي عن رأس سجينه. معميًا من إضاءة الطائرة القوية، بعد أن صمّت محركات الطائرة أذنيه، وفي حالة يرثى لها من أثر أيام الحبس، سقط دانييل ألباريت بانياغوا فوق ركبته على الأرض. ما يزال يرتدي قميصه الملون الذي رآه به تشاكالانا إلا أنه مليء بالبقع وممزق عند بعض حواشيه، أما لحيته فبرغم طولها بدت مهملة أكثر من ذي قبل، كما شعره الذي اكتسب ملمسًا دهنيًا، وامتلاً بالقشرة.

حياه تشاكالانا:

- مساء الخير سيد ألباريت. سعيد برؤيتك من جديد.

رفع الطالب نظرة دارت معها عينيه خارج محجريهما بجنون وقلق. لم يبد أي إشارة أنه قد تعرف عليه، لكنه بدأ يضحك. في البداية بدت ضحكته كرعدة، ثم لاحقًا كقهقهة مريضة:

- هل أنا في بيرو؟

صدق مساعد الأرشيف على استفساره بقوله:

- بالفعل.

ولأنه لم يكن يعرف ما الذي يمكن أن يقوله أيضًا، أضاف:

- مبارك.

انشغل رأس تشاكالтана بطريقة الخروج من «المجموعة الجوية الثامن» في مثل هذه الساعة من الليل. بعد خروجها من المطار، سيتوجب عليهما التوجه نحو الطريق الميت وقطع كيلومترات عدة من الأراضي المقفرة بكل المخاطر التي تأتي معها. على الرغم من عدم رغبته في مقاطعة احتفال الطالب، شعر أنه مجبر على تذكيره:

- أعتقد أننا يجب أن نبدأ السير.

واجه ألبارث صعوبة في النهوض وقام بخطواته الأولى المرتعشة غير الواثقة كأنه طفل رضيع. يتشبث بذراع تشاكالтана لكيلا يسقط. تذكر مساعد الأرشيف ذلك اليوم في شقة بارانكو حينما وجده في قمة الغطرسه والتكبر. فكر كيف لعدة أيام في الحبس أن تغير الإنسان. تمنى ألا يتعرض أبدًا للسجن، وبصورة إعجازية بينما يساعد ألبارث على السير نحو الخارج، صدرت إشارات من مصباحي سيارة من خلفهما. ما يزالان في المضمار، فكان أول رد فعل من تشاكالтана أن ابتعد عنه ليفتح الطريق، لكن السيارة لحقت بهما وتوقفت بجانبهما، كانت تحمل لافتة سيارات الأجرة، سأله السائق مبتسمًا:

- تحتاجان أن أوصلكما؟

رد عليه تشاكالтана باندهاش:

- هل أنت حقًا سائق أجرة؟ في مضمار الهبوط. بالمجموعة الجوية الثامنة؟

- أنا ملازم بالجيش، لكنني بهذه الطريقة أحصل على نقود إضافية.

تأمل تشاكالثانا ألبارث الذي استعاد نظرتة الطبيعية، لكنه ما يزال يبدو كأحد مجانين الشوارع بسبب ملابسه ووجهه. أدخله إلى السيارة وطلب من السائق التوجه لعنوان منزل شارع خونين. وهم في الطريق، كان ألبارث متوترًا ومتوجسًا. ينظر في كل لحظة نحو الخلف، كأنه يخشى أن أحدًا ما سيلاحقه. إجاباته على نكات السائق عبارة عن مقاطع صوتية أحادية. تذكر تشاكالثانا تلك المرة الأخيرة، حينما أدخلوه بالضرب في السيارة. ما يزال وجهه متورمًا من أثر كعب السلاح. لم يكن ليصدق، قبل وصولهما لبارانكو، أن سيارة الأجرة هذه مجرد سيارة أجرة ببساطة. حينما ترجلًا منها على رصيف شارع خونين، سار وهو يتفحص مع كل خطوة كل شيء حوله. بعد وصولهما إلى المنزل، سخن تشاكالثانا بعض المياه بينما كان الطالب يتحمم. التيقا في الأعلى عند المرتبة الملقاة على الأرضية. كان كل شيء كما هو. لو أن أحدًا مرّ على هذا المكان ليحقق فيه، فإنه بالتأكيد لم يجد شيئًا ليفتشه.

جلس دانييل ألبارث بانياغوا فوق المرتبة مستندًا بظهره على الحائط، مازال شعره رطبًا، ونظرتة ثابتة على السائل البني في الفنجان، سأل فيما يرفع الكيس الصغير الطافي بملعقة:

- لماذا لم يعدموني بالرصاص؟

- ماذا؟

- في خوخوي تحدثت مع زميل أرجنتيني. قال لي إنه حينما يضعك العسكريون في طائرة، فهذا لأنهم سيذهبون بك لأرض مقفرة ويقتلونك. لا أحد يعود.

- لا يمكنك أن تصدق كل الدعء..

كبح تشاكالنانا العبارة وصوبها:

- كل ما يُقال.

- وزملائي؟ أين هم؟

- من؟

- راميرو وماريانا؟ في أي مكان ملعون هما؟

- في نفس مركز الاعتقال في خوخوي. وجهت لهما تهمة إنشاء جماعة غير قانونية، والتآمر ضد الدولة، والإرهاب.

للمرة الأولى، رفع ألباريث نظرتة واخترق تشاكالنانا بها. كان لصوته رنين معدني وخال من التعبير:

- دعني أأخن: أفرجوا عني لكي أخونها، أليس كذلك؟ هذا هو السبب وراء وجودي هنا؟ من أجل الحديث؟ كان حري بهم أن يحاولوا صعقي بالكهرباء في خصيتي لأنني لا أفكر في إخبارك بأي شيء. لا أنت ولا كلاب أصدقائك.

قطع حديثه نوبة سعال حادة. ذهب تشاكالنانا نحو الحمام وقص قطعة كبيرة من ورق المرحاض وعاد للغرفة. لم تكن النوبة قد انتهت حينما قدم الورق لألباريث. انتظر لكي يهدأ حتى يرد:

- أنت هنا لأنك كنت ضحية عملية اعتقال بلا ضمانات. ارتكبتها قوة أجنبية. دولة بيرو لا يمكنها قبول هذه الوحشية، هذا دون ذكر لانتهاك السيادة. كشاهد ومحام، قدمت إخطارًا عاجلاً للسلطة القضائية وتولت القوات المسلحة إجراءات إعادتك لأرض الوطن بأثر فوري.

لأول مرة أفلت ألبارث ضحكة، لكنها ليست ضحكة سعادة بل
سخرية:

- «بلا ضمانات»؟ «السلطة القضائية»؟ نحن وسط ديكتاتورية. لا
توجد ضمانات ولا سلطة قضائية.

- في حال أنك لم تقرأ الصحف، دعني أخبرك أن لدينا انتخابات في
ظرف يومين. هي فترة مرتبكة، لكن الدولة لديها نية التغيير. نرتكب أخطاء،
إلا أننا نحاول إصلاحها؟

- ولم لم تصلحوا الخطأ مع راميرو؟ وماريانا؟

- الشاب وارانغا ميسا اعتقل بصورة قانونية، بموجب أمر، وفي وجود
أفراد أمن بيروفيين. ما زال قيد التحقيق بسبب تعاونه المفترض مع عناصر
التخريب الدولي. بالنسبة للأنسة، فهي مواطنة أرجنتينية. لا يمكننا تقديم
شيء لها.

كان تشاكالانا قد تجهز للرد بهذه الإجابات في كل دقيقة من الساعات
الأربع التي قضاها عند مضمار هبوط «المجموعة الجوية الثامنة» وظل
يكررها داخل ذهنه بعدها قبل أن ينطقها. بكل رضا، لاحظ أنه لم ينطق ولو
كذبة واحدة. أخبر هذا المتمرد بحقائق أكثر من تلك التي قالها في نفس اليوم
في منزله لأمه وسيسيليا.

سأله ألبارث:

- أنتم تساعدون بعضكم، أليس كذلك؟

- أعتقد أنني لا أفهمك.

- أنتم والأرجنتينيون، هؤلاء الفاشيون. تتعاونون فيما بينكم. أنتم
تساعدونهم في قتلنا واختطافنا وذبحنا.

- نتعاون مع دولة جارة لمكافحة تهديدات الأمن، لكننا لا نفعل كل ما تقوله.

تذكر تشاكالтана السجين السياسي في الحجز ومزاح عريف الشرطة: «ربما يجب أن نضربك من وقت لآخر، لكن ليس لكونك مخرباً، بل ثقيل الظل!». عاد انتباهه سريعاً لألباريث الذي استمر في توجيه الأسئلة:

- ولماذا أرسلونا إلى خوخوي؟

- لأنكم بالفعل تتعاونون مع جهات التخريب في الأرجنتين وتزعزعون استقرار البلد قبل الانتخابات. في ظرف يومين سيدي ألباريث، سينتهي كل شيء. حينها أنت وأصدقاؤك سيمكنكم الاجتماع والتآمر على كل من يملو لكم. حتى ذلك الحين، ستحافظ الدولة البيروفية على النظام.

عاد ألباريث ليبتسم في سخرية:

- النظام؟ هكذا تسمون المسألة؟

أجابه تشاكالтана بعزة نفس واضحة:

- هكذا تسمى.

تناول ألباريث الرشفة الأخيرة من شايه. وضع الفنجان على الأرض وتنفس بعمق ونظرته مغروسة في الحائط. بدا أنه تأمل لفترة طويلة ما هو على وشك أن يفعله. تساءل تشاكالтана إن كان الشاب سيتصرف بعنف وإن كانت سلامته الجسدية في محل خطر. اتصل بالشرطة من هذا المنزل ذات مرة ولم يكلم بالنجاح، إلا أن ألباريث لم يبد عتياً. كل ما فعله هو تنكيس نظراته نحو الأرض ليشرع في حكاية قصة:

- في اليوم الذي تعرضنا فيه للاعتقال، تعرضنا لضرب مبرح؛ نحن وأنصار آخرون وصحفي بل ورجل عسكري. كسروا ضلع أحدهم. كبلونا

جميعاً ووضعونا على متن طائرة. سافرنا دون غطاء للرأس محاطين بجنود مدججين بمدافع رشاشة. في مدينة خوخوي أبلغونا بأننا سنشكل جزءاً من صفقة لتبادل السجناء بين حكومتي بيرو والأرجنتين. حاولوا إجبارنا على التوقيع على طلب لجوء. رفضنا. حبسونا في غرف ملطخة بالدماء، بقع حمراء هكذا فوق الجدران. سمعنا صراخ زملائنا الأرجنتينيين يأتي من نهاية الممر. قرب منتصف الليل، كان موعد إطفاء كل الأنوار. أتحدث عن كل الأنوار. فجأة باتت الرؤية منعدمة في الأروقة بل وحتى عبر النوافذ الصغيرة المفتوحة في الجدران. لم أر في حياتي قط مثل هذه الظلمة يا فيليكس. كنت فوق فراشي المتهالك، إلا أنني لم أتحرك. لم أشعر بالمثل بأن أحدهم يتحرك في الجوار. تجمد الزمن لعدة دقائق. بعدها سمعت صرير باب العنبر وهو يُفتح. أتذكر لفحة الهواء البارد، الجليدي، وإن كان هذا أمر ريباً تخيلته الآن. ما هو أكيد أن صوت خطوات قد تردد. خطوات كثيرة. ظهرت أضواء صغيرة تطير في كل الأنحاء كأنها يراعات. كان عشرات الأشخاص يدخلون الممرات حاملين كشافات. تحركت الأضواء الصغيرة بسرعة شديدة يستحيل متابعتها. توقف أحدها عند باب زنزاتي، عبر قضبانها وسلط عليّ. رأيت الضوء في البداية فوق الملاءات، ثم ارتفع بعدها نحو وجهي. انحرف أكثر من مرة نحو الحائط بسبب اندفاع صاحبه، إلا أنه بعدها عاد من جديد ليُسلط عليّ. في تلك اللحظة، أغلقت عينيّ، وبينما يتفحصني الضوء سمعت فقط صوتاً وحيداً؛ قال أحدهم: «ليس هذا». ورحل الضوء.

ابتلع فيليكس تشاكالانا لعابه. لم يرغب أن يتلاعب به عدوّ للدولة. لكنه عجز إلا عن الإنصات له. ما من أحد قادر على الامتناع عن الإنصات، فحتى الهواء نفسه توقف عن الهبوب خارج هذه الغرفة.

واصل ألباريث حديثه:

- رحل ضوء الكشاف عن زنزاتي، لكن ليس عن العنبر. واصلت الأضواء الصغيرة تكاثرها فوق الجدران. سُمع صوت باب يفتح، ارتجاج، لهاث، لكن لا أكثر من هذا. سمعت صوت ضربات غالبًا. لم يتردد صوت صراخ، لم ينادِ على أسماء. بعدها بعدة دقائق، بدت كساعات، أفزعتنا الجلبة الزاعقة الوحيدة في تلك الليلة. صافرة. كانت صافرة قصيرة ومحددة، وإن ضخمها الصمت كأنها جرس إنذار. لم يحتج أحد أو ينهض بين السجناء. عقب الصافرة، بدأت الكشافات تصطف في طريقها نحو الخروج، في تلك المرة، جرّت معها أشياء وهتت بقوة أكبر، إلا أنها سارت بسرعة وثقة. اختفت كلها في ظرف ثوان. وعادت الظلمة بأعمق وأحزن صورها لتبسط سلطانها.

سعل الطالب مجددًا. أراد تشاكالثانا الذهب لجلب المزيد من ورق المرحاض له واستغلال المسألة للخروج من المنزل، لكنه عجز عن التحرك من مكانه. توقف ألباريث عن السعال وأنهى قصته:

- في الصباح التالي، حينما وصل الحراس لتفقدنا، نقص عشرة سجناء. نطق السجنانون أسماءهم، لكن لم يجب أحد. وعودًا عن إطلاق الإنذار، انتقل الحراس للاسم التالي. عشرة سجناء لم يردوا. عشرة سجناء لم يكن لهم وجود. عشرة أسماء بلا رد، إلا أن أحدًا لم ير هذا أمرًا شاذًا.

لم يكن ألباريث قد اتهم تشاكالثانا بشيء، إلا أن الأخير أحس بضرورة أن يدافع عن نفسه:

- ربما لا يعني هذا الأمر شيئًا. ربما أخذوهم لعملية تفتيش روتينية. ربما نقلوهم إلى سجن آخر.

- بالتأكيد. صحيح. من المؤكد أنهم رتبوا الأمور وفقًا لنصاب ونظام معين. النظام الذي تحبه أنت كثيرًا.

لم يقل تشاكالانا شيئًا. أخذ فقط فنجان الشاي وهبط للطابق الأرضي.
بعدها غسل وجهه في الحوض ورحل. أحس بضرورة إلقاء الوداع قبل
رحيله، بدافع التربية، لكنه في النهاية قرر تجاهل هذه الضرورة.

لم يبق بالكاد أي أثر من إكليل الزهور الذي تركه تشاكالтана عند كوة الدفن التي يشغلها الآن جثمان خواكين كالبو. كانت سرقة أقارب الموتى لأكاليل الزهور النضرة من مقابر أخرى ممارسة طبيعية، خاصة إن كانت حسنة المظهر، ولهذا لم يبق هناك ولو عنقود تعيس واحد يُذكر بالرجل الذي كان -في النهاية وبعد كل شيء- صديقًا جيدًا.

صوّب تشاكالтана هذا الخطأ. وضع زهرة كولونيا في كوب بلاستيكي كبير عند المقبرة ونظف الكوة بعدما بل منديله بالماء. توقف على وجه الخصوص أمام صورة صديقه المبتسم، بشاربه الرفيع وشعره المُصمَّغ نحو الخلف كأنه نجم سينمائي مكسيكي. تذكر الكلمات الأخيرة التي قالها: «كن بخير. كل الأمور ستنتهي على خير».

حتى لو كان خواكين قد كذب، حتى لو عاش حياة مزدوجة، ربما ثلاثية، ربما متعددة، فإن كل ميت -وأي ميت- يستحق الرعاية، فلا أحد يرحل عن هذا العالم دون أن يترك على الأقل ولو ذكرى واحدة جيدة. صلى تشاكالтана في النهاية أمام القبر. استغل المسألة ليتلو كل صلوات الأيام التي غاب فيها عن العظة، والتي زادت عن الحد. وبينما يصلي، فكر في قصة دانييل ألباريث وكشافاته الليلية والسجناء المختفين. قال لنفسه: كلام فارغ. دعاية التخريب. سبق وحذره الأدميرال كارمونا من أنهم سيحاولون غسل عقله. كان الأدميرال يثق في عقله. طلب تشاكالтана من الرب أن يبقيه صافيا وثاقبًا. سمع صوت خطوات كعب حذاء من خلف ظهره وامرأة تقول:

- إذن.. قد دفنوه هنا. وددت لو حضرت مراسم الدفن.

بدا هندام سوسانا أراندا كأنها ذاهبة لعزاء: فستان أسود بسيط يغطيه معطف بنفس اللون وشعرها معقود نحو الخلف في ضفيرة بينما غطت نظارة سوداء ضخمة عينيها. رغم ذلك، بدا لتشاكالтана أن جمال هذه المرأة يتخطى جهودها لمداراته، كنهز يفيض ويخرج عن مجراه. أجابها:

- وأنا أيضًا. وصلت متأخرًا. في الحقيقة لم يحضر إلا والده فقط.

- الأب.. ربما لأنه ليس موجودًا في حياته.. على الأقل قد ظهر مع موته.

رسمت الصليب. قلدها تشاكالтана، لا لشيء إلا لأنه لم يرغب في الرد على ما قالته بخصوص دون جونثالو، فحتى الآن لم يبد له أنه رجل سيء، بل على النقيض تمامًا، فقد رآه أبا يعاني بسبب ابنه من أمور لا تستطيع الكلمات وصفها. لكم أراد تشاكالтана أن يعاني أبوه بسببه، وليس العكس. اقتربت سوسانا أراندا من كوة الدفن. وضعت يديها عليها. داعبت الاسم والسنوات المكتوبة عليها. فرت دمعة من أسفل إطار نظارتها. اقترح عليها تشاكالтана:

- إن رغبتِ حضرتك، أود دعوتك لشرب شيء ما.

لم تنظر نحوه حتى، وأجابت:

- المكان الوحيد الذي يمكننا اللقاء فيه هو هنا. أي مكان آخر سيصبح

خطيرًا جدًا، ألا تشاطرن في الرأي؟

تذكر تشاكالтана من هي وأين تعيش. عاد ليراها في صور خواكين كالبو السرية وبجوار زوجها الأدميرال، إلا أنه من بين كل الذكريات، تسللت ذكرى القبلة التي طبعتها على شفثيه في ذلك اليوم أمام مبنى جريدة (إل كورسيو). كانت قبلة زائفة، إلا أن ذكراها بدت أكثر واقعية من أي ذكرى أخرى. قال لها:

- ليس لدينا.. ليس لدي أنا شيء لأخفيه.

إلا أن صوته بدا كأنه ينفي ما يقوله.

- لكل منا أسرارها يا فيليكس.

تقدمت بجواره ووقفت هناك بينما تنظر لكوة الدفن ثم أضافت:

- والبعض يموت من أجلها.

شعر فيليكس تشاكالтана بعطرها يدخل عبر منخريه حتى صدره. لم يستطع تفادي مقارنته برائحة سيسيليا، رائحة الصابون التي بدت له مقارنة بعطر سوسانا أراندا أقل أريجاً، أقل عذوبة، بل وتقريباً سوقية. طرد سيسيليا على الفور من رأسه. محاولاً استئناف المحادثة بعيداً عن أي أنثى قال:

- كان لدى خواكين الكثير من الأسرار. الآن، في هذه اللحظة، لا أعرف إن كان صديقي حقاً أم لا. لا أعرف إن كنت قد عرفت خواكين الحقيقي.

- ما تقوله يبدو كمنكته ظريفة.

راجع تشاكالтана في ذاكرته الكلمات التي قالها. لم يبد له أن أيا مما قاله قد يثير الضحك.

- عذراً؟

- خواكين كان يقول لي دوما ونحن وحدنا: «من ترينه هنا هو أنا، الوحيد الحقيقي. هناك في الخارج أنا مجرد كذبة، أما هنا فلا».

- حسناً. أفترض أنني كنت أشكل جزءاً من تصنيف «هناك في الخارج».

- لا!

كان صوت سوسانا أراندا أعلى من ذي قبل حينما نطقتها، بغضب.

- سبق وأخبرتكَ أنه كان يكن لك معزة خاصة.

- حقًا؟ الآن وفي هذه اللحظة لا أجد سببًا واحدًا للتصديق.

- أنا أعرف سببًا. قال لي ذات مرة: «فيليكس هو الشخص الوحيد الذي أعرفه ولا يقدر على إيذاء أحد». هذا هو ما قاله. لهذا تجرأت أن أبحث عنك بعد.. حسنًا. أنت تعرف.

الشخص الوحيد الذي لا يقدر على إيذاء أحد. على أقصى تقدير هي تسمية حزينة، لكن في الوقت الحالي ومع مسؤوليات تشاكالтана الجديدة، هي تسمية غير نافعة. أجاها مساعد الأرشيف بخليط فاقت فيه الكآبة الفخر:
- ربما أنا أيضًا لذي أسراري.

تفاجأ تشاكالтана، حينما علقت المرأة ذراعها في ذراعه. بدواً كزوج وزوجة يفكران في المستقبل ويختاران الكوة التي سيدفنان فيها معا.
- هل نتمشى؟ توجد أماكن أكثر جمالاً هنا.

قالتها بصورة طبيعية لدرجة أن مساعد الأرشيف لم يستطع إلا إطاعتها. توغلا في السير بين تماثيل للعذراء وللمسيح ولملك الموت بين أعمدة رخامية. قاده بلا تصنع -ربما بسبب فطنتها- نحو أضرحة الطبقة العليا.

- فيليكس، عليك أن تعرف أنه إذا كان خواكين قد أخفى عنك أمورًا، فقد فعلها بدافع معزتك عنده، فعلها ليحميك.

أشخاص كثيرون يتحدثون مع فيليكس تشاكالтана كأنه قاصر: أمه، مدير الأرشيف، بعض رجال الشرطة، وأغلب وكلاء النيابة. ربما يرتبط هذا الأمر بسنه -وهذا ليس ذنبه- وبالمثل دماثة - التي قد تكون ذنبه - لكنه على أي حال لا ينتظر هذا من سوسانا أراندا. صحيح أنها أكبر منه سنًا، إلا أنه

أمل في أن تقوم طريقة تعاملها معه على مبدأ المساواة، وبالمثل لم يكن سعيدا من شعوره بأن خواكين قد فعل معه نفس الشيء الذي فعله آخرون، فقد اعتبر دوماً -على الرغم من فارق السن- أن علاقتها قائمة على نفس المبدأ. - أعرف كيف أحمي نفسي يا سيدتي.

- لا تسع تفسير ما قلته يا فيليكس. تحليت بالأمانة معي حينما بحثت عنك، وأعتقد أنني يجب أن أفعل المثل. الآن رأيك مع... في الوزارة.

مرامعاً أمام نحت لمريم العذراء. تمثال يحمل المسيح بين ذراعيه ويبكي خسارته. تساءل تشاكالتانا عما إن كانت سوسانا أراندا ستبكي خسارته. بشكل مؤكد لن تبكي كما بكت خسارة خواكين، لكنها قد تشعر بالحزن أو تهديه دمعة أو تخصص له شمعة مبهولة داخل كنيسة.

- سعيد برغبتك في أن تكوني أمينة معي. أعتقد أنني قد فعلت المثل. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفيتها. ودّ تشاكالتانا أن ينزع عنها نظارتها ويتأمل تعبيرات وجهها كاملة:

- سبق وقلت لك. كلنا لدينا أسرارنا، حتى أنت.

حاول أن يحتج بقوله:

- أنا لا..

إلا أنها قاطعته:

- لماذا تقابل زوجي؟

شعر تشاكالتانا بالضيق، إلا أنه لم يعرف كيف يشعر المرء بالضيق من امرأة جذابة. لم تكن هذه الاحتمالية ترد في اللوائح التي يُسَرَّ عليها حياته. تلثم قائلاً:

- حض.. حضرتك تعلمين يا سيدتي. أنا.. لا..

- لا يمكنك الكشف عن معلومات سرية مرتبطة بمهام الأمن.

كانت نفس الكلمات التي قالها له كارمونا في «النادي الوطني» وهو يشرح له طبيعة مهمته. شعر تشاكالانا بأنه ضعيف ومكشوف، فزوجة الأدميرال على ما يبدو تدري بالمسألة أكثر منه. غمغم:

- لا يمكنني الاستمرار في هذه المحادثة.

تنهدت ثم تبنت طريقة تعامل أقل عدائية:

- لا أرغب في انتزاع معلومات منك يا فيليكس. أرغب في إمدادك بها.

- سيدتي؟

مرا أمام لوحة لصلب المسيح، يظهر فيها بتاج من الأشواك، مشخناً بالجراح، بينما تسيل الدماء من رأسه كدموع سوسانا أراندا:

- فيليكس، خواكين كان يعمل لصالح زوجي.

- ماذا؟

- الأدميرال إكتور كارمونا يعمل في الأساس بالاستخبارات البحرية ونتيجة لتراكم نجاحاته، قررت الوزارة استدعائه ليعمل كضابط اتصال وفي العمليات الدولية. في سلاح المشاة لا يجبون مسألة وجود أحد عناصر البحرية بينهم، لكن عمله شديد النظافة، لا يصنع ضجيجًا، لا يطيح بأبواب النقابيين والمرشحين ولا يعذب أحدًا. يفضل العمل في سرية. تخصصه هو زرع عملاء في صفوف المتمردين. هذا ما كان عليه خواكين: عميل مهندس. كانت كل الجماعات اليسارية تثق فيه وكان يحصل على معلومات منهم، تلك المعلومات التي ينقلها للاستخبارات.

في ظرف لحظة، انقلب العالم رأساً على عقب بالنسبة لتشاكاللتانا. خواكين لم يكن متمردا بل عميلاً مندساً. سوسانا لم تكن عشيقته، بل مخبرة. ألباريث وورانغا لم يكونا «رفيقين» بالنسبة لخواكين بل قيد التحقيق. هل كل هذا ممكن؟ أم إنه ربط أطراف الحديث بصورة خاطئة؟ تراكمت الأمور داخل رأسه دون أن تترك وقتاً للإجابات.

- كيف لحضرتك أن تعرفي كل هذا؟ هل أخبرك به السيد زوجك؟

كان أحدهم يضع زهوراً فوق مقبرة قريبة جداً منهما. فسارت سوسانا مجدداً حتى ابتعداً قليلاً ثم أجابته:

- خواكين هو من أخبرني. زوجي لم يحدثني قط عن عمله. في الواقع، مر وقت طويل منذ المرة الأخيرة التي حدثني فيها زوجي عن شيء. أنا كطيف في منزله. هو لا يراني ولا يوجه لي حديثه وبكل تأكيد لا يلمسني.

نظراً لأنه رئيسه، حتى ولو كان رئيساً خارج الإطار الرسمي، فقد رأى مساعد الأرشيف فيليكس تشاكاللتانا في المعلومة الأخيرة تخطيطاً للحدود، لكنه لم يتجرأ على الاعتراض، خاصة وأن سوسانا واصلت حديثها:

- تعرفت على خواكين في مكتب إكتور. تصادف بعدها وجودنا في مناسبات اجتماعية تخص سلاح البحرية والوزارة، كما حدث أمس معك. ذات يوم وكالعادة تركني إكتور وحدي في قاعدة «لابونتا» إذ طرأ له التزام لم يقل لي حتى ما هو، لأنه كان معلومة سرية. مكثت في وسط القاعدة، في الطرف الآخر من مطار كاياو عاجزة عن العودة لليما. عرض خواكين أن يصحبني للمنزل، إلا أنه أخذني لمنزله وهكذا بدأ كل شيء... وأنت تعرف كيف انتهى.

كانا قد توقفا مجدداً، هذه المرة أمام صورة لملاك الموت يحمل طفلاً بين

جناحيه، حاول تشاكاللتانا أن يتحدث برباطة جأش كأن كل هذا لم ينهكه،
كأن شيئاً في هذه القصة لم يفاجئه، كأحق يظن أنه عميل سري.

- ما زلنا لا نعرف من الذي قتل خواكين..

- لكنني أخشى أن يكون إكتور هو من فعلها أو أن يكون ذلك بأمر
صادر منه.

عجز تشاكاللتانا عن الرد. صراع الولاء الجديد بخصوص رئيسه
وصديقه وسوسانا أراندا منعه من قول أي شيء. تتم بكل غموض ولا
مبالاة في استطاعته:

- سأخذ قلقك في عين الاعتبار سوسانا، لكنني لا أعرف كيف لي أن
أساعد حضرتك.

- لم تأت إلى هنا لمساعدتي يا فيليكس. أنا من جئت لمساعدتك. أعتقدت
أنك يجب أن تعرف هذا. لا أعرف ما هي علاقتك الآن مع إكتور، لكنك
كنت صديقاً لخواكين ويقلقني ما يحدث لك.

- شك.. شكراً.

- إذا احتجت لأي شيء، اعتمد علي.

تساءل تشاكاللتانا إن كان يتخيل أم أن هذا العرض يتضمن فعلاً
إيحاءً شخصياً، إن هي أرادت إخباره بطريقتها أمراً لا تقوله الكلمات، إن
قصدت بكلمتي «أي شيء» فعلاً «أي شيء»، لكنه كان مضطرباً أكثر من
اللازم ليحدد طبيعة أي من هذه الأمور. على الرغم من هذا، أخرج من
جيبه مفتاح شقة خواكين، الذي كان يتأرجح ويرن كجرس صغير وقدمه
لها. قال بغموض:

- من المحتمل أن نضطر لنرى بعضنا مجددًا، ولا أعرف إلا مكانا آمنًا واحداً.

إذا كان في حوزة سوسانا أراندا معلومات كاشفة، فمن الأفضل أن يوجد مكان ليتقابل فيه، لكن هذا ليس السبب الوحيد لتسليمها المفتاح. فتشاكلتانا سيشعر بالتححر لعدم وجوده معه. ويزيح عبئًا هائلًا من فوق كاهله. بخلاف هذا، فيحق لهذه المرأة أن تمر على الشقة وتلقي نظرتها الشخصية على ماضيه. وفي النهاية.. من يعلم! فربما ذات مرة.. ربما هي وهو..

بدت كأنها تنتظر مبادرته. دون أسئلة، أخذت المفتاح واستدارت، إلا أن بعض الشك ساورها وعادت من جديد. قبل أن يقدر تشاكلتانا على إبداء ردة فعل؛ احتضنته. وحتى عبر ملابس الحداد التي ارتدتها، شعر مساعد الأرشيف بمنحنيات جسدها، ونخزة الرغبة كأنها سوط. قالت له وهي تقبله في وجنته:

- خذ حذرک يا فيليكس. كل هذا كبير للغاية عليك.

لم يقدر على النطق ولو بكلمة واحدة. بعدها بلحظات، توارى طيف سوسانا أراندا الداكن بين المقابر، كأنها استحالت شبحاً.

الطريق عبر الحي الصيني يبدو مألوفاً له: البوابة، المطاعم، رائحة المقلبات الحلوة المرة، بل حتى البناية التي دخلها. سبق وصعد هذه السلام من قبل، لكنه تأخر في ملاحظة الأمر. كان عناق سوسانا أراندا قد خلف له بعضاً من عطرها ليليه في الطريق، وحينها لم يستطع فيليكس تشاكالانا التفكير في شيء سواه. في الطابق الرابع، دق الجرس الواقع على يساره وقرع الباب بالحلية المعدنية المثبتة فوقه. اعتقد أنه سمع حركة تأتي من خلف الباب، كأن أحدهم يجر خطواته نحو عينه السحرية، كأنه سيتأخر لساعات قبل أن يقرر إن كان سيفتح له أم لا. استغل انتظاره ليتساءل للمرة الألف حول ما يعنيه عناق سوسانا أراندا. هل هي دعوة ذات إيحاء جنسي؟ أم أنها إظهار لشكل من القلق الأمومي، تلك هي أكثر اللحظات التي يحتاج فيها تشاكالانا صديقه المتمرس خواكين. أعاد تشاكالانا دق الجرس مجدداً. لم يعلم مضيفه مسبقاً عن هذه الزيارة، فقد أخرج العنوان من دليل الهاتف. تساءل إن كان قد فعل الصواب، لكن وبعد عدة ثوان من الشك، انفتح الباب وأطل وجه دون جونثالو من وراء السلسلة.

- ماذا تريد يا فيليكس؟

بدا صوته غير مستقر، كأنه آلة توشك أن تنشز. أنفه متورم وأحمر بينما انبعثت من فمه رائحة البيسكو النفاذة. لم يبد حتى كطيف للرجل المتودد الذي كان يغازل أمه.

- جئت لزيارتك دون جونثالو.

تفحصه دون جونثالو بعينيه لفترة طويلة، كأنه يحاول قراءة النوايا المرسومة فوق محياه، ثم قال:

- هل تناولت الغداء؟ أظننا سننزل لناكل شيئاً ما.

دون أن ينتظر ردًا أغلق بابه. فتحه مجددًا بعدها بعدة دقائق وفي ظرف لحظات تمكن تشاكالثانا من خطف نظرة تلصصت على صالة غير مرتبة وزجاجات متراكمة فوق بعضها على طاولة. مشط العجوز شعره نوعًا ما، وارتندي كنتزة من الصوف حيكت جيدًا، لكن رائحة الكحول مازالت تفوح منه، واحتفظ كذلك بالهالات السوداء المتورمة الموجودة أسفل عينيه. فوق كل هذا فإن ذراعه يرتعش أكثر من المعتاد. لدى خروجها قابلا امرأة صينية في المدخل. حياها دون جوثالو بحرارة، كأنها صديقة قديمة وسألها عن عائلتها. تذكر تشاكالثانا حينها متى سبق وجاء هنا، وبينما يسيران في الشارع سأله:

- السيدة الصينية التي قدمت لها التحية تعيش هنا في المبنى، أليس كذلك؟

- أمام منزلي بالضبط. منذ سنوات. زوجان لطيفان للغاية، وإن كانت إسبانيتهما ضعيفة جدا. يجلبان لي الشاي دومًا، ويقدمان لي هدايا من متجرهما. يمتلكان متجرًا مثل بقية الصينيين في كل أنحاء العالم.

- هل يعيشان هنا منذ فترة؟

- منذ سنوات، لكن من المحتمل أن يرحلا. قضيا سنوات طويلة يحاولان الإنجاب دون نجاح. الآن وأخيرًا صار لديهما ابن، وياتت الشقة صغيرة عليهم جميعًا. إنها يجمعان المال للانتقال لبناية أخرى مزودة بمصعد. صعود أربعة طوابق بطفل عذاب.

- أمر غريب. في ملفه بالأرشفيف، كتب خواكين عنوانها.

- فعلا؟ أظنه أراد كتابة عنواني وأخطأ. خواكين كان يعيش على شقق

الإيجار، وعنوانه دائم التغيير. وحين يضطر لترك عنوان ثابت، يكتب عنواني. سجل مساعد الأرشيف ما قيل كملاحظة في ذهنه: شقة خواكين مؤجرة. سيتوقف الإيجار، وفي أية لحظة سيأتي المالك ليطالب به، وعندها، ستختفي الأعلام الحمراء، والوثائق، وأي أثر باق من صديقه. سيبقى اسمه فقط، وصورة مبتسمة له بجوار الكوة التي دفن فيها.

تقدم تشاكالтана والرجل العجوز عبر شارع مكتظ بعربات تجر باليد والباعة الجائلين. ينقل بعض الباعة الدجاج وخنازير غينيا، وجميعهم على عجلة من أمرهم.

حين وصلا عند باب صغير جدًا، دفعه العجوز دون أن ينادي على أحد وسار تشاكالтана خلفه. المساحة الداخلية عبارة عن غرفة ضيقة بلا نوافذ، ومعبأة برائحة المقلبات. جلس أربعة من الصينيين متكديسين فوق الطاولة الوحيدة الموجودة في المكان، وهم يتناولون الحساء بصوت مرتفع. لم تبقى مساحة على الطاولة تقريبًا، لكن دون جوثالو عشر لنفسه على مكان في أحد الجانبين، وجلس تشاكالтана في مواجهته. في ظرف لحظات، استقر إناءان من نفس الحساء أمامهما. أمسك دون جوثالو بزوج العصي الصغير وبدأ يأكل. على الرغم من مشكلة ذراع، كان يقوم بالمسألة بصورة أفضل من تشاكالтана، إذ فشلت كل محاولات مساعد الأرشيف لرفع أي شيء صلب بعصويه. بحث عن ملعقة من أجل الحساء، لكن لا وجود لمثل هذه الأشياء فوق تلك المائدة.

- ما هي آخر مستجداتك يا فيليكس؟ هي زيارة مفاجأة.

- أتمنى ألا أكون قد أزعتك. في ذلك اليوم دون جوثالو، خرجت من منزلي في عجلة كبيرة من أمر، ولم تتصل بعدها، ولم نعرف عنك شيئًا منذ ذلك الحين. بدأت أمي تقلق ورغبت في معرفة ما إذا تضايقت منها.

ضحك العجوز، أو هكذا بدا، لأن الإناء يغطي نصف وجهه. تفهم تشاكالтана إنه يجب عليه أن يقربه من فمه، لكنه ظل عاجزاً عن فهم القواعد الأساسية لتناول هذا الحساء. أعاد دون جونثالو الإناء نحو الطاولة وأجاب:

- لا يمكن لأحد أن يتضايق من أمك يا فيليكس.

- حسناً هي مشوشة.

ربما كان من الأفضل لو استخدم كلمة أخرى، أو لو قصص على دون جونثالو كيف سمع أمه تبكي منذ يومين، وكيف عثر عليها تتحب أمام صورة أبيه، وتعتذر له كأنها خائفة، أو أنها مضطرة الآن لتفسير المسألة للرجل الذي مات منذ أكثر من عشر سنوات. كأن تعاستها عقوبة من الرب أو من الروح لأجل زوجها. لكن تشاكالтана عجز عن قص هذا كله احتراماً لعزة السيدة أمه. تفهم دون جونثالو ما يرمي إليه تشاكالтана، لأنه توقف عن تناول طعامه وارتسم على وجهه تعبير ندم:

- آسف لسماح هذا يا فيليكس.

- لم رحلت؟ لماذا لم تتصل؟

- تأثرت كثيراً بمحادثتنا. آسف.

تجشأ أحد الصينيين الجالسين بجانبها. لم يضحك الباقون. فلم تكن مزحة. بل جزءاً من طقوس الغداء. استأنف تشاكالтана المحادثة:

- لا أعرف ما الذي أثر فيك بهذه الصورة.

قلب دون جونثالو الحساء، كأنه يبحث داخل الإناء عن سببه تعاسته:

- أعدت لي ذكريات مؤلمة للغاية يا فيليكس، حول زوجتي فلترقد في

سلام.

- لم تكن نيتي..

- أعلم أنها لم تكن نيتك، لكنني أظن أن مصادرك محقة. خواكين كان يحملني ذنب.. مسألة أمه. وأنا بالمثل ألقى بالذنب على نفسي منذ أربعين عامًا، وأسأل نفسي: إن كنت قادرًا على إنقاذها، إن كان من الأفضل حينها أن آخذها لمستشفى آخر، إن كان من الأفضل أن نهرب قبل الحرب وليس بعدها..

انكسر صوت الرجل الذي سيطر عليه الأسي. حاول تشاكالانا تهدئته:

- لا تعذب نفسك هكذا.

فوق الطاولة، بدأ رجلان صينيان يتشاجران بصوت عال. تفهم تشاكالانا أن الوجود في هذا المطعم، أو بالأصح غرفة الطعام هذه، مثل العيش على كوكب بلوتو فلا أحد سيسمع ما يقولانه حتى ولو كان على بعد خمسة ستيترات منهما. وقف الصينيان وشرع كل منهما يهدد الآخر جسديًا، لكنهما في ظرف دقائق جلسا مجددًا ليلتهم كل منهما طبقًا من اللفت المخلل. قال تشاكالانا:

- يمكن للمرء أن يغير من الماضي.

أجابته تتممة من دون جونثالو:

- لكن لا يمكنه أن يهرب منه.

تركا الحساء ليبرد. فجأة لم يبد أي منهما جائعًا. واصل العجوز بصوت كأنه قادم من عالم ما وراء الموت:

- كنت دومًا رجلًا سيئًا يا فيليكس. أزدري نفسي. تركت امرأتي وربيت

مجرمًا، لم أكن قادرًا حتى على إنقاذها من ال..

- لم يكن الأمر في متناولك.

- كل الأمور دوماً في متناولنا!

كان رد دون جوثالو عنيفاً. ضرب بيده فوق الطاولة لدرجة أنه أسكت ضوضاء الزبائن في المكان. تعلقت نظراتهم بهذا الثنائي الغريب الذي رد فقط بالنظر من جديد نحو الإناءين. مازال الحساء يرتعش. حاول تشاكالтана أن يقول شيئاً يحسن الأجواء بينهما:

- لتعلم أن ابنك لم يكن مجرمًا.

دون أن يحرك عضلة واحدة من وجهه، رفع دون جوثالو نظرة فضولية نحو تشاكالтана. لم يقل شيئاً وافترض مساعد الأرشيف أنه ينتظر سماع المزيد:

- كان يعمل لصالحنا.

تلعثم وهو ينطق كلمة «لصالحنا» قبل أن يصوبها:

- أرغب في القول إنه كان يعمل لصالح الدولة، لصالح جهاز الاستخبارات، وفقاً لحبيته..

- الشقراء المتزوجة؟

- صحيح. وفقاً لها، فإن خواكين نفذ مهاماً سرية. ليس مجرمًا. كان مهندسًا. وبكل تأكيد قتلوه حينما كشفوه. هكذا جرت الأمور ومات كبطل.

ظل دون جوثالو ثابتاً كتمثال، وهو يحلل كل كلمة من كلمات تشاكالтана، متحصنًا خلف إناء الحساء البارد. نهض رجلان صينيان من على المائدة. أوشكت ساعة تناول الطعام على الانتهاء. قال العجوز:

- أن تكون خائناً أفضل من أن تكون مهرباً، أليس كذلك؟

- لم يكن ذنبك دون جونثالو. قام بالعمل وهو يعرف أخطاره. إن هو لم
يخبرك بشيء فهذا لأنه لم يخبر أحدًا به. طبيعة نشاطاته كانت شديدة السرية.

هز دون جونثالو يده في الهواء كإشارة ازدراء:

- كل هذا لن يعيده إليّ، لا هو ولا أمه.

- كما سبق وقلت دون جونثالو، كلاهما مات في حروب، لكنك لست
مسؤولًا عن هذه الحرب. أنت لم تعلنها. كنت ضحية لها أنت وعائلتك.
عليك أن ترى الأمور هكذا وأن تعيش دون أن تحمل نفسك فوق طاقتها.
- الكلام سهل.

- لا. ليس سهلاً. كنت أفضل ألا أفعلها، إلا أنك مهووس بالماضي
لدرجة أنك لا ترى الحاضر. الحاضر هو أمي ويناديك.

قام العجوز بإيلاء غامضة توحى بعدم الاهتمام، كأن تشاكالтана قد
تحدث عن تفاصيل غير مهمة. قال مساعد الأرشيف:

- هذا هو كل ما جئت لأقوله لك.

اعتبر تشاكالтана أن مهمته هنا قد انتهت. نهض بكرامة وحينها فعلها
شعر بأن معدته تقرقر. لم يكن حتى قد لمس الحساء الذي بات الآن يبدو
كمستنقع من الشعرية وأشياء أخرى خضراء. فكر في أنه في طريق العودة
سيتناول شطيرة. نهض جونثالو معه، لذا أحنى تشاكالтана له رأسه في إشارة
احترام خفيفة ثم استدار. قبل أن يرحل عن المطعم سأله:

- هل ستأتي لزيارة أمي؟

أجابه العجوز:

- سنرى.

ودون أن يضطر للالتفات ليراه، علم تشاكاللتانا أن عينيه وأنفه سيكونان
أكثر احمرارا من ذي قبل.

لدى عودته للقبو، مر مساعد الأرشيف فيليكس تشاكالثانا سالديبار لزيارة مديره. لم يره منذ يومين، وفي المرة الأخيرة وجده قلقًا من استدعاء وزارة الحرب. توجب عليه أن يعلن عن وجوده، حتى وإن كان هذا ليوضح فقط أنه مازال حيًا. وجد المدير في غرفته نائمًا على مقعده بساقين مرفوعتين فوق المكتب. يشخر بصورة متقطعة كأنه على وشك الغرق وشعره الجانبي الذي بدا كلسان مرسلًا نحو الخلف. لولا أن الأمر لا يصح أن يصدر من قبل مرؤوس، لاقتراح عليه تشاكالثانا أن يشتري شعرًا مستعارًا.

- سيدي؟

لم يجد ردًا. رفع تشاكالثانا صوته:

- سيدي؟!

استيقظ مدير الأرشيف وهو يسعل ويرتج كسيارة قديمة. توقفت نظراته عند مساعده، بعدما استعاد إدراكه:

- ابني! يا فرحة عيني!

- آسف لغيابي يا سيدي. حاولت ألا أكون سببًا في أي معوقات بسبب الـ..

أصر المدير:

- لا تقلق. لا تقلق. أعرف أنك الآن بت صديقًا جميلًا للأدميرال كارمونا. أنت تنظر لأعلى يا بني وأنا الذي كنت أرغب في أن أجعلك على اتصال بمن في الطابق الثالث! الأمر كان كمحاولة جعل هدف فريق ما على اتصال بنقابة السقائين، أليس كذلك؟

- آسف على غيابي يا سيدي.

أصدر صوتًا بدا كأنه نوبة سعال من جديد، وإن أوحى طريقته بأنها من المحتمل أن تكون ضحكة. استمر تشاكالنانا في اعتذاره:

- أتمنى ألا يكون غيابي قد تسبب في وقوع أي عائق..

انزل المدير قدميه من فوق المكتب وهو يتشاءب:

- فيليكسيو، أنت تعرف كيف تسير الأمور. لا يحدث شيء هنا، وأيضًا، إذا أوكل إليك الأدميرال مهمة، فليس لدي نية للتدخل.

لأول مرة تحدث المدير معه وكأنه ليس طفلًا أحمق، كان يتحدث معه كأنه طفل، لكنه طفل ذو سلطة، طفل له قدرة طاغية، كأنه ابن الملك، أو أمير.

- شكرًا يا سيدي.

- بالمناسبة، خذ هذا.

مد له المدير يده وبها مربع صغير من الورق المقوى. اعتقد تشاكالنانا أن أمرًا قد جاء بإصدار بطاقات تعريف جديدة، لكن هذه البطاقة كانت ذات لون وردي داكن، وعليها فتاة ترتدي ملابس مثيرة، وفوق هذه الخلفية يلمع اسم نزل «تروبيكال» وعبارة «السرية مضمونة».

- سيدي؟

- هو نزل في الكيلو الخامس والنصف على الطريق الرئيسي. أتذكر ما قلته لك بخصوص أن تبحث لنفسك عن فتاة؟

أوما مساعد الأرشيف برأسه، لكنه لم ير صلة بين هذه المحادثة وحياته. أهداه المدير إحدى ابتساماته المخيفة:

- لقد حانت لحظتك يا نمر! لا شيء يجذب النساء أكثر من السلطة يا بطل! أنت الآن تعمل مع الأدميرال، من الأفضل أن تشتري لنفسك واقيات ذكزية، ولا داعي للشكر. أنت اليوم وأنا غداً، أليس كذلك؟

تفهم مساعد الأرشيف أنه سيصعب عليه كثيرا إبقاء أنشطته سرًا، لكن النزول وكل ما هو على شاكلته ليس مصدر قلقه الرئيسي في تلك اللحظة. احتفظ بالبطاقة محاولاً تصنع الاهتمام وحاول تغيير الموضوع:

- هل هناك شيء يمكنني القيام به لمساعدتك؟ أفكر في قضاء المساء هنا.

قالها كأن الالتزام بمواعيد عمله يعد خدمة لمديره، لكن الأخير لم يهتم. كانت لديه أمور أخرى في ذهنه:

- أتعرف ما الذي يمكنك أن تفعله يا فيليكس؟ أقصد هل ترغب في سعادتي؟

يستخدم المدير دومًا أقل المصطلحات مهنية لوصف الأمور، لكن مع مرور الوقت طوّر تشاكالانا قاموسه الشخصي ليرجم ما يقصده؛ هكذا «سعادتي» كانت تعني «تنفيذ واجباتك بكل جدية ومسؤولية»، أو على الأقل هكذا كان تفسير تشاكالانا للعبارة.

- بالطبع يا سيدي. سأكون ممتنا.

- لماذا لا تنظم اجتماعا صغيرا لمشاهدة مباراة الأحد؟ الأدميرال وأنت وأنا؟ البرازيل هزمتنا، لكننا ستتغلب على بولندا بكل تأكيد؟ من هي بولندا أساسا؟ أي لعب قد لعبوه حتى الآن؟ أيضًا، إذا أراد الأدميرال، يمكنني أن أقترح عليه كيف يراهن.

- سأفكر في المسألة يا سيدي. إذا رأيت الأدميرال قبلها، أتمنى أن تتاح لي الفرصة لأخبره بمقترحك.

كان المدير يهدم شعره ويعقد ربطة عنقه، وبينما يفعل أفلت نظرة شك نحو مساعده:

- بكل تأكيد يا بطل . شكراً .

بعدها بعشرين دقيقة، بعدما تأكد من أن تشاكالтана سيظل على مكتبه، رحل المدير عن الأرشيف .

راجع تشاكالтана درج الملفات العالقة، حيث تراكم تحقيقات متأخرة وطلبات إخطار بمعلومات ووثائق من كل الأنواع . في ظرف يومين، تراكمت كمية كبيرة من العمل . شرع تشاكالтана ينفذ مهام عمله بحماس . شعر بالاسترخاء من منظور أنه سيحرر ويوقع ويختم ويرسل وثنائق . أعادته الأعمال الروتينية الصغيرة لعالمه التقليدي المسالم، ذلك العالم الذي استشعر بعده، كأنه خرج منه منذ سنوات، إلا أن عطر سوسانا أراندا المنعش عاد ليجره من عنقه باستمرار ويلهيه عن واجباته . كان قد بدأ يرتب الملفات العالقة حينما سمع جلبة؛ سقوط خزانة محفوظات أو ربما كتاب يغلق . لاشيء خارج الإطار المتعارف عليه، باستثناء أن تلك الجلبة خرجت من بين أروقة الأرشيف، المكان الذي يفترض أن لا أحد فيه، صاح مساعد الأرشيف:

- من هناك؟

لم يأت رد . افترض تشاكالтана لعدة لحظات أنه ربما يتخيل، لكن صوت الجلبة كان جلياً . أحداً ما - أو شيء ما - قد تسبب في حدوثه . سأل مرة أخرى:

- هل يوجد أحد هناك؟

لكن لم يلبّ كلماته إلا الصمت . توغل تشاكالтана في ممر ملفات «أضرار الملكية الخاصة»، فالجلبة غالباً صدرت من هنا . ربما كان فأراً . العمل في القبو - بجوار الحجز - ليس أنسب شيء بالنسبة لنظافة المكان، لكنه بعد أن خطا

عدة خطوات في المر، تمكن من ملاحظة شيء ما بنفس ارتفاع رأسه يتحرك بين الكتب. لو كان حيوانًا فهو حتمًا بحجم إنسان. لم يقل شيئًا في تلك المرة. استمر في طريقه حتى النهاية ثم انعطف نحو اليمين، نحو ممر «جرائم الشرف». لا أحد يستطيع التحرك في تلك المتاهة المليئة بالأضرار والجرائم والمخالفات بنفس انسيابية مساعد الأرشيف تشاكالثانا. لم يتجول أحدهم فيها بقدر المرات التي قطعها بنفسه، وبالمثل لا أحد يعرف خباياها ومخارجها بالتفصيل مثله. انعطف بعدها مرتين وعاد ليلمح بريقًا لحركة بين ممري «الاعتداء على المرافق العامة» و«جرائم القتل». كان هذا هو الطريق نحو ركن الأرشيف الأخير، وهكذا لم يتبق سوى مخرج واحد. اقترب تشاكالثانا منه. أيا كانت هوية زائره الغامض، فسيعلق الآن في وسط الطريق. تحسبًا لأي حادث عنيف، أمسك في يديه بدفتري بلاغات ضخمين ليستخدماهما كسلاح أو كدرع، ولأنهما لم يبدوا له كوسيلة دفاع كافية، فقد رسم الصليب انعطف للمرة الأخيرة قبل أن يرى الوجه المتواري بين الأوراق. تقدم بخطوات بطيئة. تبقى لديه وقت ليتساءل إن كان الخروج من هنا هو التصرف الأكثر حكمة، إلا أنه تذكر تنفيذه لمهام أكثر خطورة من التجول بين الكتب وتسليح بالشجاعة. في نهاية ممر «جرائم القتل» واجه زائره. حاول أن يهدده بدفتري البلاغات، إلا أن تصرفه بدا كدفاع أكثر من أي شيء آخر، لدرجة أنه فعلها مغلق العينين. عاد ليفتحها على الفور. تسارعت دقات قلبه وجف حلقه. كان من أمامه هو دانييل ألباريت بانياغو، بلحيته المعهودة، إلا أنه يرتدي -ولو لمرة واحدة في حياته- قميصًا نظيفًا أبيض اللون.

سبق وأخبره الأدميرال كارمونا:

- لا تذهب للبحث عنهم. اتركهم يأتون لك.

كان محققاً، فها هو دانييل ألباريث، عدو الدولة، الإرهابي، يسير بجوار مساعد الأرشيف فيليكس تشاكالانا في وسط ليما متأملاً الشرف الكولونيالية ومبدئياً إعجابه بالكنايس الفرنسييسكانية قبل أن ينعطف معه يساراً نحو حانة «كوردانو»، كأنها صديقان قديمان يتمشيان في الحي.

سأله تشاكالانا بينما يجلس فوق مائدته المعتادة:

- شاي؟

بدا ألباريث منزعجا وهو ينظر في كل الأنحاء حوله:

- قهوة.

ظلا صامتين حتى جلبوا لهما المشروبين. كان قصر الحكومة يظهر عند أحد الجانبين عبر باب الحانة، ومحطة قطارات «ديسامبارادوس» في الناحية الأخرى، تلك المحطة التي كان تشاكالانا يجد اسمها جميلاً وحزيناً في الوقت ذاته.

قال ألباريث:

- لم أظن أنك ستأتي بي إلى حانة. ظننت أنك لا ترغب في أن يراك أحد معي، ولهذا اختبأت في الأرشيف.

قال تشاكالانا لنفسه «ربما لهذا السبب أو ربما فعلتها لتلصص وتتجسس أو ربما لغرض أسوأ»، إلا أن ما قاله بصوته كان:

- كنت أرتاد المكان دومًا مع خواكين واعتاد أن يطلب كوبًا صغيرًا من العصير.

- كان رجلاً له عاداته.

- رجل نبيل.

كان مساعد الأرشيف يشعر بالثقة وبسيطرته على الوضع، فمنذ لقائهما الأول في الجامعة وبعدها في ملاذ بازانكو، تبدلت أدوارهما كثيرًا، فبعدهما تولى تشاكالтана مسؤولية تنفيذ إجراءات إطلاق سراحه وإنقاذه في المطار، صار ألباريث يدين له. استطاع ملاحظة المسألة في طريقة تعامله الخائفة والمنكسرة. لقد فقد غطرسته.

- أنا..

بدأ ألباريث حديثه بهذه الكلمة لكنه لم يدر كيف سيكمله قبل أن يعثر على الكلمات:

- لم أشكرك على ما فعلته من أجلي. أظن أنك قد أنقذت حياتي. على الأقل انتزعنتي من بين برائن الأرجنتين. أنا وأنت نفهم الكثير من الأمور بصورة مختلفة، لكن أعتقد أنك أمين وشجاع. أرغب في تقديم الشكر لك.

خفض نظرتة. إنه بكل تأكيد معتاد على الخطابات البلاغية العظيمة حول وضع العالم، لكن التواضع تصرف جديد عليه ويصعب عليه التعامل معه. تناول تشاكالтана رشفة من شايه وشعر به يحرق شفتيه، لكنه حاول إخفاء المسألة. لم يرغب في أن يظهر ضعفه. استجمع رباطة جأشه وقال:

- أنت لم تأت إلى هنا لهذا السبب أيها الشاب. أنتم لم تأتوا لتوجهوا لي الشكر.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الشاب:

- كما يقولون في المثل: لا تبع الماء في حارة السقائين، أليس كذلك؟

- لا أعرف ما تقصده. أنا لست سقاء.

ابتسم ألبارث مجددًا، لكنه أزال الابتسامة عن وجهه وحلت مكانها ملامح الجدية. ربما تفهم أنه مهما كان مفهوم المزاح عنده غريبًا، فإنه لدى تشاكالтана أغرب. قال له:

- لقد اختفى أحد أنصارنا.. فكرت في أنك قد.. أنت تعلم.. أنك قد

تساعده.

ترك فوق المائدة صورة كُتب اسم على ظهرها، مثل تلك الصور التي كان يحتفظ بها خواكين في درجه السري. تعرّف تشاكالтана عليها كواحدة من صور الدرج السري. شاب قمحاوي ذو عينين واسعتين واسمه روبرتو برغارا نابوري. نسخة أخرى من نفس الصورة بحجم الكارنيه. لا بد وأن المتمردين لديهم نسخ كثيرة ليطبّعوا أكبر قدر ممكن من جوازات السفر المزورة. فحصها مساعد الأرشيف، كأنه يفعلها للمرة الأولى، ثم سأل كأنه محترف:

- هل هناك شهود على اعتقاله؟

- لا.

- إذا ريبا كانت حادثة.

- ليس لدينا «حوادث».

شدد الشاب على أحرف الكلمة الأخيرة وهو ينطقها بنبرة ساخرة.

- أين اختفى؟

- أثناء مظاهرة احتجاجية هنا في وسط المدينة. كان الزملاء يطالبون بانتخابات نظيفة وضمانات للمعتقلين السياسيين. هاجتهم الشرطة وفرقتهم. حينما التقى زملائي في نقطة تجمعهم، كان روبرتو قد اختفى. نحن لا نعرف أين هو منذ يومين.

مظاهرة احتجاجية أخرى. تساءل تشاكالانانا إن كان هؤلاء القوم لهم عمل أو مشاغل أو على الأقل هواية باستثناء التآمر. أجابه بطريقة جافة بعدما وضع الصور في جيبه:

- سأحاول القيام ببعض الاتصالات.

بدا الآخر راضياً. ارتخت ملامح وجهه، وساد بين الاثنين صمت لم يعد مزعجاً، كصمت بين صديقين لا يشعر أي منهما بأنه مجبر على الحديث طوال الوقت.

سأله الطالب:

- لماذا تفعل ما تفعله؟

- شرب الشاي؟

- مساعدتنا. أنت تكشف نفسك. هذه مخاطرة.

- أقوم فقط بواجبي. الاعتقالات غير القانونية هي.. غير قانونية.

- ومن قديمه هذا؟ هذا الرئيس قام بانقلاب عسكري والسابق أيضاً.

لا يقلقان كثيراً بشأن القانون.

- الآن يقلقان. يوم الأحد سنختار جمعية تأسيسية وبعدها بعامين

سيكون لدينا حكومة مدنية وديمقراطية. سنستعيد سلطة القانون والفضل للعسكريين.

ابتسم ألبارث مجدداً، إلا أنها هذه المرة ابتسامته تنم عن السخرية، أو ربما الأسف.

- كل هذا عبارة عن مسرحية هزلية يا تشاكالانا. هذه الانتخابات بكل تأكيد ستخضع للتلاعب.

- ربما لا.

- حتى ولو حدث هذا فالحكومات تتغير ليظل كل شيء كما هو وإذا كانت هناك فرصة حقيقية للتغيير سيقومون بانقلاب آخر ونعود لنقطة البداية.

- سنرى حينها.

- لا تقلق. سنرى حينها بكل تأكيد وحينما ترى أنت ما سيحدث وتتضح كل الأمور لك، ستقف بجانبنا، كما فعل خواكين.

مر في عقل تشاكالانا تتابع للذكريات: صور الدرج السري، خواكين كالبو و«مات الملك» بفيلين وحصان، ربط الكرافات بعقدة «ويندسور» كما علمه، الأعلام الحمراء، الشقة المحطمة.

سأله تشاكالانا:

- هكذا قمتم بتجنيدته؟ أليس كذلك؟ أتحدث عن خواكين. قام لكم بخدمة في البداية ثم طلبتم منه أخرى وحينما أراد أن يعلم في أي شيء قد أقحم نفسه، وجد نفسه غارقاً حتى عنقه في حربكم أو ثورتكم أو أيا كان ما تفعلونه. هذا هو ما ترغب في أن تفعله معي.

اكتسى صوته بالمرارة. عليه ربما ألا يتحدث بهذه النبرة إذا رغب في تنفيذ مهمته، لكن هذه الكلمات خرجت دون أن يفكر فيها، تبرعت في قلبه، أو ربما في كبده.

- نحن لم «نجند» خواكين.

شدد ألباريت على كل حرف في كلمة «نجند» هذه المرة، لكنه فعلها بنبرة حانقة ظل محتفظا بها حتى أنهى إجابته:

- هو رجل يؤمن بالحرية وبالشعب. ومستعد لأي تضحية من أجل أفكاره.

- ولهذا قتلتموه؟

خرجت عينا الطالب بعد الاستماع لهذا من محجريهما:

- ماذا؟

- خواكين كان عميلاً للاستخبارات وكنتم تعلمون هذا.

وهو يقولها تذكر تشاكالتانا سوسانا أراندا مجدداً وهي تعانقه في قلق بالمقبرة، لكنه استعاد خيط المحادثة. حينها سأله الطالب باندهاش جلي:

- كان ماذا؟

- لا تتحامق معي، فأنتم بطريقة ما تحققتم من أنه مندرس وتخلصتم من وجوده بينكم، أليس كذلك؟

- لا.

- طلقه واحدة في جبهته. مسدس قديم غير نظامي في أي جيش. نوع سلاح يصعب تعقبه ويتلاءم مع الجماعات الإرهابية..

- لا!

تهور ألباريت في تلك اللحظة ورفع صوته، لكن مجموعة من السائحات الشقراوات دخلن في تلك اللحظة إلى حانة كوردانو، وبدأن في الحديث بلغة

غير مفهومة. يرتدين تنورات قصيرة جداً وغير معتادة في ليا، ولذا فقد لفتن انتباه الزبائن. على النقيض من البقية، لم يفكر تشاكالانا في أجساد ونهود السائحات. فكر في المخبأ الصغير الواقع بالحى الصيني الذي تناول الغذاء فيه ذات مرة، وفي القدر: يتعرف رجل على امرأة، يولد أبناؤهما في بلد يغلب على سكانه الشعر الأسود والعيون الضيقة، أو الشعر الأشقر والتنورات شديدة القصر، أو بلد للقتلة والعاجزين.

تمتم ألباريث، هذه المرة بصوت يكاد لا يسمع:

- حسناً.. لا أعرف.

- كيف تقول إنك لا تعرف؟

- لا أعرف تعني لا أعرف. هذه المسألة يجب أن نتحدث عنها مع

مندوثا؟

- ومن مندوثا هذا؟

احمرت عينا الطالب في تلك اللحظة وفقدت نظره شيئاً من طمأنينتها. كان قد أنهى قهوته وبدأ يتلاعب بعصية بقطع من منديل قد مزقه ثم قال:

- مندوثا هو أحد جهات الدعم من حركة «مونتونيروس» في الأرجنتين. ينسق عملية خروج الأرجنتينيين الذين نستقبلهم في منازلنا. هو كرئيس، وإن كنا ليس لدينا هيكل عمودي للسلطة. نحن مجموعة قائمة على التشاور ومعارضة وجود سلطة تسعى لـ...

تفهم ألباريث أنه يجيد عن الموضوع، وقبل أن ينفذ صبر تشاكالانا عاد

إليه من جديد:

- المسألة أن كل الأمور كانت تسير بشكل جيد حتى جاء مندوثا إلى ليا

للاجتماع معنا. حدث هذا من شهرين، كان يقول إن العسكريين يستغلون مونديال كرة القدم لإلهاء الشعب وتنفيذ غزوات معمرة تكتسح كل اليساريين وكل معارضي النظام لإخفائهم. كان مندوثا يرغب في أن يُخرج من الأرجنتين كل من في استطاعته. طلب مساعدتنا، وبكل تأكيد قدمناها له.

- وما هي علاقة خواكين بكل هذا؟

- خواكين كان في الاجتماع ولم يكن مندوثا يثق به. لا تسألني عن السبب. لم يقل لي أسبابه، إلا أنه في الأيام التالية طرح أسئلة كثيرة بخصوص خواكين واقترح علينا ألا نعتمد عليه.

- هل أصدر لكم أمراً بملاحقته؟ بإعدامه؟

- بالطبع لا! تحدثت خواكين ومندوثا عقب الاجتماع على انفراد ولدى خروجه، طلب مني مندوثا ألا أثق كثيراً في خواكين. كانت الكلمات التي قالها تحديداً: «حاولوا أن تلجأوا له بأقل صورة ممكنة».

- لا يبدو كأمر شديد الفظاعة.

- لكنه نشر الشكوك، ولاحقاً لاحظت أن زملاءنا الذين وقعوا كانوا دوماً على صلة بخواكين. ربما لا يعني كل هذا شيئاً، إلا أن أول شخص تعرض للاعتقال هو صاحب الوثائق التي يحتفظ بها. اختفى آخر بعدها كان جهة الاتصال مع خواكين. بعدها جاء الدور على راميرو وعليّ، اثنين من طلابه. أما الأخير روبرتو، فهو المسؤول عن الدعاية التي يأخذها من شقته.

- هل تحدثت مع أحد عن كل هذا؟

- لم أتحدث مع أحد قط. لم يشر أحد للمسألة. لا أعرف إن لاحظها أحد غيري أو كانت لديه شكوك، وحينما مات سلمنا بأنه مات كضحية للقمع كأمر شائع.

- وأين هو مندوثا هذا؟

- في الأرجنتين بكل تأكيد حيث يعيش. إذا كان ما تقوله هو الحقيقة، فهو الوحيد الذي قد يعرف شيئًا عن الأمر.

كان الأدميرال كارمونا محققًا: «انتظر حتى يأتوا لك. إذا نفذت الأمور بصورة جيدة، سيحكون لك كل شيء بمفردهم». افترض تشاكالانا أنه سيفخر به حينها يتوجه له مع كل المعلومات التي جمعها. ففكر مساعد الأرشيف في مواصلة أسئلته، لكن في تلك اللحظة قام أحدهم بتغمية عينيه من الخلف. لم يكن لديه أي سبيل لمعرفة ما الملامح التي ارتسمت على وجه الطالب حينها، إذ تسارعت نبضات قلب تشاكالانا وتذكر شكل البارث نفسه وهو يهبط من الطائرة بغطاء فوق رأسه. تذكر كلماته: «حينها يضعك العسكريون في طائرة، فهذا لأنهم سيذهبون بك لأرض مقفرة ويقتلونك». خشى للحظة أنه ينتظره نفس المصير. لم يستغرق الأمر سوى لحظات حتى سمع صوتًا عذبًا معروفًا ولحسن الحظ أنثوي. صوت سيسيليا وهي تقول:
- عرفت أنك ستكون هنا! هل بت تصدق الآن أنني أعرفك جيدًا؟

- هل قاطعتكما؟

رغب تشاكالтана في أن تكون إجابته هي «نعم». كان متوترًا من وجود سيسيليا وألباريث على نفس الطاولة. هما طرفان من حياته لا يجب أن يلتقيا تحت سقف واحد. بلا شك كان عميلًا سرّيًا بائسًا. أدرك أنه لا يجب عليه أن يصطحب مخبرين إلى أماكن تشكل جزءًا من حياته الشخصية، إلا أن الوقت تأخر على هذه الملاحظة. استقبلها الطالب بابتسامة:

- لا. على الإطلاق. كنا على وشك الانتهاء.

كما تنص القواعد والأصول، وجد تشاكالтана نفسه ملزمًا بطلب شيء ما. طلبت سيسيليا عصير البرتقال وألباريث فنجانا آخر من القهوة. لم يطلب مساعد الأرشيف شيئًا. كان يفكر في فض هذا الاجتماع مع أول فرصة، لكن المحادثة بدأت تنساب بصورة طبيعية، بصورة تتخطى حدود ذوقه الشخصي.

سأل ألباريث وهو ينظر لهما:

- هل أنتما...

نظرت سيسيليا لتشاكالтана، كأنها توكل له مسؤولية الإجابة على هذا السؤال. تتمم مساعد الأرشيف:

- ص... صديقان. صديقان مقربان، أليس كذلك؟

أرسلته له سيسيليا ابتسامة مأكرة، إلا أن الرد على ما يبدو قد زاد من اهتمام الطالب:

- هل تعملين في مجمع المحاكم أيضًا؟

أجابته:

- وهل ترى أن وجهي يشبه القاضي؟

- لا. في الحقيقة، وجهك يوحى بالثقة.

ضحك الاثنان، ربما بحماس مبالغ فيه. تساءل تشاكالтана إن كانا يتغازلان. لم يكن يتمتع بخبرة كبيرة في المسألة، لكن، بصفة عامة، بدا له أن شخصين قد تعارفا للتو لا يجب أن يضحكا معا كثيرًا، وليس على حماقات أكثر من اللازم. ليس أمرًا لاثقا. وجهت سيسيليا نظرها فجأة نحو ألباريث ثم سألته:

- وأنت؟ في أي شيء تعمل؟

هذا هو الشيء ذاته الذي يجب تشاكالтана أن يعرفه. رد ألباريث بطمأنينة شخص قد تدرب على إجابة هذا السؤال عدة مرات:

- أنا أستاذ تاريخ. أعمل في مدرسة.

- وهل تتحلى بالصبر مع الأولاد؟

- أتحملى بالصبر.. حتى مع البنات.

ضحكا من جديد. كان لدى تشاكالтана انطباع أنها قد نسياء.

- أنا أعمل بالقرب من هنا، في صحيفة «إل كومرسيو». أبيع مساحات

فارغة في الإعلانات المبوبة. هل ترغب في وضع إعلان؟

- بكل تأكيد! بالطبع!

نظر الطالب بتركيز في وجه سيسيليا وقال وهو يضغط على كل كلمة:

- «أشترى عيوناً سوداء لامعة وجميلة. الرجال يمتنعون. أي واحدة سواك، فلتمتنع».

نظرت إليه بعينيها السوداوين اللامعتين الجميلتين، وبينما تضحك تضرجت وجنتاها. شعر تشاكالтана بموجة من الغضب تصعد من معدته. لم يسبق ورأى قط سيسيليا تضحك بمثل هذه الصورة. تمتم:

- أعتقد أننا يجب أن نرحل.

لكن المحادثة بين الاثنين استمرت ومع كل كلمة شعر مساعد الأرشيف أن لا أحد يراه.

قال الطالب:

- هل سبق وزرت تشاكالكايو؟

- بكل تأكيد سبق وزرت تشاكالكايو!

- أفكر في الذهاب إلى هناك في عطلة أحد الأسابيع القادمة لأخيم مع مجموعة من الأصدقاء. أعرف مكاناً جميلاً بجانب النهر. ما رأيك أن تأتي؟

انطلقت كل أجراس الإنذار لدى فيليكس تشاكالтана. تخيل سيسيليا محاطة بشيوخ وعلماء مخربين دون أن تدرك كينونتهم، والأسوأ من ذلك هو أنه تخيلها تعرف من هم ويعجبها الأمر.

- يجب علينا أن نذهب.

قالها هذه المرة بصوت مرتفع وعصبي. فقد الأسلوب الواثق والحاسم الذي تعامل به منذ لحظات. لم يتمكن من استعادته.

سأل ألباريت:

- هل سترحلان معاً؟ ظننت أنكما صديقان فقط.

لم يرغب تشاكالтана في الرد. أخرج بعض العملات النقدية من جيبه وتركها فوق الطاولة دون أن يعدها حتى. كانت تفاصيل حياته الشخصية تتعري. ويجب عليها أن يبقيا سرًا. تفهم الغاز وأسرار خواكين كالبو واضطراره لأن يلتزم الصمت بخصوص حياته الشخصية.

قالت سيسيليا بنبرة مستفزة:

- كان لدي أنا أيضًا نفس الظن. إلى أين سنذهب؟ نحن هنا في أفضل حال؟

- تعالي معي.

أمرها تشاكالтана بنبرة سلطوية، لكنه ندم وأضاف بنبرة أفضل:

- من فضلك. أرغب في الحديث معك بخصوص أمر ما.

أمسكها من يدها وجذبها وهو الأمر الذي لاحظته ألباريت. خشي تشاكالтана من أن تقاومه سيسيليا وتزداد صعوبة الأمور، لكنها لحسن الحظ استسلمت. نهضت وأخذت حقيبتها دون أن تثير جلبه، إلا أنها توقفت قبل أن ترحل عن الطاولة وكتبت رقم هاتفها لألباريت على منديل، ثم قالت له:

- اتصل بي للذهاب إلى تشاكالكايو.

قبلته بعدها. أغلق تشاكالтана عينيه لكيلا يعرف أين قبلته. بدأ مساعد الأرشيف يسير بسرعة. وهما في الشارع، كانت سيسيليا خلفه تحاول أن تلحق خطاه:

- فيليكس! فيليكس! ما بك؟

أجابها بجفاء:

- أنا في خير حال.

- إلى أين تذهب؟

- إلى أي مكان. للتنزه.

كان يسبقها بخطوتين ويتحدث معها بنبرة مستاءة واقتضاب دون أن ينظر نحوها، لكن أليس هو من قال إنها صديقان؟ لماذا إذن هو غاضب بهذه الصورة؟ لدى سيسيليا الرد بكل تأكيد. قالت له، دون أن يبدو عليها أي ضيق، بل وربما بعدما فهقت:

- أنت تشعر بالغيرة.

- هذا ليس صحيحًا.

- أنت تشعر بالغيرة!

دخل تشاكالтана باحة كنيسة القديس فرانسيسكو. أمام واجهتها الباروكية كان عدة عجايز يلقون بقطع من الخبز للحمام الذي يتزاحم عليها. هبط بعض الحمام أمام تشاكالтана ليقطع طريقه. قال:

- الأمر ليس كما تظنين.

- إذن ما المشكلة؟

- يجب عليك ألا تتحدثي مع هذا الرجل.

- وأنت يجب عليك أن تتحدث معه؟

- أنت لا تفهمين المسألة؟

- بل أفهمها. أنت الآن تخرج مع المرأة العجوز التي قبلتها في ذلك

اليوم، أما أنا فيجب أن أبقى مرتدية زي القديسات. أنت ذكوري وأنا أني!

اهتز تشاكالтана من الداخل مع الإشارة لسوسانا أراندا. تذكر تلك

القبلة، وسط الشارع والعناق قبل الخروج من المقبرة، هذا العناق العفوي

بل والحنون، لكنه مهما كان مهووسًا بهذه المرأة، إلا أنها في النهاية زوجة مديره وكانت عشيقة خواكين. هي من عالم آخر، لن يقطنه تشاكالтана أبدًا. المسألة ليست سوى وهم. بخلاف هذا، فإن رؤية سيسيليا تتسلى مع رجل آخر قد أغضبته وأخرجته عن طوره. لا. الأمر لا يرتبط فقط بشخصية ألباريت، لكنه لن يعترف بهذا أمام سيسيليا، فهو يشعر بأنها شيء يخصه، شيء لا يمكن لأحد المطالبة به. استدار لمواجهتها وهي توجه له نظرة مفعمة بالتحدي والغضب. خلف سيسيليا، كان سرب من الحمام قد بدأ في الطيران ليقف فوق قبب وأقواس وأسياخ الكنيسة. اقترب تشاكالтана منها وبأكثر صوت ثابت نطق به منذ أن ظهرت قال لها:

- هل ترغيبين في الذهاب للسبنا؟

- ماذا؟

- ترغيبين في مشاهدة فيلم؟ أليس كذلك؟ فيلم الممثل ترافيلي.

- اسمه ترافولتا. والفيلم اسمه «شحم».

- يمكننا أن نذهب الآن.

- حسنًا.

في هذا الفيلم، لم يرتد ترافولتا تلك القمصان زاعقة الألوان، بل قميصًا أسود وقد صمغ شعره كأنه عرف ديك أسود. كان الرقص لا يتوقف في فيلم «حمى ليلة السبت»، وفي «شحم» كان أيضًا يغني. كانت سيسيليا تشاهده مأخوذة. فكر تشاكالтана في أن العمل كنجم سينمائي نشاط منهك. في لحظة ما، حينما كان ترافولتا يعترف بحبه لأوليفيا نيوتين جون، أمسك تشاكالтана بيد سيسيليا وشبكت هي أصابعها بأصابعه، وبعدها قبلًا بعضها على وقع أغنية هادئة. أمام سوسانا أرنادا، قلل تشاكالтана من جمال هذه الفتاة، لكنه

الآن بينما يداعب وجهها في ظلمة السينما، بدا كل جزء من بشرتها مثالية، وكأنه انتظرها طيلة حياته.

في الحافلة، تزايدت حدة القبلات وأمام منزل سيسيليا ربما أكلها بقبلاته. تساءل دومًا كيف سيتصرف حينما تحين ساعة لقاء حميمي، لكنه الآن تفهم أنه لا توجد حاجة لدراسة دورة لإجادة هذه الأمور، فجسده سيقوده عبر الغريزة نحو الطريق الصحيح. قالت له دون أن تتوقف عن معانقته:

- لا يمكنك الدخول. جدتي في الداخل.

- أرغب في..

تشكك قبل أن يكمل عبارته.

- أرغب في أن أكون بصحبتك.. داخلك.

قالت بنبرة ساخرة وهي تخرج مفتاحها:

- لكن هذا غير ممكن في أي مكان. أتتذكر؟ لا في منزلك ولا منزلي ولا شقة صديقك..

طقطق تشاكاليتانا بلسانه. كان لا بد من وجود حل، مكان لها. أهدى سيسيليا مداعبة أخيرة بيد ووضع يده الأخرى في جيبه. اصطدمت أصابعه بالبطاقة التي أعطاها له المدير في نفس المساء. تذكر تشاكاليتانا لونها الوردي القاتم واسم نزل «تروبيكال» والشعار المشجع المكتوب عليها ثم قال:

- لدي فكرة. أعتقد أنني أعرف أين قد نذهب.

- ليس الليلة.

في الفترة الزمنية الواقعة بين ليل السابع عشر وفجر الثامن عشر من يونيو، حلم تشاكالثانا بأنه نائم في زنزانة سجن ضخمة ومظلم. لا يرى شيئاً تقريباً عبر قضبانه. فجأة ظهر ضوء كشاف يقترب عبر الرواق. حبس مساعد الأرشيف أنفاسه. كان عاجزاً عن رؤية صاحبه وهو يتقدم عبر الرواق. استقرت حركة الضوء فقط حينما توقف أمام زنزانه وشرع يدور نحو الخلف. رويداً رويداً، أخذ يُسلط على جسد امرأة عارية: قدماها في البداية ثم تلاهما فخذاها، فخصرها، فصدرها وصولاً لعنقها وعند القمة أضواء وجه سوسانا أراندا. أخرج مساعد الأرشيف يداً من بين القضبان واقترب من ذلك الوجه الأنثوي، إلا أنه تحول حينما تمكنت أصابعه من لمسه إلى وجه سيسيليا. حينها انطفأ الكشاف ووسط الظلمات، سمع تشاكالثانا صوت باب الزنزانة يفتح. شعر بجسد ما يتنقل داخلها. كان جسداً ساخناً لا يُسمع له صوت. جلس مساعد الأرشيف فوق القراش، منتظراً أن يقترب هذا الجسد منه. أضواء الكشاف مجدداً، لكن هذه المرة كان كل ما ظهر أمام تشاكالثانا هو كلب ضخمة مسعور بعينين ضخمتين وصففي أسنان يسيل منها اللعاب، وقبل أن ينجح في إصدار ردة فعل، انقضَّ الكلب عليه مستعداً لتمزيقه إرباً. تداخلت زمجرتة ونباحه المتوحشان مع صوت حاد، غالباً صوت إنذار السجن، كان هذا الصوت يزداد قوة وإصرار مع كل لحظة تمر. وبينما يحاول تشاكالثانا الدفاع عن نفسه أمام عضات الكلاب، تفهم أن هذا الصوت ليس سوى جرس الهاتف.

- ماما؟ أمي؟

تأخر عدة دقائق قبل أن يدرك أنه استفاق من حلمه. كان يتعرق. نظر

للمنبه. إنها الساعة السابعة. ستكون أمه غالباً في القداس، فهي منذ رحيل دون جونثالو غير المتوقع، استأنفت استماتتها الدينية بالاستيقاظ فجرًا وبالصيام كتضحية من أجل الرب.

ما زال الهاتف يرن. نهض مساعد الأرشيف وارتدى الخف الصوفي الذي حاكته له أمه لكيلا يسير حافيًا فوق البلاط البارد. بينما يقطع الطرقة، شجع نفسه بالتفكير في اليوم المزدحم الذي ينتظره: أخيرًا حانت ساعة الانتخابات. يجب أن يجتمع مع الأدميرال لإبلاغه بآخر المستجدات، ويبدو كانت ستلعب على استمرارها في المونديال من عدمه، لكن فوق كل هذا لديه موعد ليلاً مع سيسيليا في فندق الكيلو الخامس والنصف. كانت كل الأمور الرئيسية تقريباً في حياته وحياة البلاد ستصل إلى حل في أقل من 24 ساعة.

- مرحبًا.

- فيليكس.

على الرغم من أنه كان مكسورًا وباكياً، إلا أنه من المستحيل أن يخطئ صوت سوسانا أراندا. أراد تشاكالانا أن يخبرها أنه قد حلم بها، لكن قلقه الشخصي اختفى فجأة وبدأ يومه سريعاً بصورة غير متوقعة.

- سوسانا. أنت بخير؟

- فيليكس. لقد اكتشفت أمراً فظيلاً.. فظيلاً..

تحول صوتها لمجرد نحيب وبكاء لدرجة بدت معها كأنها قد غرقت في السماع. أراد تشاكالانا أن يرفع معنوياتها، أن تستريح، أن يلمس يدها.

- سوسانا. حاولي أن تهدئي. سأقدم لحضرتك العون في أي شيء

تريدينه.

- المسألة تتعلق بالطفل يا فيليكس. كل شيء حدث كان بسبب الطفل.
الأمر فظيع.

- سوسانا، أعتقد أنني لا أفهم.

- هذا أمر لا يمكن فهمه.. هذا شيء.. يأتي من الجحيم.

- سوسانا.. اسمعيني.. خذي بعضاً من ماء الزهر. اشربي فنجاناً من
الشاي. استرخي ولنلتقي في ظرف ساعة حيث تريدين ولتشرحي لي مسألة
الطفل هذه.

- الآن لا.. ليس بعد ساعة. سنلتقي في وقت لاحق اليوم.

اتفقا على اللقاء بعد مباراة بيرو في شقة خواكين. كان معها المفتاح
وستنتظره. ستنتظره سيسيليا هي الأخرى في تمام التاسعة في حانة كوردانو
ليذهبا للنزل لقضاء الليلة. سيكفي وقته ويزيد، ففي النهاية لا تفكر سوسانا
أراندنا في قضاء وقت طويل معه. أم أنها تفكر؟ بمعنى آخر، إن المكالمات كانت
ترتبط بتحقيقه، ولم تتصل من أجل.. صحيح أنها قبلته في الشارع وعانقته في
تلك المرة أمام المقبرة، إلا أن أياً من هذه الأمور لا يعني أنها.. هذه الأمور لا
تعني شيئاً بكل تأكيد. قالها تشاكالانا في نفسه بينما يغسل أسنانه بغضب أمام
المرأة. سيسيليا هي فتاته وسيكون وفيًا لها.

كان على وشك الخروج حينما عادت أمه من العظة. متشحة بالكامل
بالسواد وبدت كأن حجمها قد تصاغر خلال اليومين الماضيين. كانت
هالتان سوداوان تحتلان ما أسفل عينيها أيضًا لدرجة أن طبقات الزينة
المتعددة التي وضعتها عجزت عن سترها.

- صباح الخير يا أمي الحبيبة. هل تناولت الإفطار؟ هل ترغبين أن أعد

لك طبق التامال؟

مرت المرأة من جانبه كطيف وحينما وصلت لنهاية الرواق اختفت داخل غرفتها. قرر فيليكس تشاكالانا ألا يضغط عليها. لقد فعل كل ما في وسعه لجذب دون جوثالو لطريق العودة. لم يبق له فقط سوى الانتظار.

في الساعة التي فتحت فيها لجان الاقتراع أبوابها، كان تشاكالانا أمام لجنته وهي لجنة عامة بالقرب من جادة «لا بيا إكسبريسا». وهو يدخل، توقفت شاحنة عسكرية أمامها لينزل منها حراس النظام. كأنه رد فعل طبيعي، رفع تشاكالانا يده عند جبهته مؤديا التحية العسكرية. وكل ما فعله الجنود هو النظر نحوه باستغراب. كانت لجنة تشاكالانا الفرعية في قاعة بالدور الثاني. كان يعي أن أوائل المصوتين قد يوظفون لتغطية الغيابات المحتملة بين موظفي الصناديق، لكن هذا لم يزعجه على عكس بقية المواطنين، فتشاكالانا على النقيض تمامًا من الجميع، ويرى أي عمل عمومي كشرف. على الرغم من هذا كان موظفو كل هذه اللجنة الفرعية قد وصلوا. وما من حاجة لتعويض أي منهم. وقف تشاكالانا في صفه وسلم وثيقة هويته واستلم استمارة التصويت قبل أن يغلق على نفسه كابينه الاقتراع. ترك علامة بالطبع عند خانة «الحزب الشعبي المسيحي» لأنه الوحيد الذي ظهرت فيه كلمة «مسيحي» وليس «شيوعي» أو «ثوري» أو «ريفي». لم يكن لدى تشاكالانا أي مشكلة مع الفلاحين، إلا أنه في تلك اللحظة لم يظن أنهم مؤهلون لقيادة البلاد. لدى خروجه وضع الاستمارة في صندوق الاقتراع وبلبل إصبعه في عبوة الحبر البنفسجي الذي «لا يُمحي».

توجه بعدها نحو الأرشيف ليرتب أوراقه في مكانها. لم يلتق خلال الطريق بأي مظاهرات سياسية، بل تجهيزات لمباراة المساء. رفعت السيارات أعلام بيرو وعزفت ألحان الملاعب عبر أبوابها. كان بيع الكحوليات ممنوعًا في ذلك اليوم بأمر القانون، إلا أن الحانات والمطاعم في وسط المدينة كانت تُفَرِّغ

صناديق إضافية من الجعة لمواجهة يوم طويل مليء بالكحول. قضى مساعد الأرشيف الصباح في مكتبه. بالنسبة له، الأحد هو أفضل يوم للعمل. فهو في النهاية ليس كاثوليكيًا متشدّدًا، وعلى الرغم من أن هذا اليوم مخصص أساسًا للرب، فقد كان يفكر في ختامه بالزنا مع سيسيليا في أحد الفنادق. ربما لهذا السبب توجه إلى عظة كنيسة القديس بطرس قبل تناول الغداء كمن يعتذر قبل ارتكاب ذنب. بينما يصلي، تذكر كلمات سوسانا أراندا: «هذا شيء.. يأتي من الجحيم». صلى من أجلها، محاولاً ألا تتسلل إليه خلال صلاته أي صورة مثيرة لهذه المرأة. تناول طبقًا صغيرًا من الـ«سيبيتشي» وعاد إلى قصر العدل. كان يثق في دقة مواعيد إكتور كارمونا ولم يخطئ. لم ينتظر سوى دقيقتين بالكاد عند البوابة حينما توقفت سيارة ضخمة سوفيتية الصنع بزجاج قاتم وسوداء كأنها تابوت أمام الأسدين الموجودين على جانبي السلم. بداخلها كان الأدميرال، يقطع جولته على مراكز التصويت. في تلك اللحظة وبشكل ما كان يوم تشاكالтана الحقيقي على وشك أن يبدأ.



- كوبياس يحاول الاختراق من قلب الملعب. انتبهوا للعبة الشيطاني.
تمريرة نحو لا روسا المحاصر من قبل البولنديين. لا روسا يبحث عن مخرج.
يعيد الكرة نحو كويتو الذي ينتظر أمام المنطقة، إلا أنه يفقدها. حذار فبولندا
تحكم غلق دفاعها وسريعة في المرتدات. هيا بنا يا بيرو نحو نهائي المونديال!
كان الأدميرال كارمونا قد مد له يده بالسلام، إلا أنه بعدها ظل صامتًا
ومنتبها لوصف الهجمة في الراديو. لا تصحبه حراسة على الرغم من ترؤسه
لقطاع شديد الأهمية، بل إنه يقود سيارته بنفسه.

ككل أيام المباريات، هبّ نسيم القلق في الشوارع، ذلك التوتر الذي
تنحبس معه الأنفاس.

- هل تحب كرة القدم يا فيليكس؟

لم يرغب تشاكالثانا في الكذب، لكنه لم يرغب كذلك أن يبدو غريبًا.
كان عدم اهتمامه بكرة القدم يجعله يشعر بأنه كائن فضائي.

- لا يا سيدي. نعم يا سيدي.

ضحك الأدميرال:

- الكل يجب كرة القدم يا فيليكس. سمحت لجنة المحلفين الوطنية
لانتخابات لموظفي اللجان بوضع تليفزيونات أمامهم اليوم. لو لم تتخذ
هذا القرار، لما ذهب أحد.

- تفكير صائب يا سيدي.

أبعد الأدميرال لأول مرة عينيه عن الطريق ووجه لتشاكالثانا إحدى

نظراته المليئة بالرغبة ثم قال:

- على الأقل سنحظى بانتخابات هادئة. أليس كذلك؟

أوما تشاكالтана برأسه بينما واصل المعلق نقل أحداث المباراة:

- حذار من هذا الرجل، (لاتو) فهو كفريق كامل بمفرده. تبادل سريع للكرة مع (زارماخ) لبدء هجمة. إيوان يمررها الآن بالكعب للاتو. يالها من سرعة يا سادة. يسقط لاتو ويمتسب الحكم ركلة حرة لصالح بولندا.

توقف الأدميرال أمام إحدى اللجان، لكنه قبل أن يترجل، انتظر أن يسدد لاتو الركلة الحرة. حبس أنفاسه. كانت تسديدة مرتفعة نحو المقص لكن كيروغا تصدى لها بقفزة عنكبوت. تنهد كارمونا في ارتياح ثم قال:

- انتظري هنا

كان الأدميرال يرتدي ملابس مدنية؛ سترة من نسيج الـ«تويد» وربطة عنق زرقاء وسروالاً أسود، إلا أن بعض الضباط تعرّفوا عليه وتجمعوا أمامه. شاهده تشاكالтана يتحدث معهم من مرآة السيارة الخلفية ومعه أشخاص يرحلون عن مركز الاقتراع بأصابع ملونة بالخبز البنفسجي. عاد بعدها بعدة دقائق للسيارة ثم انطلقا. قال له دون مقدمات:

- حسناً يا فيليكس. ما الذي تحققت منه؟ أطلعني.

راجع تشاكالтана الأيام الأخيرة في ذاكرته، ولأنه يعرف أن الأدميرال رجل مشغول، حاول اختيار أهم شيء وقوله بأكثر صورة موجزة ومقتضبة:

- توصلت إلى اسم: مندوثا.

كان الأدميرال يقود وعينه على الطريق وأذنه مع الراديو. تساءل تشاكالтана إن كان قد سمعه. حينها لم يتلق أي أمر، واصل حديثه:

- هذا الرجل تقريبًا هو رئيس هذه المجموعة. مهمته هي تهريب المخربين من الأرجنتين وجلبهم إلى هنا. مخبري اعترف بأنه كان يشبهه في خواكين.

- يشبهه؟

أخيرًا بدرت إشارة من الأدميرال على أنه ما يزال حيًا.

- كان يشبهه في أن خواكين يعمل لصالحنا. لم يكن يرغب في تحميله مسؤوليات كثيرة. لم يكن يثق فيه.

- فهمت.

أجابه الأدميرال باقتضاب. للحظة بدا أنه يحاول تحديد موقعه بين بقية الشوارع. انعطفت ناحية متحف الفنون الجميل ودخل جادة «لا بيا إكسبريسا». سأله بعدها ليستأنف المحادثة:

- وأين هو هذا الرجل إذن؟

- في الأرجنتين.

- بعيدًا عن متناولنا.. أوريها لا.

غرق الأدميرال في أفكاره. عبر الراديو استمر المعلق في روايته لأحداث المباراة:

- نافالكا في قلب الملعب ويحاول الوصول لمنطقة جزاء بيرو. زارماخ ينتظر التميرية لكن ديننا يأتي من بعيد خاليًا من الرقابة. يتسلمها ويشكل خطورة على حدود المنطقة، يعيدها لنفالكا الذي يسدد.. ترتطم الكرة بالعارضة وتخرج من الملعب. بيرو تنجو من هجمة بولندية قاتلة.

قال الأدميرال غاضبًا:

- اللعنة! ما الذي يحدث؟ كأنها لا يوجد بيروفيون يلعبون!

تمتم تشاكاللتانا:

- هناك مسألة أخرى.

كان تشاكاللتانا قد تردد في قول المسألة حتى تلك اللحظة، لكنه لم ير
الأدميرال مندهشًا من اكتشافاته، لذا ود أن يجذب انتباهه أكثر من مباراة
كرة القدم في الراديو.

- أي مسألة؟

- لدي..

تساءل تشاكاللتانا كيف يصف سوسانا أراندا دون أن يورطها: مصدر؟
مخبر؟ شاهد؟. أكمل في النهاية عبارته:

- لدي مؤشرات حول أن مندوثا هذا محق. خواكين كان على ما يبدو
عميلا مزدوجًا. يعمل غالبًا مع الاستخبارات، لكن سيادتك بكل تأكيد
أدرى بهذه المسألة مني.

ضغط الأدميرال على مكابحه بقوة. لحسن الحظ، لم تكن جادة «لا بيا
اكسبريسا» مزدحمة، لكن على الرغم من هذا أطلق قائد سيارة «فولكسفاجن»
من خلفها بوقه في غضب. بدأ الأدميرال يتمالك نفسه من جديد. نظر
لتشاكاللتانا كأن نارًا تتأجج في عينيه ثم واصل طريقه، لكن بسرعة أكبر من
ذي قبل.

- من أين أتيت بكل هذا؟

- هو.. مجرد.. تكهن.

- ألا تظن أنك تتكهن أكثر من اللازم يا فيليكس؟

- عملي هو التحقق من كل التفاصيل يا سيدي.

تزايدت سرعة السيارة بصورة أكبر. إن كانا يجولان على مراكز التصويت، فلا بد وأن اللجنة التالية بعيدة للغاية. ربما كان تغيير الموضوع ريشا يصلان فكرة جيدة.

- سيدي.. لم ليس معك حرس؟

- أتعرف ما هي فائدة الحرس؟ أن يعرف أعداؤك أين يطلقون النار عليك.

قال تشاكالثانا داخل نفسه إن المراقبة من ضمن فوائدهم أيضًا، إلا أنه أدرك أن أحدًا لم يشاهده مع الأدميرال. محتببًا خلف زجاج السيارة القاتم، كان لا يُرى. إذا حدث له شيء فالأدميرال هو الشخص الوحيد القادر على أن يشهد بوقوعه.

خرجوا من جادة «لا بيا إكسبريسا» ودخلا في طريق الساحل السريع. علقت كل البيوت أعلامًا صغيرة لبيرو فوق نوافذها. فجأة اختفت كل البيوت، وحلت محلها أكواخ من البوص وبنائيات طوية غير مكتملة بلا تجصيص، لكن أعلام بيرو الصغيرة كانت معلقة عليها جميعا. عبر الراديو، واصل المعلق كلامه ورفع من توتر تشاكالثانا:

- بيرو في حالة بائسة. محاولات بناء لعب فاشلة. لاتو يضغط في لحظة إخراج الكرة ونافالكا يظهر ليستخلصها الآن. حائط صد رائع من البولنديين الذين عادوا بالفعل نحو منطقتنا. الكرة تعود للاتو الذي يحتل وضعية رائعة للتسديد، لكن الحكم يطلق صافرته. تسلل على بولندا. بيرو تلتقط أنفاسها من جديد.

دخلا في نفق. ازدادت قيادة الأدميرال تهورا بمرور الوقت، لكن

تشاكالانا لم يفكر تحت أي ظرف أن يقترح على الرجل العسكري، رئيسه، أن يقلل من سرعته. انتظر أن يخاطبه. قال الأدميرال دون أن يتوقف عن زيادة السرعة:

- نحن جزء من عملية عسكرية مشتركة مع عدة دول في المنطقة. اسمها «كوندور».

كوندور. تذكر تشاكالانا زيارته للمطار العسكري. لدى هبوطهم من الطائرة، سأله حراس دانييل ألبارث إن كان من «كوندور» وأجابهم بنعم، أو بالأصح أنه قبل كونه منهم في صمت وعلى ما يبدو لم يخطئ في هذا. أضاف الأدميرال:

- المهمة الموكلة لـ«كوندور» هي التعاون في مواجهة التخريب. الإرهابيون يتحركون بصورة دائمة للهروب من السلطات. من الأرجنتين لتشيلى ومن تشيلى لبيرو ومن بيرو لبوليفيا. كوندور شبكة لا مهرب منها. دخلا في تفرعة الطريق السريع المؤدية لموزو سولار وبدأ في الصعود نحو قمة الجبل. على الأقل، كانا قد خرجا من النفق. تشبث تشاكالانا بمقعده، لكنه رغم هذا شعر بالدوار.

- هذا هو السبب وراء وجود عملاء أرجنتينيين يعملون في ليبيا؟ ولهذا أرسل المعتقلون البيروفيون للأرجنتينيين؟

- نحن جميعًا في حاجة للهدوء يا فيليكس. هم لديهم مونديال لكرة القدم ونحن الانتخابات. نساعد بعضنا البعض.

بدا صوت الأدميرال معدنيًا وخاليًا من المشاعر أكثر من أي وقت مضى. صعبٌ تحديد إن كان غاضبًا أم أنه فقط ينطق ما لديه من حقائق واحدة تلو الأخرى كأنه يأخذ تمام كتيبة، لكن عملية الصعود تواصلت وعلى يسار

السيارة ظهر شاطئ «لا إزادورا» الصغير وعلى اليمين الساحل الأخضر بلونه الرمادي الحقيقي وهو يذوب في الأفق. تفهم تشاكالтана أن أي شيء قد يسقط من فوق هذا الجبل سيضيع بلا أثر: ساحلاً كان أم ماضياً أم.. جثة. دخلت السيارة سريعاً في مدق جبل مورّو لتخرج عن الطريق الرئيسي. ظهر من بعيد نموذج «بلانيتاريو» الشمسي، البناية الوحيدة الموجودة في المكان. بدا صوت الأرضية المجذبة المليئة بالحجارة أسفل الإطارات كأنه خلط أسمنت.

سأله تشاكالтана:

- وما الذي سيحدث مع المعتقلين الذين أخذوهم للأرجنتين؟

للحظة بدا أن السيارة قد زادت سرعتها، لكنه كان فقط صوت الحجارة تحت الإطارات. ما حدث بعدها كان نقيضاً لهذا، إذ ضغط الأدميرال مكابحه فجأة، بالقرب من الجرف، بعيداً جداً عن المدينة. أدار كارمونا المفتاح وعادت عيناه الزرقاوان لتتحفرا بنظرتيها محيا مساعد الأرشيف ثم قال:

- لا شيء.

- لا شيء؟

فكر تشاكالтана في مسألة الطائرات.

- أين يطلقون سراحهم؟

- في دول أخرى غالباً. بالنسبة لنا، يمكن للسجناء المكوث في الأرجنتين ليشاهدوا المونديال. هكذا لن يصبحوا مشكلة.

- وخلال هذا يتعرضون للتعذيب؟

- لن يتعرض أي من مواطنينا للتعذيب. لدى الأرجنتينيون أوامر بالأمر

يلمسوا شعرة منهم. فوق كل هذا، فأني فضيحة قد تجعل مونديا لهم ينهار، لكن هؤلاء الحمقى يتخطون أحيانا الحدود. هم شديديو الجنون.

ترجل كارمونا من السيارة. شعر تشاكالانا أنه مجبر على القيام بالمثل. كانت يدها تتعرقان وعلقتا في الباب. حينما تمكن من فتحه، كان الأدميرال يقف بجواره تقريباً. برز من حزامه وسترته طرف كعب مسدس بساقية. قال تشاكالانا بصوت لا يكاد يسمع:

- ألباريث يقول إنهم يلقون بهم من الطائرات، إنهم يختطفونهم من السجون.

بدا رد الأدميرال كأنه قد تأخر قرونا في الوصول، لكنه كعادة كل كلامه لم يعكس أي مشاعر:

- ليس لدي معلومات بخصوص المسألة ولا أرغب في أن تصبح لدي معلومات بخصوصها.

- سيادتك شريكهم!

انفعل تشاكالانا فجأة وهو يقول عبارته، إلا أنه بعدها قومها، أو بالأصح تفهم الحقيقة كمن يخشى من نفسه:

- نحن.. نحن شركاء..

كان شريكاً معهم بلا شك. هو وخواكين كالبو. بصورة ما، هو نفسه كان خواكين كالبو، بديله، إعادة تجسيد له. لم يحق له اتهام أحد على ما اقترفه بنفسه. خرج من السيارة ووقف بجانب الأدميرال. إذا كان سيتلقى طلقة، فمن الأفضل أن يقابلها بجبهته. شعر برياح المحيط الهادئ وهي تضرب وجهه وتمزج جلده من منبته. لم يكن الأدميرال قد أغلق الراديو وواصل معلق المباراة رواية أحداثها:

- ماشالتير من على الرواق. يرسل عرضية وبونيك وحده. ظهر كشبح في منطقة جزاء بيرو. يسدد.. والحارس كيروغا ينقذ فريقنا المضغوط من الانهيار! هيا يا بيرو! ارفعوا معنوياتكم! استعيدوا عافيتكم وهاجموا!
سأله تشاكاللتانا:

- وما الذي سيحدث الآن؟

تقوس مقرن شفتي الأدميرال بصورة خفيفة. ربما ابتسامة وربما لا:

- إذا كنت تتحدث عن هذا البلد، فلن يحدث شيء. اليسار سيفوز بهذه الانتخابات أو التحالف الثوري الشعبي الأمريكي وهما نفس الشيء. بعدها ستأتي حكومة مدنية وتنتهي الأمور. لا تقلق كثيرًا بخصوص الشيوعيين الذين أرسلناهم لخواخوي، ففي ظرف عامين قد يصبح أحدهم رئيسًا. نحن لسنا في الأرجنتين يا فيليكس. لسنا مثل هؤلاء المتوحشين.

كان مساعد الأرشيف يخشى من السؤال الذي أوشك على توجيهه، إلا أنه السؤال الوحيد الذي يمكن له أن يطرحه:

- ومعني؟ ما الذي سيحدث معني؟

- القيادة المشتركة للقوات المسلحة تشكرك على تعاونك مع عملية «كوندور». كنت خير عون، لكنك الآن وصلت أبعد من اللازم. بداية من هذه اللحظة، فكل ما يبقى هو معلومات سرية. مندوثا، كما تقول، موجود في الأرجنتين. لا يمكنك أن تقدم المزيد. استمراريتك قد تكشفنا جميعًا. أن يرانا أحد معًا قد يعقد لنا العملية.

عجز تشاكاللتانا عن تفسير هذا الرد. فجأة هبت الرياح ودخلت الرمال في عينيه. اضطر لإغلاقها ومن خلفه سمع الراديو:

- نابارو يستعيد الكرة في الرواق الأيسر. هيا يا نابارو شتتها نحو الأمام. نابارو يرتبك ويسلم الكرة للاتو. خطأ فظيع من الدفاع البيروفي. لاتولا يضيع وقته يرسل عرضية. العملاق زارماخ وحده في المنطقة يرتقي برأسه و.... هدف. جوووول. لبولندا. زارماخ بقميصه رقم 17 يعدم برصاصة رأسية الحارس كيروغا ويعقد تطلعات بيرو التي لم تقدم شيئاً في هذه المباراة.

اختلج تشاكالانا مع سماع كلمة «يعدم». دون أن يفتح عينيه، انتظر ما هو آت. فكر في أمه وفي دون جونثالو وسييليا. كان الشيء الوحيد الذي يندم عليه هو أن هذا الأمر لم يحدث قبلها بيوم. كان أسوأ شيء هو أن يموت دون أن يشعر بجسده فوق سييليا بين ملاءات نزل «تروبيكال». أطبق جفنيه وأسنانه بل وربما عضلاته العاصرة، إلا أنه بعدها سمع صوت باب السيارة يغلق والمحرك يدور. ابتعدت السيارة السوداء عائدة نحو المدينة وسريعاً لم يعد ممكناً تمييز صوتها وسط الرياح البحرية لجبل موزو سولار.

استغرق ساعة ونصف في الهبوط من جبل مورو ليستقل حافلة. حينما وصل لمكان ملائم لاستقلال سيارة أجرة، كانت السماء قد أظلمت ومعها انطفأت جذوة حماس البيروفيين الذين تعرضوا للإقصاء وضاعت كل آمالهم في المونديال. تأخر الوقت ليصل للموعد الذي اتفق معه على سيسيليا، لكنه عليه قبلها مقابلة سوسانا أراندا.

قبل أن يري سيسيليا، قبل أن يتعرف على جسدها العاري، يجب عليه أن يطرد من عقله صورة هذا الشقراء المثيرة للاضطراب. بينما تنتظر سيارة الأجرة دورها لدخول شارع لامبا، فكر في أن الأدميرال كارمونا قد قدم له خدمة. لم يرغب تشاكاللتانا في معرفة المزيد عن موت خواكين كالبو، أو أن يري زوجة الأدميرال من جديد. إعفاؤه من المهمة كان عذرًا مثاليًا ليلتزم بهذين الهدفين.

حينما دخل بناية شقة صديقه -فليرقد في سلام- تفهم تشاكاللتانا أن المسألة لن تكون سهلة، فسوسانا في ذلك الصباح بدت قلقة للغاية على الهاتف، فحينما قالت مسألة الطفل -«كل هذا بسبب الطفل»- بدت مرعوبة. افترض مساعد الأرشيف بأنه سينجح في إقناعها بالتوجه للسلطات المعنية بحثًا عن النصيحة والدعم، بل بإمكانها في نهاية المطاف أن تلجأ لزوجها، فتشاكاللتانا، بداية من ذلك المساء وبأمر من زوجها نفسه، لم يعد تربطه صلة بالتحقيق، لكن أكثر شيء سيتحسر عليه هو خسارة وجود هذه المرأة في حياته، هي وبشرتها البرقوقية وشعرها اللامع، بل وحتى رائحتها

بينما يصعد السلم، كرر داخل عقله الخطاب الذي سيلقيه. يجب أن يكون موجزًا ومقتضبا، فبعدها سيركض ليلتقي بسيسيليا. أيضًا، يتوجب عليه ألا

يفصح عن فحوى مشاعره. فكر مع نفسه: البرودة المهنية. البرودة المهنية قبل أي شيء. رغم هذا، تذكر - كأنها ومضة في الذاكرة- القبلة التي طبعتها على شفتيه في الشارع ذات مرة أمام سيسيليا؛ حتى تلك الذكرى سيفتقدتها، لكنه حينما صعد، نسي كل شيء سريعًا بعدما شتت انتباهه مفاجأة صغيرة غير متوقعة. باب شقة خواكين ليس مغلقًا. لتحري الدقة، لم يكن مفتوحًا، بل نصف مفتوح ونصف مغلق، كأنها دعوة لاستشعار الخطر. تذكر تشاكالтана أن هذه الشقة قدمت له دومًا مفاجآت مفرزة. تسارعت دقات قلبه.

- سوسانا؟

دق على الباب بلطف ثم بقوة وفي النهاية دفعه ببطء. كانت الفوضى الدائمة تهيمن على المشهد، أو على الأقل بدت كأنها تلك الفوضى الدائمة. لم يصدق تشاكالтана أن أحدهم عاد ليثير الفوضى في المكان أكثر مما هي عليه. بينما يفتح الباب ببطء، انكشفت قطع الأثاث المحطمة والأغراض الممزقة التي يعرفها، إلا أن شيئًا جديدًا كان هناك. شيء غير متوقع. في البداية، كان مجرد شيء، لكن على بعد عدة سنتيمترات تبين أنه كرسي ملقى على الأرضية؛ فوق هذا الكرسي ظهر ظل طويل لشيء آخر. كان جسدًا يوازي في ارتفاعه عوارض السقف.

فكر تشاكالтана لعدة أجزاء من الثانية في أن هذا الجسد كان طويلًا للغاية ليصبح جسد سوسانا أراندا، لكن هذا كان شعرها ومعطفها الأسود وجسمها. هاتان هما عيناها، حتى وإن كانتا قد خرجتا من محجريهما. هذا هو لسانها - اللسان الذي قبله - حتى وإن تدلّى الآن بالكامل من فمها. هي بالفعل سوسانا أراندا، المرأة التي سيفتقدتها تشاكالтана. وإن بدت أكثر طولًا، فهذا فقط لأن قدميها الجميلتين داخل حذاءها الجلدي، كانتا تتدليان من أعلى مع جسدها دون أن تلمسا الأرض.

بيرو- الأرجنتين

كل الأمور رُتبت بعناية، كأن هناك رغبة مبيتة للتخلص من سوسانا أراندا. وصلت الشرطة للشقة بسرعة وفي سرية لكونها زوجة رجل عسكري. أظهر التشريح أن الاختناق هو سبب الوفاة، ربما هي حالة انتحار. ربما لا. في الصباح التالي، كانت الصحف في حالة حداد على هزيمة المنتخب البيروفي، لذا لم تخصص أي منها تقريراً عن وفاة امرأة مجهولة قبل أوانها.

في صباح التاسع عشر من يونيو، كان جثمان سوسانا أراندا يوارى الثرى في مقبرة باكيخانو وكاريو في تابوت حمله ثلاثة من بحارة الأسطول الوطني وزوجها، الأدميرال إكتور كارمونا. كان الجميع يرتدون زي المراسم الأبيض وشارة سوداء كعلامة على الحداد. بدت عينا كارمونا، اللتان تنفذان في العادة إلى مكمن الروح، كأن غمامة رمادية بسطت سلطانها عليها، مثل سماء المدينة الثخينة. على عكس جنازة خواكين كالبو، حضر هذه الجنازة عشرة مدعويين في منطقة أرقى من المقبرة محاطة بأعمدة وصور للشهداء. تعرّف تشاكاللتانا في طريقه نحو القبر على بعض التماثيل الرخامية التي تمشى قبلها ييومين بنفسه بجانبها في صحبة سوسانا أراندا. وكلما مر أمام أحد هذه التماثيل رسم الصليب كأنه قد مر أمام نذير شؤم. كانت الخدمة الجنائزية قصيرة. والقس يعرف سوسانا لذا ذكّر ببعض مميزاتهما، كالإحسان وتفانيهما كزوجة. حينما ذكر تلك الصفة الأخيرة، سُمع صوت نحيب بين الحضور،

لكن ليس من كارمونا الذي حافظ على هدوئه وأبقى نظرتَه ثابتة على نقطة ما بين الأضرحة.

جنازتان في ظرف أسبوع.

مستأجران جديدان للسكن في مقبرة باكيخانو وكاريو.

ذات مرة رأى تشاكالтана نفسه كخوايكن كالبو، كأنه يكرر كل حركة وحدث في حياته، إلا أنه لم يكن خواكين. بل حفار قبوره.

حضر مساعد الأرشيف مراسم الدفن متراجعا بخطوة عن بقية الحضور. تذكر كل ثانية في صحبة سوسانا، محاولا أن يتفادى كل اللحظات الساخنة احتراماً لذكراها. لدى انتهاء الجنازة، حاول الاقتراب من زوجها ليقدم تعازيه.

- سيدي الأدميرال..

قالها بصوت خافت للأدميرال الذي يعانقه شاب، ربما هو ابن أخ أو ابن عمومة.

رفع الأدميرال عينيه الزرقاوين نحو تشاكالтана. لمع قاع عينيه، لكن لم تصدر عن محياه وصوته أي إجابة. خفض نظرتَه قبل أن يوجهها نحو أقارب آخرين كانوا يتحبون. بعدها بثوان، ابتعد معهم عن تشاكالтана.

- بؤس.

- صحيح يا سيدي.

- إحباط.

- بلا أدنى شك.

- مهانة.

- كل ما تقوله صحيح يا سيدي.

كان مدير الأرشيف يرتعش من فرط الغضب، يخرج بين الحين والآخر من مكتبه ليطلب ورقة ليس لها فائدة أو ليؤنب تشاكالтана بخصوص مراجعة أجزاها بالفعل، إلا أن كل هذا مجرد عذر. ما رغب حقًا في فعله هو صب غضبه على المنتخب البيروفي.

- كانوا كالأشباح. عار. لعبهم بهذا السوء أمر مستحيل.

- ربما كانوا مرهقين. كان مشوارهم طويلًا.

قال المدير كأن أحدًا قد أهانه:

- مرهقون؟ مرهقون؟ أنا أعمل كل يوم. هل أتعرض للإرهاق؟

كان تشاكالтана على وشك الإشارة لغيابات المدير المتكررة عن العمل، لكن لم يبد له الأمر صحيحًا. سلم المدير بأنه قد فاز بالنقاش وواصل احتجاجه:

- وفوق كل هذا هم لاعبو كرة قدم، أليس كذلك؟ يفترض أن حالتهم

البدنية جيدة. يا رجل! لو كنت أنا في الفريق للعبت أفضل منهم. على الأقل لم أكن لأهدي الكرة لهذا البولندي الأصلع.

تأمل تشاكالтана مديره الذي -حتى ولو حاول إخفاء الأمر- كان أصلع. تفحص في ذهنه شكل بطنه المتكور وتقوس ساقيه كأنها ساقان اصطناعيتان. حاول أن يتخيله يلعب كرة القدم، لكن المسألة كانت تعيسة بدرجة لم تتشكل معها هذه الصورة.

- بكل تأكيد يا سيدي.

- هل تعرف ما هي مشكلة هذا البلد؟

- لا أعرف.

- أن الناس لا يعرفون معنى المثابرة. يسلمون بهزيمتهم سريعاً. يقول أحدهم «إذا كنا عبرنا لربع النهائي، فأمر آخر قد نحققه؟». ينقصهم الطموح.

- ربما كان الأمر هكذا.

- ينقصهم الإيمان بالفوز.

- بالطبع.

حاول تشاكالтана من جديد التركيز في تحرير كتاب «الدليل الأسلوبى لوثائق السلطة القضائية»، وهي مساهمة منه لتوحيد القواعد الإملائية لكنها -بغض النظر عن أي شيء آخر- تتيح له التوقف عن التفكير في سوسانا أراندا. مرة أخرى، كانت عودته لوضعيته كمساعد في الأرشيف سبباً للراحة، فهنا يستطيع دفن رأسه في درج الملفات العالقة، ويحاول نسيان الأسبوعين الماضيين ليعود كما كان دائماً وليظل هكذا للأبد.

«كانت المسألة تتعلق بالطفل يا فيليكس. كل شيء حدث كان بسبب الطفل».

هناك شيء ما تقوله هذه الكلمات. لا بد وأن هناك شيئاً ما يرتبط بها.

- أتعرف ما هو أسوأ شيء؟

عاد المدير ليخرج من مكتبه، هذه المرة وهو يحمل زجاجة مشروب الرُم في يده، في انتهاك واضح للوائح العمل القضائي، بل والممارسات البسيطة لكي يهضم إنسان ما فطوره بصورة جيدة:

- ما هو أسوأ شيء يا سيدي؟

- أنه ما تزال تبقى لنا مباراة، وهذه المباراة مع الأرجنتين.

- صحيح. هذا هو أسوأ شيء.

حاول مساعد الأرشيف أن ينغمس من جديد في عمله. ربما هذه لحظة جيدة للنهوض من على مكتبه واستكشاف الدروب الغامضة في مر «قضايا خدش الحياء ورونق العادات الأصيلة». لم ينته قط من ترتيب هذا القطاع في الأرشيف، لكن بينما يحسم أمره بخصوص هذا القرار، لاحظ أن المدير ينظر نحوه بجدية وتركيز كأنه ينظر إلى عرّاف أو كائن فضائي.

- فيليكسيستو.. أنت لا تعرف شيئاً.. صحيح؟

في تلك اللحظة، كان فيليكس تشاكالانا يعرف شيئين فقط: أولهما أن البلاغ عن «مخالفة إدارة الجوازات» لم يجر توضيحه من قبل أي هيئة معنية، وثانيهما أن ألم فقدان سوسانا أراندا كان بئراً بلا قاع. أجاب المدير وكله طمأنينة بأن سؤاله لم يرتبط بهذين الأمرين:

- لا يا سيدي.

اقرب المدير من مكتبه بينما يجلب خلفه حالته المناخية المُصغرة التقليدية:

- ألم تسأل مديرك بخصوص الأمر؟

- أنت مديري يا سيدي.

- أتحدث عن الأدميرال كارمونا يا فيليكسيو. أنت بطيء الفهم نوعًا

ما، أليس كذلك؟

- عملي مع الأدميرال كان لسبب معين. أعتقد أنني لن أستمر فيه. أنا

أنتمي للأرشييف القضائي.

حاول أن يقولها بفخر، لكن نبرة حزن تسللت بين كلماته. لحسن الحظ،

لم يكن مدير الأرشييف يتمتع بمهارة خاصة في التعرف على النبرات، ولم يكن

ينصت جيدا حينها تغيب عنه الرغبة:

- أرغب في أن تسأله عما يقولونه يا بني.

كانت مغامرة العمل لصالح الأدميرال قد رفعت بلا شك من تقدير

تشاكالтана لذاته لدرجة جعلته في تلك اللحظة قادرا على مطالبته بأن يتركه

يعمل في سلام، إلا أنه رغم هذا ويدافع الأدب فقط، اختار أن يسأله:

- وما هو الذي يقولونه؟

نظر المدير حوله كأن جاسوسًا ما ينتظر بفارغ الصبر محادثتهما حول كرة

القدم. جلس على الكرسي المقابل لمقعد تشاكالтана ودفعه نحو الأمام حتى

باتت أنفاسه أكثر قربًا من اللازم من مساعده.

- في الحجز وفي الدور الثالث يتحدثون جميعًا..

- و؟

أخذ المدير رشفة أخرى من زجاجته وأشغل لفافة. بدا متوترًا:

- يتحدثون عن «تفويت» المباراة.

بذل مساعد الأرشيف فيليكس تشاكالтана جهدًا كبيرًا في محاولة للعثور على معنى لهذه الكلمة. لكن كل ما خطر بباله أن أحدهم سينسى شيئًا ما في المباراة، لكنه لم يعرف من أو ماهية هذا الشيء، لكنه ولثلا يكشف تشوش أفكاره اقتصر رده على السؤال:

- حقا؟

وبإيماءات جاسوس اكتشف للتو دليلًا قاطعًا، أخرج المدير من جيبه قصاصة مثنية من جريدة اليوم. صفحة رياضية من جريدة (إل كومرسيو). حينما تعرّف تشاكالтана عليها، تذكر سيسيليا. عليه أن يبحث عنها في أقرب وقت ليفسر لها لم تخلف عن مواعده في اليوم السابق. ها هو شأن معقد آخر في حياته يحتاج لحل، لكن المدير لا يعرف شيئًا عن كل هذا. أراد أن يقرأ تشاكالтана العنوان الذي وضعه أمام عينيه، أو ربما لصقه بهما. يقول العنوان المكتوب بحروف كبيرة: (البرازيل ستطالب فيفا بتغيير موعد المباراة). بعدها أدار المدير الصفحة لوجهها الآخر، كأنه ساحر يقوم بخدعة، لكي يُظهر لتشاكالтана عنوانًا آخر: (رامون كيروغا يصبح عدو البرازيل).

سأله المدير:

- أترى؟

لم ير تشاكالтана شيئًا. لم يعلم حتى ما الذي يجب عليه أن يراه. لا بد وأن الشك قد تبرعم في كل مسام وجهه، لأنه قبل أن يسأل، كان المدير قد بدأ يشرح بالفعل:

- البرازيل ستلعب مع بولندا قبلنا بثلاث ساعات يا فيليكسيو، أو

بمعنى آخر ستكون الأرجنتين قد عرفت كم هدفًا تحتاج أن تسكن في شبانكا لتصعد للنهائي.

ضغط المدير على نطق كلماته الأخيرة، لدرجة أن تشاكالانا شعر بكونه ملزمًا بالرد:

- مسألة مثيرة للاهتمام جدًا..

- وحارسنا كيروغا، أتعرف من أين هو في الحقيقة؟ هل تعرف أين ولد؟

.. -

- في الأرجنتين، ولتحري الدقة هو من مواليد روساريو، وهي تحديدًا المدينة التي ستلعب فيها مباراة بيرو، التي لم يعد لديها أي فرص في التأهل، لذا فإن أي نتيجة لن تفرق معها. أتفهم؟

- أفترض أنني.. أفهم.

من خلف نظارة المدير السميكة، انفتحت عيناه في ذهول. تحدث كأنه اكتشف مؤامرة دولية ضد الحكومة. ربما صدق فعلاً أن هذا هو ما فعله، إذ قال:

- فيليكسيو، أرغب في أن تتحدث مع الأدميرال، مع أمن الدولة، مع وزارتي الداخلية والخارجية.

حاول تشاكالانا أن يعثر على رابط بين كل ما يقوله هذا الرجل، ثم تجرأ في النهاية على السؤال:

- وما الذي سأقوله لهم يا سيدي؟

- ألا نبيع أنفسنا! ألا تبع بيرو نفسها!

ضحك كلماته الأخيرة بينما يسحق لفافته بنعل حذائه ليطفئها. تساءل
تشاكالانا إن جُنَّ مديره بالفعل:

- وحضرتك.. تعتقد يا سيدي أن أمن الدول قد.. يغير من نتيجة
مباراة كرة قدم؟

- يمكنهم أن يغيروا كيروغا، أليس كذلك؟ أي أمن سيكون لدينا إن لم
يستطيعوا تغيير حارس؟

- هذا الأمر لا يدخل ضمن صلاحيات جها..
قاطعته المدير بحدة:

- فليحذروه إذن.. أليست خيانة الوطن جريمة. ألا يعدم الناس
بالرصاص لهذا السبب؟ لدينا عقوبة واضحة للمسألة. إذا تركهم كيروغا
ينتهبون حرمة مرامانا، فليقف ووجهه للحائط و«بوم» انتهينا، وهذا لكونه
خائناً ولكونه أرجنتينياً.

قيم مساعد الأرشيف داخل ذهنه سريعاً كل الإجابات المحتملة
والمتعددة. كانت الوحيدة التي بدت له مطمئنة هي:

- سأرى ما يمكنني فعله يا سيدي.

ارتخت ملامح وجه المدير. على ما يبدو، إنه واثق من وجود حليف
في السماء. مأخوذاً بدفعة السعادة التي غمرته، قبل تشاكالانا على خده،
وانطبعت مع قبلته رائحته الكريهة:

- شكرا يا فيليكسيو! شكرا! لست في حاجة لأن أخبرك، اعتمد عليّ
في أي شيء، أي شيء يحلو لك ووقتها يحلو لك. أدين لك بواحدة، اتفقنا.
البلد كلها تدين لك.

وقبل أن يتمكن مساعد الأرشيف من الدفاع عن نفسه، طبع المدير قبلة فوق خده الآخر ثم نهض. بدا مرتاحًا، مسترخيًا، كأن كل مشاكل منتخب بيرو قد انتهت للتو، بل إن بشرته استعادت لونها الطبيعي، صحيح أنه لون شاحب، لكنه ليس ضاربًا بشدة إلى الخضرة كما كان منذ دقائق.

- أتعرف يا فيليكسيو؟ فجأة شعرت بأني في حالة أفضل ومفعم بالأمل. سأخرج لبعض الوقت. اتفقنا؟ إذا اتصل أحدهم، أنت تعرف: لقد ذهب لوزارة العدل.

وقبل أن يسمع ردًا من فيليكس كان المدير قد رحل بالفعل.

ابتهج مساعد الأرشيف. غياب مديره سيسمح له بالعمل في هدوء. راجع طلبات المعلومات الموجهة للأرشيف وتفاصيل أخرى تافهة. بعدما أرسل إخطارات على وجه السرعة بالأمر المهمة، عاد إلى هوسه القديم الذي لم يجد له حلًا، ذلك الوحش الأسود الذي ظهر له في الأسابيع الأخيرة؛ تلك الورقة التي لا تظهر فيها أي معلومات سوى أنها بلاغ عن «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب... حدث».

منذ أن بدأت تحقيقاته، لم يوله أحد اهتمامًا. لم يعلن أحد مسؤوليته عن هذا البلاغ، بل إن أحدًا لم يعلم بوجوده. في مرات سابقة كان من يرتكب خطأ إشكاليًا يتلصق بالرد أو يتحامق، إلا أنه كان يعترف في النهاية أمام ضغط تشاكالانا بما اقترفه، باستثناء هذه المرة التي بدا فيها البلاغ كأنه خرج من العدم.

بدأ تشاكالانا يسترجع الأمر بذاكرته: البلاغ كان موجودًا على مكتبه منذ أسبوعين. يتذكره جيدًا لأنه عثر عليه في نفس يوم الاثنين الذي اختفى فيه خواكين. لا يمكن أن يكون أحدهم قد ترك هذه الورقة فوق مكتبه في العطلة الأسبوعية. الفرضية الوحيدة أن يكون قد وصل إلى مكتبه في يوم

الجمعة السابق. في ذلك اليوم، قرب نهاية المساء، كان تشاكاللتانا قد نهض عدة دقائق من على كرسيه ليستقبل خواكين تحديداً. كانت تلك آخر مرة يراه فيها، تلك المرة التي قال فيها له «كن بخير» ومظهره يقول إنه لا شيء يسير بخير معه. بدأ صديقه غريباً وقلقاً. جذب تشاكاللتانا من ذراعه وودعه، لكنه حينها أجبر تشاكاللتانا على إعطاء ظهره للمكتب؛ اللحظة المثالية لكي يترك ورقة فوقه.

«مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب... حدث».

أضاعت ومضة في عقل تشاكاللتانا. حدث هذا يوم الجمعة، أي اليوم الذي عاد فيه خواكين من الأرجنتين، أي أنه قد مر في المطار بإدارة الجمارك وب... شرطة الجوازات! نظر تشاكاللتانا مجدداً لاستمارة البلاغ، خطها المرتعش. توجه نحو سجل المستخدمين وأخرج ملف خواكين. كان نفس الخط، ربما مكتوب بصورة أسوأ، صورة تنم عن الفزع، إلا أنه بلا شك نفس الخط. نظر مجدداً نحو البلاغ، هذه المرة من منظور جديد: السبب وراء الفوضى ربما بكل بساطة أن خواكين لم يعرف كيف يملأه. ربما كتبه بخبرته المحدودة، هناك في الأعلى، عند مدخل قصر العدل. لقد كتب المعلومات بسرعة، ملأ هذه الخانات بتسرع. لطخ الورقة بأخطاء في كل مكان، وبالتالي لم يحدد كما يصح الهدف من وراء البلاغ. كانت كلماته تتناثر بين خانات مختلفة، تقفز من هذه إلى تلك، في خليط قاتل من العصبية والجهل.

بدأ تشاكاللتانا ينظر من جديد لكل خانة ومحاوله فهم ما الذي تعنيه هذه الورقة تحديداً. تفهم أن إحدى الكلمات يمكن تفسيرها بطريقتين مختلفتين: حتى تلك اللحظة كان واثقاً من أن البلاغ عن «مخالفة في إدارة الجوازات ترتبط ب... حدث»، دون أن يعرف ماهية الحدث، لكن تلك الكلمة الأخيرة: «حدث»، كانت معلقة بين خانتين. قد تكون في الأصل تخص الخانة التالية

وليس الأولى، وقد تكون كلمة «ترتبط» وحرف الجر اللاحق واحد من ضمن أخطاء خواكين الناجمة عن جهله بطريقة ملء الاستمارة لهذا وضع النقطتين حينها شاهد الخانة التالية.

في هذه الحالة يمكن قراءة الورقة بطريقة أخرى:

- الأحداث المبلغ عنها: مخالفة في إدارة الجوازات.

- الغرض الذي دخل البلاد بصورة غير قانونية: حدث.

حدث.. أي قاصر.. أي طفل

«كانت المسألة تتعلق بالطفل يا فيليكس. كل شيء حدث كان بسبب

الطفل».

«كانت المسألة تتعلق بالطفل يا فيليكس. كل شيء حدث كان بسبب الطفل.»

بينما يشتري زهورًا بالقرب من كنيسة «لا مرسيد»، توثبت كلمات سوسانا أراندا داخل عقله. طفل.. هذا هو ما جلبه خواكين من الأرجنتين. ليس أسلحة أو مخدرات، بل حدث، قاصر، لكن.. لماذا؟ من أين أخرجه؟ وإلى أين كان يذهب به؟ وفوق كل هذا.. لماذا ترك بلاغًا ضد نفسه على مكتب تشاكالثانا؟

- زهور حمراء أم بنفسجية؟

خرج مساعد الأرشيف في تلك اللحظة من مخيلته ليرد على بائع الزهور:
- حمراء. شديدة الحمرة.

تذكر في تلك اللحظة لون الدم وهو يتساقط من على جبهة صديقه. أحمر داكن أشبه بالبنّي، كأنها فضلات قرمزية مصهورة في مجرى النهر، لذا عدل من رأيه:

- من الأفضل أن تكون بيضاء.

استمر تفجر الأسئلة داخل رأسه وهو يتوجه نحو جريدة (إل كومرسيو). كان قد اتصل بالمطار للسؤال عن موعد الرحلات. لا بد وأن خواكين عاد من بوينوس آيرس ظهرًا، تمامًا في الوقت المناسب ليترك حمولته في مكان ما قبل أن يتوجه للأرشيف قبل موعد إغلاقه. شاحبًا ومفككًا ترك بلاغه إلا أنه -وبكامل وعيه- قصد أن يشتت انتباه تشاكالثانا الذي كان يستعد حينها للتوجه لمنزله.

«كل الأمور ستنتهي على خير».

كان قد تأكد أن تشاكالтана لن يعثر على استمارة البلاغ حتى صباح الاثنين، لكن لماذا؟ كيف عرف أنهم سيقتلونه في عطلة الأسبوع؟ وإذا عرف، لماذا لم يسع لتفادي الأمر؟

تساءل تشاكالтана أيضًا، لم ترك البلاغ له هو تحديدًا؟ خواكين كان يعمل لصالح الاستخبارات، ولا أحد يستطيع حمايته أفضل من الأدميرال كارمونا شخصيًا، لكنه حينها تذكر كلمات خواكين، تلك التي نقلتها له سوسانا أراندا «فيليكس هو الشخص الوحيد الذي أعرفه ولا يستطيع إيذاء أحد». خواكين كان يتحدث عنه كصديق. ربما كان يثق فيه، كان يثق فيه حتى وإن لم يعترف له بأسراره.

أخذ تشاكالтана نفسًا عميقًا عند بوابة مبنى (إل كومرسيو). عليه أن يغير مسار أفكاره نحو سيسيليا فقد حانت ساعة شرح السبب وراء تخلفه عن موعد الليلة السابقة. افترض أنها - بلا شك - ستفهم خطورة الموضوع بأكمله. لا يمكنها ألا تبالي بإدخال طفل للبلاد بصورة غير قانونية أو جثة تتدلى من عوارض أسقف أحد الشقق. صحيح. سيسيليا يجب أن تفهم الأمر. هي تفهم دومًا.

رآها لدى دخوله عند الجانب الآخر من البهو وهي تغلق نافذتها. اختار أن ينتظرها هناك بينما يرتب أفكاره. قطعت الصالة ببطء في اتجاه المخرج. حاول أن يرسم ابتسامة. رفع الزهور لكي تراها جيدًا. جهز عبارة لتحتيتها. سارت ووجهها لا تُسبر أغواره بنظرة ثابتة نحو مساعد الأرشيف، وحينها أصبحت بجواره رفعت يدها وصفعته. تردد صدى الصفعة في الأمتار المحيطة بهما، ولفت انتباه المتوجهين لتناول الغداء. حاول تشاكالтана أن يعيد عقله إلى مكانه قبل الرد:

- سي.. سيليا.. أنا..

- إياك وأنت تقترب مني مجددًا يا أحق.

نطقتها بصوت مفعم بالغضب ومنخفض لكيلا تلفت انتباه الجميع،
لكنه بدا مسموعًا أكثر من أي صراخ كان ليصدر منها.

- آسف يا سيسيليا.

- كان جديرا بك أن تأسف أمس، حينما تركتني مزروعة في حانة
كوردانو. لحسن الحظ لم نتفق على الالتقاء مباشرة في النزل. كيف وאתك
الجرأة على القدوم إلى هنا يا أحق يا منزوع الرجولة يا بائس؟

عجزت سيسيليا عن احتواء مشاعرها ووجهت نحوه صفقة أخرى،
تصدى لها هذه المرة بياقة الزهور. تبعثرت بتلات الزهور البيضاء حوله كأنها
تطر.

- اسمحي لي أن أشرح المسألة يا سيسيليا. لا يمكنك تخيل ما حدث.

- لا رغبة لدي حتى في تخيله يا غبي. لا رغبة لي في معرفة أي شيء
عنك. هذه هي المرة الأخيرة التي سأسمح فيها بأن تخلف موعدًا معي أو
تستخف بي.

- أنا لم أستخف بك..

- اخرس.

لم يعد صوتها مصبوغًا بالغضب، إذ بات يعكس الألم. كانت عاجزة
عن إخفاء المسألة، حتى وهي عند باب عملها. أراد تشاكالنانا أن يصحبها
لتناول الغداء ليشرح لها كل شيء في مكان هادئ، لكنها لم تتوقف عن الكلام
وقالت بينما تتحب:

- أخذت فرشاة أسناني كبلهاء وملابس داخلية جميلة من الدانتيل اشتريتها خصيصًا. فكرت في المسألة طيلة أيام.. وأنت لم تتذكر حتى.. لا أهتم بأي عذر لديك يا كسول. لن تحصل على فرصة إذلالي مرة أخرى بهذه الصورة!!

تحيل مساعد الأرشيف -وباقة الزهور منزوعة البتلات في يده- سيسيليا يأكلها الغضب وهي تنتظره في حانة كوردانو بينما تمر الساعات. تساءل أيها أشد قسوة: ترك سيسيليا في ليلة حبهما الموعودة أم ترك جثة معلقة تنتظره في شقة خواكين كالبو، امرأة حية وأخرى ميتة، أيها سترك عبثًا أكثر في ضميره؟

- إن أتحت لي فرصة سأدعوك للغداء وسأشرح لك..

قالت بصوت قد يبدو همسا لكن مظهرها كان كأنها تصرخ بصوت خافت:

- ألم تفهم. لا أرغب في رؤيتك مجددًا! أنت لم تعد موجودًا بالنسبة لي. هل تعتقد أنك خيارى الوحيد؟ يوجد رجال آخرون في العالم ولا ينسوني كلهم.

بضربة يد أخيرة، أطاحت بباقة الزهور العارية من يدي تشاكالثانا. ودّ أن يشرح ما حدث دون ذكر اسم امرأة أخرى، أو على الأقل دون ذكر اسم المرأة التي قبلته أمامها، إلا أن الثواني تمر وتهرب معها الكلمات بنفس السرعة. وفوق كل هذا أغضبه ذكر عبارة «رجال آخرين». تفهم أنها لم تقف عند الباب لتتحدث معه. إنما تنتظر شخصًا آخر. ربما هو الفتى صاحب سروال الـ«جينز» والملابس غير الرسمية، منافسه التقليدي. قال في أسف:

- أوه.. لا.. مازلت تخرجين مع ذلك الفتى؟ أرجوك. لا أعرف من هو، لكن أنا..

- لا يحق لك مطالبتني بشيء، ولا التدخل في حياتي. لم يعد هذا ممكناً.
بصورة لا يمكن إيقافها أو تفسيرها بدأ حزن تشاكالانا يتحول إلى غضب. كان لديه هو الآخر أسبابه ليشعر بالضيق:
- وما الوقت الذي استغرقه معك الأمر لتبحثني عن رجل آخر؟ 12 ساعة؟
- لكي تعرف الأمر يا تيس، لقد رفضت دعوته. اتصل بي صباح اليوم ليعرف إن كنت مازلت حية.
- أو أنك بمعنى آخر، تلعبين بيد هنا وأخرى هناك. لا أصدّق أنك بمثل هذا النفاق.
- ليس عليك أن تصدق شيئاً! فلترحل من أمامي ولو لمرة واحدة في حياتك.
- لن أرحل. لن يحدث هذا تحت أي ظرف. أرغب في أن يأتي هذا الرجل هنا ويأخذك في وجودي. أرغب في مشاهدة وجهه حينها..
- فيليكس! يا لها من مفاجأة.
- بدا الصوت الذي اقتحم نقاشهما مألوفاً بشكل مرعب، معروفاً بشكل مؤسف، خاصة وأنه صوت يربطه بمواقف وأماكن مختلفة للغاية، بمنازل ممتلئة بالأسلحة ومطارات عسكرية وأقنعة، بأخطار، بمختفين وبأشباح، لكنه على الرغم من كل هذا بدا شديد البراءة، بل إن تحيته هي الأخرى بدت ودودة للغاية، لدرجة أن كل ما فعله مساعد الأرشيف، الذي سقط فريسة للدهشة، كان الالتفات والرد:

- دانييل.. كيف.. حالك؟

استقبلت سيسيليا الطالب بقبلة خاطفة في خده وخفضت نظرتها،
انتظارا لانمحاء الغضب من عينيها.

- أهلا يا دانييل.

نظرت بعدها نحوه بفرح جلي، ربما باشتهاء.

- مستعدة؟ أعرف مطعما صينيا سيجعل ذوقك صينيا في كل شيء.

ابتسمت قبل أن تقول:

- بكل تأكيد. هيا بنا نذهب الآن؟

- بها أننا تقابلنا. كنت أود أن أخبرك بشيء يا فيليكس.. هل هناك

مشكلة يا سيسيليا إذا انتظرتِ بضع دقائق؟

- لا. قطعًا. سأذهب للحمام وبالمرة سأعدل من زيتي بعض الشيء.

ابتعدت سيسيليا فوق سجادة من البتلات البيضاء وأغصان الزهور
الممزقة. لم يتمكن مساعد الأرشيف من تجنب الإمعان في نظرة الطالب
المأخوذة إذ كان يتأملها مشدوهاً. لربما كانت نظرة تشاكالтана نفسه تبدو
هكذا حينها كانت سيسيليا فعلاً تحبه.

قال أباريث:

- هي جميلة أليس كذلك؟

توقع مساعد الأرشيف ما هو آت. صراع بين رجلين. تنافس بين
مفترسين على فريسة. كانت هذه هي لحظة تحديد المواقف بل وإعلان الحرب.

- هل تعجبك؟

تنهد أباريث:

- لم أ حظ بحياة طبيعية منذ فترة. أنت تعرف: الفتيات والجمعة والسينما..
المسدسات وأغطية الرأس أمور لا تبدو كخطة جيدة.

- وأصدقائك؟

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه أباريث وبدا كأن عينيه تشعان نورًا:
- صباح اليوم تلقت كل العائلات مكالمات هاتفية. هم عند الشرطة
الفيدرالية. كلهم في خوخوي، بما فيهم راميرو. سيخرجون من الأرجنتين
على متن رحلات تجارية.

- كيف يمكن نسيانها!

تمتم تشاكالثانا مع نفسه بهذه العبارة بينما يفكر في أن ماريانا، الأرجنتينية،
تغيب عن هذه القائمة. لم يرغب في أن ينطقها بعلو الصوت. لم يرغب في
تخطيم الحالة المعنوية الجيدة لأباريث.

قال الشاب بينما يمد يده نحو مساعد الأرشيف الذي صافحه مرتبًا:
- أرغب في أن أوجه لك الشكر يا فيليكس.

- لماذا؟

- لولا أنك أدخلت أنفك في الموضوع، لكننا جميعًا موتى. ليس لدي
شك في هذا، لكن مع عودة بيرو للديمقراطية ووجود مُشْتَغِل فضولي مثلك
في القضاء.. لم يتجرأ العسكريون على فعلها. لقد أنقذت رقابنا وخاطرت
برقبتك.

لم تكن كلمات أباريث لتشاكالثانا تحمل أي معنى. كان ينتظر في
الواقع حديثًا عن الحب أو عن الكفاح. تفهم أن أباريث لم يخطر حتى في
باله أن شيئًا يجمعه بسيسيليا. ربما لم يفكر هذا الشاب المغامر والشجاع أنه

- في شؤون النساء- قد ينافس موظف عمومي تقليدي، ففي نهاية المطاف مساعد الأرشيف هو في النهاية مساعد الأرشيف.

- ال... عفو.

- فوق كل هذا، يبدو أن الانتخابات كانت نزيهة في نهاية المطاف. الشعب قال كلمته. الأحزاب التقدمية فازت. نحن وبقية الرفقاء ندرس إن كانت هذه هي اللحظة المناسب للعودة للمنظومة السياسية، فهكذا قد نتمكن من التحقيق في الأمور التي حدثت، مثل موت خواكين على سبيل المثال.

- صحيح.

- سنستمر في مساعدة الرفقاء الأرجنتينيين والتشيليين الذين يعانون بالفعل من الوحشية. كنا أفضل حظًا منهم، أليس كذلك؟

- أظن هذا.

للحظة تمنى تشاكالانا أن يظل ألبارث في عالم الخفاء، بعيدًا عن الحياة الطبيعية التي يشدها، بعيدًا عن سيسيليا، إلا أن الأخيرة عادت في تلك اللحظة من الحمام. كانت قد تزينت ومحت آثار بكائها. تمنى مساعد الأرشيف لو أن هناك أدوات للزينة قد تمحو ألم وحزن وخواء معنوياته.

قالت دون أن تلتفت لتشاكالانا:

هيا بنا؟

أجابها ألبارث:

بالطبع.

رحلت هي في البداية دون إلقاء كلمة وداع، وقبل أن يسير ألبارث خلفها أخرج مفكرة وقلم. كتب عدة أسطر على ورقة ثم نزعها وقدمها

- خذ يا فيليكس. أنا أثق فيك ونقلت ثقتي لرفقائي. استحققت هذا.
مهزومًا دون معركة، أخذ تشاكاللتانا الورقة. كان رقمًا هاتفيًا، في دولة
بالخارج بلا شك لأن الأرقام الأولى كانت بين علامتي تنصيص. نظر نحو
الباريث في انتظار تفسير.

- هذا هو رقم مندوثا. أميننا العام. لقد تحدثت عنك معه بالفعل، هو
ذلك الرجل الذي لم يكن يثق في خواكين. تحدثت معه عنك أيضًا وقصصت
عليه كيف ساعدتنا. إذا أردت سؤاله عن أي شيء، اتصل به وسيجيبك.
قبل رحيله، احتضن الطالب تشاكاللتانا بقوة واحتك خد مساعد
الأرشيف بلحيته غير المهذبة. من فوق كتفه، رأى تشاكاللتانا للمرة الأخيرة
سيسيليا وهي تنتظر بنفاد صبر فوق الرصيف لتذهب لتناول الغداء.



مغلوباً على أمره، بعدما هزمته الحياة، كان تشاكالтана يجر قدميه في طريق عودته نحو المنزل. كان الأسبوعان السابقان أكثر حدة من وجوده ذاته، إلا أن الأحداث الأخيرة تخطت بالفعل أسوأ توقعاته. رغم هذا، كانت هناك مفاجأة في انتظاره في صالون الشقة. شعر بوجودها بينما يفتح الباب حتى قبل أن يسمع الأصوات القادمة من الداخل أو أن يلاحظ رائحة البيسكو. كان هناك ضوء له خصوصيته يأتي من هناك، من الداخل.

دندنت أمه بفرحة غير طبيعية بالمرّة:

- فيليكس! خمن من الذي عاد!

لم تكن هناك حاجة للتخمين.

- دون جونثالو!

- كيف حالك يا فتى؟ هل افتقدتني؟

تعانقا، رغم ذراعه المرتعش، نجح العجوز في ضم الشاب بقوة ملحوظة. كان تشاكالтана يشعر بالفعل أنه قد افتقد هذا الرجل، ربما لهذا - بصورة غير ملحوظة، وكأنه لا يقصد - قلب صورة والده الموضوعه فوق الطاولة نحو الجانب الآخر ثم حيا دون جونثالو:

- كنا نظن أنك قد اختفيت للأبد.

أجابه العجوز:

- أنا لا أختفي، حتى ولو ود آخرون هذا.

كانت أم تشاكالтана قد دخلت المطبخ لتخرج بعدها بصينية عليها كرات من البطاطس وطبق عميق مليء بالصلصة على طريقة أوانكاويو.

- انتهيت للتو من تجهيز حساء سمك الغراب، أترغب بعضًا منه يا فيليكس؟

أوما مساعد الأرشيف برأسه. اشم بسعادة رائحة حساء السمك مع الخضروات والبفرة وبالمثل رائحة أخرى: رائحة العائلة السعيدة.

بينما يتناولون الغداء دار حوار لطيف للغاية بينهم؛ تحدثوا عن أوغوستو فرناندو وبرنامجه التلفزيوني «ترامبولين الشهرة» والذي يعتبره تشاكالтана سفيها وتجه أمه، ولم يسبق لدون جونثالو أن شاهده قط طيلة حياته. تحدثوا أيضًا عن موسيقى الفالس الهجينة التي يحبونها، بل أنه في لحظة ما ضحكت أم تشاكالтана جدا لدرجة أنها رسمت إشارة الصليب وكلها قناعة بأن قضاء وقت بمثل هذه المتعة يجب أن يكون خطيئة خطيرة. تمكن تشاكالтана لمدة ساعة من نسيان كل الأشياء الرهيبة التي مر بها في آخر 24 ساعة، لكنها كانت مجرد ساعة.. كما جرت العادة، قدمت أم تشاكالтана القهوة للرجلين وانسحبت نحو المطبخ لتغسل الأطباق. عرض دون جونثالو أن يساعدها إلا أن ذراعه المرتعش لم يكن ليصبح عونًا كبير. شعر تشاكالтана باندفاع نحو أن يتولى بشخصه هذه المهمة، إلا أنه يحتاج لقضاء بعض الوقت منفردًا مع الرجل العجوز، فهناك أمور لا يمكن أن يتحدث بخصوصها مع أحد سواه.

- سعيد بعودتك دون جونثالو.

أقلت من العجوز شيئًا بدا كزجاجة سعيدة ثم صب قليلًا من اليبسكو في قهوته.

- زيارتك جعلتني أفكر كثيرًا يا فيليكس.

- صحيح؟ فعلا؟ في أي شيء؟

- في أنني محبوس في الماضي. أعيش حياتي في معاناة لأنني لا يمكنني إصلاح شيء مما انقضى بالفعل، وهكذا أغفل عن أمور قد أصلح للقيام بها في الحاضر.

- هل تتحدث عن أمي؟

- وعنك أنت أيضا.

قال دون جوثالو هذه العبارة بابتسامة لطيفة على محياه، ابتسامة من ذلك النوع الذي يتذكر تشاكالانا أنه لم يرها قط على وجه أبيه. في النهاية، كان فيليكس فرصة لتصحيح أخطاء الماضي والعكس صحيح.

تنحنح مساعد الأرشيف ثم قال:

- لقد... تحققت من معلومات جديدة بخصوص خواكين. حدثت أيضًا أشياء جديدة. هل ترغب في أن أحكيها لك؟
- لا.

كان رفض دون جوثالو يبدو غير متوقع كأنه ضربة أو بصقة. قال تشاكالانا مندهشًا:

- لا؟ ظننت أن..

- سبق وقلت لك يا فيليكس. لا أرغب في أن أقتات على الماضي. سأبقي الأخطاء التي ارتكبتها وراء ظهري. لوددت أن أصلحها، لكن علي الآن الانشغال بمستقبلي. أنت علمتني هذا في ذلك اليوم أثناء محادثتنا بالحي الصيني، وأرغب في تطبيق ما تعلمته. عليك أن تفعل المثل.

- المسألة ليست سهلة.

- أنت من تقول لي هذا؟

قاطعها جرس الباب، إلا أن أيا منهما لم ينهض لفتحه. سمعا أم تشاكالثانا وهي تغلق الصنبور لتبدأ مسيرتها الطويلة نحو المدخل ولم يتحركا.
- دون جونثالو. كنت أظن أنك أول من سيهتم بمعرفة ما حدث لابنك.

- لم أعد مهتما. قضيت طوال حياتي أحاول أن أفهمه. علينا ألا نترك الموتى يجرؤنا إلى عتبتهم. وأنت أيضًا إياك أن تفعلها.

أحس تشاكالثانا بأنه عاجز عن الابتعاد عن عتبة خواكين، وكذلك سوسانا أراندا. لا خيار لديه، فلا أحد يستطيع اتخاذ قرار حول ما إن كان إعصار ما سيطيح به أم لا.

نادته أمه من عند الباب:

- فيليكس. أحدهم هنا من أجلك!

لكنه لم يرد على أمه بل على دون جونثالو:

- والمذنب. سنترك المذنب يرحل دون أن يدفع ثمن فعلته؟

- لو لم نفعل هذا، لدفعت أنت الثمن يا فيليكس. حرر نفسك يا فيليكس وانس المسألة.

عادت أمه لتنادي من جديد بينما تقترب عبر الطريقة:

- فيليكس. أحدهم هنا من أجلك

- من هو؟ لم يأت أحد ليبحث عني في المنزل قط. قولي له إنني لست

هنا.

أطلت رأس أمه حينها من مدخل غرفة الصالون. كان يبدو عليها
القلق:

- لا أظنه سيكون تصرفاً لائقاً. فيليكس، هو رجل عسكري. قال إن
اسمه «الأدميرال كارمونا».

ككل رجال البحرية، يشعر كارمونا بانجذاب نحو المياه، أو أن هذا هو ما فكر فيه تشاكالтана. في المرة السابقة أخذه نحو جبل «مورّو سولار» والآن ينعطف بسيارته نحو الرصيف البحري ثم يهبط بها الجرف حتى الساحل الأخضر. لم ينبس أي منهما بكلمة طوال الطريق. لم ينظر الأدميرال حتى نحو عينيّ تشاكالтана لتحيته. اقتصر كل ما فعله على البقاء في صمت غامض ومهيب. تساءل تشاكالтана من ناحيته، وهما بمحاذاة الشاطئ، لم يحمل شاطئ ليا اسم «الساحل الأخضر»، فالجرف في نهاية المطاف كان بنيًا بالكامل أما المياه فرمادية، لكنه لم يعبر عن شكوكه هذه بصوت مرتفع.

توقفت السيارة عند شاطئ حجري وصوت الحصى يتفتت تحت إطاراتها. انتظر تشاكالтана حتى تصدر من الأدميرال أي إشارة أنه على قيد الحياة، لكن الأخير ظل لبرهة متشبثًا بالمقود وهو ينظر لمياه المحيط بينما تصطدم بعنف بكاسرات الأمواج. نهض الرجل العسكري بعد مرور عدة دقائق مبتعدًا عن السيارة دون أن ينظر حتى نحو تشاكالтана، وتقدم نحو سفير البحر. سار تشاكالтана خلفه وقبل خطوتين من اللحاق به، سمع صوت العسكري من بين الأمواج وهو يقول:

- لقد أخبرتك؟ أليس كذلك؟

- سيدي؟

أول مرة تكرم الأدميرال على مساعد الأرشيف بالنظر نحوه. نظرة سريعة، خاطفة، لكنها ثابتة.

- سوسانا أخبرتك بأن خواكين كان يعمل لصالحني. كانت تعرف المسألة.

كان تشاكالтана قد حافظ على كل أسرار سوسانا أراندا وهي حية. قال في نفسه إن هذا الأمر لم يعد له معنى بعدما ماتت. رغم هذا هناك أمور لا يستطيع حكايتها. قرر أن ينتظر ويسمع ما يقوله الأدميرال وأن يؤكد فقط ما يعرفه بالفعل:

- لقد.. تعرّفت على خواكين بفضلك. هذا هو ما قالت لي.

- لكنها لم تكن تعرفه فقط، أليس كذلك؟ أنت تعرف ما الذي أرمي إليه؟ تحطمت موجة فجأة بالقرب منها. لف الحصى ودار كأنه مشكال. تذكر تشاكالтана صور سوسانا أراندا في الشاطئ وفي شقة خواكين. تذكر أيضًا جسد هذه المرأة وهو يتللى من عارضة خشبية في السقف. فكر في أنها صورتان لامرأتين مختلفتين، من حقبتين مختلفتين.

- لا يا سيدي. لا أعرف ما الذي ترمي إليه.

وجه الأدميرال نظرة شك نحوه. لم يصدقه، لكن ماذا يمكن لتشاكالтана أن يفعل؟ الاعتراف بأنه كان على علم بعلاقة سوسانا وخواكين ولم يبلغه عنها؟ لم يكن ليفعل هذا تحت أي ظرف. كان في مرحلة تعلم التمييز بين ما يمكن وما لا يمكن قوله وما يحدث الآن يندرج بكل تأكيد تحت البند الثاني. لحسن الحظ واصل كارمونا حديثه:

- هي الوحيدة التي يمكن أن تخبرك بأن خواكين يعمل لصالحها. بمجرد أن نطق أنت بهذه المعلومة أمامي، علمت أنها في خطر. تركتك عند مورو سولار لأذهب وأبحث عنها، لكن لم أعر عليها في الوقت المناسب.

تساءل تشاكالтана إن كان الأدميرال ينتظر منه ردًا، لكنه لم يكن يحقق معه، ففي كلماته الأخيرة قد انكسر صوته. قبل أن يواصل حديثه استدار. بدأ يتحدث حينها بصوت مرتعش:

- كنت أرغب في إسعادها. هذا هو ما وددته يا فيليكس. لا أعرف كيف جعلت كل الأمور تنتهي كالخراء هكذا.

اعتقد مساعد الأرشيف أنه قد رأى الأدميرال بيكي. لم يظن أبدًا أنه سيرى هذا الرجل بيكي، إلا أنه لم يتحقق من ظنه. كان كارمونا مازال يعطي له ظهره وتسيبت الرياح والأمواج في إخفاء بكائه، هذا إن كان قد بكى أساسًا. قرر تشاكالтана مواصلة المحادثة، لكن بطريقة مهنية. كانت لديه معلومة جديدة وهذه هي اللحظة المناسبة لإعلانها:

- تحققت مما جلبه خواكين معه من الأرجنتين في آخر أيام حياته.

- فعلا؟

بدا صوت الأدميرال كأنه لا يبالي أو كأنه قد اندهش من الحديث عن الموضوع، لكن هذا بالفعل كان الموضوع الوحيد والممكن.

- طفل يا سيدي. حدث. قاصر.

- طفل.

كان صوت الأدميرال يسمع بالكاد لدرجة أن تشاكالтана عجز عن فهم إن كان ما قد قاله سؤالاً أم مجرد قبول للمعلومة التي كشفها.

- الطفل دخل البلاد بصورة غير قانونية عبر مطار خورخي تشافيز، شأنه شأن خواكين الذي كان يستخدم جوازًا مزورًا باسم نيبوموسينو بالديبيا، لكن حينها حدث شيء غريب.

- هل هناك شيء آخر؟

ربما بدا صوت الأدميرال ساخرًا هذه المرة، لكنه ما يزال لا ينظر نحو تشاكالтана الذي تتحسس كلماته الطريق بسبب الحالة المعنوية لكارمونا:

- هو أغرب شيء يا سيدي. خواكين وصل ليما في الثالثة عصرًا وأخذ الطفل لمكان وتركه هناك. ربما سلمه لمن كان ينتظره. لا أعرف. كل ما أعرفه فقط هو أنه بعدها جاء للأرشييف القضائي وأبلغ عن دخول «حدث» للبلاد بصورة غير قانونية، بمعنى آخر أنه وبطريقة ما أبلغ عن نفسه.

استدار الأدميرال حينها لأول مرة، لكن الشمس كانت تضرب خلف ظهره، وفي ظل هذه الإضاءة المعاكسة استحالت معرفة أي تعبير قد ارتسم على وجهه.

- ما تقوله ليس له معنى. لماذا يفعل أحدهم هذا؟

كان تشاكالтана سبق وسأل نفسه السؤال ذاته ونطق الإجابة الوحيدة التي بدت له ممكنة:

- لأنه عرف أنهم سيقتلونه، سيدي الأدميرال. لقد عرف، ورجب في ترك دليل لنا.

بدا الأدميرال الآن كطيف قائم تقطعه الأمواج، طيف بلا وجه. عاد صوته ليبدو معدنيًا من جديد، بلا مشاعر كأنه آلة كاتبة تكتب تقريرًا:

- لم يعثر على جثة لطفل بجوار خواكين ولا في أي مكان آخر حتى تاريخه.

- بمعنى آخر.. ما زال القاصر حيا.

بدأت الرياح تهب وبدا طيف الأدميرال الآن محاطا بزوبعة من الرمال. تحطمت موجتان متقاطعتان عند كاسر الأمواج ليرتج الشاطئ، وقال تشاكالтана ما يفكر كارمونا فيه بلا شك:

- إذا عثرنا على هذا الطفل، سنعرف من الذي قتل خواكين.

اقترب الأدميرال من تشاكالтана. حينما وصل عنده، تمكن مساعد الأرشيف من النظر لوجهه. كانت عيناه حمراوين، لكن هذا قد يكون بسبب الرمال التي تطايرت في الأنحاء. بغض النظر عن هذا استعادت نظرتة لمعانها الأزرق الجليدي وبالمثل صوته أيضًا. أضاف:

- وإذا عرفنا من الذي قتل خواكين سنعرف من الذي قتل سوسانا. لا بد من أنه ابن العاهرة ذاته.

- اعذرنى سيادة الأدميرال، لكن الطب الشرعي لم يتمكن من تحديد إن كان الحادث قتلا أم انتحار...

صعقت تشاكالтана نظرة من الأدميرال. فوق البحر، بعيدًا، تراكت غيوم رمادية. ازدادت قتامة المياه التي ارتفعت لتشكل شبكة من الرغوة والفقاقيع التي تصادمت فيما بينها. قال الأدميرال كأنه حكم نهائي:

- لم يكن انتحارًا. قتلوا سوسانا. اغتالوها ويجب أن أعرف من الذي فعلها. عليك أن تساعدني في التحقق من المسألة لأنني حينما سأمسك بابن الساقطة هذا، سأطهو خصيتيه فوق مقلاة.

- إذا كان من قتلها هو نفس من قتل خواكين، فبإمكاننا تعقبه. علينا أن نعرف من أين خرج الطفل وإلى أي مكان ذهب. يجب أن نتحدث مع مندوثا هذا.. المخرب، لكن لا توجد وسيلة، لأنه لكي يحدث هذا يجب أن نذهب للأرجنتين ونحن ليس لدينا ولاية قضائية هناك لنفعل هذا.

سأله كارمونا:

- ليس لدينا؟ هل أنت واثق؟

- سيادتك قائد بالقوات المسلحة البيروفية وأنا موظف بالسلك

القضائي.

استمر ضوء الأفق في الخفوت. وحينما غربت الشمس تلون بأضواء
حمراء وبرتقالية ووردية. لمعت عينا الأدميرال أكثر من أضواء الأفق الجديدة
وفي تلك المرة تردد صوته عاليًا وواضحًا، ربما مليئًا بالسلطة ليقول:
- أنت مخطوع يا فيليكس. أنت وأنا عميلان في «كوندور». لدينا ولاية
قضائية في كل أمريكا الجنوبية.

- السادة المسافرون، برجاء ربط الأحزمة. تمر الطائرة الآن بمطبات هوائية.

تردد الصوت داخل المقصورة بأكملها، دون وجود مصدر معين، كأنه صوت الرب. مرتعشًا ويدين تتعرقان، ربط تشاكالтана حزامه وحرك مقعده للوضع المستقيم وتثبت بياس بكيس التقيؤ. بدت له الطائرات دومًا وهي في السماء ضخمة وقوية، إلا أنه وهو داخلها الآن رآها ضيقة جدًا، وتثير رهاب الأماكن المغلقة، كأنها صفيحة سردين على وشك أن تسقط من السماء. أطل برأسه من النافذة في محاولة لإلهاء نفسه؛ امتدت جبال بنية مغطاة بالثلج هناك في الأسفل. قبل ست سنوات، في هذه السلسلة الجبلية نفسها، تحطمت طائرة أوروغوائية. قضى الناجون شهرين ونصفا وسط الثلوج، ولمقاومة الجوع أكلوا جثامين زملائهم على نفس الرحلة. عندما تذكر تشاكالтана هذا الخبر، كافح أكثر لاحتواء شعوره بالغثيان.

- أستاذ.. أنت بخير؟

رفع تشاكالтана رأسه. كانت مضيضة جوية شقراء طويلة تحدته بنفس اللكنة الأرجنتينية التي كان يسمعا منذ عدة أيام.

- الحقيقة.. لست في أفضل حال.

- صحيح. استرخ. اتفقنا؟ جلبت لك شيئًا سيساعدك.

قدمت له كوبًا من شراب الرُّم مع الثلج. خشي تشاكالтана أن يدفعه الكحول للتقيؤ مباشرة، لكنه أطاعها وبينما كان المشروب يتشر عبر أوردته، لاحظ بارتياح كيف يتراجع توتره.

لا ترتبط المسألة بالطيران وحده، بل أيضًا بالسر. لم تكن لديه رغبة كالعادة في الكذب، لكنه قال لأمه في المنزل إنه سيقضي ليلتين في مدينة واتشيبيا لحضور مؤتمر حول قوانين السوق. بخلاف هذا، فهو يقوم بهذه الرحلة متخفيًا، بجواز سفر مزور باسم شخص يدعى أوليفر مالكا. لو انتهى جسده ممدًا فوق جليد جبال الإنديز، لن يتمكن أحد من التعرف عليه، والحقيقة تقول إن جسده كان لينتهي ممدًا فوق أماكن كثيرة.

طوال الساعات التي انتظرها في المطار وأثناء الرحلة، كانت احتمالية قد تشكلت داخل رأسه: ماذا لو أن الأدميرال إكتور كارمونا نفسه هو القاتل؟ هو احتمال منطقي: كارمونا قتل زوجته الخائنة وعشيقتها، والآن ليتخلص من الشاهد الوحيد، قرر إرساله للخارج باسم مزور إلى أصدقائه الأرجنتينيين المتخصصين في التخلص دون ضجة من غير المرغوب فيهم، فدانيل ألبارث سبق وأخبره بأن الأرجنتينيين يلقون بالسجناء من الطائرات بينما تحلق. ربما كانت الأرض المغطاة بالجليد التي يراها من النافذة مفروشة بالجلث، وقد تنضم جثته لها في أي وقت.

أوربا لا.

انطفأت أضواء ربط الأحزمة. توقف جسد الطائرة عن الاهتزاز ونهض تشاكالانا ليتوجه للحمام وبعد جهد كبير تمكن من تحطى ركبتي الراكب الجالس في المقعد المجاور ثم تقدم عبر الممر، مرورًا بمنطقة المدخنين. زادت رائحة التبغ الكريهة من شعوره بالدوار. دخل المرحاض، الذي أضاء نوره بشكل تلقائي، كأنه ثلاجة.

كأنه ثلاجة لجلث الموتى.

بلل وجهه بالماء وظل يفركه باهتمام كأن هذا سيزيل تعبير الغم من على وجهه. استند على الحائط وتنفس بعمق. حاول التخلص من أي أفكار

مفزعة في رأسه. قطعت جثتا خواكين وسوسانا ذاكرته كأنها ومضات كاميرا. دق أحدهم على الباب. احتسب تشاكالтана أنه ظل في الداخل لربع ساعة. كانت لحظة العودة لمقعده قد حانت، لكنه قبل خروجه أفرغ ما في جوفه في الحوض.

حينها هبطت الطائرة في مطار إزيلا كان تشاكالтана أنحف نوعًا ما وأشحب بكثير من لحظة الإقلاع. أعاد له الهواء المنعش وإحساسه بأنه على أرض ثابتة بعضًا من لون بشرته التقليدي، لكنه بينما يقف في صف الجوازات استعاد شحوبه. حينها سلم الجواز لضابط المطار، تمكن بصعوبة من السيطرة على رعشة يده. قال الضابط بينما يتفقد الوثيقة:

- سيد أوليفر مالكا. أول رحلة لك للأرجنتين؟

تأخر تشاكالтана للحظة في الرد على هذا الاسم. لم يعتد عليه، بل أشعره بالانزعاج، بالبعد، كأنه سروال أصفر أو قبعة فلاح مكسيكية.

- نعم يا سيدي.

- صحيح، فهي أول رحلة لك. لا توجد أختام على الجواز. هل أنت هنا لتشهد المباراة؟

تذكر تشاكالтана مباراة الأرجنتين وبيرو التي ستلعب في مساء ذلك اليوم. كان الأدميرال كارمونا قد أخبره: «هذه هي اللحظة المثالية للسفر. لن يدقق أحد معك. لن يدقق أحد مع أي شخص لا يرتدي سروالاً قصيرًا».

- ن... نعم.

كان مساعد الأرشيف ينظر نحو الأرض كأنه طفل توبخه أمه. ابتسم الضابط:

- لا أتمنى لك حظًا سعيدًا! أتمنى أن تفوز الأرجنتين!

على الفور، وبعدما أنهى الضابط عبارته، طبع بقوة فوق الجواز ختم دخول الأرجنتين.

- بالطبع. حظ سعيد لسيادتك. شكرًا.

- مرحبًا بك في الأرجنتين!

حينما نطق الضابط هذه العبارة، كان تشاكالтана الخائف من التقيؤ مرة أخرى، قد ابتعد عن مكتبه.

كان الجو باردًا في مطار إيزيزا، إلا أن تشاكالтана لم يهتم. تنفس بعمق وأخرج سحابة بخار من فمه لدى خروجه للمرآب. عدّ حتى المئة وحاول أن يستعيد اتزانته. لن يستطيع تنفيذ مهمته إذا واصلت معدته اللعب معه بهذه الصورة السيئة. كان ما ينتظره في الخارج هو عاصفة من الوطنية الأرجنتينية، إذ تذررت السيارات والحافلات حرفيا بالأعلام وغطت الخطوط الزرقاء والبيضاء واجهات السيارات الزجاجية قاطبة، وكما هو الحال في بيرو شاع الحديث بين سائقي سيارات الأجرة وهم يدخنون بجوار مركباتهم عن كرة القدم. سار تشاكالтана بين هذه السيارات السوداء والصفراء حتى عثر على سائق يقرأ جريدته في صمت ثم طلب منه:

- خذني إلى مقهى تورتوني من فضلك.

لديه موعد يجب أن يحضره هناك قبل السكن في الفندق. هذه تعليماته، وإن كانت «تعليمات» ربما ليست هي الكلمة الصحيحة، فالمرء يتلقى التعليمات من رؤسائه، أما تلك الأخيرة فمن الناحية الفنية قد فرضت عليه من قبل عدو. كان تشاكالтана قد اتصل في اليوم السابق برقم الهاتف الأرجنتيني الذي تركه له دانييل ألبارث، وعقب عدة محاولات رفع أحدهم الساعة، لكن دون أن ينطق.

قال تشاكالثانا:

- ألو؟

لم يجبه أحد، لكن صوت تنفس ثقيل كان يُسمع عند الطرف الآخر من الخط. حاول مساعد الأرشيف أن يقول ما لديه:

- الشاب دانييل ألباريث ترك لي رقمك. أعمل في قصر العدل في بيرو وتعاونت في عملية الإفراج عن دانييل عقب عملية الاعتقال الأخيرة التي كان ضحيتها. أبلغني أن هذا الرقم قد يساعدني في تحقيقي عن خواكين كالبو. أجابه صوت جاف ومنهك لرجل كبير في السن:

- أعتقد أنك مخطئ.

حاول تشاكالثانا أن يوقفه:

- لا. اسمعني. سأسافر إلى بوينوس آيرس مساء الغد. أود أن أراك. كل ما أحججه هي نصف ساعة. سأكون وحدي. لن أسجل شيئاً. أسأل دانييل ألباريث عني. هو على دراية بأن كل ما أوده هو تقديم العون لكم.

استمر صوت حركة الهواء على الطرف الآخر من الساعة. فكر تشاكالثانا في أنه لم يكن تنفساً، بل إن محاوره كان يُدخن بعمق:

- لا أعرف ماهية ما تتحدث معي بخصوصه يا أستاذ.

تعجل تشاكالثانا في الإجابة:

- أتحدث معك عن قتيل كان صديقاً لي. إذا كان لك أنت الآخر أصدقاء موتى، فستعرف ماهية ما أتحدث معك بخصوصه.

لم يكن مساعد الأرشيف يحسب كلماته. كان يقول الحقيقة بكل بساطة. توقف الصوت الصادر من الجانب الآخر، بما فيه نفث التبغ. خشي

تشاكالтана أن يكون الخط قد أغلق، لكن بعد عدة ثوان بدت كأنها ساعات تهلتت أساريره عندما سمع الإجابة:

- غدا، في الرابعة عصرًا، مقهى تورتوني. إرتد قبعة سومبريرو سوداء ووشاحًا أبيض.

ثم أغلق الخط.

الآن وهو في سيارة الأجرة، يتذكر تشاكالтана كل لحظة من هذه المحادثة. ارتدى تشاكالтана القبعة وأخرج الوشاح من الحقيبة. لم يبد صوت الرجل أرجنتينيا بصورة كاملة، لكنه لم يستطع تحديد جنسيته الأصلية من تلك الكلمات القليلة التي نطقها. ربما كان باراغوايًّا أو أوروغوايًّا، خاصة وأن مساعد الأرشيف لم يسبق له وسمع لكنة هذين البلدين.

نظر تشاكالтана فيما يتبقى من الطريق عبر النافذة. كان مندهشًا من حجم الأشياء في هذه المدينة، فكل شيء يبدو أضخم من ليما: البنايات والشوارع والآثار. العاصمة الأرجنتينية كانت كمجموعة من البنايات والمتاجر التي لم ير لها مثل سوى في الأفلام. كانت البيوت، شأنها شأن السيارات في مطار إزيزا، تتزين بالأعلام البيضاء والزرقاء وارتدى المارة أوشحة بنفس اللون. بدا الجميع متحمسين بصورة هائلة. كان مذياع سيارة الأجرة يعمل وأحدهم يقول:

- هذا السلام الذي نتطلع إليه جميعًا، لكل العالم ولكل رجال العالم. هذا السلام الذي يمكن للإنسان داخل إطاره أن يصل لمبتغاه بصورة كاملة وبكرامة وحرية..

عثر تشاكالтана على الهدوء في هذه الكلمات، كأنها بلسم لروحه المعذبة. سأل السائق عن هوية الشخص الذي يتحدث. أجابه السائق وهو رجل عجوز كان يرتدي قبعة ذات طرف أسود:

- إنه الرئيس فيديلا يافتى. الرئيس حضر كل مباريات المونديال. هو يجب كرة القدم.

- آه..حسناً.

- من أين أنت؟

- من بيرو؟

اكتسى الحماس فجأة صوت السائق:

- فعلاً؟ هل جئت من أجل المباراة؟

- في الحقيقة لا.

- لو كان الأمر بيدي لذهبت للملعب، لكن سأشاهد المباراة في التلفاز بالأبيض والأسود. أنفقنا كمية هائلة من النقود لبث المونديال بالألوان، إلا أننا جميعاً هنا لدينا أجهزة بالأبيض والأسود. هو أمر لا يصدقه عقل، لكن أهم شيء هو كيف يلعب هؤلاء الفتية. هم متوحشون. هل شاهدت كيمبيس وهو يلعب يافتى؟

وبداية من تلك اللحظة، لم يتوقف السائق عن الحديث وبدأ يعدد وهما في الطريق مزايا منتخبه الوطني؛ وعلى الرغم من الاعتراف بالحس التهديفي لكوبياس، أوضح أن بيرو ليس لديها أي فرصة أمام «القوة الكاسحة الأرجنتينية». أو ما تشاكالانا برأسه على كل ما يقوله الرجل وهو يأمل الوصول لوجهته المنشودة في أقرب وقت ممكن. لم يتأخرا كثيراً، فعلى الرغم من الشوارع الممتلئة بالأعلام والمارة الذين ارتدوا قمصان كرة القدم، كانت الحركة المرورية تنساب بصورة طبيعية. تقدما بالسيارة عبر جادة ضخمة مكونة من 14 حارة مرورية توجد مسلة في وسطها ثم انعطفا عند جادة مايو، وصولاً إلى مقهى «تورتوني». بينما يودعه قال له السائق:

- حظا سعيدا لك في بوينوس آيرس وليفز الأفضل!

لسبب ما، ساهمت كلماته في زيادة توتر تشاكالانا.

كان مقهى (تورتوني) يشبه نوعًا ما أجواء حانة (كوردانو)، أو أنه بدا كقريب ثري لحانة (كوردانو). تقدم مساعد الأرشيف بين مصايحه المعلقة وطاولاته الرخامية ومراياه وأخشابه اللامعة ليجلس في نهاية الممر عند ما اعتبره ركنًا مناسبًا ودون سبب واضح تذكر ما قاله له دون جونثالو في مقابلتها الأخيرة:

«علينا ألا نترك الموتى يجرونا إلى عبتهم». «ستدفع أنت الثمن يا فيليكس. حرر نفسك يا فيليكس وانس المسألة».

سرت رعشة في ظهر تشاكالانا.

انتظر لفترة وصول مندوثا، الرجل الذي قد يخبره بقصة خواكين الحقيقية. تفحص بعينه كل من دخل المقهى محاولاً تخمين كيف سيبدو. تقاطعت نظراته مع عدة رجال كبار في السن كانوا يقرأون الجرائد أمام قهوتهم. بعد عشر دقائق، لاحظ وجود صورة على الحائط: راقص تانغو يرتدي قبعة سومبريرو بيضاء ووشاحًا أبيض، مثله تمامًا. بدت له صدفة مضحكة. بعد مرور 20 دقيقة بدأ يدقق أكثر في مرئادي المقهى: بخلاف مشجعي كرة القدم الذين كانت لهم الغلبة، كثر وجود الأجانب: ألمان وهولنديون وإيطاليون. كانوا جميعًا يتحدثون فيما بينهم بلغات عجيبة. تفهم تشاكالانا أنه يتنكر في شكل سائح في مكان مخصص للسائحين. بدأ يظن أن أحدًا لن يأتي لهذا الموعد، وبعد خمسين دقيقة رحل بالفعل، فلو لم يفعلها، لم يكن ليصل في الموعد المطلوب لالتزامه التالي.

لم يكن فندقه بعيداً عن مقهى تورتوني. كان برجاً عاليًا له موقعه المميز في وسط المدينة بالقرب من ساحة مايو، وإن كان متهاكًا بعض الشيء. هو أحد الأجداد القديمة لقطاع الفنادق المحلي. رث لكنه ما يزال يصلح للسكن. من جديد، سأله موظف الاستقبال إن هو قد جاء لحضور المباراة. أرسله بعدها لغرفة مظلمة تطل نافذتها الوحيدة على باحة داخلية. ليس مع تشاكالانا متاع تقريبًا ليفرغه، سوى أدوات النظافة الشخصية، لذا حظي بوقت ليصعد لسطح الفندق. وقف لتأمل هذه المدينة وبنائاتها العملاقة التي تنتهي فجأة عند نهر لا بلاتا، هذا النهر الطويل الذي لا تُرى ضفته الأخرى، كأنه بحر. هناك في الأسفل، بدا المارة فوق الأرصفة كأنهم نمل أزرق وأبيض يشعر بالهياج، بعد أن ألقى أحدهم صخرة فوق جحرهم.

نزل في الموعد المحدد لاستقبال الفندق. أخبره كارمونا بأن أحدًا لن يسأل عنه أو يتصل به. لن ينطق أحدهم اسمه أيضًا. علامته المميزة الوحيدة هي شارة معدنية بألوان علم بيرو سيثبتها في ياقة قميصه. تأكد تشاكالانا بينما يهبط المصعد من أن الشارة مثبتة في مكانها. عاد من جديد لينتظر فترة طويلة. لم يشرح له الأدميرال من الذي سيقابله. قال له «ستسير على خطى خواكين»، كأنه أراد أن يرفع توتره أكثر مما هو عليه. قرر تشاكالانا أن يسلي نفسه بالتخمين، لأنه يجهل من الذي ينتظره. راهن داخل عقله على رجل يرتدي نظارة وله ملامح مميزة، وبعدها على شاب ذي ملامح شديدة العسكرية وجسد صحي مفتول العضلات. افترض أن هذا هو نوع الأشخاص الذين يجب أن يتولوا مسؤولية مهمة ذات طابع دولي، إلا أنه اكتشف في النهاية أنه ينظر نحو الجانب الخاطيء، حينما اقتربت منه جهة الاتصال. وصله الصوت فجأة وهو يناديه بالاسم الذي سيظل باقيًا طيلة المهمة:

- مساء الخير.. كوندور؟

نظر إلى الرجل الذي ناداه: كان في منتصف العمر. رجل قصير ومكتنز ذو وجه ناعس وشارب أسود كث يغطي شفته العليا. لم يفكر قط في كونه جهة الاتصال.

- نعم. أنا كوندور.

- من هنا.

أشار له مضيفه ليتبعه نحو الخارج ثم أرشده عبر الشارع، لكنه لم يمد له يده بالتحية أو يُصدر أي إيحاءة ترحاب. لم يوجه له ولو كلمة واحدة حتى وصلا للسيارة. كانت شاحنة قديمة بزجاج مُبطن وعليها عبارة دعائية: «سيارات أورليني». سأله تشاكالثانا وهو فاقد للتركيز:

- هل أنت ميكانيكي؟

ضحك الآخر ثم قال:

- شيء من هذا القبيل.

دعا تشاكالثانا بإيحاءة منه ليجلس على المقعد المجاور له. بينما تنطلق السيارة لاحظ مساعد الأرشيف أن لا شيء على ظهرها سوى مساحة صندوق الشاحنة الفارغة دون أي مقاعد أو أدوات. بدأ يفكر من جديد في أنه يسير نحو حتفه. سأل مضيفه:

- ما هي ربتك؟

- ماذا؟

- ربتك. درجتك؟ هل أنت ملازم؟ رائد؟

قال له الرجل بلكنته الأرجنتينية:

- أنا من مجموعة المهام رقم 18 .

لم يرغب تشاكالтана في السؤال عن ماهية «مجموعة المهام رقم 18».

بدأت الشمس تختفي خلف مباني المدينة، ودون أن تحيد عن مسارها الثابت، قطعت الشاحنة طريقها عبر عدة حدائق بدت لتشاكالтана جميلة للغاية ثم مرت بجوار ميدان لسباق الخيل. بدا الأمر كأنها يتوجهان لمنطقة راقية.

قال السائق:

- ظننت أن شخصاً أكبر منك في السن سيأتي.

بدت كلماته كأنها احتجاج، كأنها احتجاج أخرق، خاصة وأنه حتى لم يكن يتمتع برتبة عسكرية.

أجابه تشاكالтана الذي جهز رده على هذا السؤال بالفعل:

- هو مجرد تفقد روتيني للعملية. نرغب في معرفة كل خطوة نفدها العميل كالبو أثناء زيارته.

- وكان يجب أن يكون اليوم؟ في هذه الساعة تحديداً؟

فهم تشاكالтана مقصد الرجل. كانت المباراة على وشك البداية. لاحظ المسألة لأن الشاحنة مع مرور الوقت باتت تتقدم ببطء وهي تائهة بين حشود متسرعة ترغب في الوصول لبيوتها، للحانات، للأندية.

عند أحد الجانبين، تعرف تشاكالтана -بفضل صور الصحف- على ملعب المونومونتال معقل ريفرليت الذي ينتصب كأكبر معابد العالم. فجأة أحس تشاكالтана أن شارة علم بيرو بدأت تتصاغر إلى حد الاندثار بعدما التهمت الأعلام والأوشحة والقبعات التي كانت تتزاحم في الشارع. قال

له تشاكالنانا بينما يحاول محاكاة نبرة الأدميرال المهنية:

- لهذا أتيت. هذه هي اللحظة المثالية لمجيئي. فالיום وهنا لن يركز أحد في شخص لا يرتدي سروالاً قصيراً.

أجابه السائق بغمزة من عينيه ثم خرج بالسيارة من الجادة الرئيسية مبتعداً عن الملعب بحثاً عن طريق فرعي أقل ازدحاماً. عاد للجادة الرئيسية من جديد بعد عدة دقائق ظل يدور خلالها في شوارع جانبية. كانت السيارة تتقدم حينها وسط بنايات متشابهة فيما بينها؛ ليست يقدم تلك الموجودة في وسط المدينة لكنها أغلى بكل تأكيد: باختصار مساكن للأثرياء. كانا قد قضيا وقتاً طويلاً في السيارة وتساءل تشاكالنانا إن كان الرجل يصحبه لمكان معزول ليتخلص منه ومن جثته. سأله في محاولة لتشتيت أفكاره:

- هل اقتربنا؟

- قل إننا وصلنا تقريباً. هل ترغب في أن أشغل لك الراديو؟

أوماً مساعد الأرشيف برأسه، فالمذيع على الأقل سيصبح رفقة جيدة له أكثر من ذلك العصبي ذي الشارب الكث. بدا له الصوت الذي خرج من المذيع مألوفاً وجديداً في الوقت ذاته. بدا بالضبط مثل تعليق البيروفيين، لكن بلكنة أرجنتينية:

- ها هما الفريقان يدخلان إلى أرض الملعب. إلى الأمام يا أرجنتين!
كل الأمور ممكنة الليلة. معنا التشكيل المؤكد لمنتخب بيرو وبعد عدة شكوك كثيرة سيدافع الحارس رامون كيروغا عن مرماه.

ارتسمت ابتسامة رضا من أسفل شارب السائق الكث. سأله بارتياح:

- أنت تعرف أن كيروغا هذا أرجنتيني؟

رفع تشاكالтана كتفيه، لكنه بدأ يهدأ، فمن الصعب أن يكون هذا الرجل يقوده نحو حتفه وهما يتحدثان عن كرة القدم. أليس كذلك؟ أم العكس صحيح؟

واصل السائق حديثه بعدما ازداد حماسه:

- البرازيل فازت على بولندا بثلاثة أهداف لهدف. علينا أن نسجل أربعة في مراكم؟ ما هو رأيك؟ هل سننجح؟ أقول أننا سننجح! المنتخب الأرجنتيني عظيم وربما يقدم لنا حارسكم يد عون. ما هو ظنك؟
لم يتلق ردًا من تشاكالтана.

واصل المعلق حديثه:

- بيروت تدخل الملعب بقميصها الأحمر الاحتياطي، لكن ملعب روساريو يمتلئ عن آخره بأعلام وأوراق بيضاء. لون الأمل. لون الأرجنتين.

قال السائق في سعادة:

- يا للجمال! اللعنة! هذه هي الأشياء التي ينتفخ بها صدرك فخراً. هناك أشياء أخرى قد تنتفخ معها خصيتيك، لكن هذه الأمور تملؤك بالفخر.
أبطأت الشاحنة من سرعتها لدى وصولها إلى صرح محصن. انتصبت بنايات الحي الراقي عند جانب، وفي الجانب الآخر، ظهر الصرح على شكل حلقة دائرية من البنايات القصيرة المزينة بأعمدة نيوكلاسيكية كأنه جامعة. بينما يُعرّف السائق بنفسه عند المدخل تمكن تشاكالтана من قراءة الكتابة على واجهة المبنى الرئيسية: «كلية ميكانيكا الأسطول» والتي نُحت عليها الشعار المميز للجيش الأرجنتيني. على الأقل، كان داخل مؤسسة عسكرية وهذا يعطي شيئاً من الرسمية للوضع العجيب الذي وجد خلاله نفسه داخل شاحنة لورشة سيارات مع رجل بلا اسم أو رتبة. أغلق تشاكالтана عينيه

في مقعده واستمع للمذيع. تكاد هتافات الجماهير تمزق مكبرات الصوت،
لدرجة أنها غطت أحيانًا على صوت المعلق:

- يطلق الحكم صافرة البداية. لوكي يمررها لكيمبيس الذي يبحث
في الخلف عن أولغين. الأرجنتين ترتب أمورها في نصف الملعب. لا روسا.
أولغين يبحث عن مخرج من جديد. لكيلا ننسى، الأرجنتين مجبرة على الفوز
بحفل أهداف ومستعدة لتحقيق هذا الانتصار.

تقدمت الشاحنة بين المباني ومرت بجوار برج للمراقبة. على يمينه،
اكتشف تشاكالانا ملعبا للتدريبات مزودا بدرابزين معلق وحبال. في خلفية
المشهد البعيدة ظهر مدفعان مكهنان، كتلك الديكورات الموجودة أيضًا في
حديقة وزارة الحرب البيروفية:

- حذار من مرتدات البيروفيين. تبادل للكرة الآن بين بيلاسكيس
وكوبياس. كيسادا يسعى لإرسال طولية لمونيانتي الذي يسعى للهرب من
الرواق الأيمن. مونيانتي يفلت من الدفاع الأرجنتيني ويحترق المنطقة. يخرج
الحارس فيول ويقطع عليه زاوية التسديدة، إلا أن مونيانتي يسدد في الوقت
المنااسب.. وترتطم الكرة بالعارضة!

وصلا عند الطرف الآخر من الصرح بجوار بناية بدت كمقر لإقامة
الضباط، لكنها لم يتوقفا عند الباب الرئيسي؛ إذ انعطفت شاحنة (سيارات
أورلتي) وصقها سائقها في الخلف وسط أجنحة البناية الثلاثة. بإيلاءة
بذقنه الملح السائق لتشاكالانا أن بإمكانه الترحل. فور دخوله بحث
مساعد الأرشيف بصورة غريزية عن مصعد، لكنه مضيفه أمره دون حتى
أن يلتفت نحوه:

- سنستخدم السلم.

لم يصعدا، بل هبطا. كان لدى تشاكالтана انطباعا أنه يهبط نحو سرداب للموتى أو مغارة تحت الأرض. رغم هذا، فهناك، في الأسفل، مازالت الأجواء تبدو حكومية بصورة مثالية: أرض إسمنتية باردة، مكاتب مصطفة بأبواب مغلقة. كان صوت التلفاز المهيمن هو الشيء الوحيد الدال على وجود حياة.

- البيروفي كويتو يرسل تمريرة علوية من جديد. ينتظرها أوبليتاس على حدود المنطقة. الدفاع لا يقدر على اللحاق به. حذار فهو في مواجهة فيبول ويسدد.. لكنها بعيدة وخارج الملعب.. حذار يا أرجنتين فهذه المرتدات قد تصبح قاتلة.

تقدم الرجل صاحب الشارب الكث واثقًا من نفسه نحو باب وفتحه. كان أثاث المكان عجيبًا: محفة تتصل بها أريطة ومقعد مزود بأحزمة، وبرميل ماء بلاستيكي وبعض الأجهزة الكهربائية. حاول تشاكالтана أن يفهم ما هو الشيء المشترك بين هذه الأشياء وماهية النشاط الذي قد يُمارس في هذا المكان. تذكر بعدها قصص دانييل ألبارث حول سجن خوخوي، لكن على الأقل، من كان موجودًا في تلك اللحظة وذلك المكان، رجلان يرتديان ملابس مدنية، ويشاهدان المباراة.

- مساء الخير!!!!!!

حياهما الرجل ذو الشارب الكث بهذه الطريقة وهو يطيل من الكلمات للفت انتباههما ثم قدم لهما تشاكالтана:

- هذا الشاب جاء من بيرو. يحقق بخصوص البيروفي الآخر. هل تتذكرانه؟ ذلك الذي جاء منذ عدة أسابيع.

أجابه أحد الرجلين دون أن يلتفت:

- نعم.

من ناحيته، كان الآخر على النقيض مهتمًا، لذا سأل:

- هل أنت بيروفي؟

أجابه تشاكالانا:

- بالفعل وفخور بهذا.

- حسنًا.. قل لي.. هل جلبت معك فازلين؟ لأننا سنضطر لتحطيم

مؤخراتكم!

ضحك بعدها الأرجنتينيون. لم يجد تشاكالانا شيئًا يدعو للضحك في هذه المزحة، لكن في تلك اللحظة حول علو صوت المعلق انتباهه نحو الشاشة:

- كيمبيس يمررها لباساريللا الذي يعيد الكرة له من جديد. مذهل يا كيمبيس! يمكنه الظهور في أي مكان بالملعب. ها هو يركض الآن نحو المرمى تاركًا الدفاع يتساقط من خلفه كأوراق الشجر ليعض النجيل. كيروغا يخرج من مرماه. تسديدة في الزاوية العكسية نحو القائم الأيسر ووو... جووووووول! هدف أرجنتيني. ماريو كيمبيس يفتح التسجيل!

كبركان ناثر، قفز الأرجنتينيون الثلاثة وتعانقوا قبل أن يربت كل منهم على ظهر الآخر بقوة. استمتعوا بإعادة الهدف بالأبيض والأسود قبل أن يقول أحدهم حينما تذكر أن تشاكالانا ما يزال بالغرفة:

- تبقى ثلاثة أهداف فقط يا بيروفي! ثلاثة أهداف وشكرًا مع السلامة!

أسف. الأمر ليس شخصيًا، ففي النهاية المطاف كما تعرف نحن جميعًا تجمعنا في النهاية أخوة أمريكا اللاتينية.

ضحك الرجلان الآخران حينما سمعا هذه الكلمات، وكان كل ما يوده تشاكاللتانا حينها هو الخروج من هذا المكان. بعد مرور عدة دقائق وكأنه قد قرأ أفكاره، أخرجه السائق من هذا المكان. حينما انغلق الباب خلفهما، شعر مساعد الأرشيف أنه يتنفس بصورة أفضل. قال له الرجل كأنه أمر ليس له أهمية وهما يعودان نحو السلم:

- نستخرج المعلومات في تلك المكاتب.

- أي معلومات؟

- كلها. بكل بساطة، نزل بالشيوعيين إلى هناك ونضغط. هم جنباء. 15 دقيقة هناك ويفرغون كل ما لديهم، وننفذ عملياتنا بناءً على ما يفصحون عنه. هؤلاء القوم حثالة. توصل الكهرياء بخصيتهم ويصبح لديهم استعداد لبيع أمهاتهم.

اعتقد تشاكاللتانا أنه سمع صراخًا قادمًا من نهاية الممر، ولأن مضيفه لم يعلق حاول نسيان المسألة. ربما كان احتفالًا بهدف أو صوت التلفاز، لكنه مهما اجتهد في محاولة تكرار هذه الخيارات داخل رأسه، ظل ذلك الصراخ -أو أيا كان- يطارده في رحلة صعوده للسلم.

- عرضية للأرجنتين ورأسية من تاراتيني تصطدم بالأرض و.. هدف! جووووول أرجنتيني! يبدو أننا سنذهب للاستراحة بحلم نصف مكتمل. إذا كررنا نفس ما فعلناه في الشوط الثاني ستأهل الأرجنتيني لنهائي المونديال.

استقبل الهدف بالتصفيق. كان الآن في دور غرف النوم الذي بدا كجناح فندقي. على الرغم من اجتماع أغلب العسكريين لمشاهدة المباراة في قاعة المؤتمرات، إلا أن عددًا منهم بقي في غرفته بقمصان التدريب أو تلك

التي تخصص المنتخب الأرجنتيني. خرج أحدهم من غرفة نومه وهو يرقص ثم قبل تشاكالтана والرجل صاحب الشارب الكث قبل مواصلة رقصته في المر. بهت تشاكالтана إلا أن مضيفه ابتسم ثم قال له:

- اليوم ليس يومك. أليس كذلك؟

لم يكن مساعد الأرشيف يفكر في المباراة. حاول أن يصنع جملة مترابطة:

- أنتم.. تأخذون المعلومات في القبو.. وتنامون هنا؟

- أنا لا أنام هنا، لكن هذا هو ما يحدث بالفعل مع من هنا ولا توجد

مشكلة. لا يُسمع أي شيء. الطابق السفلي مصمم ليكتم الأصوات.

أحس مساعد الأرشيف بدوخة، لكن الرجل الآخر كان يتحدث معه كأن الموضوع يتعلق فقط بشؤون الهندسة الداخلية. حاول تشاكالтана إخفاء انطباعه قدر المستطاع والسير وراء مرشده، الذي كان يلتقي باستمرار بمعارفه في هذا المكان ويتوقف ليتبادل معهم أطراف الحديث عن المباراة. قالوا له:

- ما الذي تفعله يا أحمق؟ تعمل في هذه الساعة؟

كان يرفع كتفيه أو يضحك وفي مرة قال قبل أن يغمز بعينه لتشاكالтана:

- نعم. أعمل كمرشد سياحي.

كان الشوط الثاني قد بدأ حينما وصلا للطابق الأخير. تقدم تشاكالтана سائراً بصورة ميكانيكية، كأنه إنسان آلي وعبارات معلق المباراة التي استمع إليها في الطريق تتقاطع وتختلط داخل رأسه. قبل صعودهما آخر درجات في السلم، كان عليهما أن يعرفا عن نفسيهما أمام حارس. بالطبع كان الحارس يحمل راديو ترانزيستور ويستمع للمباراة:

- الملعب يفيض بالأوراق البيضاء الصغيرة التي ألقاها الجمهور ليشجع فريقه، هذا الفريق الذي قد تجرأ بالفعل. الأرجنتين تطلق وتهاجم. بيرتوني يدخل من الناحية اليمنى ويسقط. يحتسب الحكم مخالفة سينفذا أولغين. الكرة تذهب لقلب المنطقة وأين هو كيمبيس. خطأ من الدفاع يترك المهاجم الأرجنتيني وحده وها هي الكرة تذهب عند القائم الأيمن لكيروغا و... جووووووول أرجنتيني! هدف لكيمبيس! الأرجنتين ثلاثة وبيرو صفر! والآن بات كل شيء ممكناً يا أرجنتين! هدف آخر! هدف آخر ونحقق الحلم! احتفل الحارس والرجل ذو الشارب الكث من جديد، إلا أن عباراتها وعناقها وضحكاتها، وصلت بالكاد لمسامع تشاكالтана، فتلك الدرجات الأخيرة لم يصعدها كأنه روبوت، بل كأنه أحد الموتى الأحياء.

قبل قطع الخطوة الأخيرة، شرح له مضيفه:

- نحن الآن في مرحلة «غطاء الرأس».

بدأت كلمات الرجل لتشاكالтана غير مفهومة، إلا أنها بمجرد دخولها، فهم معناها بصورة مثالية. ليس معناها فقط، بل أيضاً فظاعتها. كانا في عليية المبنى، منطقة تبدو بشكل مبدئي كأنها لا تصلح للسكن، حيث تصعب أسقف القرميد المائلة والعوارض الخشبية المتقاطعة من عملية السير. لم يكن هناك أي منفذ للضوء الطبيعي في المكان، فحتى النوافذ الموجودة بمحاذاة الأرضية إما مغطاة أو مطلية باللون الأسود. تدلت من السقف بعض المصابيح العارية. عندما أدرك تشاكالтана الاستخدام المرعب لهذا الدور، ود أن تنطفئ هذه المصابيح. رقدت فوق الأرض، على الجانبين، أجساد بشرية تفصلها سواثر. ظن تشاكالтана أنها جثث، لكن همهمة الأصوات الصادرة منهم وتنفسهم وسعالهم كلها أمور أثبتت أنهم على قيد الحياة.. أو شيء من هذا القبيل.

وضع غطاء أسود مغلق فوق رأس كل واحد من السجناء، مزود بثقبين يسمحان بدخول الهواء. كانوا يتنفسون، إلا أنهم قُيدوا في مكانهم من أطرافهم. حركاتهم الوحيدة هي محاولات خفيفة للاتزان ليقفوا في وضع مريح. من بينهم وكأنه طنين يصم الأذان كان هناك جهاز راديو آخر ينقل المباراة، في بث متقطع مليء بالتداخلات.

هتفت واحدة من السجنيات راجية حينما سمعتها يدخلان:

- ماء! هل يوجد أحد هنا؟ يا زعيم.. أرجوك بعض المياه!

ظن تشاكالтана أنه قد سمع صوت ماريانا، لكنه عجز عن تأكيد الأمر. الصوت لم يكن له وجه. ربما كانت هلوسة. بلا شك، مصيدة نصبها الذاكرة والخوف، أو ببساطة مجرد شبح، شبح ماريانا يتألم عبر مظهر ظلال القاعدة الكتيبة.

اقرب الرجل ذو الشارب الكث من المرأة وهو يقول:

«كوندور»..

تذكر تشاكالтана فجأة أنه يجب أن يناديه «كوندور» كما ناداه هو الآخر بنفس الطريقة

- ما الذي تظنينه يا غبية؟ أننا في فندق «ريتز»؟ يجب أن تمتني يا ابنة العاهرة لأننا شغلنا لك المباراة. اسمعي الآن فنحن نتقدم في النتيجة.

- يا رباه! الأرجنتين لا يمكن إيقافها. تارانتيني.. كيمبيس.. يسارًا نحو أورتيث الذي يرسل عرضية عند لاروسا. ترتد الكرة لليوبولدو لوكي و.. هدف! جووووووول! رأسية ليوبولدو لوكي تضعنا الآن على عتبة المجد..

رفع المرشد يديه محتفلاً. نظر حوله كأنه يبحث عن يعانقه، إلا أنه لم يجد سوى سجناء ملثمين وبيروفي. قال لتشاكالтана مازحًا:

- يبدو أن البيروفيين بدأوا يروقون لي بالفعل يا صديقي.

أجابه بجفاء:

- أرغب في الرحيل.

تردد صوت همهمات من حوله، وإن كان أحد السجناء المُلثمين قد هتف بالفعل بكلمة هدف. كان هتافًا سريعًا وقصيرًا. وضع ذو الشارب الكث يده فوق كتف تشاكالالتانا، بود أكبر من المطلوب:

- أنت من طلبت أن ترى، أليس كذلك؟ هذا هو ما يمكن رؤيته، لكن لا تقلق. كل ما يتبقى هو «دار الولادة».

«دار الولادة»؟ لم ينتظر تشاكالالتانا سماع مثل هذه الكلمة. لم تكن لديه رغبة في مشاهدة أي غرفة أخرى، لكن لم يكن لديه مجال للتراجع. اضطرر للتشبث بساتر ليواجه شعوره بالدوار. حاول أن يبقى هادئًا، لكن دقائق قلبه تسارعت بقوة وحينها شاهد أن مرشده يتقدم نحو نهاية الممر أجبر ساقيه على اللحاق به. وجد بابًا هناك وبيننا يقتربان منه، تمنى تشاكالالتانا أن يظل مغلقًا، لكنه انفتح. كان من فتحه هو المرشد الذي دخل الغرفة بسعادة وهو يحيي من فيها:

- كيف حالكن يا فتيات؟

دخل تشاكالالتانا خلفه بعينين نصف مغلقتين، كأنه هكذا سيتأقلم على ما قد يراه. هناك، في الداخل، لم تكن النوافذ مزودة بأغطية معدنية ليدخل النور خلال النهار بحرية عبر أربع كوات بمحاذاة الأرضية، لكن ليلاً اقتصررت الإضاءة على ما سبق ورآه: مصباحين عاريين بقوة خمسين واط يتدليان من السقف. ما تغير بالفعل كان نوعية السجناء. هناك فتاتان فقط في هذه الغرفة وكلتاها حُبلى.

قال المرشد دون أي نبرة سخرية:

- أهلا وسهلاً في «دار الولادة» يا بيروفي.

تذكر تشاكالтана من جديد سوسانا أراندا:

«كانت المسألة تتعلق بالطفل يا فيليكس».

«كل شيء حدث كان بسبب الطفل».

«هو شيء يأتي من الجحيم».

حيث الفتاتان اللتان تخطى عمرهما عشرين عاما بسنوات قليلة زائريهما بإيحاء. رأساهما ليسا مغطين، وكانتا أيضاً بلا قيود أو أغلال. تراكمت مجموعة من الكتب بجانب بعض الأزهار مع دمية على شكل دب فوق طاولة في وسط الغرفة، وفوق نفس الطاولة ظهر جهاز راديو ييث المباراة، كأنها وعظ ديني له حضور دائم في كل الأنحاء:

- كيميس يمرر الكرة. تارانتيني يعيدها له. كيميس يبحث عن أورتيث ويعثر عليه. أورتيث يركض نحو المرمى ويرسل عرضية قصيرة. هاوسمان يتلقاها و... هدف! جووووووول! الأرجنتين خمسة وبيرو صفر! هاوسمان يؤكد أنه أفضل جناح أيمن في الأرجنتين.

ابتسمت الفتاتان. داعبت واحدة منهما بطنها. كان هناك شيء غير واقعي في هدوئهما، كأنهما موجودتان في وسط الجحيم نفسه دون إدراك الأمر.

قال المرشد:

- هذا الرجل الشهم جاء من بيرو للتعرف على سبل مكافحتنا للتخريب، أو بمعنى آخر كيف نكافح ضد حضراتكم.

ذعر تشاكالтана من مجرد فكرة اضطرابه للحديث في تلك اللحظة،

وفي تلك الظروف، إلا أن أيا من الفتاتين لم تبد اهتمامًا، إذ انصب اهتمامهما بالكامل على مضيفه، بأعين قلقة.

- لكننا سرحل من هنا. صحيح؟ قال لي الطبيب إنكم ستصلون بعائلتي بعد الولادة لتأخذني. صحيح؟ إنكم ستسمحون لنا بالعودة إلى منزلنا. أنا وطفلي.

أصرت على سؤالها حينها لم يصل لها رد من الرجل ذي الشارب الكث:
- صحيح؟

تأملها الرجل ببرود لعدة ثوان، إلا أنه حينها تحدث غير من طريقته. قال لها بنعومة، كأنه يسدي لها نصيحة:

- .. إذا كان الطبيب قد أخبرك بهذا، فما عليك إلا الثقة فيه.

بدت نبرة صوته وهو يتحدث كأنها خليط من الرصانة والحكمة بل والود. سألهما كيف تشعران، واتفقت الاثنتان على أنها أفضل حالا بكثير من أن تكونا ملثمتين فوق الأرض. سألهما الرجل ذو الشارب إن كانتا في حاجة لشيء ما، وطلبتا شوكولاتة، ليلقي بمزحة حول وحم الحمل. فقد تشاكالтана في تلك اللحظة شيئًا من وعيه، كأن إحساسه بالواقع قرر أن يعلن إضرابه. لا يتذكر تقريبًا كيف خرجا من تلك الغرفة ليقطعا من جديد قطاع «غطاء الرأس» قبل النزول، حيث كان العسكريون يحتفلون بفرحة بالغة بالمباراة. لاحظ وهو شارد على السلم أن الأرجنتين سجلت هدفًا آخر وأن كل من حوله انصهروا في عناق سعادة وارتياح. صدرت أصوات متداخلة من أجهزة الراديو والتلفاز بل وأفواه الرجال الموجودين:

- هدف للوكي! يا لها من مباراة يا سادة! ستة صفر، لكن هناك فرصة لتصبح سبعة أو ثمانية أو حتى عشرة صفر! الأرجنتين تشق طريقها نحو

نهائي المونديال بسحق العقبة الأخيرة!

ترددت عبارة سوسانا أراندا من جديد داخل رأسه: «هو شيء يأتي من الجحيم».

في طريق العودة، كانت الشاحنة عالقة وسط ضجيج الاحتفالات، تكاد لا تتحرك، إذ جعل أهالي العاصمة شوارعها كأنها كرنفال بالأزرق والأبيض. أطلق ذو الشارب بوق سيارته لمصاحبة الهتافات وبين الحين والآخر يخرج رأسه من النافذة ليهتف «فلتحيا الأرجنتين»، لكن تشاكالثانا استوعب بالكاد كل هذه العاطفة، فبعد كل ما رآه، بات التفكير مستحيلًا. كان عقله في حالة سبات وخدر أمام كل هذه الصافرات والأوراق البيضاء والأعلام المتزايدة بمرور الوقت.

سأله الرجل فجأة، ربما ليتحدث عن موضوع أقل حساسية في وجود بيروفي:

- هل تتخيل؟

- أتخيل ماذا؟

- أننا قد نترك هؤلاء الأطفال بين أيدي إرهابيتي «دار الولادة». أي مستقبل قد ينتظرهم؟ إذا فعلناها، فكأننا نسمح بتنشئة أعداء للبلد، كأننا نسلم طفلًا لأسوأ حالة وجدت بين بني البشر.

- إذن.. لن تطلقوا سراح هاتين الفتاتين بعد الولادة؟ لقد قالتا إن أحدًا سيأتي لأخذهما.

أجابه السائق:

- بالفعل سيأتي أحد لأخذهما، بكل تأكيد سيأتي أحد لأخذهما، لكن

ليس أقاربها.. هذا هو ما ينقص.

وبعد ما عاد لإطلاق بوقه وهتافاته مع الاحتفالات الجارية في الشوارع.

طرق الباب بعقل أصابعه، ثم بقبضة واحدة قبل أن يضربه في النهاية بيأس بكلتا قبضتيه. ما الذي فعله خواكين كالبولدى عودته من الأرجنتين؟ وتحديدًا قبل أن يُقتل؟ تأكد خواكين من أن أحدهم يجب أن يعرف قصته. ترك بلاغه فوق مكتب تشاكالтана ليمسك بالخيط. وقّع - وإن كان بطريقة مشفرة- على اعتراف بمشاركته في عملية اختطاف ليخلق له فرصة ما. افترض أن موته -في أسوأ الحالات- قد ينه البقية بخصوص ما يحدث في الأرجنتين؛ بخصوص ما يفعله البيروفيون، بخصوص ما يفعله والسبب وراء اختفائه. هكذا قرر تشاكالтана أن يسير على خطاه. كان هناك شخص واحد يمكنه أن يخبره.

صرخ:

- افتح! افتح الباب!

أحس خلف ظهره بوشوشة. صدرت من الجارين الصينيين اللذين نظرا نحوه من عند عتبة بابها بأعين متسعة كأنها أطباق. حملت الأم الرضيع بين ذراعيها، بل إن ذلك الصغير نفسه بدا كأنه ينظر لتشاكالтана بعينين مستديرتين تفيضان بالدهشة. سألهما تشاكالтана، أو ربما صرخ فيهما:

- أين دون جونثالو؟

أدرك فجأة أن مظهره لا يوحي بشخص يُمكن الوثوق فيه. لم ينم طيلة الليلة الماضية وعيناه احمرّتا، وما زال يرتدي نفس ملابس الليلة السابقة، وفوق كل هذا استحال لون بشرته إلى ما كانت عليه جثة خواكين كالبولدى. خفض من صوته وبالمثل نبرته:

- أرجو كما أنا أبحث عن دون جونثالو. هل رأيتماه؟ ألم تريانه؟

انفجر الطفل باكياً. قالت المرأة شيئاً بالصينية لزوجها الذي أجاها بنفس اللغة. كان يتهامسان، يتهامسان بخصوص هذا الزائر الذي يبدو مضطرباً دوماً، ويقوم بأفعال غريبة أحياناً. حينها صرخ مساعد الأرشيف فيها محاولاً رفع صوته أعلى من بكاء الطفل:

- أين هو دون جونثالو!

- أنا هنا يا فيليكس. هل يمكنني معرفة ما الذي يحدث؟

أتاه صوت دون جونثالو كأنه مهدئ. تمكن العجوز من صعود السلم دون أي جلبة، على الرغم من أن درجاته تطلق. كان يقف حينها عند الدرجة الأخيرة بحقيبة مشتريات في يده وهو يهدئ جاريه بإشارات وبتسّم لهما بصورة مبالغ فيها، كأن تشاكالانا هو ابن أخيه المجنون، ذلك الشخص ثقيل الظل الموجود في كل عائلة والذي يجب تحمله بكل حب. أغلق الصينيان بابها دون أن يتوقفا عن التهامس فيما بينهما وظل بكاء الطفل مسموعاً بعدها لعدة ثوان.

- اللعنة يا فيليكس! بصراخك هذا ستضعني في مشكلة مع سكان المبنى!

ويخه دون جونثالو بهذه العبارة، لكنه بعدها لاحظ مظهره الرث، تلك الحالة كانت غريبة على فيليكس المثالي الذي يعرفه واعتاد دوماً أن يضع مشطاً ومندبلاً في جيوبه، لذا غيّر من أسلوبه:

- حسناً. ادخل. ادخل واهدأ.

شقة دون جونثالو صغيرة وضيقة. وبدت أصغر حجماً مما هي عليه لأن الجدران امتلأت بصور وأوراق، أغلبها لخواكين؛ صور قديمة من

طفولته وأخرى له وهو شاب، من حفلة تخرجه أو لحظات عائلية. بالمثل ثمة قصاصات جرائد تميل للصفرة. أظهرت بعضها جيوشًا نخوض حروبًا في شوارع، وظهر في أخرى شباب يرتدون زيًا ذا طابع عسكري ويمسكون ببنادقهم، أو امرأة تخرج ابنيها من أنقاض منزل قد تعرض للقصف. كان ثمة صور أخرى، بنفس قدم القصاصات، التقطت في أستوديو، ظهر فيها دون جونثالو ومن كانت بلا شك زوجته، هو بربطة عنق وهي بفستان الزفاف، ومن ورائهما خلفية بالقماش لقلاع أوروبية. أحس تشاكاليتانا بأنه قد سافر بالزمن مع دخوله لتلك الشقة وتفهم منها أن دون جونثالو كان يعيش في ذلك الزمن الآخر؛ في ماضيه، أسيرًا لعالم لم يعد له وجود، بل وربما عالم أسوأ من حاضره.

دعاه العجوز:

- أصب لك كأسًا؟

كان مجرد سؤال لا ينتظر إجابة، إذ سلم دون جونثالو بأن تشاكاليتانا يود كأسًا من البيسكو وأخرج زجاجته بالفعل، إلا أن ذراعه كان يهتز أكثر من أي وقت مضى، واضطر تشاكاليتانا -الذي يرتعش هو الآخر لكن بصورة أقل- للماء الكأسين الصغيرين بنفسه تجرع كأسه من مرة واحدة. أحس بحرقه حادة بدأت من حنجرته حتى معدته، لكن على الأقل بدأ جسده بعدها يتجاوب معه بصورة أفضل.

- بإمكانك أيضًا أن تشرب بينما تجلس.

ناداه دون جونثالو بهذه العبارة بينما يصب له جرعة أخرى من المشروب وهو يومع برأسه. ترك تشاكاليتانا جسده يسقط فوق مقعد غير مريح وبدأ في شرب البيسكو بشكل أبطأ إذ تناوله هذه المرة على جرعتين.

- هل تحسنت يا فتى؟ أنت ترعبنى.

لم يعرف تشاكالтана من أين يبدأ. أغرق وجهه بين كفيه وبدأ في التأوه. حاول تنظيم حكايته بالكامل. ود أن يجهز شرحًا بسيطًا ومقنعًا، إلا أنه حينها بدأ يحكي، انطلقت الكلمات من فمه كأنها حصان هائج خارج عن السيطرة. قص على دون جونثالو ما رآه في الأرجنتين. أخبره بأن خواكين -أي نعم خواكين- قد اختطف أطفالًا من سجناء أرجنتينيين -أو على الأقل طفلًا واحدًا- وجاء بهم -أو به- إلى بيرو، قال له أيضًا إنه فعلها بأمر من الأدميرال كارمونا. خواكين لم يكن مثاليًا، لم يكن فقط عميلًا شريرًا لابيالي، بل كان وحشًا، مثل مديره، مثل بلاده، مثل بلدين على الأقل. خدع عشيقته وأباه وأصدقاءه وعاش حياة رجل عصابات في الخفاء، أيا كان من قتله فقد فعل الصواب. لو علم تشاكالтана، لو استطاع إلحاق الأذى به لفعلها.

بكى مساعد الأرشيف وهو يشرب كأسه الثالث والرابع:

- آه لو رأيت ذلك المكان يا دون جونثالو..

أجابه العجوز بينما يشير حوله نحو القصص التي لزعها بنفسه على الجدران:

- رأيت أماكن رهيبة يا فتى.. وحتى إن ابتعدت عنها، فهي مازالت داخلي.

- من المحتمل أن يقتلوني الآن كما قتلوا خواكين.

- سبق وقلت لك يا فيليكس، حاولت أن أقول لك. ابتعد عن الماضي. لا تنجر وراء الموتى وإلا فقد تصبح واحدًا منهم.

- والآن.. ما الذي سيحدث؟

مع كل لحظة تمر يتصاغر صوت مساعد الأرشيف كطفل قلق ومحروم يرغب في أن يتولى شخص ما -ربما كأب- زمام حياته ليواجه مخاطرهما. ليس طلبًا موجهًا لشخص بعينه، بل أحد أعراض الغم. كان لدى جونثالو رده حينما طرح تشاكالثانا سؤاله الأخير. كان رده مفعما بالعقلانية ورباطة الجأش الجليتين، لدرجة قد يُقال معها إنه عاش هذا الموقف آلاف المرات:

- الآن سأقول لك أي شيء ملعون يجب أن تفعله: اذهب لرئيسك هذا، أبلغه بما يجب أن تبلغه إياه ثم اهجر كل هذا الخراء. قدم استقالتك وابتعد ثم احبس نفسك بعدها في قبو المخصيين الذي تعمل فيه وابدل كل ما لديك من جهد لكيلا تنظر أبدًا نحو الخلف.

بدت كنصيحة لا تشوبها شائبة، كأنه شيء سبق وقاله العجوز أكثر من مرة، لكن بالنظر إلى جدران شقته المغطاة بأوراق الذكريات، كان ما يطلبه مستحيلًا.

رفع تشاكالنانا بصره نحو اللافتة المعلقة على المبنى:

(نزل تروبيكال

لرجال الأعمال المنهكين).

كادت تصدمه سيارة سوداء أنيقة وهي تدخل إلى النزل بينما ينظر للافتة. فزع إلى حد الموت، لكن السيارة لم تخفض حتى من سرعتها. تفادته وانطلقت لتختفي في مرآب خاص. كان مساعد الأرشيف قد تخيل الكيلومتر خمسة ونصف كما خور قذر مليء بعاشرات وبائعي مخدرات يعربدون بعنف في الشوارع ويعيثون فسادًا في المجتمع، لكنه اندهش حينما وجده مكانًا هادئًا لا يخلو من الأناقة على الرغم عن موقعه. كانت الفنادق الموجودة مخصصة للطبقة العليا أو فوق المتوسطة. يسعى زبائنها المرور دون أن يراهم أحد. ولبعضها - مثل تروبيكال - مرآب خاص لكل غرفة، بصورة تسمح للضيف أن يمر دون أن يراه أحد حرفيًا. اقترب تشاكالنانا من إحدى الغرف المزودة بموقف. دق الباب. فكر في أنه مازال لديه وقت ليتراجع، لكن لا، فقد خارت قوة ساقيه لدرجة منعه حتى من الدوران. سمع صوتًا يقول له من الداخل:

- الباب غير مغلق. ادخل.

دفع الباب ببطء محاولاً توقع ما قد يعثر عليه في هذه الحجرة، وإن فقد حينئذ الأمل في توقع أي شيء؛ فقد كان رعب أكبر ينتظره دومًا عند كل ناصية. كان الأدميرال كارمونا جالسًا فوق الفراش يحمل كوبًا من الويسكي في يده بينما استقرت الزجاجاة فوق الطاولة.

دعاه الأدميرال:

- أصب لك كوبًا؟ هذا ويسكي إسكتلندي أصلي. لن تجده خارج سوق الأسطول.

رفض تشاكالтана دعوته بإيحاء من رأسه. بحث ببصره عن مكان ليجلس فيه. لم يجد مقاعد. هذا المكان ليس مخصصًا للجلوس. صب كارمونا لنفسه كوبًا جديدًا. كان يرتدي زيًا مدنيًا: سترة من المخمل بدون ربطة عنق. بدا كأستاذ جامعي أكثر من كونه عسكريًا، ربما كجاسوس، أو أيًا كان. قال له بينما يرج المشروب في كوبه:

- أتمنى أن تكون قد جئت بالحافلة. سائقو الأجرة ليس لهم أمان، إذ أن لهم عيوننا وأذاننا وفها.

- مقابلة سيادتك هنا شيء عجيب للغاية.

ابتسم كارمونا دون أن يرفع بصره من على كوب الويسكي:

- أنا أيضًا كنت أفضل أن آتي هنا مع سمراء ذات مؤخرة كبيرة على أن أقابلك هنا يا فيليكس، لكن ما الذي بيدنا؟ فأنت رسميًا لم تعد تعمل مع وزارة الحرب والعملية كلها سرية.

- بالطبع. أفترض أن نفس الأمر انطبق على خواكين. أليس كذلك؟ عمل دومًا خارج إطار الهيكل العسكري ونفذ مهامًا سرية وحينما لم يعد مفيدًا أدرتم له ظهركم. بات عميلًا يُمكن التخلص منه.

كان تشاكالтана قد خطط للتعامل ببرود مهني؛ قول ما يجب عليه قوله وإنهاء هذا اللقاء بأسرع وقت، لكن عاطفة مجهولة منعتة، غيرت من نبرة صوته، وغيمت بضبائها منطقته. كانت تلك العاطفة هي الغضب.

- هذا العمل له أخطاره يا فيليكس. لا يُمكن لأي أحد أن ينفذه.

- فقط من ليس لديهم عائلة قريبًا، أو أولئك الذي يمكن أن يختفوا دون إثارة جلبة كبيرة، مثل خواكين... أو مثلي.

- لا تقلل من قدرك يا فيليكس. أنا مدرك لذكائك. نفذ عمليات استخباراتية تتطلب ذكاء، لكن هذه الميزة يصعب العثور عليها.

كان العثور على وضع صحيح للتفاوض صعبًا، إذ كان الأدميرال يجلس بصورة جانبية فوق غطاء السرير الوردى ناظرًا نحو النافذة، وهو ما أشعر تشاكاليتانا-الواقف- بالانزعاج والعصبية، لكن صوته بدا حازمًا حينما سأل:

- لماذا لم تخبرني؟

- أخبرك بماذا؟

- بما كنت سأعثر عليه في بوينوس آيرس. هذا المكان الرهيب في «كلية الميكانيكا». هؤلاء النساء؟؟؟

ترأت له الفتاتان الحبليان بدرجة واضحة تصل إلى حد اللمس، ثم تذكر الرجل ذا الشارب الكث وهو يقود الشاحنة بين حشود العاصمة المفرطة في السعادة. تذكره وهو يقول «بكل تأكيد سيأتي أحد لأخذهما، لكن ليس أقاربهما».

- هل كنت ستذهب يا فيليكس؟ هل كنت ستذهب لو أخبرتك؟

- لا.

- وبالمثل خواكين.

اقشعر شعر ذراع تشاكاليتانا لدرجة الانتصاب حينما سمع اسم صديقه. اختلج من الداخل حينما تذكر أنه سار على خطى خواكين، تلك التي قادته في

النهاية لجثة في مجرى نهر.

- كان عميلاً جيداً. أبقاني على اطلاع وتمكن من تمييز المعلومات المهمة عن أي نممة ليس لها جدوى. هذا كان كافياً ليصبح ذا قيمة. كان أيضاً منظماً في معايرة المعلومات، لكنه مختص بالمعلومات فقط، معلومات تأتي وتذهب: أسماء وتحركات وتواريخ. عرفت إلى أين قد يصل، أما هو فلو علم إلى أين سيذهب لما وافق على المهمة.

انقشعت الغيوم في الخارج وسقط شعاع من الشمس مباشرة على وجه الأدميرال الذي أغلق عينيه ببطء ولم يصف المزيد كأنه قدم كل الشروح الضرورية، لكن تشاكالنانا كان في حاجة للمزيد منها:

- إذن.. لماذا أرسلته؟

فتح الأدميرال عينيه كأنه تذكر فجأة أمراً مهماً:

- حينها بدأت عمليات الاختفاء توتر خواكين كثيراً. كان يعرف هؤلاء الفتية بصورة شخصية. صحيح إنه خائن، لكنه ليس ابن عاهرة. لم يكن ليهتم بعمليات الاعتقال أو بضرب أحدهم بصورة عرضية، لكنه لم يود أن يحمل ضميره عبء الموت والتعذيب. لم يكن من المقرر أن تحدث هذه الأمور، لكن سبق وقلت لك يا فيليكس هؤلاء الأرجنتينيون مجرد حيوانات.

تذكر تشاكالنانا الأجساد المثلثة الملقاة في صفوف على الأرض وغرفة قبة الكلية العسكرية، تلك المزودة ببرميل مياه ومحفة، ثم فكر في كل هؤلاء الجنود وهم يقفزون فرحاً مع المباراة كأنهم قرود ماكاك هائجة.

واصل الأدميرال حديثه:

- عملية «كوندور» خرجت عن السيطرة. نظرياً توجب أن تبقى سرية بصورة أكبر. جاء الأرجنتينيون بحثاً عن إرهابيهم. عثروا عليهم وأخذوهم

وكبادرة شكر، أخرجوا من البلاد بعضًا من إرهابيينا أثناء الانتخابات. ليس شيئًا من عالم آخر. المشكلة أن الأرجنتينيين لم يقبلوا تلقي أوامر منا، بل إنني لست واثقًا من كون هؤلاء الوحوش عسكريين. كانوا يتصرفون كبلطجية روابط الكرة المتعصبين. لاحقوا الناس بالرصاص في الشوارع بل واختطفوا أهدافهم نهارًا من مركز تجاري. لم يرغب خواكين في مواصلة التعاون، لهذا أعلن أنه سيرحل ويترك كل أنشطته.

تذكر تشاكالانا مقابلته الأولى مع سوسانا أراندا:

«كنا سنبقى معًا. كنت سأترك زوجي. كنا قد تحدثنا عن الأمر بالفعل. خواكين كان سيقوم برحلة صغيرة، قصيرة للغاية، يومين بالكاد، ومع عودته كنا سنرحل معًا للعيش في مكان آخر».

تحليل صديقه يجهز خطة هروبه ليبدأ حياة مختلفة، ربما حياة سعيدة.
قاطع فجأة رواية الأدميرال:

- لكن سيادتك عرفت أن خواكين سيهرب مع سوسانا وأمرت بإعدامه.

بدا كأن هذه الكلمات قد أفقدت الأدميرال وعيه. تباطأت حركاته أكثر وأكثر. صب لنفسه كوبًا آخر من الويسكي ووجه إيماءة تائهة لتشاكالانا ليعرف إن غير رأيه بخصوص مسألة الشرب. ظل تشاكالانا ممتنعًا. احتسى الأدميرال كوبه الممتلئ حتى حافته قبل أن يجيب:

- لم أكن أعرف أساسًا أنه يفكر في الفرار مع سوسانا. أترى يا فيليكس؟ أنت محقق جيد. خير وريث لصديقك.

- لا تكذب علي يا أدميرال. لا تقل لي إن رئيس الاستخبارات لا يعرف أن زوجته وضعت له قرنين فوق رأسه و..

- هل استخدام هذا التعبير ضروري يا فيليكس؟ لقد عبرت عن نفسك
دوماً بصورة أنيقة، أو على الأقل ليس بمثل هذه الصورة السيئة.

رفع تشاكالثانا كتفيه وهو يتأسف كأن مسألة القيم أهم مما كان يتناقشان
بخصوص وواصل كارمونا حديثه:

- سبق وأخبرتكم أن خواكين جيد للغاية في جمع المعلومات، ولنفس
السبب كان يعرف تمامًا كيف يخفيها. لذا إجابتي هي لا. لم أعرف قط. فقط
عرفت حينما قتلوا سوسانا في شقته..

- ربما لم يقتلواها.

- قتلوها بكل تأكيد!

فقد الأدميرال السيطرة على نفسه. لاحظ تشاكالثانا أنه كان قد شرب
نصف زجاجة الويسكي بالفعل.

- قتلوها بغرض إذلاله، لأبكي على خيانتها. ظننت فقط أنها تنام مع
خواكين.. لم أعرف أنها خططت للهروب معاً. شكرًا على المعلومة.

- لم تعد مفيدة.

- أي معلومة دوماً مفيدة.

نطق الأدميرال هذه العبارة بدون رغبة حقيقية، كأنها جملة يكررها في
اجتماعات العمل والخطابات أمام الملحقين العسكريين وفي لحظة التصديق
على الميزانية. شعار تجاري يكرر دوماً ومن كثر تكراره يفقد معناه.

أجابه تشاكالثانا:

- إذن. قل لي.. ما هي علاقة الطفل بكل هذا؟ لماذا جلبه؟ ولمن؟

اكتسى وجه الأدميرال الجامد دوما بالعبوس. ظن تشاكالтана أنها أحد أشكال إظهار السلطة أو ربما الغضب، إلا أنه كان الألم، ذلك الشعور الذي بدا كأنه لم يكتس قط تلك القسماة وكان في محاولة للتأقلم عليها.

قال له بصوت خافت يكاد لا يلاحظ:

- من أجل سوسانا.

ثم بدأ بعدها صوته في اكتساب بعض القوة مضيئاً:

- رغبت دوماً في أن تحظى بابن. كنت أرغب فقط في إسعادها يا فيليكس.. أن تظل معي.

اصطدمت كلمات سوسانا من جديد بعقل تشاكالтана:

«ليس لدي أبناء. ربما هذه هي المشكلة. سعيانا أنا وزوجي وراء الأمر طيلة سنوات، لكن لم ننجح. جربنا كل السبل العلاجية، إلا أن آيا منها لم يصلح وهذا الفشل هدم زواجنا. كل منا يلقي باللوم على الآخر وفي النهاية لم نعد نتحدث تقريباً. لم نعد نتحدث الآن أيضاً إلا في أضيق الحدود».

سأل تشاكالтана الأدميرال الذي بدا بمرور الوقت أكثر ضعفاً وانهماماً:

- ولماذا الأرجنتين؟ لماذا لم تتبن بكل بساطة أي طفل بيروفي؟ لدينا دور أيتام، أليس كذلك؟ لماذا لم تذهب إلى أي منها؟

- وفي أي خراء منها سأعثر على طفل أشقر؟ سوسانا شقراء، وفي الأرجنتين حتى الشيوعيون الملاعين قد يكونوا شقراء، لكن في بيرو أي طفل أشقر ليس يتيمًا بلا أب أو أم.

ارتعشت ساقا تشاكالтана. كان في حاجة إلى الاستناد على شيء ما. عثر ظهره على الحائط، أحس كأنه على وشك أن ينصهر عليه وينسكب على الأرض. تردد كلمات سوسانا مرة أخرى داخل رأسه:

«كل شيء حدث كان بسبب الطفل». «هو شيء يأتي من الجحيم».

دافع كارمونا عن نفسه:

- لا تنظري بهذه الصورة. لقد أنقذت هذا الطفل. لقد ولد في السجن، بل في شيء أسوأ من السجن، لقد أنقذته من هؤلاء المتوحشين. كنت سأمنحه مستقبلاً. لن يعلم حتى أنه متبنى. كنت سأمنحه عائلة سعيدة. أنت تفهمني؟ صحيح؟ تفهمني، أليس كذلك؟

اغرورقت عينا تشاكالانا بالدموع. هدوته معدته بإفراع ما تناوله على الغداء. رفضت ساقاه التوقف عن الارتعاش، إلا أنه كان مجبراً على الخروج من هذا المكان. مستندا على الحائط، تقدم نحو الباب وفتحه. أحس بالهواء المنعش بارتياح، كأنه قد خرج للتو من منجم للفحم. سمع صوت الأدميرال من خلفه:

- إلى أين تذهب يا فيليكس؟ فيليكس!

واصل مساعد الأرشيف تقدمه حتى خرج من النزل. مرة أخرى، كادت سيارة تصدمه لدى دخولها من الطريق السريع. هناك لم يكن يوجد بشر؛ فقط سيارات وبنائيات. صحيح أن الأدميرال خرج خلفه، لكن هذا الرجل بالنسبة له ليس من بني البشر.

صاح كارمونا:

- نحو أي خراء تظن نفسك ذاهباً؟

- بعيداً عنك!

- لا يمكنك!

- اتركني لحال سبيلي!

- لا يمكنك أن ترحل!

- لم لا؟!

- لأنك ذهبت إلى هناك. والآن بت شريكًا في كل هذا.

كان الأدميرال قد استعاد في ظرف لحظات نبرة صوته المعدنية التي لا تنم عن أي مشاعر. لم يعد آسفًا على شيء. لم يعد يطلب من أحد أن يفهمه. كان يصف فقط الأمر الواقع.

- ما الذي تقوله؟

- لقد شاركت في «تفقد روتيني» لخطوات خواكين في بوينوس آيرس. لقد شاهدت ما يفعلونه هناك والآن أنت جزء مما يحدث.

- لست جزءًا مما يحدث تحت أي ظرف. بإمكانني أن أبلغ عن الأمر.

- تبلغ من يا فيليكس؟ النيابة؟ أحد القضاة؟ أنت بت تعرف بالفعل كيف تسير المسألة يا فتى. أنت وحدك من ستسجن، إلا إذا تعصب الأرجنتينيون، فحينها لن تُسجن، بل ستُقتل. علم خواكين هذا، علم أنه توجد طريقة واحدة لترك المسألة وهي الطريقة التي انتهى بها.

لم تكن لدى تشاكالانا رغبة في الاستماع للأدميرال. ود فقط أن يخرج من هنا. سار في دوائر بحثًا عن مخرج، كما فعل منذ موت خواكين. كان يبحث عن مخرج من ذكرياته، مما اكتشفه، عن نفق يعيده لحياته السابقة، وحينما فشل في العثور عليه، انفجر صارخًا أو ربها باكيًا:

- لا! لا! يا ابن العاهرة! يا ابن العاهرة!

- لا يجب أن تثير جلبة مثل هذه يا فيليكس! هذا المكان له سمعته.

كان تشاكالانا جاثيًا على ركبتيه على بعد عدة أمتار من نزل «أنت وأنا»،

أما كارمونا فقد استعداريطة جأشه. أمسك بزمام الأمور، كما هو الحال دومًا.

- كل شيء يبدو الآن سيئًا يا فيليكس، لكن حينها سنوانصل عملنا
ستنسى سريعًا. أنا نفسي نسيت أو بالأصح أحاول النسيان.

- إياك أن تقترب مني!

- مازلت شابًا يا فتى. فعلنا جميعًا أشياء مؤلمة. أنت ستفعلها بطريقة أو
بأخرى.

وحينها دوت طلقة.

لم تبد كطلقة، بل دوت كأنها أحد صواريخ عيد الميلاد، كأنها صاروخ
كبير لعيد الميلاد. لو كان الأمر يرتبط بالدوي فقط لما تنبه تشاكالтана، لكن
ما حدث أن بعدها تغير محيا كارمونا، إذ تجهم في البداية دون أي تعبير كأن
أحدهم قد أفرغه من كل أنواع المشاعر، ثم تشنج قبل أن ينفجر الدم من فمه:
- أيها الأدميرال! سيدي الأدميرال؟

لم يجبه كارمونا. لم ينطق. سقط نحو الأمام ببلاهة كسكير. أمسكه
تشاكالтана. تدلت رأس الأدميرال نحو الأمام ورأى تشاكالтана سيلاً أحمر
يتدفق من رقبته فوق جلده وعنقه وقميصه. أفلت مساعد الأرشيف جسده
وانطلق يركض. خرجت الطلقة غالبًا من إحدى الغرف المجاورة. كان
يقف على قارعة الطريق ويسهل تماما النيل منه. بحث عن ملاذ في نزل (أنت
وأنا)، لكنه قبل أن يدخل تصور أن مصدر الطلقة قد يكون منه. واصل
الركض متوقفًا عند كل عمود إنارة قابله ليلتقط أنفاسه. كان قد ركض نحو
50 مترًا حينما أدرك أن رصاصة واحدة هي التي أطلقت. كانت طلقة واحدة
على ما يبدو. أجبر نفسه على التنفس بعمق ونظر نحو الخلف، وبصورة آلية،
كأنه يثق تمام الثقة في أن أحدهم يلاحقه، رفع يديه في إشارة للاستسلام.

رقد جسد الأدميرال كارمونا في وسط الطريق. لم يكن يتحرك وبدأت بركة قائمة تتشكل أسفل ظهره. خرج حارسان بزّي مدني من البنايات المجاورة. حينما شاهدا كارمونا تراجعاً يهولان نحو فنديهما. أطلت رؤوس رجال ونساء من النوافذ ثم اختبأت سريعاً خلف الستائر. هيمنت حركة صماء على الحي بأكمله. بعدها بدقائق انطلقت عشرات السيارات من النزل والنواصي والمرائب، إذ قرر النزلاء - حماية من أي فضيحة - ترك مسرح الجريمة. كانت أغلب السيارات كبيرة وحديثة. انطلقت كلها بسرعة، إلا أنها جميعاً حينما وصلت إلى منتصف الشارع، اضطرت لتقليل سرعتها لتفادي جثة كارمونا وبعدها بقليل كانت تطلق أبواقها لكي يبتعد هذا الشاب ذو الكرافات -المجنون غالباً أو المتأخر عقلياً- الذي يقف مشدوها على قارعة الطريق.

الأرجنتين- هولندا

كان يعرف من هو، فمع إمعان النظر، لم يتبق سوى احتمال واحد، حتى وإن كانت هناك بعض الثغرات التي لم يتوصل لحلها.

صحيح أن تشاكالтана لم يشكّ مطلقاً حول هوية القاتل، إلا أن قدرته على القيام بشيء ما بخصوصه شأن مختلف تماماً. طنت رأسه كأنها عشب دبابير بينما يستتج هذا وذاك ويربط ذيل هذه المسألة بتلك في إعادة لتفسير كل التفاصيل.

بالنسبة للشرطة سيكون هو نفسه المشتبه به الرئيسي. كان موجوداً في مسرح جريمة سوسانا وبالمثل زوجها وكلتيهما حدثت في مكان مشير للشبهات، بل إنه في الجريمة الأخيرة هرب قبل وصول رجال الأمن. سيتعرف عليه أي شاهد. لا يمكنه إنكار وجوده هناك. كل ما يمكن أن يفعله الآن هو انتظار وصول الشرطة، أو حبل المشنقة التالي فوق عنقه، بل ربما طلقة جديدة في رأسه، في رأسه..

- فيليكسيو؟

استدار تشاكالтана. كان قد استحال إلى حزمة مشعة من التوتور. حاول إخفاء الأمر أمام مديره، إلا أن كل ما نجح فيه هو التوتور بصورة أكبر ليسقط حزمة أوراق من فوق مكتبه. نظر مدير الأرشيف نحوه بشك:

- أنت بخير يا بني؟

- في خير حال يا سيدي.

أسقط مديره جسده فوق الكرسي المقابل كأنه جوال بطاطا. بدا منهكا ورتنا أكثر من أي وقت مضى، كأن عمره قد زاد عشرين عامًا في ظرف يومين، شأنه شأن تشاكاللتانا. تنهد قائلاً:

- آسف لما حدث للأدميرال يا فيليكسيو. كانت صدمة، بالنظر إلى سمعته كرجل شديد الاستقامة.

تذكر تشاكاللتانا مقابله الأخيرة مع الأدميرال. الطفل المخطوف. المَعْدِين. الأرجنتيين.

- شديد الاستقامة. بالفعل.

- هل يمكنني مساعدتك في أي شيء؟

رد مساعد الأرشيف مدفوعًا بالغريرة:

- أفترض أننا يجب أن نبدأ إجراءات فتح ملف تحقيق حول مقتل..

حينما لم يعرف ما يجب عليه قوله، كانت طباعه كرجل قانون تسيطر عليه كأحد أشكال ملء الفراغ. كان سيواصل وصف العملية الإجرائية فقط بسبب السكينة التي ستترها عليه، إلا أن المدير هز رأسه رافضًا:

- فيليكسيو.. أعرف ماهية شعورك، لكن لا ترهق نفسك. إذا فتحت ملف تحقيق، ستضطر لإغلاقه بعدها بخمس دقائق.

- سيدي؟

استعاد المدير نظرتة المتعاطفة، تلك التي كان يوجهها لمساعدته حينما يبدو كأنه قد جاء من كوكب آخر. على الأقل، لم تتغير الأمور في هذا الشأن

خلال الأسابيع الأخيرة الماضية.

- زوجة الأدميرال شنقت نفسها في منزل مخرب، والذي كان بلا شك عشيقها، لهذا سلم الزوج المخدوع نفسه لحفل عريضة مليء بالكحوليات والجنس في حي العاهرات وانتهى به الأمر مقتولاً برصاصة في رأسه على قارعة الطريق. صدقني يا فيليكس.. ليس أمرًا جذابًا. لن يود أحد التحقيق في شيء مثل هذا، فأني اكتشف يتمخض عنه لن يكون مدعاة للسرور أو لتلقي وسام.

على الأقل، كان محققًا في هذا الشأن. شعر تشاكالانا لأول مرة بأنه لا رغبة لديه في مناقشته؛ حتى هو، في هذه الحالة، كان مستعدًا لكبح رغبته في ملء الاستمارات الرسمية. كان قد كبر بالفعل خلال الأسابيع الماضية. ربما كان هذا هو ما يعنيه النضج.

واصل مدير الأرشيف حديثه:

- بخلاف هذا، ستكون لديك مسؤوليات أكثر أهمية لتعتني بها.

- لم ألتقطك يا سيدي.

تنهد المدير، أو ربما كان قد تجشأ في السر، ثم قال:

- سأتقاعد يا فيليكس.

ثم أشار فيما حوله قبل أن يضيف بنبرة ساخرة رنانة:

- قريبًا سيصبح كل هذا ملكًا لك.

تابع تشاكالانا ببصره إصبع مديره وهو يشير نحو الممرات والكتب والمجلدات والغبار المتراكم فوق الرفوف. كان ليشر بالسعادة، لو حدث هذا في يوم آخر.

- هل سأصبح مديرًا للأرشيف؟

- صحيح. إلا إذا أخطأت كثيرًا. إذا أخطأت، قد يدفعون بك إلى درجة وظيفية أقل، لكن انظر لا يوجد ما هو أقل من هذا.

نطق المدير بعبارته وهو يضرب بقدمه فوق الأرضية. كانا في القبور. وحرفيًا لا يوجد شيء أقل من هذا. حاول تشاكاللتانا أن يقول إحدى عباراته المؤسسية، رغم حالته المعنوية:

- لتعرف سيادتك أن الأرشيف سيتذكر دومًا اليد الحكيمة التي عرفت كيف تترك أثرها في إدارة أنشطة..

قاطعته المدير في تكاسل:

- توقف عن قول الحماقات يا فيليكس. أظهر هنا منذ سنوات فقط لأن الحجز به تلفاز يسمح بمتابعة كرة القدم، لكن بعد ما حدث في مباراة الأرجنتين.. كيف أقولها لك؟.. لقد انقضت كل آمالي.

المباراة.. قد تشتعل البلاد بأكملها حوله، قد تهجره زوجته، قد تنشق الأرض، لكن مدير الأرشيف سيظل يسترشد ببوصلة نتائج كرة القدم في اتخاذ قراراته الحיוية.

- ستة صفر يا فيليكسييتو.

- أعرف يا سيدي.

- لقد سرقوا المباراة.

- سيدي.. الخسارة أحيانًا تحدث..

انفعل المدير:

- هذه ليست واحدة من تلك المرات. لماذا دفعوا بكىروغا في حراسة المرمى؟

- أنا..

- ولماذا لعبوا بالقميص البديل؟ أتعرف ما يعنيه هذا؟

- أن القميص الأساسي كان في المغسلة؟

رفع المدير إصبعه كأنه سيلقي عليه درسًا في شؤون الحياة:

- الضغط النفسي. عملية لإفزع اللاعبين.

- بالقميص الاحتياطي؟

تحدث مدير الأرشيف كأنه يصف مؤامرة كبرى:

- كل شيء يا فيليكسيو. حارس المرمى.. القميص الاحتياطي..

أتعرف أن فيديلا وكيسينغر نزلوا لمرغف الملابس لتحية لاعبي بيرو. لماذا

نزلوا؟ ما الذي كانا يفعلانه هناك؟ ما هي الصفقة السوداء التي أتمها هذان

البائسان؟

- بالطبع يا سيدي.

قالها تشاكالانا ليهدأ من روع المدير، لكن الأخير على النقيض استشاط

غضبا وهو يتحدث:

- الأرجتينيون خراء! البيروفيون خراء! لقد باع لاعبونا أنفسهم.

- هذا اتهام شديد الخطورة يا سيدي..

- أتدرك ما أقوله يا فيليكس؟ هذا البلد ليس له دواء وأنا قد أنهكت

بالفعل.

اقترب للغاية من تشاكالтана وهو يقول هذه العبارة، لدرجة أن مساعد الأرشيف أحس بخليط أنفاسه المتنوع ثم نهض بعدها وحبس نفسه في مكتبه. صفع بابه ومكث هناك وعاد صمت القبور ليفترش أجواء القبور. تساءل تشاكالтана إن كان مديره محقًا. هذا أمر لا يمكن استبعاده. لقد شاهد أمورًا أكثر غرابة خلال الشهر الأخير. لم تكن هذه المسألة هي شاغله الرئيسي في تلك اللحظة. ودّ لو فكر في كرة القدم، إلا أن الشيء الوحيد الذي أبى مفارقة رأسه مرة تلو الأخرى هي مسألة قاتل خواكين وسوسانا والأدميرال، لأنه بالطبع نفس الشخص وتشاكالтана يعرف هويته.

استغرق الأمر منه عدة ثوان ليتعرف على دانييل ألبارث الجالس على مائدة في نهاية المطعم. كان قد حلق لحيته وصيغ شعره بلون أشقر وهندم نفسه بأناقة بربطة عنق وسترة. كان هو من رفع يده ليلفت انتباه تشاكالثانا ويخرجه من شكوكه عند باب المطعم. ابتسم ألبارث بينما يجلسان قائلاً:

- لا بد وأنني قد تنكرت بصورة جيدة لأنك لم تتعرف عليّ.

- هل تهرب من جديد؟

- لسنا في أمان تام حتى الآن. يجب على المرء دومًا أن يأخذ احتياطاته.

- وما هي الهيئة التي تنكرت بها تحديدًا؟

- هيئة الناس المحترمين! أنت تعرف كيف يفكر العسكريون: «أشقر برابطة عنق لا يُمكن أن يكون شيوعياً».

ابتسم ألبارث له بمكر وهو يطلب قطعة من لحم الضأن. لم يكن مساعد الأرشيف جائعًا لكنه وجد نفسه مضطرا لطلب طبق من الرز الصيني.

سأله تشاكالثانا بينما يأكلان:

- هل عاد أصدقاؤك سالمين؟

كان ألبارث يتناول طعامه بحماس وأجابه بمزاج جيد:

- سالمون؟ بل قل كأمرء. أخذتهم السلطات لمطار إيزيزا ووضعوهم على متن طائرات شركة (إير فرانس) في رحلات متجهة للسويد وباريس. سافر اثنان منهم على الدرجة الأولى. أرسلوا راميرو للمكسيك ومن هناك جمع بعض الرفقاء نقودًا له لإعادته إلى هنا. حضرت بالأمس لقاء مع أمه.

كانت لحظة مؤثرة جدًا. طلبت مني أن أعرب لك عن امتنانها. أنت بطل صغير. بطلنا.

ود تشاكالтана أن يصحح لألباريث خطأه، أن يخبره بأنه عميل مندرس، أنه قد كذب عليه وليست له أي صلة بالإفراج عن أصدقائه، وأنه قد تورط في الإفراج عنه فقط ليستخرج منه معلومات، بل وأنه نجح في الأمر، لكنه أطبق فمه. حاول إقناع نفسه بأن الصمت ليس مرادفًا للكذب، وإن كانت الحقيقة بالنسبة له وفي تلك اللحظة انخفضت قيمتها للغاية.

سأله تشاكالтана وهو يحاول تفادي ذكرى أجساد السجناء المثلثة الملقاة على الأرض:

- وما الذي حدث مع ماريانا؟

- لا نعرف شيئًا عنها، لكنهم سيطلقون سراحها، أليس كذلك؟ لقد أفرجوا عن كل من يخصنا؟ هي أيضًا ستخرج.. أليس كذلك؟

غيبت سحابة من الشك على وجه ألباريث. لم يبدو واثقًا بشدة فيما يقوله. فكر تشاكالтана في أن كل المدن في النهاية مسكونة بأشباح، أشخاص قد ماتوا لكنهم ما زالوا يسرون في شوارع ليما أو بوينوس آيرس، تاركين خلفهم قطعًا من ذكراهم معلقة عند كل ناصية، وذكريات ستتشقر وتتساقط كواجهات المباني حتى تختفي للأبد، لكنه أجاب:

- أفترض أن هذا ما سيحدث.

ثم عاد لينغمس في ذكرى ذلك المكان المظلم، وذلك النحيب وتلك الوجوه المثلثة، إلا أن ألباريث لحسن الحظ لم يطرح الموضوع من جديد، رغم عدم توقفه عن الحديث طوال اللقاء. كان سعيدًا بشدة، يتحدث عن خطط كبيرة لعودة الديمقراطية. ظن أن كل شيء قد يتغير. بينما يتحاوران،

لاحظ تشاكالтана أن الرجل الجالس على المائدة المجاورة لم يتوقف عن النظر لهما. تساءل إن كان عميلًا جديدًا، إن كان نسخة جديدة من خواكين، أو ربما حتى نسخة جديدة منه هو نفسه، من تشاكالтана، أم أن الأمر كان فقط واحدًا من مخاوفه.

قال له ألباريث وهو يتناول قهوته:

- عندي عرض لك. أرغب في أن تنضم لنا.

مجرد العرض نفسه بدا مهينًا لتشاكالтана:

- هل تود أن أقوم أنا بالثورة؟

- كبداية، أرغب في أن تتوقف فقط عن معاملتي بكل هذه الرسميات.

- إذا كان هذا هو الأمر الوحيد الذي ستطلبه مني، فسأمنحه لك.

عبس وجه ألباريث معبرًا عن إحباطه، لكنه ما لبث أن ضحك:

- لا أسعى لتجنيدك في جيش شعبي. ناقشنا المسألة كثيرًا مع الرفقاء.

هذا ليس طريقنا. إذا سارت العملية السياسية بصورة طبيعية، سنسجل أنفسنا في السجل الانتخابي. سنشارك في الانتخابات. نحتاج لقوم لمثل هذه الأمور، نحن في حاجة لمرشحين ومستشارين وأنصار. لا أتحدث عن جماعة سرية، بل حزب سياسي.

- لو كنت أفضل من لديكم، فأنتم في مشكلة.

- أنت تهمنا لأنك شخص أمين يا فيليكس.

شكك تشاكالтана في مثل هذا التوصيف. ربما لو حدث هذا قبلها بوقت قليل، كان لبصم عليه بالعشرة، فقبلها بوقت قليل كان عاجزًا عن إيذاء أي أحد. لم يكن يعلم في الوقت الحالي ماهية الأمانة الحقيقية.. أو ماهية الأذى.

- إذا هذا هو ما كنت تود أن تطلبه مني؟ أنا الآخر لدي طلب منك.

استند الطالب بظهره على مسند المقعد مندهشًا. هز الرجل الجالس على المائدة المجاورة جريدته. حاول تشاكالثانا التحدث بصوت منخفض:

- المسألة مرتبطة بسييليا.

- ب...؟

قاطعته مساعد الأرشيف بإشارة من إصبعه. حينها فعلها تذكر الأدميرال كارمونا. إشارة السلطة هذه كانت تخصه وربما اكتسبها تشاكالثانا منه.

- أود أن تتوقف عن الخروج معها.

- ماذا؟

هزت رعشة ما الطاولة، لدرجة بدا معها كأن الموقف قد استرعى انتباه جارهما صاحب الجريدة.

واصل تشاكالثانا حديثه.

- من المحتمل جدًا.. ألا يتبقى لي وقت طويل يا دانييل.

- أتشير إلى أنه من الممكن أن..؟

- لن أشرح لك مقصدي، لكن في الحقيقة إذا رغبت في شكري على ما فعلته لك، على ما فعلته لكم، فأود أن تتوقف عن مقابلة سييليا. أنت عرفتھا للتو، إني لا أدمر حب حياتك.

- أعرض عليك مستقبلًا سياسيًا، وكل ما ترغب فيه هو المضاجعة؟

- لا. أرغب في الزواج منها. حسنًا.. أرغب في طلب الزواج منها. إذا رفضتني فهي لك، لكن إذا وافقت فستختفي من حياتنا للأبد.

بدا الباريث مستمتعًا ومصدمًا في الوقت ذاته. أغلق الرجل الجالس على الطاولة الأخرى جريدته. اعتقد تشاكالтана أنه كان ينظر نحوهما بشكل مباشر، لكنه ليس متأكدًا، إذ كان يوجه نظراته للطالب الذي سأله:

- وما الذي قد أقوله لها؟ كيف أفسر لها المسألة؟

- يمكنك أن تجربها بالحقيقة، لن أستاذ، بل على النقيض.

كان جليًا أن الباريث لا يتمتع بأي خبرة في ارتداء ملابس الرجال الأنيقة، إذ بلل رابطة عنقه بحركة عفوية في فنجان القهوة وهو يعترف:

- لكي أخبرك بالحقيقية يا فيليكس. كل ما فعله سيسيليا هو الحديث عنك.

حاول تشاكالтана أن يتظاهر بالهدوء. أنهى قهوته بتناول ما تبقى منها دفعة واحدة. نظر بطرف عينه نحو الرجل الجالس على المائدة المجاورة. بدا له أنه يغمز لأحد ما. ربما لم يكن وحده، لكن تشاكالтана على أي حال كان يحل مشكلة أخرى في تلك اللحظة. بدت كلماته التالية كأنها أمر:

- أود منك أن تقطع علاقتك بها الآن، وبمجرد خروجك من هذا المطعم.

- هل يجب أن أفعلها ال..؟

- سبق وأخبرتك. قد لا يتبقى لي وقت طويل.

أوماً الباريث برأسه.

- فيليكس العاشق الوهان.. من كان ليتوقع هذا؟ أليس كذلك؟

- كل شخص لديه مفاجأته، أليس كذلك؟ ففي النهاية نحن لا نعرف شيئًا عن أحد.

- أنت محق في هذا. لا أحد يعرف شيئاً عنم هم سواء.

أطل بريق غريب من عين الطالب بينما تطفو كلماته فوق بقايا طبق الرز الصيني. انتظر حتى هضمها تشاكالтана بهدوء ثم قال:

- ولأؤكد لك ما أقوله. لدي لك هدية. هو شيء لم تكن تنتظره.

حدث كل شيء بعدها بسرعة، لدرجة أن تشاكالтана أحس بأنه فأل مشؤوم، إذ نهض الرجل الجالس على الطاولة الأخرى بدون سابق إنذار وجلس بجوار الشايين. كان يحمل فنجاناً من الشاي في يده. استقبله ألباريث بود ثم توجه بنظره نحو تشاكالтана ليقدمه له بصورة رسمية:

- فيليكس تشاكالтана. الرجل الذي أنقذ رقتنا.. اسمح لي يا فيليكس أن أقدم لك مندوثا، جهة اتصالنا في الأرجنتين، الرجل الذي أنقذ حياة العشرات من رفقاتنا. أعرف أنك كنت تود أن تتحدث معه وها هو معك الآن!

كان مندوثا رجلاً يتخطى عمره ستين عامًا بصلعة تصل حتى قفاه ولغد مزدوج، لكنه ليس شديد البدانة. كانت أم تشاكالтана لتصفه بأنه «مكتنز»، أما تقرير للطب الشرعي فكان ليصفه بأنه «رجل ذو بنية جسدية غليظة».

- إذن.. حضرتك السيد مندوثا ولقبك..؟

أجابه الرجل:

- مندوثا فقط. أدعى هكذا منذ عدة أشهر.

بمجرد أن جلس مندوثا أمام مساعد الأرشيف تتمم ألبارث بعذر ما وتركها وحدهما. ساد الصمت بينهما لدقيقة، استغلها الرجل لإشعال سيجارة سوداء نفاذة الرائحة. تفهم تشاكالтана في النهاية أنه من يجب عليه أخذ زمام المبادرة في المحادثة وقال:

- لقد انتظرتك في مقهى (تورتوني) في بوينوس آيرس سيد مندوثا.

ضحك الآخر بخبث واضح:

- اعذرني يا تشاكالтана، لكنك تفهم غالبًا أني لا يمكنني الذهاب لتناول القهوة في وسط بوينوس آيرس في ظل الأوضاع الحالية. مكالمتك الهاتفية وحدها خير دليل على عدم إدراكك خطورة الموقف.

- لهذا قررت أن تتركني أظهر كسخيف يرتدي قبعة ووشاحا مثل

راقصي التانغو

ارتسمت ابتسامة على شفتي مندوثا اللتين انفتحتا لتظهر أسنانه التي رغم تلطخها ببقع التبغ، بدت قوية وكبيرة.

- كانت مجرد مزحة. لا تتاح لي فرصة كبيرة لتدرب على خفة الظل.
كانت لكتته أرجنتينية بشكل أساسي، إلا أن عمقها كان مختلفاً كأنه
رقصة «ميلونغا»⁽¹⁾ على أنغام موسيقى «باسو دوبلي»⁽²⁾.

- حضرتك إسباني؟

- كنت إسبانياً. هذا البلد طردني منذ نحو أربعين عامًا قضيت الكثير
منها في أوروغواي. الآن أنا في الأرجنتين وعلى ما يبدو سأقضي بعض الوقت
في بيرو.

- ستكون أكثر أمنًا هنا.

حاول تشاكالثانا تشجيعه بهذه العبارة، إلا أن الآخر أجابه بسخرية:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟ سبق ورأيت بنفسك ما تفعله كلاب
حراسة الأرجنتين وهي تعني بحدائق جيرانهم.

عجز تشاكالثانا عن الرد. فكر في أن موت الأدميرال كارمونا له ميزة
واحدة على الأقل وهي أن مساعد الأرشيف لم يعد كلب حراسة أو مضطرباً
للكذب.

استمر العجوز في حديثه:

- سأحاول متابعة طريقي حتى المكسيك، أوريها كوبا. ستوقف المسألة
على كيف ستسير الأمور، لكن على أي حال لا أفترض أنك وددت أن تراني
لأخبرك بخططي المستقبلية.

فجأة، بدت أسباب مقابلة مندوثا قديمة، منتهية الصلاحية، كأنها

1. رقصة أرجنتينية شهيرة.

2. موسيقى إسبانية شهيرة.

مهجورة وتائهة في قرن بعيد، لكن خواكين كالبو ليس سبباً قديماً. مازال حاضرًا في حياة تشاكاللتانا ولا يقبل الموت.

- وددت أن أتحدث معك عن صديق.. خواكين كالبو. أعلم أنك قد تعرفت عليه.

- لفترة قصيرة.

أشعل مندوثا لفافة جديدة بعقب تلك السابقة. كان قد ترك خلفه على مائدته الأصلية منفضة سجاجير مليئة بالأعقاب وبدا الآن مستعدًا للقاء منفضة أخرى.

واصل تشاكاللتانا حديثه مترددًا:

- خواكين كان يتعاون معكم. أنت تعرف.. احتفظ بالوثائق وقدم ملاذا للبعض أحيانًا.. لكنك لم تثق به.

- أها.. فعلا؟

- دانييل قال..

- دانييل لا يعرف أي خراء.

بدا الرجل فجأة منزعجًا كأن تشاكاللتانا قال أمرًا غير لائق، لكن تشاكاللتانا لم يتوقف:

- وبقوله، أنت أصدرت أمرًا بعدم الإفراط في اللجوء لخواكين.

- و؟

نظر الرجل حينها لتشاكاللتانا متحدياً، ربما نظر نحوه كأنه محقق شرطة.

- خواكين كان يعمل..

كان تشاكالтана على وشك أن يقول «لصالحنا»، لكنه منع نفسه من نطق الكلمة في اللحظة المناسبة وتابع:

- للاستخبارات العسكرية. كان عميلاً مزدوجاً. أنت الوحيد من منظمك الذي علم بالمسألة. أنتم أيضاً جماعة مسلحة. هذا يجعل منك مشتبهاً به في قضية قتله.

على الرغم من أن وجه مندوثا ظل جامداً، إلا أن تشاكالтана تمكن من شعور أجراس الإنذار التي انطلقت داخله. تفقدت عيناه المطعم سريعاً بحثاً عن رجال شرطة بملابس مدنية. توتر جسده مستعداً للقفز والدفاع عن نفسه والتهمت شفتاه اللقافة حتى ذيلها قبل أن يسأل:

- هل تحقق معي يا فتى؟

سأل مساعد الأرشيف نفسه السؤال ذاته. هل كان يحقق معه؟ وما الذي سيفعله بالإجابات؟ من الذي سيقص عليه؟ وكيف سيأخذه ليشهد في عملية قضائية؟ فوق كل هذا، يعرف تشاكالтана من هو القاتل. كان بحاجة فقط إلى تأكيد.

- لا يا سيدي. لدي صديق قد قتل وأفتقده. هذا هو كل شيء.

أطفاً العجوز سيجارته بحزم شديد لدرجة بدا معها أنه يرغب في ثقب الطاولة. نظر لعيني تشاكالтана ثم قال فجأة:

- دانييل يقول إنك رجل طيب.

- يقول أصدقائي إنني غير قادر على إيذاء أحد.

- حقاً؟ لا تعتبر هذه ميزة بين أصدقائي.

رفع تشاكالтана كتفيه. تنفس الآخر بعمق وبعدها أخرج سيجارة أخرى

من العلبة كأنه قد أحبط من استنشاق الهواء النقي. اعترف في النهاية بوجه
بدا عليه الإجهاد:

- ما تقوله صحيح. أمرتُ بإبعاد خواكين عن أنشطتنا، لكنني لم أعرف
أنه خائن. لو عرفت لأمرت باتخاذ إجراءات.. جذرية.

نفث سحابة دخان كريهة الرائحة انطبعت رائحتها في وشاح تشاكاللتانا
الذي سأله بعدما سعل قليلاً:

- ولم أمرت بإبعاد خواكين؟

- بسبب جونثالو كالبو. أبيه.

سعل تشاكاللتانا مجدداً، لكن هذه المرة ليس بسبب الدخان. طلب فنجاناً
من الشاي واستغل العجوز الأمر ليطلب قهوة أماً بصوت تشوبه زججرة:

- لكن ضع قليلاً من البيسكو على قهوتي.

رحل النادل. لم يوجه تشاكاللتانا سؤالاً جديداً. ليس محتاجاً لذلك، فقد
بدأ مندوثا يتحدث بمبادرة شخصية:

- سأحكي لك كل هذا، لأنها قصة شديدة القدم ولا تؤثر على أمني
الشخصي أو أمن من أعمل معهم، قد تؤثر فقط على حفنة من الموتى. موتى
قدامى.

تسللت بين كلماته سحابة من التبغ بدت كأنها قد غيمت فوق المطعم
بأكمله فقط لتتيح له أن يتذكر ثم واصل حديثه:

- حاربنا أنا وجونثالو كالبو معا في برشلونة منذ فترة طويلة، طويلة
للغاية. كنا أناركيين.. حسناً كان الجوع يقتلنا قبل أي شيء آخر، لكننا كنا
أناركيين أيضاً.

- سبق وحكى لي جونثالو هذا. أخبرني أنه دخل الحرب بسبب الجوع والبرد.

أفلت العجوز ضحكة بلا رغبة ثم أضاف:

- هذا ما سيقوله الآن بالتأكيد.

- لا أفهم.

- جونثالو كان متعصبًا. كنت معه في الجبهة. يستطيع وحده الانقضاض على خطوط العدو بكل شجاعة. يركض ويركض وليس أمامنا حل سوى الركض خلفه، وحينها يصل أمام الخنادق، أتعرف ماذا يفعل؟ يفتح صدره للرصاص، وليس معه بندقية، بل مسدس.

- مسدس من طراز لوغربي 80.

- صحيح، يقف هناك يطلق النار ويصرخ «يا خنازير الفاشية». كل هذا ولم يكن راضيًا! آه لو رأيته! كان شيطانًا في صورة إنسان. تعرضت لإصابة في ساقِي ذات مرة بسببه، والأغرب أنه لم يتعرض للإصابة قط.

شأنه شأن دون جونثالو، كانت بعض الكلمات من إسبانية إسبانيا تتسلل في حديثه، كأن ذاكرته مكتوبة بلغة أخرى. توقف للحظة لأخذ قهوته ثم واصل حديثه:

- أيضًا، لا رحمة لديه، ذات مرة فقدنا أربعة رفقاء في مناوشة. عاد جونثالو للخطوط الخلفية وتوجه نحو السجن. اختار أربعة فاشيين دون أي معايير واضحة ووضع طلقة في رأس كل واحد منهم، بين العينين. كانوا يتجولون في الباحة، ربما ليسوا فاشيين من الأساس. أقصد أنهم كانوا موظفين أو طباطخين أو شيء من هذا القبيل، لكنه كفاه فقط أنهم قوميون. دخل ذلك السجن وصوب من عند الباب ولم يخطئ. أربع طلقات. أربعة

قتلى ثم استدار ورحل. لم يتجرأ أحد على محاولة منعه، خاصة وأن لا أحد سيأسف كثيرًا على موت أولاد العاهرة هؤلاء.

شعر تشاكالтана أن دمه يغلي من الداخل. لقد بدأ يعتاد على القتل، لكنه لن يتسامح أبدًا مع القتل خارج الإطار القانوني:

- ولماذا لم يسجنوه؟ تصرفه كان عصيانيًا خطيرًا، حتى ولو كان لقتل الأعداء.

- يا بني.. قلت لك إننا كنا أناركيين. ما الذي تنتظر مني أن أقوله؟ العصيان لا يبدو شديد الخطورة.

تذكر تشاكالтана صور منزل دون جونثالو. كل هذه الذكريات الضاربة للصفرة الممتية لعالم بعيد والتي بدأ الزمن نفسه محوها من على الورق. بدأ مندوثا من جانبه يتحمس وهو يحكي:

- أيضًا. هذه الحرب كانت مرادفًا للفوضى، وتخطت حتى المعايير المتعارف عليها في الحروب، لكن هذه ليست المشكلة. المشكلة كانت زوجته.

زوجته! تذكر تشاكالтана كلمات دون جونثالو المفعمة بالحب، لكن أيضًا فترات صمته. أم خواكين. تلك المرأة ليس لديها اسم حتى. تذكر تشاكالтана الندم الذي ينطبع في وجه العجوز مع الحديث عنها. يبدو أن مندوثا لم يلاحظ شيئًا من هذا، إذ واصل التحدث والتدخين منقادًا بتأثير الكحول والكافيين:

- لم يتوقف جونثالو عن الكلام بخصوص الابن الذي ينتظره. قال إنه سيجعله رجلاً حرًا وكل هذه الحماقات التي نكررها فيما بيننا. شعر بالفخر قبل أوانه. حينما عدنا لبرشلونة تغيرت الأمور فمن كانوا معنا باتوا ضدنا. توحدت القوات الجمهورية ورغبت في التخلص من الميليشيات مثلنا. وسط كل هذا كان الفاشيون يقصفون المدينة. كنا أحيانًا نتحصن خلف المتاريس،

نتبادل إطلاق النار ثم تدوي إنذارات الغارات فجأة، لتتوقف ونركض نحو الملاجئ الأرضية. كنا نسمع صوت القنابل النازية تدك المدينة. صواريخ يا فيليكس تعوي وهي تهبط بكل سرعتها. كنا نسمع صوتها ويتجمد الدم في عروقنا، لكننا نخرج بعدها ونواصل إطلاق النار على بعضنا كالحمقى.

تمكن تشاكالناتا من سماع دوي الصافرات وهزيم الصواريخ وصفير الطائرات، فقد سبق وحكى له أحدهم أمراً مماثلاً. قاطع مساعد الأرشيف مندوثا:

- دون جونثالو أخبرني أن زوجته ماتت في إحدى تلك الغارات، وأن المستشفى ليس فيها أدوية وأنه لم يصل في الوقت المناسب.

- زوجته لم تمت.

- كيف أنها لم..؟

- ولم تكن أيضًا موجودة في هذا النوع من المستشفيات.

- لا بد وأنها دار ولادة، أليس كذلك؟ كانت تلد خواكين.

- ولادة خواكين كانت طبيعية. زرت العائلة بنفسني في منزلها عدة مرات بعد ولادة الطفل. غرفة صغيرة في حي الرافال في شارع مليء بالعاهرات، لكن الطفل كان في حالة جيدة.

- إذن.. ما الذي حدث لهم؟

- لم يخبرك.. أليس كذلك؟

...

- صحيح. لم يخبر أحدا قط. ابن العاهرة الوسخة لم يخبر أحدا قط. يعيش في ذلك الجحر المدفون في الحي الصيني حيث لا أحد يسأله.

استمتع العجوز بمذاق اللحظة، أو ربما بمذاق أن أحدا يرغب حقًا في سماع هذه القصة المهجورة من فترة طويلة بين أكوام من التراب لتعفن كالخشب في أجواء الرطوبة.

- تخيل الحرب. تربية ابن وُلد في تلك الظروف. تخيل ماهية المسألة بالنسبة لأم. يوما تلو الآخر تدوي صافرات الإنذار وتسقط القنابل من السماء. زوجك مطارِد ويختفي باستمرار. لا وجود للطعام أو الكهرباء. أحيانا يصل العسكريون عند باب منزلك يركلونه ويفتشونه وأنت لا تعلم حتى من هذا الذي يجب أن تدافع عن نفسك أمامه. الأمر صعب على أي شخص، لكن تخيل معي امرأة وضعت للتو وفوق كل هذا شديدة الحساسية..

- وما الذي حدث لهذه المرأة؟

- لا شيء.. لقد أصابها الجنون.

- دون جونثالو لم..

لم يكمل تشاكالثانا عبارته. لم يكن مندوثا يسمعه في الأساس، إذا واصل كلامه نائها في ذكرياته الشخصية ومحاطًا بدخان رمادي:

- يطلقون اليوم على ما حدث لها «اكتئاب ما بعد الحمل». قرأت هذه المعلومة في مكان ما. سابقًا كانوا يسمونها «سويداء» أو «هستيريا». المهم أن المرأة بدأت تظن أن ابنها خواكين هو ابن الشيطان، المسيح الدجال وحاولت إلحاق الأذى به. اضطر دون جونثالو مرتين لإيقافها قبل أن تلقي به من النافذة.

- ولهذا أودع زوجته في مستشفى.. لكن ليس مستشفى ولادة بل..

- مستشفى نفسي، ملجأ، مستشفى مجانيين.. أسماء هذه الأشياء مربكة.

المهم أنها بقيت محبوسة داخل هذا المستشفى واضطر هو للاعتناء بالطفل. لم

تتوقف القنابل عن السقوط، لم يتوقف الجمهوريون عن ملاحقتنا، وتوجه القوميون نحو الشمال من فالنسيا.

- ودون جونثالو هرب..

- .. تاركًا إياها مودعة في المستشفى. أخذ الطفل وتوجه لفرنسا، ومنها سافر إلى تشيلي على متن سفينة محملة باللاجئين، وعلى حد علمي ظل هناك حتى غيرت الدولة التشيلية رأيها وقررت إعادة اللاجئين لبلادهم برحلة واحدة، وحينها هرب جونثالو لبيرو.

- ألم يعد ليبحث عن زوجته؟

وكيف له أن يفعلها. لم يستطع العودة لإسبانيا فبعدها جاءت الحرب العالمية. ظن الكثيرون منا أن الحلفاء بعد ألمانيا سيهاجمون إسبانيا للقضاء على أي أثر لليمين المتطرف، لكن الحلفاء أهملوا إسبانيا، كما فعلوا دوماً، من أجل البقية، واستغرق الأمر أربعين عامًا حتى مات فرانكو.

- وما الذي حدث لها؟ لزوجة دون جونثالو؟

- سبق وأخبرتكم أن الحرب كانت فوضى. أوراق ضائعة مستشفيات تتعرض للإجلاء، مرضى ينقلون من هنا وهناك. لقد تاهت ببساطة في نظام الصحة العقلية. ربما ما تزال هناك. إذا كنا ما زلنا أحياء، فهي أيضا قد تكون حية. ربما خرجت وتزوجت من جديد. لا يوجد سبيل لمعرفة الأمر بعدما ابتلعه النسيان.

انتهت القصة. تبخر الدخان. رقدت الفناجين خاوية ولزجة فوق المائدة، إلا أن العجوز كان مستعدًا لمواصلة الحديث. ترك الصمت يعظم كلماته في أذني تشاكالانا وأضاف:

- حينما جئت لليا منذ عدة أشهر قابلت خواكين كالبو. كان الأمر

كأني قد رأيت جونثالو. وجه رجل طيب. الأنف ذاتها. تلك الأنف الأنيقة
لنجوم السينا في الماضي. كان اكتشافاً. احتضنته كأني احتضنت صديقاً
قديماً. وددت أن أرى أباه، رفيقي القديم وأخذني لمنزله.

- لا بد وأن دون جونثالو قد استقبلك بسعادة.

أجابه مندوثا بجفاء كمن يضيف تفاصيل لست لها أهمية:

- طردني من منزله. حينما دخلت، وقف ينظر لي بدهشة، كأنه ينتظر
أن أكون هلوسة أو هذيانا. رفع ذراعه. لمسني بالكاد وحينها هز رأسه كمن
ينفي شيئاً ما. هذا هو ما فعله. هز رأسه كمن ينفي شيئاً في بطنه، وبعدها
بدقيقة أشهر مسدسه نحو وجهي. سبق وشاهدته يطلق النار على الوجه.
مازال لديه مسدسه من طراز «لوغر». أمرني بالرحيل وبالطبع رحلت.
عدت للحزب وأمرت بإبعاد خواكين عن عمليانا. لم أفعلها لأجلي بل
لأجله، لأجل أبيه. أفترض أن جونثالو حينما رأي شعراً بأن الماضي يتكرر ما
أصابه بالذعر، لكن إذا كنت ترغب في سبب أفضل من هذا، فهو ليس لدي،
فأي رجل مر بقصة جونثالو هو رجل بلا أسباب. أسبابه تخصه وحده.

ترك النادل الفاتورة فوق طبق صغير. عاد تشاكالانا لأرض الواقع.
نظر حوله. لم يبق زبائن في المطعم ولم يعد دانييل ألبارث، الذي بالمناسبة لم
يدفع نصيبه في الحساب، موجوداً. أخرج مساعد الأرشيف محفظته. قرر أن
يترك إكرامية. كان غداءً باهظاً، لكنه كان أيضاً مثيراً.

سأله ليملاً الفراغ، لكيلا يضطر للتفكير:

- هل أحسست بأنه قد تقدم في السن جداً؟

- جونثالو؟ الحقيقة أنني أحسست أنه أفضل مني بكثير. منزله عبارة

عن كابوس لكنه في خير حال.

- أعتقد هذا؟ أعجز عن تخيله يصوب سلاحًا بتلك الرعشة الموجودة
في يديه؟

- ماذا؟

- الرعشة. ترتعش يدها، كأنه يعاني من الشلل الرعاش أو شيء كهذا.
نظر مندوثا نحو مساعد الأرشيف باستغراب كأنها كانا يتحدثان في
الوقت نفسه عن شخصين مختلفين:

- لا أفهم ما تقصده يا فتى. لا وجود لأي رعشة عند جونثالو. صوب
نحوي سلاحه بيد ثابتة كصخرة. حتى لو صار أحول، وأصبح زنجيا بفعل
معجزة، لتعرفت عليه فقط من هذه اليد.

أوما تشاكالانا برأسه دون أن ينبس ببنت شفة. واندهش فقط حينما
لاحظ أنه لم يندهش.

فتح تشاكالтана عينية يوم الأحد 25 يونيو 1978 في السادسة صباحًا وفكر: «سأموت اليوم».

نهض واستحم واشترى خبزًا فرنسيًا وبعضًا من التامال ولحم الخنزير المحلي الذي تحبه أمه كثيرًا. لدى عودته للمنزل، جهز الإفطار قبل استيقاظها وذهب به نحو فراشها.

- لم يكن عليك أن تشغل بالك هكذا يا فيليكس. كنت سأجهز الإفطار كما يحدث دومًا.

- لا يا أمي. أنت تستحقين هذا وأكثر.

باركته واستمرت في الأكل. مكث الاثنان في صمت. ربما تخيلت أن شيئًا ما ليس على ما يرام لكنها لم تنطق. في الثامنة صباحًا كان الاثنان معًا في العظة. فكر تشاكالтана حينها في أم خواكين، أو بالأصح في غيابها. كان خواكين سيمع الحظ، إذ تربي وحده على يد أب، لكن تشاكالтана كان لديه أفضل هدية من الرب وشكره عليها في صلواته.

أحيانًا كانت تتسلل له صورة أبيه وهو يضربه ويركل مؤخرته وهو طفل، إلا أنه حينها كان ينظر لأمه ويهدأ. أمسك بيدها أكثر من مرة في العظة. أثنت الأم في طريق العودة للمنزل على كاهن الأبرشية الجديد وبلاغته في إلقاء العظات. انتظر تشاكالтана حتى تنهي كلامها. تنحنح وبدأ يقول:

- أمي. مضطر أن أحكي لك شيئًا.. شيئًا.

حاولت أمه ألا تبدي أي ردة فعل، لكنه لاحظ تشبها بمسبحتها

لدرجة كادت تدمي معها أصابعها قبل أن يواصل:

- المسألة تتعلق بـ... دون جونثالو.. لدي.. خبر سيء.

- هل هو مريض؟

- لا. لا أقصد هذا. المسألة فقط أنه.. ربما.. لا يعود مجددًا. أتفهميني؟

اصطكت حبات المسبحة بيدها، لكن الرد جاء بحسم وهدوء بل وربما كعبارة روتينية:

- ليس عليك أن تقلق بخصوص هذه المسألة يا فيليكس. أنا نفسي فكرت أنه لا يصح أن تجمعني علاقة برجل وأنا في مثل عمري خاصة وأنني امرأة متزوجة..

- أمي، أنت لست متزوجة.

- فيليكس، حينما تتزوج امرأة، فهذا يعني أنها تتزوج للأبد.

بهذه الكلمات انتهت المناقشة. بعدها بلحظات حينما كان فيليكس تشاكالانا يودع أمه لمح في عينيها طبقاً للألم لا مناص منه. لم يقدر -ككل شيء مر به مؤخرًا- على تمييز ما إذا كان الأمر بفعل الشيخوخة أم المياه البيضاء، إلا أنه على أي حال احتضنها بقوة أكثر من المعتاد لتجاوب معه بنفس القوة كأنها لحظة وداع محتوم.



فتحت سيسيليا باب منزلها. كانت عيناها حمراوان ويستحيل معرفة إن كان هذا بفعل البكاء أم الإفراط في النوم أم أن صابونًا قد دخل فيهما. سألت تشاكالтана:

- ما الذي تفعله هنا؟

هذه المرة، لا يحمل مساعد الأرشيف زهورًا بين يديه، فهي لم تحقق الغرض المطلوب منها حتى الآن، كان يقدم لها مشاعره لكي تهزها - إن رغبت - بصفعة.

- أنت تعرفين ما الذي أفعله هنا. أرغب في الزواج منك؟

تساءل تشاكالтана إن التزم دانييل بجانبه من الاتفاق، إن كان قد قطع علاقته بسيسيليا. سيتصنع الغباء لو أنه لم يفعلها. من ناحية أخرى، الأمر الأجل، أن هذه الاعتبارات لم تعد مهمة في يوم موته.

- لا بد وأنت مجنون.

قالتها دون أن تغلق الباب، دون هياج. هذه إشارة جيدة.

أجابها مساعد الأرشيف:

- بالفعل. مجنون جنونا دقيقا ومحسوبا بعناية.

وحينها، كأنها زهرة تفتتح أوراقها للشمس، ابتسمت شفاه سيسيليا:

- هل أتيت لتقول لي هذا صباح يوم الأحد؟

رفع تشاكالтана كتفيه وابتسم هو الآخر:

- ذهبت أولاً للعظة.

تبرمت سيسيليا في خليط من الجدية والمزاح بينما تمرح بيدها فوق إطار

الباب:

- وما الذي قاله لك الرب عني؟

- أن أقبلك كثيرًا.

أغلقت الباب خلفها وسارا متعانقي الأيدي حتى أول نزل وجداه،
بناية لا تصلح كثيرًا للخدمات الفندقية، إلا أنها وفّت بالعرض المطلوب. لم
يصل زبائن قط في تلك الساعة من صباح الأحد للنزل، لذا حصلنا على غرفة
بحمام. لم يكونا في حاجة لأكثر من هذا. كانت ممارسة الغرام أسهل بكثير
مما توقعه تشاكالانا. فعل جسده تقريبًا كل شيء لوحده، بداية بنزع ملابس
فتاته. كانت بشرة سيسيليا في الأماكن التي لا تتعرض للشمس أكثر شحوبًا،
إلا أن نعومتها كانت واحدة سواء في فخذيها أو نهديها أو ظهرها. اكتشف
مساعد الأرشيف هذا الجسد، كما يكتشف أحدهم مكانًا جديدًا، أو حيًا
جديدًا، أو عالمًا جديدًا وقطع كل ميليمتر منه بيديه وشفتيه حتى اعتلاها،
كأنه قد صمم تشريحًا لهذا الغرض.

حينما انتهيا، وبعد جولة طويلة من القبلات، استندت على جسده
وواصل هو التمتع برائحة جسدها.

قالت له:

- يجب أن أعود. ينتظرنى اليوم غداء عائلي.

- ليست مشكلة. ينتظرنى أنا الآخر موعد مهم اليوم.

- وأتيت لنفعل هذا قبل الغداء؟ ليس أمرًا رومانسيًا للغاية.

- لم أستطع الانتظار.

رفعت جسدها ووضعت عيها في وجه تشاكالانا. شعر بدغدغة شعرها الطويل الأسود وقالت:

- لن تحتفي للأبد، صحيح؟ لم تأت إلى هنا لتنام معي لكيلا تعود بعدها؟
كان خيارًا لا يُمكن استبعاده. درس كل كلمة في جوابه قبل أن يقول في النهاية بالقرب من أذنها وهو يشعر بعير عنقها:

- الموت وحده هو ما قد يمنني من رؤيتك مرة أخرى.

كان ردًا صائبًا. احتفلت به بالمزيد من القبلات. مارسا الحب مرة أخرى قبل أن يوصلها لمنزلها كأى رجل شهم. عند باب منزلها، في لحظة الوداع، نظر كل منهما نحو الآخر هائئًا لعدة دقائق قبل أن تقول له مازحة:

- استمتع بـ«موعدك».

أغرقها بمجموعة أخرى من قبلاته في فمها وخدنها وجبهتها ثم ودعها بكلمات سبق وسمعها ذات مرة:

- كوني بخير. كل الأمور ستتهي على خير.



تأبى رائحة سيسيليا أن تفارقه بينما يقطع حي بارّيوس ألتوس. كان قد درس هذا الطريق مرة واحدة ليشرح بالأمان: الزقاق، أكشاك بيع مشروب الـ«إيموليتي» رائحة المقلبات، ضجيج الناس. سيكون مطمئناً وسط متاهة الأكواخ القديمة والأنفاق والعشش في حي بارّيوس ألتوس. من غير الممكن أن يتعرض لأذى وسط كل هؤلاء الناس وبين أبواق السيارات وصراخ الباعة الجائلين أو التسارع الرمادي لظهيرة أي يوم أحد، لكن هذا الأحد كان مختلفاً، ففيه وقبل الواحدة ظهرًا كان قد فعل كل ما ترجوه منه الحياة.

انعطف عند ناصية وصعد عدة درجات وعبر الباحة الداخلية لسكن مشترك قديم حتى المخرج الآخر. تلقفه صمت جنائزي. بدا له كأن أحدهم يلاحقه، لكن كل ما سمعه في الباحة هو صوت خطاه وحده. افترض أنه بلا شك سيعثر في الأمام على بعض الأهالي؛ سيصل بعد ناصيتين أو ثلاث -إذا لم تخنه الذاكرة- عند صنوبر المياه. أخبره دون جونثالو هاتفياً بأنه الصنوبر الوحيد في الحي بأكمله. ستكون منطقته غالباً ممثلة بالعائلات وهي تملأ الأوعية لغسل الملابس أو تحميم الأطفال. أمهات صاخبات وأطفال مكفهرين.

وصلت ضوضاء مكتومة لمسامعه من داخل المنازل: قرع لزوجات، ضحكات ومحادثات. أحياناً يمر فجأة طفل بزيه المدرسي، راکضاً دون أن يلتفت له. رقدت صناديق جعة خاوية عند الأبواب، لكن في الخارج لم يكن هناك أي ضجيج، كأنه قبر عملاق مفتوح على الهواء الطلق.

في أي مكان ملعون هذا الصنوبر؟ ما هو الشارع الذي أخطأ فيه؟ لم توجد أي لافتات للاتجاهات في هذا المكان. سمع صوتاً مألوفاً. جلبة مكتومة تخرج من وراء كل الأبواب المغلقة. كانت في البداية مجرد همهمة

بلا هيئة. زئير بعيد. فكر: «نهائي المونديال. لقد نسيت». استأنف بحثه عن صنبور المياه. يجب أن يكون في هذه الأنحاء، فالصنابير لا تتحرك من مكانها. شعر مجددًا بوقع خطوات خلف ظهره. أخرج منديله وجفف العرق البارد المتساقط من جبهته. فكر في أن هذه هي ساعة الفرار، لكن.. إلى أين قد يفر؟ إلى دولة أخرى؟ وقبل أي شيء آخر، هل سيفعلها بدون أمه؟ ما الذي قد يقوله لها؟ ما الذي قد يحدث لها.

- نحن الآن في بث مباشر من ملعب «مونومنتال» ملعب ريفر بليت، الذي يرتج في انتظار المباراة.

تذكر تشاكالтана الملعب. لقد رآه قبلها بعدة أيام في رحلته للعاصمة الأرجنتينية وبدا له ضخماً، أضخم من بلاده نفسها.

- لم يطلق الحكم صافرته بعد. المنتخب الهولندي دخل أرض الملعب لكن الفريق الأرجنتيني لم يدخل بعد. يتناقشون بخصوص إن كان الجبس الموجود فوق ذراع أحد لاعبي هولندا قانوني أم لا. صافرات استهجان ضخمة وهائلة يتعرض لها الفريق ذو القميص البرتقالي الذي ينظر لابعوه فيما بينهم في وسط الملعب. هي أحد أشكال الضغط النفسي بكل تأكيد. يحاول الأرجنتينيون استخدام حيل ليفوزوا بما لا يمكنهم الفوز به على أرض الملعب.

فاضت الشوارع في صباح ذلك اليوم بهتافات وأغانٍ مهينة قائمة على السب: «الأرجنتينيون أولاد الزواني» أو «من لا يقفز هو أرجنتيني». لاحظ تشاكالтана أيضًا أن الشوارع قد اصطبغت باللون البرتقالي وامتلات بأعلام هولندا، فقط ليتوحد الكل ضد من يكرهه الجميع.. من بين النوافذ المواربة وصلت له صور المباراة كأنها ومضات بالأبيض والأسود. فكر أن المسألة لن تفرق إن كانت مباراة بين الأرجنتين وهولندا أو بيرو مع البرازيل، ففي نهاية

المطاف ستصل صورة أي زي رياضي دوما بالأبيض والأسود.

وجد الصنبور وهناك يقف دون جونثالو بذراع مرتخ تماما ومستقر
بهدوء فوق خصره.

- لقد تهت، أليس كذلك؟

أوما تشاكالтана برأسه، رغم أن العجوز لم يكن ينظر نحوه أو ينتظر رداً.
أضاف دون جونثالو:

- هو مكان جيد وبالمثل هادئ لكي نلتقي

سكتنا لبرهة على وقع ههددة أجهزة التلفاز المكتومة، ثم أدركا بعد
تحولها لضوضاء هائجة أن المباراة على وشك البداية. سأله دون جونثالو:

- عثرت في النهاية على ميراييس وهو من أخبرك، أليس كذلك؟

- من؟

- أنت تدعوه مندوثا، لكن هو الخسيس ميراييس. ظننت أنه سيقتل في
الأرجنتين. ظننت أيضاً أنك لن تذهب أبداً للأرجنتين.

لم يبد العجوز ثملاً، بل على النقيض، كانت وقفته عسكرية وتدل على
أنه كان واعياً طوال حياته.

أوضح تشاكالтана:

- الأرجنتين هي من سافرت نحوي، لكن مسألة مندوثا لم تكن
ضرورية. لقد أكد فقط ما كان واضحاً. أنت من نصحتني بالبحث عن
الأميرال كارمونا. لم يعلم أحد غيرك أنني سأكون هناك، بل إنني أظهرت
لك بطاقة نزل «تروبيكال». أنا أحق.

بدا دون جونثالو مستاء بشدة، أو ربما كانت مجرد إيحاءة ساخرة:

- أنت لست أحق يا فيليكس. قدتني حتى كارمونا، لكنك في الطريق بت واحدا منهم.

أغضبت كلماته مساعد الأرشيف:

- لهذا كنت تزورنا؟ بحثا عن معلومات لتقتل كارمونا؟ لهذا كنت تغازل أمي؟ هي أمي! أمي!

فقد محيا جونثالو جزءًا بسيطًا من هدوئه. كان ما يزال يسيطر على الأمور، إلا أنه لم يستطع إخفاء حزنه:

- أنا امرأة رائعة. لم أكن لألحق بها أي أذى، بل إنها تذكرني بزوجتي. لم أخبرك باسمها قط، صحيح؟ هو كلاريسا. كانت تدعى كلاريسا. اسمها يبدو فرنسيًا. كيف أصفه؟ كان اسمًا شفافًا، أليس كذلك؟ حظينا بلحظات رائعة لكن في آخر الأوقات، أصبحت متدينة للغاية وجاءت بمسألة المسيح والمسيح الدجال وأن العالم بات محكومًا عليه بالهلاك منذ ولادة ابنتنا. كانت ترغب فقط في حماية خواكين، أنفهم؟ لكنها لم تعرف كيف تحميه. كانت أيامًا قاسية على الكل.

هدأ مساعد الأرشيف. فهم أن أسباب دون جونثالو تسكن ماضيًا شديد البعد. كانت هناك أسباب وحجج وشواهد.

- هل.. عدت لتبحث عن زوجتك؟

- هل عدت؟ بالطبع عدت. قضيت أربعين عامًا أرغب في العودة. تذكرت زوجتي في كل ثانية. راسلت أقارب ل يبحثوا عنها، إلا أن أحدًا لم يقدر على العثور عليها. في النهاية، منذ ثلاث سنوات، مات فرانكو، صحيح أنه فعلها على فراشه الداعر، لكنه فعلها ومات وقررت أن أبحث عن كلاريسا. قضيت شهرًا هناك. عدت لأماكن قديمة. ما يزال هناك كثيرون

على قيد الحياة، لكنني لم أر كثيرا منهم، فهم لا يحبون الحديث. سألت موظفين عموميين وراجعت سجلات وطلبت وثائق. أخذت معي صورًا قديمة لكلا ريسا. عثرت على أدلة زائفة وأقارب بعيدين ومستشفيات للمجانين تحولت لفنادق. الحرب أخذت كل شيء. مسحت كل شيء، باستثناءها.

- هي حية؟ هل عثرت عليها؟

تلوى محيا العجوز بهالاته السوداء المحفورة في وجهه، تلك الهالات الضخمة لرجل كبير في السن، في إيحاء فزع ثم قال:

- على امرأة بنفس الاسم والوجه في مصحة بمدينة ريوس. بعد مرور كل هذا الزمن انقطع اتصالها تقريبًا مع العالم الخارجي، أفهم؟ تدهورت.. هي التي كانت..

انكسر صوت العجوز، لكنه ما لبث أن استجمع نفسه على الفور وفرض عليها صلابته:

- كانت كلاريسا، لكن كلاريسا التي عرفتها لم تعد تسكن هذا الجسد.

- لكن.. هل تعرفت عليك؟ هل قالت لك شيئًا ما؟

- شيء واحد قالته، وتقوله بلا توقف: «زوجي سيأتي ليأخذني». هذا هو شعارها الوحيد. تنهض كل يوم لتقوله للممرضات، ولن يأتون لزيارة بقية النزيلات. طيلة أربعة عقود على هذه العبارة: «زوجي سيأتي ليأخذني في أي لحظة». لم تنطق يومًا بغير هذه العبارة؛ وهي تلعب الورق، وهي في طريقها للحمام، وهي ترتب وتفرغ حقيبتها بنفس الخرقات الثلاث القديمة التي كانت ترتديها في عام 1938. «زوجي سيأتي، قد يدخل الآن في أي لحظة، اضطر للسفر، أمور تتعلق بالحرب، لأنه بطل. سيعود اليوم. من فضلك يا آنسة، حينما يأتي، قولوا له إنني هنا أنتظره. سأعرفه من أوسمته.

هو يقاتل من أجل مصلحة المجتمع».

تذكر تشاكالтана الصور الملتصقة على جدران شقته، تلك الجمرات الرمادية لحياة هذا العجوز التي كانت يوماً مشتعلة حينما كان رجلاً لديه حياة.

كانت المباراة قد بدأت وجاء صوت المعلق من أجهزة التلفاز:

- ركلة حرة. يبدو أن الخيار وقع على باساريلا لتسديدها. يركض ويسدد.. لكن حارس هولندا يُمسك في النهاية بالكرة.

انبثقت زفرات الارتياح من البيوت، وكان حارس هولندا في الأصل بيروفي ومنوط بالدفاع عن كرامة البلد المهذرة. ود تشاكالтана أن يعود دون جونتالو لقصته:

- وتركت أم خواكين هناك؟

- وماذا سأفعل غير هذا؟ لن تقبل حتى أن تخرج معي من المستشفى. كانت تنتظر زوجها، بطلها وليس الجبان الذي لم يعد ليبحث عنها، الخاسر الذي وصل متأخراً بعد أربعين عاماً. عدت إلى جحر الفأر الذي أسكنه في ذلك الحمي الصيني الداعر في بلد تقع في مؤخرة العالم حيث لا يقدر المنفيون الإسبان حتى أن يرفعوا أنوفهم. عدت لأدفن نفسي في بحر نسياني، أما هي فكانت في بحر نسيانها.

- ولم تخبر خواكين بالأمر؟

- لم أخبره. لقد صدق دوما رواية أنها ماتت وهي تلهه. لم أرغب في أن ألحق أذى به. لم أقل له شيئاً.

تنهد العجوز بعمق ثم اختتم كلامه:

- من أخبره هو ميراييس. قال له إنني تركت أمه أثناء الحرب ولم أعد قط لأبحث عنها. كان حريًا بي أن أضع طليقة في رأس ابن الزانية هذا حينما كان في استطاعتي أن أفعلها.

أول مرة عكس صوت دون جونثالو غضبًا مكتومًا؛ أو كُره عمره نصف قرن قد تخمر داخل قلب من حديد، أما تشاكالانا فخرج باستتاجه بعلو الصوت:

- وبدلا من أن تطلق عليه النار، أطلقت النار على ابنك.

استغرق العجوز وقته ليرد. بدا كأنه يعيد ترتيب ذاكرته، ذلك الأرشيف الأكثر قدمًا وصعوبة من أرشيف قبو قصر العدل. كسر في النهاية صمته:

- يقولون إن أشد ألم قد يعانیه رجل هو مشاهدة ابنه يحتضر. هذه كذبة، فأشد ألم هو أن يضطر رجل لقتل ابنه.

- «يضطر»؟ ليس لديك سبب لتفعلها!

أحنى دون جونثالو رأسه وطقق بلسانه. هذه المرة، فعل ذلك بلا شك بغرض السخرية، ثم سأل تشاكالانا:

- أتعرف ما اسم الأسطول الجوي الذي قصف برشلونة؟ «كوندور»! مثل عملية كارمونا وأصدقائه، مثل العملية التي أدخل فيها الأحق خواكين نفسه. تتكرر نفس الأمور من جديد، حتى الأسماء نفسها تتكرر. يدور الزمن ويلف حول نفسه. لا يمكنك أن تهرب من الماضي يا فيليكس. لا يمكنك أن تهرب من العالم.

- خواكين كان رجلًا طيبًا.

رفع العجوز صوته:

- لا! خواكين واحدٌ منهم. قلتها لك ألف مرة: خضت طيلة حياتي نفس الحرب! سرق أبناء العاهرة عائلتي وانتهى الأمر بابني وهو ينضم لهم ليسرق أطفال آخرين ويكسر عائلات أخرى.

- لا تقل هذا..

- لا أقول ماذا؟ حينما علم خواكين بما فعلته مع أمه أوشك على إلقائي من السلم. قال لي نصيبي من الشتائم أشكالاً وألواناً، ووصفتي بالبائس والحثالة والوحش. قال إن أي إنسان لن يأخذ طفلاً من حضن أمه. هذا هو ما قاله. بعدها بعدة أسابيع عاد للمنزل مع طفل مسروق ورجاني أن أعطني به. قال لي «هما ساعتان فقط. بإمكانك أن تطلب مساعدة الجيران الصينيين».

رفع دون جونثالو صوته صارخاً:

- بإمكانك أن تطلب مساعدة الصينيين! من هو الوحش الآن يا فيليكس؟ من سرق أطفالاً من أبائهم ليسلمهم لسفاحين؟ لستُ أنا يا فيليكس، بل خواكين الذي يصيب كل ما يلتمسه بالعفن.

بدأت رأس مساعد الأرشيف تلف وتدور. «هما ساعتان فقط». هذا هو ما قاله خواكين. تذكر صديقه وهو يودعه في آخر جمعة في حياته تاركاً البلاغ فوق مكتب الأرشيف. ساعتان. ربما واحدة. ترك خواكين الطفل في منزل أبيه وذهب لبحث عن تشاكاللتانا لكي يترك له دليلاً يسمح له باتباع خطواته، لأنه عرف بأنه قد يموت، وأن مساعد الأرشيف هو الشخص الوحيد الذي سيسعى لمعرفة السبب.

رفع تشاكاللتانا هو الآخر صوته باكيًا:

- كان سيتقاعد. كانت تلك عمليته الأخيرة، ولم يدرك في البداية أنها تتعلق بطفل. أرسله كارمونا كأعمى ليجلب له طفلاً من أجل زواجه.

- ولهذا أيضًا قتلت كارمونا. كانت فكري الرئيسية هي قتلها معًا. اللصان وقت عملية التسليم، لكن كارمونا لم يفكر جيدًا في مسألة كرة القدم. كانت المدينة هادئة حينها، مثل اليوم، إذ كانت بيرو تواجه إسكتلندا وكل الشوارع خاوية وفارغة. لا بد وأن كارمونا شعر بالخوف. لم يحضر. لم أعرف أنه المسؤول حتى أخبرتني أنت.

واصل تشاكالтана بكاءه، لكنها لم تكن دموع العجز، بل الغضب:

- ولماذا قتلت الطفل؟

وجه دون جونثالو لأول مرة بصره نحو تشاكالтана. بدا مندهشًا:

- من قال إنني قتلت الطفل؟ كيف تظن أنني أستطيع فعل شيء كهذا؟ الطفل في أمان أكثر من أي وقت مضى مع أبوين يجبانه. أنا نفسي أتأكد من هذه المسألة يوميًا. لأنني أراه كل يوم يا فيليكس وفي البناية التي أسكنها، وفي كل يوم أتأكد من أنني قمت بالصواب.

في البناية التي يسكنها؟ فكر تشاكالтана في جاري دون جونثالو الصينيين وجهودهما الحثيثة للإنجاب التي حدثه عنها العجوز ذات مرة.

قال العجوز:

- أنا لست وحشًا يا فيليكس. أحقق فقط العدالة.

تمتم تشاكالтана:

- قل هذا لسوسانا أراندا.

بدا العجوز هذه المرة مندهشًا، بل وربما مستمتعًا:

- لم أقتل هذه المرأة. لقد شنقت نفسها حينما اكتشفت ما كانت عليه المسألة برمتها.

تذكر كلماتها:

«لقد اكتشفت شيئاً فظيماً.. فظيماً».

واصل العجوز حديثه:

- وإن كان من المحتمل يا فيليكس أنت تكون أنت من قتلها، بتحقيقك ورغبتك في معرفة الحقيقة، بكل هذا الحفر والنبش في الماضي.. ربما تكون هي قد عجزت عن التحمل.

ترددت كلماتها من جديد داخل عقله:

«كانت المسألة تتعلق بالطفل. كل شيء حدث كان بسبب الطفل».

- أحيانا يا فيليكس، الجهل بالحقائق هو أفضل شيء، هو آمن شيء.

«هو شيء... يأتي من الجحيم».

انقبض قلب تشاكالانا. شعر بأن معدته تضربه في ظهره. توقف نبضه، إلا أنه رغم هذا استمد كل قوة ممكنة ومتاحة من الهواء المترب المحيط بهما ونطق الكلمات التي عزم على قولها، ساعياً ألا يرتعش صوته. كان يحفظها عن ظهر قلب:

- سيد جونثالو كالبو، بصفتي موظف في القضاء، أجد نفسي ملزماً بتقديم بلاغ ضدك بتهم قتل خواكين كالبو وإكتور كارمونا واختطاف قاصر. الاعتقال ليس من ضمن صلاحيتي، لكن تحل باللطف اللازم لتأتي معي برضاك نحو قسم الشرطة أو أقرب مؤسسة عقابية، لنبدأ في إجراءات.. صدرت مهمة غير مفهومة من بين شفتي دون جونثالو. تأخر تشاكالانا بعض الشيء في فهم أنها ضحكة.

قال العجوز:

- هذا لن يحدث.

كان صوت المعلق يتسارع عبر أجهزة التلفاز:

- أريدليس يجري بالكرة بين لاعبين بحثًا عن تمريرة أمامية على اليسار..

سأله تشاكالثانا:

- إذن.. ما الذي سيحدث؟

- الكرة تصل للوكي. كيمييس يخلو من الرقابة في الوسط..

رد عليه العجوز بصورة طبيعية كأنه يدعو لتناول القهوة:

- سأقتلك يا فيليكس. أنت أيضًا منهم.

- حذار من كيمييس فهو مثل المدفع. ها هي التمريرة..

صرخ تشاكالثانا وهو يتلع دموعه -مختنقًا من لعبه نفسه- كأنه قد

أصيب بالشلل:

- لماذا لم تفعلها حتى الآن؟ لكي أعرف مدى مرضك؟ هيا! افعلها!

أطلق النار!

تحركت يد دون جونثالو بهدوء لم يخلُ من السرعة نحو الحزام، ثم

أشهرت يد ثابتة لا ترتعش مسدس الـ«لوغر»، أمام عيني تشاكالثانا،

وصوبته نحو وجهه. سمع صوت العجوز من خلف المسدس يقول:

- أنتظر الهدف فقط.

- لوكي يرسلها لكيمييس. خطر خطر و.. هدف! جووول للأرجنتين.

لو كان هذا الهدف لهولندا، لانفجرت المدينة بأكملها فرحًا في زفير

قادر على إخفاء صوت طلقة مسدس بل قذيفة من مدفع، لكنه كان هدفًا

للأرجنتين، وجرى استقباله بعيول ليس له ملامح وبعض الضربات
واللعنات. لسوء حظ دون جونثالو، خرج سكير من منزله ليروح عن
غضبه. شنت الباب المفتوح والكلمات النابية الثملة انتباه العجوز في الوقت
المناسب لتحيد الطلقة وتثقب صنبور المياه وتحدث صوتا حادًا كدقة جرس.
لاحظ تشاكالтана لحظة ليفر نحو أقرب زقاق واستمر الصوت يأتي من
أجهزة التلفاز:

- الأرجنتين تتقدم في النتيجة ولو حافظت على تقدمها سيصبح منتخبها
بطلًا للعالم.

تحولت الأزقة سريعًا إلى أنفاق وقبل أن تخفت جلبة الهدف بالكامل،
شعر تشاكالтана بصفير طلقة أخرى تمر بجوار أذنه، ثم سمع من خلفه -بعد
الصمت الذي عاد مع استئناف المباراة- صوت دون جونثالو يقول:

- لقد قطعت هذه الشوارع طيلة أربعين عامًا يا فيليكس. عثرت فيها
على خواكين. وسأعثر فيها عليك. كل ما تفعله هو تأخير القدر المحتوم.

صعد تشاكالтана سلما صعدنا اهتزت درجاته. على وقع خطواته استقرت
طلقة أخرى على بعد عدة سنتيمترات من ظهره. زاد تشاكالтана من سرعته.
بينما يعدو تردد من خلف ظهره دوي الطلقات ومعها صوت العجوز:

- أتعرف يا فيليكس. تظهر جثث هنا طوال الوقت. يذهبون بها للنهر..
كما فعلوا مع خواكين. قتيل زائد، قتيل ناقص، أفضل شيء أن الشرطة لا
تأتي لتسأل، بل إن العسكريين أنفسهم لا يأتون للسؤال. خواكين، سوسانا،
كارمونا، أنت.. لستم سوى أشباح. لا أحد يراكم.

ساعد صوت دون جونثالو تشاكالтана على استنتاج مكانه، لكنه لم
يعرف كيف له أن يخرج من هذه المتاهة. كان يلف ويدور في دوائر. توغل

بين العشش وعبر أكثر من باحة داخلية. كان الصوت يأتي أحيانا من خلفه وحينها يظن أنه تمكن من الفرار يسمعه من أمامه، كأن هناك آلاف النسخ من دون جونثالو تتربص به عند كل ناصية ومنعطف. خرج عند تقاطع للأنفاق، لكنه حينها سمع صوت العجوز لم يتمكن من تمييز من أين يأتي:

- أتعرف؟ حتى اليوم تحديداً، كنت أفكر في أننا، أنت وأنا وأمك، يمكننا أن نصبح عائلة، أنني قد أصبح الأب الجيد الذي لم أكن عليه قط، الأب الجيد الذي لم تمتلكه قط، الزوج الطيب الذي تستحقه أمك. كنا لنصبح هكذا، لو لم تكن بمثل هذا العند. قلت لك أن تنسى هذه القصة. حذرتك وأخبرتك أن تترك الماضي في مكانه!

رسم تشاكالтана إشارة الصليب واختار زقاقاً بشكل عشوائي قاده نحو صنوبر جديد. كان مصباً للمياه يشبه كثيراً ذلك السابق، باستثناء شيء واحد: لم يكن هناك مخرج سوى ذلك القابع خلف تشاكالтана. من الطرف الآخر جاء له أكثر صوت ينجشاه:

- اخرج من عندك يا داعر! اخرج! واجهني!

كان هناك فراغ في الحائط المجاور للمدخل يسمح بالاختباء. ألصق تشاكالтана جسده بالحائط العفن المليء برسومات عن النساء والسياسة وكرة القدم. دعا بصلاة «السلام عليك يا مريم» وانتظر. شعر أنه كان يركض ويختبئ منذ قرون، لكن كل ما ركضه لم يتعد ساعة. أحس بأن قلبه سينفجر داخل صدره وبالطعم المالح لدموعه فوق شفتيه.

- أعرف أنك ما زلت هنا يا فيليكس. هذه المباراة قد انتهت.

رأى مساعد الأرشيف ظلاً طويلاً يتقدم عبر الزقاق. يشهر مسدسه الـ«لوغر». كانت ماسورة السلاح هي أول ما ظهر أمام عينيه.

رعدت أجهزة التلفاز بصوتها:

- تبتت ثمان دقائق. لم تكف الأرجنتين عن الهجوم، لكن هجماتنا لم تغير النتيجة.. ها هو الفريق الهولندي يتقدم عبر اليمين وعرضية نحو المنطقة.. رأسية من نانيغا و.. هدف! جوووووول لهولندا!

حينها جار بالفعل كل سكان حي بارّيوس ألتوس. أفرغ المشجعون كل ما لديهم من كره وأسف وهواجس وانفتحت الأبواب والنوافذ. ركل تشاكالاتا، محتمياً بهذه الجلبة، ذراع العجوز المسلح نحو الأعلى. طارت الطلقة نحو السماء وسمع صراخه بالكاد وسط بركان السعادة الكروي وهو يهتف:

- يا ابن العاهرة!

نجح تشاكالاتا في دفع دون جونثالو وركض تطارده الصيحات والطلقات دون أن ينظر خلفه. إذا كان العجوز قد خطط سابقاً ألا يشعر به أحد، فهذا الآن لم يعد يهمه. لحسن حظه ما من أحد ليشغل باله أساساً بما يحدث، فالمتى ليسوا وحدهم هم الأشباح في هذه المدينة، بل الأحياء أيضاً. شعر مساعد الأرشيف بأن الطلقات كادت تحف به قبل أن يعطف عند ناصيتين. تفهم أن الحظ لن يقف بجانبه في المرة القادمة. عثر في نهاية طريقة طويلة بعشة صفيح على عدة درجات للنزول وباين وحائط على يساره. إذا قرر أخذ السلام سيصل نحو الشارع المفتوح ويمنح العجوز أريحية في إطلاق الرصاص على ظهره من الأعلى. جهز خطة. لم تكن خطة، بل فكرة انتحارية. استدار وتكور خلف الباب. كان يرتعش كأن شحنات كهربائية تسري عبر ظهره.

جاء دون جونثالو منقضاً من الخلف. توقف عند حافة السلم. بدا كخنزير بري يتشمم الهواء. صوب مسدسه نحو الأسفل ودرس الأفق

وبعدها بدلا من النزول أدار رأسه باتجاه الباب. كانت هذه هي الفرصة الوحيدة لتشاكالтана. انقضض عليه من مخبئه كحيوان مفترس وهو يصرخ:

- آآآآآ.

لم يحظ العجوز بوقت لييدي ردة فعل، فحينما حاول أن يفعل شيئاً، اصطدم تشاكالтана بمعدته بكل قوة. كان الأمر كافياً ليفقد العجوز اتزانه ويدور جسده عند الدرايزين قبل أن يسقط من ارتفاع طابقين لترتطم رأسه بالأرض.

حينما اصطدم دون جونتالو بالأسفلت، دوى صوت طقطقة. نجمت غالباً عن كسر عنقه. تكور تشاكالтана أسفل الدرايزين. كان يلهث. خشي أن يخرج أحدهم منجذباً بفعل الصراخ، لكن داخل البيوت وأمام الشاشات كانت الصرخات أكثر وأكبر. خشي أيضاً أن يجد دون جونتالو يشب فجأة أمامه من العدم، إلا أن اللحظات التالية مرت في سلام. حينما استعاد أنفاسه، رفع رأسه قليلاً لينظر عند الجانب الآخر من الدرايزين. في وسط الباحة السفلية، رقد جسد العجوز بلا حركة، بعينيه المفتوحتين للأبد وعبوس الكره الذي تحجر في وجهه. رقد سلاحه أيضاً على بعد مترين من جثمانه ذلك السلاح الذي كان سيصبح بلا شك أول شيء يختفي.

قبل رحيله، صلى مساعد الأرشيف صلاة «أبانا الذي في السماوات» على روح دون جونتالو، ثم شكر الرب لأن بيرو في نهاية المطاف لم تصل لنهائي المونديال، وإلا فإنه لن ليعثر على سيارة أجرة ليرحل في أسرع وقت.

- ماريو كيمبيس يستقبل الكرة.. حذار من هذا الرجل الذي يصنع
الخطر دومًا. يراوغ مدافع والثاني. يخرج الحارس من مرماه وترتطم الكرة
به وكيمبيس يفوز بالكرة من بين اثنين مدافعي هولندا ويسدد و.. هدف!
جوووول للأرجنتين! وكيمبس يصبح هدفًا لكأس العالم 1978.

حينما سمعت صوت الباب، خفضت دونيا أنا صوت التلفاز. بعدها
بعده ثوان، ظهر ابنها أمامها منهكًا وشاحبًا:

- فيليكس تشاكالانا سالديبارا! يا لمظهرك الفظيع! لا بد وأنت كنت
تشاهد المباراة مع أصدقائك وتشمل هناك.

انهار فوق مقعد الصالون:

- شيء مثل هذا يا أمي.

تركت إبرتي الخياطة والسترة الصوفية ذات الغرزة المتوسطة التي كان
تحيكها أمام التلفاز.

- أفترض أنني لا يحق لي أن أوبخك، فحتى أنا كنت أشاهد المباراة. كان
لدي أمل أن يخسر الأرجنتينيون، لكنهم يتقدمون في النتيجة.

- ما أفهمه أنهم يجبون القتال جدًا.

قبعت الأم وابنها في صمت في مقعديهما. نظر فيليكس لصورة أبيه
بالزي العسكري. كانت أمه قد نقلتها من مكانها، وهي الآن أمامها فوق
طاولة الحياكة. أشار نحوها بيده دون أن يقول شيئًا، سوى السؤال الذي
ارتسم على وجهه.

أجابته أمه:

- أحس معها بالصحبة. كنت قد هجرت أباك نوعًا ما مؤخرًا وأعتقد أن الوقت قد حان لإعادته للمكان الذي يستحقه في هذا المنزل، أليس كذلك؟

أومأ فيليكس برأسه. بدا له الأمر كأن والده يهدي له نظرة متواطئة من داخل إطار صورته، أو ربما كانت ضحكة ساخرة. سريعًا عادت المباراة لتلتفت انتباههما.

- كيميس. الرجل ذو الشعر الطويل الذي لا يمكن إيقافه يقطع الدفاع كأنه قطعة زبدة. ترتطم الكرة بلاعب هولندا وتصل لبرتوني الذي يسدد و.. هدف! قال الحظ كلمته يا سادة! خمس دقائق على نهاية الوقت الإضافي ويبدو أنه لا يوجد أحد قادر على حرمان الأرجنتين من اللقب.

- أتعرف يا فيليكس؟ يجب علينا أن نذهب ذات يوم للكنيسة ونشعل شمعة لكي يرقد والدك في سلام. لا يمكننا أن ننسى الموتى بهذه الطريقة، أليس كذلك؟

- صحيح يا أمي. لا يمكننا أن نفعل هذا.

- سنشتري له واحدة من تلك الشموع البيضاء التي تنصهر بعد مرور أيام، وقد نطلب من الكاهن ألا ينسأه في صلواته في القديس.

- بالطبع يا أمي الحبيبة.

- يجب أيضًا أن نذهب لحجز قديس ذكراه السنوية.

- بكل تأكيد.

مكثا لبرهة أخرى أمام التلفاز. شاهدا صافرة النهاية وأمطار الأوراق

البيضاء التي احتفلت جماهير الأرجنتين بانتصار فريقها عبر إلقائها. راقبا في صمت احتفالات الأرجنتينيين، فهناك وعبر الشاشة بدا جيران الجنوب في غاية اللطف والسعادة، لدرجة أنه شعر بالفرح حينما سمع كلمات صحفي أرجنتيني يجري حوارًا عند خط التماس:

- هذا انتصار تاريخي لأمريكا اللاتينية ودرس لكل الناس التي تتحدث بالسوء عن الأرجنتين دون معرفة شعبها وضيافته وميله للسلام.

شاهدت الأم وابنها البث بالكامل، حتى عاد التلفاز لبرنامجه الطبيعي. حينها فقط أدرك تشاكالثانا أن هذا لم يكن يوم وفاته، ولهذا تجرأ على إعلان الأمر رسميًا:

- أمي؟

- قل لي يا فيليكس.

- سأ تزوج. أود أن تكوني أول من يعلم بالأمر.

وضع البناء الطوبية الأخيرة فوق قبر جونثالو كالبو ثم مرر عليها طبقة
أسمنت بالسطرين. خلفه كان كاهن المقبرة يتحدث مع فيليكس تشاكالانا.
- كنا على وشك دفن هذا السيد في مقبرة جماعية. من حسن الحظ أنك
تعرفت على جثته.

قال فيليكس:

- دون جونثالو كان مختفيا منذ عدة أيام وأنا مثل ابنه. كنت صديقا
مقربا لابنه، لهذا بحثت عنه حتى عثرت على جثته.

- عدد من يموتون، مثل هذا السيد، دون أن يبحث أحد عنهم أمر لا
يصدق. يتعرض المرء لعملية سطو في حي خطير ويُقتل، ويلقون جثته. إذا
كان الضحية مقطوعاً من شجرة أو يجهل أقاربه أين يبحثون عنه، فلا تتحقق
العدالة أبداً.

تنهد تشاكالانا مستسلماً:

- أعتقد أن العدالة لن تتحقق لصالح هذا الرجل أيضاً. حضرتك
تعرف كيف هو حال البيروقراطية في السلطة القضائية. لا بد وأن قضية دون
جونثالو ستضيع في النهاية في أرشيف ما في القبو. لن نعرف أبداً من الذي
قتله.

- فليرحمه الرب إذن.

أحنى الكاهن رأسه ليصلي ومكث الاثنان في صمت.

قبل إغلاق القبر للأبد، اقترب منه زوجان يحملان طفلاً. كانا الصينيان.

وجها التحية لفيليكس تشاكالانا بإيلاءة بالرأس لعجزهما عن التحدث بالإسبانية ثم نظرا بعدها نحو القبر وهزا رأسيهما. بدا أنها متأثران بعمق. كانت وجنتا المرأة قد أغرقتهما الدموع. وضعت إكليل زهور كانت تحمله على القبر. بينما تفعلها، بدا الطفل كأنه ينظر من خلف ظهرها نحو فيليكس تشاكالانا. لاحظ مساعد الأرشيف أن الطفل أشقر وتذكر كلمات كان قد سمعها مؤخرا:

«في بيرو، اليتامى لا يكونون شُقرا أبداً.»

اقرب من الرضيع وداعب رأسه. قال لأبويه:

- دون جونتالو قال لي إنكما واجهتما صعوبات كثيرة في الحصول على طفل. سعدت بحصولكما على طفل. سيحصل الصغير على روح دون جونتالو، لأنه لم يعد الآن معنا.

تبادل الأب والأم عدة نظرات ثم رفعنا كتفيهما. قال الرجل لتشاكالانا:

- لا.. إسباني.. لا.

- أعرف. لا داعي للقلق.

مد لها يده للتحية بقوة، قوة أدهشتها ثم عاد نحو الخلف حيث يقف الكاهن الذي سأله بينما يقول الصينيان كلمات غير مفهومة أمام القبر:

- طفل جميل، أليس كذلك؟ هم شقر دوما عند الولادا! وبعدها يصبح لون بشرتهم غامقا كأبائهم.

أوما تشاكالانا برأسه.

- يتغير الناس دوما. الماضي هو الأمر الوحيد الذي لا يتغير، لكن أفضل ما في الأطفال أنهم ليس لهم ماضي، أليس كذلك؟

- ومن مثلهم!

أنهى العامل مهمته والكاهن أيضًا. رافقهما فيليكس تشاكالانا حتى المخرج. كان قد فكر في القيام بجولة بين التماثيل وصفوف المقابر، لكنه قبل أن ينعطف ألقى نظرة أخيرة على الصغير. مازال الطفل محمولا على ذراعي أبويه أمام القبر، لكن بدا لتشاكالانا أنه ينظر نحوه، ينظر نحوه.. ويتسم.

شكر

يرغب المؤلف في توجيه الشكر لعدة أشخاص ألهموا وساعدوا -أحيانا دون سابق معرفة- في تأليف هذا الكتاب، عبر كتبهم ومقالاتهم ومحادثاتهم الشخصية وهم: رفائيل رونكاغليولو وكاتالينا لومان وكارلوس أوتيرو وأوراثيريو برييتسكي وإدموندو كروث ومارتين كاباروس وأنخل بايث وجوزيب ماريا كوميسس والفريديو فيلومينو وفرناندو سانشيث وسيلفانا باسكو.

سانتياغو رونكاغليولو: روائي وصحفي ومترجم بيروفي حائز على ست جوائز أدبية، أبرزها جائزة «ألفاغوارا» للرواية عام 2006 عن روايته «أبريل الأحمر». أدرجت صحيفة «ذا وول ستريت جورنال» في 2014 اسمه ضمن قائمة ضمت ستة مؤلفين اعتبرت أنهم يسرون على خطا الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، وذلك عقب نشر روايته «أشد ألم». تُرجمت أعماله إلى أكثر من 20 لغة.

محمد الفولي: قاص و مترجم وصحفي مصري، مواليد القاهرة عام 1987، حصل على درجة الليسانس في اللغة الإسبانية وأدبها من جامعة القاهرة. يعمل حاليًا محررًا بالقسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية، وينصبُ اهتمامه الأساسي على المزج بين الكتابة الرياضية والأدب.

صدر له:

- تقرير عن الرفاعية (قصة) 2019

في الترجمة:

- «الشرق يبدأ في القاهرة» للكاتب الكولومبي إكتور آباد فاسيولينسي.
- «حكاية عامل غرف: مختارات من أدب كرة القدم الأرجنتيني».
- «أغرب الحكايات في تاريخ المونديال» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.
- «لماذا كرة القدم تُلعب 11 ضد 11» للكاتب الأرجنتيني لوثيانو بيرنيكي.
- «أخف من الهواء» للكاتب الأرجنتيني فيديريكو جامير.

SANTIAGO RONCAGLIOLO

LA PENA MÁXIMA

سانتياغو رونكاغليولو

أشدُّ ألم

فيليكس تشاكالانا شخصية رمادية، لكنه يأخذ على عاتقه مهامه كمساعد للأرشفيف في قبو المحكمة القديمة في ليمّا. شغفه باحترام القانون واحترام الإجراءات لا يحجبه إلا خوف جنسي يبدأ بالقلق على صديقه سيسيليا. وهكذا يمر الوقت حتى يوم واحد من عام 1978، يتزامن مع مونديال الأرجنتين، تتغير حياته فجأة.. جثث، اختفاءات، عشاق، مسلحون ووكالات استخبارات... في بيرو التي -رغم حاكمها الديكتاتور- تستعد لانتخابات ديمقراطية من شأنها أن تؤدي إلى شرعية جديدة. فيما تشمل البلاد في كل مرة يلعب فيها فريق الأحلام، فتتزامن المباريات مع ذروة لحظات المؤامرة.

«أشدُّ ألم» رواية مشوّقة، بعد صدورها في العام 2014، أدرجت صحيفة «ذا وول ستريت جورنال» اسم سانتياغو رونكاغليولو ضمن قائمة ضمت ستة مؤلفين اعتبرت أنهم يسرون على خطا الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز.

ISBN: 978-1-988483-85-6



9 781988 483856

ANIP

منشور للنشر والتوزيع
Anon Publishing & Distribution

